إحسان شرارة



موسى الزين شرارة

الشاعر الثائر في محيطه العاملي

١٩٠٢ - ١٩٨٦

موسى الزين شرارة

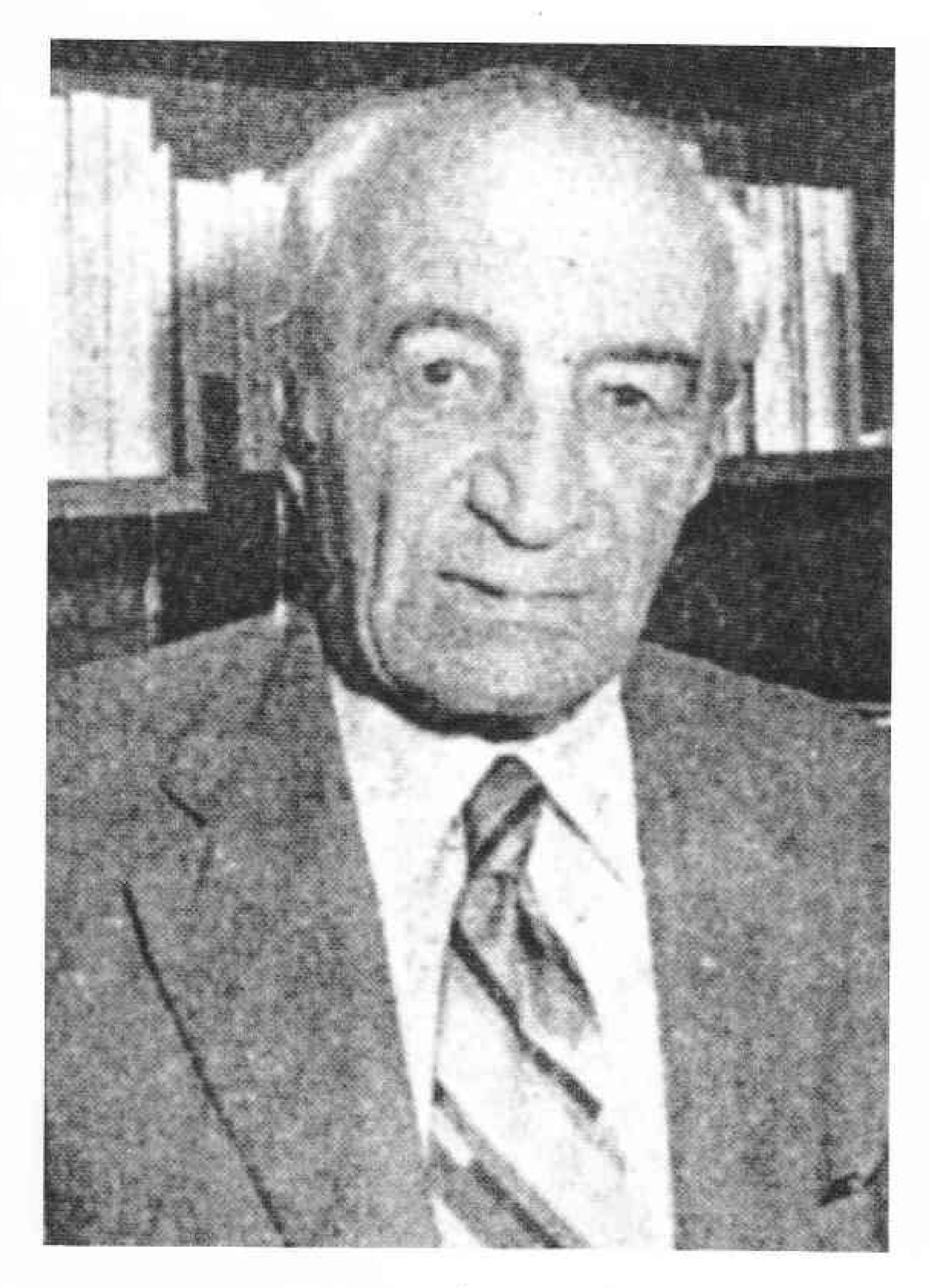
الشاعر الثائر

في محيطه العاملي

موسى الزين شرارة

الشاعر الثائر

في محيطه العاملي



كلمة شكر

تقديراً مني لجزيل المُساعدة، وامتناناً لِنُبل التعاون، أراني عاجزاً عن شكر مُعلّم الجيل المؤرخ الباحث السيد حسن الأمين الذي نذر نفسه للثقافة، وأضاء ما غمُض من التاريخ العاملي، وتكرَّم عليَّ بباقة من أدبه طوّقت عُنُقي، ونشرتْ عبق أريجها في نفسي، كما أشكُر كلّ من شجعني وأمدني من وافر علمه وعطائه وتعاونه: الدكتورة جورجين أيوب أستاذة علم الألسنية في جامعة إينالكو INALCO، والدكتور دوك دوفلز المستشرق البلجيكي، والدكتورين أحمد عبد اللطيف بيضون، وابراهيم علي بيضون، والصديقين السيد حسين شرف الدين وحسن علي شرارة، بالإضافة إلى كُل من ساعدني من الزملاء وتحمّلني من أُسرتي بصبرٍ وأنا مأخوذٌ بعملي... راجياً للجميع دوام التوفيق وطول العمر.

إحسان



مقدمــة

بقلم السيد حسن الأمين

قصة الشعر في جبل عامل قصة طويلة ممتعة تحتاج لمن يتفرغ لها فيدوّنها من مبدئها الذي عرفناه من هبَّة الشعر العربي الكبرى بعد ظهور الإسلام، هبّةِ جرير والفرزدق والأخطل.

ولا شك أن مالم نعرفْه مما هو قبل ذلك كثيرٌ خفيت عنا أخبارُه ولم تصلْنا آثارُه، وأن ما عرفناه هو استمرار لما قبله مما طمستْه الأيام، وضَيَّعَتْهُ الأحداث.

فجرير والفرزدق والأخطل كان لهم قرين من جبل عامل هو عديّ بن الرقاع الذي نازلهم فكان كفئاً لنزالهم، وحاول جرير الغضّ منه والهزء به فتناوله عدي بما هو أشد غضاً وأمرُّ هزءاً؛ ومنذ تلك الساعة غدا عدي رابع الثلاثة في بلاطات الملوك والأمراء.

ولا يمكن أن يكون عديّ جاء من فراغ، ولا يمكن أن يكون هو أول نابغ وآخر نابغ في الشعر العاملي؛ بل إن الظروف التي أخرجته من الجبل وحطت به في المدينة فعرف واشتهر، لم تتيسر لغيره فقبعوا في قراهم يكتفون من الشعر بتداوله في الندوات القرويّة والعشيّات الجبلية، على ما عرفنا من عصورنا من الشعراء العامليين المجيدين الذين لم يتجاوزْ صدى شعرهم جدرانَ القرى عزاءً في مأتم أو ترحيباً بمقدم...

وليس المجال هنا مجال الإفاضة في قصة الشعر العاملي منذ عديّ مروراً بعبد المحسن الصوري وابراهيم النجاري وبدر الدين حسن العيناثي، وصولاً إلى إبراهيم يحيى وإبراهيم الحاريصي ومن سبقهم ومن تلاهم.

وإنما هي إشارة عابرة إلى إتقاد جذوة الشعر في جبل عامل إتقاداً متواصلاً، ما لم يُرَ له نظير في أي بقعة عربية، ودعوة إلى النبش عن تلك الكنوز المطمورة.

وها هو الأستاذ إحسان شرارة يعكف بكفاءته التي عرفناها، على إحياء مآثر شاعر عاملي معاصر، كان صورةً حيةً للتوثّب العاملي في ميدان النهوض والنضال.

وكان الأستاذ إحسان موفَّقاً في اختيار موسى الزين شرارة موضوعاً لرسالته الجامعية، فهذا الشاعر يمثل في حياته وشعره النقلةَ الحاسمةَ في تاريخ جبل عامل التي بدأها هذا الجبل بعد انتهاء

الحرب العالمية الأولى، النقلة في الشعر، والنقلة في الحياة الاجتماعية، والنقلة في النضال الوطني، والنقلة في الفكر والاتجاه.

ولكي لا نبخس الناس أشياءهم يجب أن نعترف، بأن رائد النهضة الشعرية في جبل عامل الذي كان أول من نحا بالشعر العاملي منحىً جديداً، واتجه به غير اتجاهه الجامد الذي ألِفَهُ منذ عشرات السنين، محصورة مواضيعه في الغزل المتكلف والتهاني الإخوانية والمراثي التقليدية. فحوَّلَهُ إلى جزء من الإحساس الوطني والألم الاجتماعي والطموح الوطني والتجربة الشخصية.

يجب أن نعترف بأن أولَ منْ نهض هذه النهضةَ الشعريةَ العامليةَ هو الشيخ سليمان ظاهر، نهض هذه النهضة قبل الحرب العالمية الأولى بسنين وسنين.[1]

وليس المجال هنا مجال التفصيل، وإنما كان لا بد من هذه الإشارة ونحن نتحدث عن الشعر العاملي الناهض.

إن الشاعر موسى الزين شرارة من الأوائل الذين تنبهوا إلى ما تمضي به الحياة العربية في مختلف ميادينها في نهاية الحرب العالمية الأولى من تطلع إلى العلم ونقمة على الأجنبي المستعمر، واعتراض على ما يجري باسم الدين وهو ليس من الدين. فكان أن مضى في هذا السبيل محارباً في الصفوف الأولى متسلحاً بما وهبه الله من قريحة فيّاضة، وشاعريةٍ متدفقةٍ، وشبابٍ متوهّج. لذلك فإننا لا نعجب حين نعلم أن من أوائل منظوماته مثل هذا الشعر:

العلم نور يُهتَدَى بسنائه   لولاه تاه الكونُ في ظلْمائِه

إنها بديهية لا تحتاجُ لأن تقال شعراً، وهل هناكَ من يجهلُ هذه الحقيقة، ومن لا يعلم بأن العلم نور يحول بين الكون والتيه في الظلماء.

إذا كانت بديهيةً في كل مكان فإنها لم تكن كذلك في جبل عامل يومذاك، جبل عامل الذي عملت قوى شتّى على إغراقه في ظلام الجهل الدامس، فلا عجب أن يكون في أول ما ينظم الشاعر العاملي الفتى نداؤه بالعامليين أن يفتحوا عيونهم على نور العلم.

وإذا كان الجهل هو الذي لاح أول ما لاح للشاعر الشاب، فصمم على تَوْعية قومه ليسترشدوا بضياء العلم فقد بدا أمامه عاملٌ من أقوى عوامل ترسيخ هذا الجهل وتسويغه، هو تضليل أدعياء الدين الذين يرون في جهل الشعب إحكاماً لاستغلال الشعب...

كان الشاعر مؤمناً راسخ الإيمان، وكان إيمانه هو الذي يدعوه إلى مناهضة الأدعياء المضلّلين

(١) بل لنا أن نقول إن الشيخ سليمان ظاهر كان السابق في هذا الميدان لا في الشعر العاملي وحده، بل في شعر بلاد الشام كلها، فكان هو الشاعر العربي الوحيد الذي رثى شهداء العرب الذين قتلهم السفاح جمال باشا، وكان الشاعر الوحيد الذي تفجع لمعركة ميسلون ورثى الشهيد البطل يوسف العظمة، فكان بذلك فاتح باب الشعر الوطني في بلاد الشام. وكل ما جاء من شعر في هذه المواضيع كان تالياً لشعره.

فصرخ في وجههم بمثل هذا القول:

عجباً لشيخي ما تحدث واعظاً إلا استَهَلَّ بذم كل حـــريصِ

وتــراه ذا نعمٍ ويشكــو فقــرَهُ متململاً كَتَمَلْمُلِ (الممغوص)

فرأوا أن يردعوه بإثارة الناس عليه بدعوى أنه كفر، فصدرتْ فتوى بتكفيره، واعترف هو بالكفر قائلاً:

قالوا: كَفَرْتَ! فقلتُ: في أفعالكم وسخرتُ من تضليلِ كلِّ مُدجِّلِ

وذهبت فتوى التكفير هباء إذ حماه منها احتضان المخلصين من رجال الدين؛ وكيف يكون كافراً من يقول:

زعموا بأن الدين فَرَّق بينهم حاشاهُ! بلْ هُوَ جهلُهُمْ بالديـــنِ

الدين كان ولا يزال منـــارةً تهدي الورى للشـاطئ المأمون

كانت معركة ميسلون وما تلاها من القضاء على أمل الاستقلال، وكانت استباحة الفرنسيين لجبل عامل وإفقارِه وتكديرِ صفائه. كان كلُّ ذلك عاملاً في خفوتِ الصوتِ الوطنيِّ واستكانةِ الناس أمام القوة الغاشمة المتحكّمة، وكان شاعرنا المتحسّس بآمال أمته وآلامها لا يقرّ له قرار أمام ما يجري فيتحمس قائلاً في بعض ما يقول:

حرية الأوطان حسناء لها فَيْضُ الرقاب من الشباب خضابُ

ويصطدم هو ورفقاؤه بالمستعمرين فيكون السجن جزاء لهم فيقول:

اسجنونا وضايقونا وشدّوا ما استطعتمْ وثاقنا والقيودا

هذه بعض ملامح الشاعر الذي أراد الأستاذ إحسان شرارة أن يكون موضوع رسالته الجامعية، وليس هذا فحسب، فقد كان على الكاتب أن يلج بقلمه البيئة العاملية ولوجاً لم يمهِّد أحد سبيله من قبل.

فكيف كان الكاتب في خوضه هذه اللجّة المتلاطمة؟

لقد كان أول من يتحدث عن المجتمع الشعري العاملي الفريد الذي لا يرقى إليه مجتمع آخر، وكان حديثه عنه رائقاً مغرياً بالاستزادة. فقد كانت في كل قرية من قرى جبل عامل ندوةٌ شعريةٌ يوميةٌ، غير متعمدة بل هي جزء من الحياة المعاشة. حيث يتحلق الناس حول من يسمونه (فقيه القرية) الذي يكون قد درس فيها في بعض ما درس علوم اللغة العربية دراسة إذا لم تصل إلى الإبداع فهي حتماً قد وصلت إلى الإجادة. وفي كثير من الأحيان هي في قمة التفوق إذا كان صاحبها قد واصل دراسته في النجف وعاد إلى القرية لا مرشداً دينياً فحسب بل ناقداً أدبياً وموجهاً شعرياً. أما

إذا كان ممن اكتفوا بما درسوه في المدارس العاملية، فهو في أقل الحالات، متذوق للشعر متفهم لمواطن الإجادة فيه.

حول هؤلاء الفقهاء - على اختلاف درجاتهم كانت تعقد الحلقات الشعرية والندوات الأدبية في الآصال والليالي، وهذا ما استطاع المؤلف إبرازه أحسن إبراز في مقدمة رسالته.

وإذا كان لنا من مأخذ عليه فهو انسياقه أحياناً مع الذين طمسوا اسم جبل عامل وحولوه إلى اسم (الجنوب)، فشوهوا هذا الاسم التاريخي الجميل.

ثم كانت له جولات موفقات في التعريف بجبل عامل تعريفاً عاماً هو مجهول حتى عند كثير من العامليين، وخص في هذا التعريف الحواضر العاملية بما كان فيها من أسر علمية أو بيوتات تاريخية أو مدارسَ فقهية.

ومن الطبيعي أن يكون لبنت جبيل، بلدة الشاعر وبلدة المؤلف عنايةٌ خاصةٌ هي جديرة بها. لا سيما أنه قد خص بالذكر رجلاً فيها جديراً بكل ذكرٍ حَسَن، لم ينلْ من هذا الذكر ذرةً مما يستحقه هو العالم الشاعر المربي الشيخ علي شرارة، الذي اعترف له (موسى) بالفضل العميم وبما كان له من الفضل في توجيهه التوجيه الصحيح.

والشيخ علي شرارة واحد من أفذاذ جبل عامل إذا كان المؤلف قد أدّاه حقه بقدر ما يسمح به حيّز الكلام في رسالة جامعية، فإنه جدير بدراسة جامعية خاصة.

على أننا ونحن نثني على المؤلف كل الثناء، لا نوفره من المواخذة على ما اعتبره تجديداً وتقدماً في تبديل الأسماء القديمة التي ألِفَها العامليون، بأسماء حديثة، كان الباعث عليه في نظرنا مجرد التقليد الأعمى، وهل هناك أعذب لفظاً، وأرقى معنى من: رضا وجواد ومحمود ومرتضى ومحسن وزينب وفاطمة وعفيفة؟ وأين منها: نصري وغاندي وتحسين وروز وهيام وغيرها مما عدّدهُ الكاتب؟!!

ويجيد المؤلف في تصويره نقمة الشاعر على مسببي خمول الشعب حين يقول: "إن موسى الزين شرارة في معاركه مع أصحاب النفوذ السياسي والديني هو دائماً الشاعر العنيف الذي لا يهادن، هو حامل الرسالة التي تقضي بفتح العيون المغمضةِ المتعطشةِ لنور العلم وفتح العقول المقفلة المتحجرة..." إلى آخر ما يقول.

إن الكاتب هنا وهو يريد وصف الشاعر، يصف ما كان عليه الناس يومذاك، ويتحدث عمن كانوا العامل الأساسي في تأخّر الشعب، فيرينا في كلام موجز صورة واضحة عن الناس وعن مستغلي هؤلاء الناس، وعن مشاعر هؤلاء الناس..

لقد كان جبل عامل وكانت (بنت جبيل) وكان موسى الزين شرارة بأمسّ الحاجة إلى كاتب مثل (إحسان شرارة) ليؤرخ لتلك الحقبة، فكان إحسان شرارة في رسالته هذه: المؤرخ السياسي والمؤرخ الأدبي والمؤرخ الاجتماعي.

وإذا كان موضوع الرسالة واحداً من آل (شرارة) ومؤلفها واحداً منهم فكم لآل شرارة من آحاد يستحق كلٌّ واحدٍ منهم أن تُملأ الصفحاتُ في ذكر مآثره وتسجيل مناقبه. فهم من يوم برز فيهم الشيخ موسى شرارة فقاد جبل عامل في معارج الصلاح ومدارج الإصلاح، فأخرجت مدرسته العلماء وربَّتِ الشعراء.

منذ ذلك اليوم ظل آل شرارة في الطليعة علماً وأدباً وشعراً، وإذا كنت قد ذكرت منهم الشيخ علي شرارة فكم للشيخ علي من نظائر قبله وبعده، وحسبي أن أعدَّ منهم الشيخَ محسن شرارة حفيدَ الشيخ موسى الذي لو امتدّ به العمرُ فتجاوز مرحلة الشباب لكان من أعلام العرب علماً وكفاحاً وإصلاحاً وفكراً وشعرا.

وحين يذكر الشيخ علي شرارة، فلا بد من أن يذكر معه نجله (محمد) الذي كان الشاعر المفكر المناضل، وكان في كل ذلك كبيراً معرقاً.

وبقية الشيخ علي حفيده وضّاح صاحب القلم الصائل الجائل في كل ميدان، وآخر من فقدنا منهم الشيخ محمد حسين الذي كان الصورة الحية لأولئك الأخيار الذين عاشوا في كنف محمد (ﷺ) وحاشية علي (عليه السلام) ولو كان في ذلك في الزمن لكان ظهيراً لأبي ذر ونظيراً لعمار بن ياسر.

ومن التقادير العجيبة أن يمتد ذكر آل شرارة، فيعبر المحيطات ويجتاز القارات ويحط في مدينة (الروساريو) في الأرجنتين، ثم ينتشر منها إلى أمريكا الجنوبية كلها.

فإن واحداً من فقراء آل شرارة في بنت جبيل شد الرحال إلى الأرجنتين سعياً وراء الرزق وطلباً للعيش الكريم.

ولم يكن أحد يدري أنه كان يحمل معه قريحة آل شرارة الشعرية، فإذا به - وقد تزوج من ارجنتينية - يولد له بنتٌ سماها اسماً ارجنتينياً (نيليدا).

فإذا بنيليدا شرارة البنتجبيلية الأصول، العاملية الجذور تصبح لا شاعرة الأرجنتين وحدها، بل شاعرة أمريكا اللاتينية الناطقة باللغة الإسبانية.

وهكذا من حنايا (صف الهوا) في بنت جبيل إلى ثنايا (بارانا Parana) في الروساريو، راح الشعر (الشراري) عربياً إسبانياً يتموج ألقاً ويتأرجح عبقاً. وحسبه في هذا فخاراً ومجداً.

حسن الأمين

- كان هذا الكتاب قيد الطباعة عندما رحل السيد حسن الأمين، وبهذه المناسبة الأليمة نشرت الكلمة التالية في جريدة السفير بتاريخ ١٧ تشرين الأول ٢٠٠٢

حسن الأمين:
باعث تاريخ جبل عامل

السيد حسن الأمين، ويكفيك تعريفاً هذا الاسم وتلك العائلة وذلك الامتداد المُعَرِقُ في النسب الزاخر بالكرامات...

يكفيك فخاراً أنْ يكون أبوك السيد محسن الأمين، العلاّمة المرجع المتبحّر المجتهد المجدّد الرّائد، وأن يكون اخوتك عبد المطلب وهاشم وجعفر ومحمد الباقر، وأن تكون المؤهَّلَ الجدير أن تكمل الرسالة، وتحمل الراية، وترفع المشعل، وتنير الطريق...

بَيْتُكُمْ كان مرصوداً لهذه المهمّة طيلة القرن المنصرم، تصدى لها أبوك بصبر المؤمنين، وعفّة الزاهدين، واستشراف الصادقين، فاذا هو بيت الأمة، ومناطُ الآمال، ومدرسةُ الوطنية...

واخوتك – وأنت في الطليعة – خريّجو هذا البيت، الشعراء والسفراء والادباء المنفتحة عقولهم، المتجدّدةُ نظراتهم، المتنوّرون المضيئون حيثما حلّوا وأقاموا... وأنك يومئذ من أوائل الجامعيين شكَّلْتَ الاطلالةَ المميَّزَةَ في جبل عامل - تلك التسمية العزيزة على قلبك - فكنت القاضي النزيه العفيف المتحلّي بخلق الطاهرين، الملتزم بوطنيةٍ لا تعرفُ مساومةً أو انحرافاً...

ولم يطل عهدك بالقضاء لتنتقل مختاراً إلى دنيا أثيرة لديك، وميادينَ طالما أَغْرَتْك وأنْتَ تشهد أباك مأخوذاً بها دون ملل، مشدوداً اليها برغم التعب، منقباً، باحثاً، محلّلاً لا يرحم جسداً ولا يريح نظراً، ولا يرأف بقدرةٍ على الاحتمال...

وعلى نهج تلك الخطى أخذك المسير، وأغراك العطاء، وطاب لك العمل، في الجامعات وبين الناس، بين سواد الحبر، وغبار الورق، وأكداس الكتبِ ونادر المخطوطات وغرائب الروايات... ونسيت نفسك وأنت تقرأ وتحلل وتناقش وتفتّش عن الحقيقة، وتُبْرِزُ التجنّي، وتُسفِّهُ الكذبَ وتُظهر الظلم... كنت تتصدى وتعاند وتمشي أحياناً ضد خط السيرِ التقليدي فلا تخاف لوماً، ولا تكترث بما أثرت لأن الحقيقة وحدها يجب أن تظهر وتُقال وتُعرف وتُتّبع... ورحت تزداد نضوجاً ومعرفةً وتألقاً وأنت تكتشف مخبآت السِّيَرِ والأحداث، وما أُغْفِل ذكرُهُ عمداً أو عن سوء نيّة، وفَتَحْتَ ثغرات في كثير من مسلّمات جانَبَتْها الحقيقةُ، وأضأتَ على تاريخ جبل عامل، ونَقَلْتَهُ من هوامش الصفحات المنسيّةِ عندما سلّطت عليه النور وفتحت العيون المغمضة والعقول المقفلة...

أنت باعث تاريخ جبل عامل، وأبوه الروحي، يكفيك سعادةً أن تكون ذلك، وأنت عندما أغمضت عينيك رأيت وتأكّد لك أنك أوصلت كثيراً من الحقائق – في التاريخ الإسلامي والعربي – إلى الناس وأنك في هذه المسيرة نسيت نفسك وتَبَتَّلْتَ للمعرفة، ونَذَرْتَ عمرَكَ للعطاء وللعمل، فلم تأنَسْ بزوجٍ ولم تسعد بولد، فكان طلاّبك العديدون الذين عرفتهم أو لم تعرفْهُمْ على امتداد الأوطان، كانوا أولادك ومحبيك والمدينين لك بنور المعرفة وألَقِ الحقيقة والكثير من العرفان.

فسلامٌ عليكَ حيث أنت، يحضُنُكَ ترابُ بلدِكَ ويغمُرُكَ رضوانُ ربٍ كريم...

إحسان شرارة

مع موسى الزين شرارة على نفس الطريق

ها أنا أقفُ وَجِلاً أمام محرابك... حائراً كيف أدخُلُ عليك.. فأنا كعادتي يشدُّني إليك إعجابٌ رضيٌّ، ويأخُذُني شوقٌ نديٌّ، لأتفيَّأ وارفَ ظلِّكَ، وأنعم بدفء روحك، وآنسَ بآسرِ حديثك، وأنتشيَ برائعِ شعرك...

ها أنا آتيكَ جَذلاً أحملُ عطشاً لا يرتوي، ونَهَماً لا يكتفي، وحُبَّ استزادة لا يشبع.. أبداً هي اللّذةُ المرصودةُ أسعى إليها بتعبٍ مُريح، وعَرَقٍ مُنعش، ويلذُّ لي أن أستمرَّ منعّماً، محلّقاً في عالمكَ العلوي المسحور...

مختاراً، يسبقُني فرحي، جئتُ إليك.. حلمتُ بأن أسترجعَكَ من سفركَ البعيد وأستأثرَ بك وحدي دون الآخرين... رغم علمي بمحبتك للناس، لكنني غفرتُ لنفس أنانيَّتها، وطمعتُ أنك تُسامحني... فالمجلسُ حميمٌ، والسعادةُ غامرةٌ، والزمنُ يلهثُ وهو يَسْرِقُ هنيهاتِ الفرح...

... وأنا، لايزالُ في خاطري عَبَقُ جلْساتك، وفي ذاكرتي طلاوةُ أحاديثك، وفي مسمعي رنين ضحكاتك، وفي بالي رجْعُ أشعارك، وصدى تلك"القفلة" الخفيفةِ الروح، النديةِ الإيقاع، الحلوةِ الجَرْس من "نكاتك" التي اختصَّ بها شِعْرُك وانتشر وذاع...

ونكهةُ الشاي ما زال طعمها "تحت ألسنتنا"... أنت تذكر تلك الحلقاتِ الأنيسةَ حول "سماور" يشدو ويرنّم، وشاي يُرشَفُ ويُسْكِر.. وخبر يُعْرَضُ، ورأي يُناقَش، وشعر يُتلى كما التراتيلُ والأورادُ... وأنتَ في وسطِ الحلقةِ واسطةُ العقد، تأخُذنا إليكَ، وتأسِرُنا بعذْبِ حديثكَ، ونديِّ شعركَ وطليِّ تعليقاتك...

كان يلفتُنا منك - نحن الشبابَ - أننا نعجزُ عن اللحاقِ بك، فأنتَ تسبقُنا تحرراً وتقدميةً، وأننا رغمَ اختلافِ السن بحاجة أن نكتسبَ منك ونتعلمَ ونتثقّف... صحيحٌ أنك كنتَ الرائدَ الثائر في مُقتبل عمرك، الثائرَ على الجهل والتخلفِ والتعصب، الداعيَ لتحريرِ المرأة، المتمردَ على العادات والتقاليد البالية، المتصديَ للزعاماتِ الرجعية وتزمّتِ بعض رجال الدين... لكنك استطعْتَ بحكمتك وبُعْدِ نظرك، وصفاء فكرك أن تبقى أولَ الطليعة، والمناضلَ القومي العربي بامتياز... والذي أهّلهُ وَعْيُهُ أن يستمرَ المعلمَ والمدرسةَ والمثال...

وكان يشدُّنا إليكَ بالإضافة إلى هذا الموفورِ الزاخرِ من الصفات الحميدة، ذلك الإحساسُ الغنيُ بالشباب الدائم الذي لا يعرف شيخوخةً ولا هَرَماً... وتلك الروحُ

المتوثّبةُ المنفتحةُ على كلِّ جديد بنّاء والتي تَمَقتُ الجمودَ والتحجّر... هي نعمةٌ لا تُدرَك، أسْبَغَها ربُكَ عليك، وحباكَ - من رضاهُ - حبَّ الناس فلم تعرفْ غُرْبةَ الوحشة ولا جَفاءَ الصحب، ولا بُعْد الشباب، وبقيتَ التِّربَ الأثيرَ تتحلقُ حولكَ زاهياتُ الأعمار، وتطمحُ معها اجيالٌ بوافرِ غلالك وواعدِ عطاياك..

... ها نحن اليوم - كما تركْتنا - ما زلْنا في زمن الانكسارات، الذي قلَّتْ فيه الرجالُ وهانَتِ الكراماتُ ونَدَرتِ المواقف، نتلمّسُ في آخر النفق الطويل المظلم بصيصَ النور المؤذنِ بالفجر الذي أضنانا انتظارُه وأجْهَدَنا ترقُّبُه، ولمّا تَظْهَرْ تباشيرُهُ بعد..

لكنَّ التاريخَ علَّمنا أن الشعوبَ تصنع أقدارَها، وتجترحُ المعجزاتِ عندما تنهضُ وتستيقظُ من غفواتها... وأنت علَّمتنا أن درب النضال طويلٌ يتطلّبُ كثيراً من الإيمانِ والصبرِ والعذابِ والتضحيات.

وها نحنُ معك من جديد... نستلهمُ منكَ الكثيرَ، ونَعِدُكَ أن نستمرَّ على نفسِ الطريق...

إحسان شرارة

تمهيد

عندما نحاول أن ندرس الأدب في لبنان سواء أكان شعراً أم نثراً فإننا دون أن ندري أو ننتبه نعرضُ للشعراء والأدباء في جبل لبنان أو فيما كان يسمى لبنان الصغير، أي أن أدباءَ وشعراءَ بيروت أو طرابلس أو البقاع أو الجنوب يبقون في الظل ولا يُعطون الاهتمام والتقدير اللازمَين رغم أن هذه المناطق التي ألحقت بلبنان حين غدا كبيراً بها لَدُنْ أُعلنَ دولةً بعد الحرب العالمية الأولى، كانت تمور وتزدحم بالشعراء والأدباء... وعندما وُضعَت البرامجُ للشهادات الرسمية لم تَتَعَدَّ كتبُ التاريخ ساحةَ الجبل أحداثاً وحُكاماً وتداعيات، وإن عرضَتْ قليلاً لتاريخ المناطق الأخرى ففي ضوء تأثّرها بجبل لبنان وسياساته وأحواله الاجتماعية والثقافية... هذا التاريخ كان مثلاً تاريخ المعنيين والشهابيين ومعاركهم ورجال بلاطهم في دير القمر أو بيت الدين، مع أن نطاق حكمهم كان أكثر اتساعاً من الجبل... ولم يحدِّثنا أحدً عن شعراء وأدباء من خارجه... كما لم يحدثْنا عمّا عاناهُ سكانُ المناطق المضمومة من اضطهاد وعَنَت وعذاب عَبْرَ تاريخهم بدءاً بالمماليك ومروراً بالأتراك وانتهاءً بالعهود اللاحقة.

هل يمكنُ أن تخلوَ تلك المناطقُ من العلماء والأدباء والشعراء؟ فرغم العزلة والاضطهاد وصنوف المعاناة بقيت المدارس منارات تشعّ وتعلّم بالإضافة إلى العلومِ الدينية اللغةَ والتاريخَ والأدب... وكثيراً ما تعرَّض علماؤها للقتل والنفي والتشريد... وقد أرّخوا ذلك فيما أبدعوه من شعرٍ وما صنفوا من أعمالٍ جليلة...

في جبل عامل على سبيل المثال كانت المدرسة تُعلم الناس دينهم ولغتهم وأدبهم وتاريخهم... وكانت هذه البيئة موّارةً بالأدباء والشعراء من رجال دينٍ ومن عامة الناس. كانت علاقتها بالنجف الأشرف في العراق امتداداً إلى قُم في إيران توّثق هذا التكامل، فيتخرج العلماء الذين كانوا يشكّلون حولهم - عندما يعودون - مؤسسات دينيةً ثقافيةً، تنشر العلم والانفتاح ونورَ المعرفة... وكان هذا الأدب بمعظمه غيرَ مكتوبٍ يتناقله

الناس لفرادته لأنه يصوّر همومَهُمْ ومعاناتهم وينتشرُ بيسرٍ عبر التواصل واللقاءات في المناسبات الدينية أو الاجتماعية أو عند تأبين راحل كبير فيتلى ويحفظ ويردَّدُ في المجتمعات وفي جلسات الشاي والأماسي وحلقات السمر.

هذا الأدب المحاصَرُ في جبل عامل، الذي تجاهله الكثيرون مع نشوء الدولة بقي يحلّق في أجواء الجنوب، ويتجذّر في كل قرية، في جامعها أو ناديها الحسيني، نظراً لأن رجال الدين كانوا المنارات المحلية، وناشري المعرفة، ومعلمي الناس... كانت كل جلسة معهم ندوةً أدبية، يتطارح المنتدون آخر الأشعار ويتبادلون الآراء ويتناقشون ويتحزّبون، يؤيّدون أو يهاجمون فحول الشعراء... يبرزون حلو المعاني، وجمال التعابير، يسفّهون مكامن الأخطاء والهنات أو يتبادلون الرسائل الأدبية، والإخوانيات... وكان تلامذتهم على شاكلتهم، يردّدون أشعارهم ونوادرهم وآخر أخبارهم... كانت هذه المجالس الأدبية تشمل كل مناحي الحياة في الجنوب وتنتشر أدبياتها في جميع المناطق... وجبل عامل هو بالواقع بيئة شعرية بامتياز، تكاد موهبة النظم لا يخلو منها بيت... أهل هذا الجبل يتنفسون الشعر ويعشقون الأدب ويحبون التاريخ ويحفظون السِّير... ونادراً ما تلقى أسرة ليس فيها شاعر أو زجّال...

والغريب أن كل هذه المنتديات لم تجدْ مَنْ يشير إليها عندما كتب تاريخ لبنان الحديث أو جرى البحث حول الشعراء والأدباء علماً أننا لو فتشنا في مكتبات رجال الدين في جبل عامل لأخذنا العَجَبُ وتملّكَتنا الدهشةُ مما نلقى في كل قرية ودسكرة بدءاً من آل الحر وآل نعمة مروراً بآل فضل الله وآل شمس الدين والأمين وشرف الدين ومكي والعبد الله والزين ومروة وشرارة وصادق وقبلان ومغنية وحجازي والكثير الكثير ممن لم يرد ذكرهم من الأدباء والشعراء.

في تلك الفترات كانت بلاد جبل عامل متواصلة داخلياً فيما بينها، مترابطة عبر عائلاتها وهي تتلاقى في مناسبات الفرح و الحزن، أو عبر الولاء السياسي أو الاجتماعي... نظراً لأن هذه البلاد كانت تدين بمعظمها لزعامات سياسية لها جذورها التاريخية وترتبط بها زعامات أصغر محلياً تتوزع على مختلف القرى والقصبات.. إلا أن الولاء السياسي لم يمتدّ عميقاً إلى المؤسسة الدينية التي بقي لها احترامها المستقل وتقديرها المميز ولم ترتبط إلا نادراً بشكل منفرد ببعض الإقطاع السياسي...

كان رجال الدين بمعظمهم من النوع المميّز تقى وعلماً وزهداً، كانوا أمثلةً نادرةً في العفّةِ والقناعة... كانوا طبقةً مرموقةً تشد إليها العامة، وتفرض احترامها على

الخاصة... وكانت الزعامة السياسية تقدِّرها وترهبها وتحاذر إغضابها وتسعى جاهدة لنيل رضاها...

هذه الظاهرة بقيت واضحة في حياة المسلمين الشيعة منذ بدأ يتكون مذهبهم ويتنامى عبر الزمن، فرجل الدين عندهم يمثّل المعتقد الإيماني ويجسِّد تعاليم الأئمة... هو حافظُ القرآن، والسائرُ على نهج النبي وسنته، والتابع الأمين لخطّ آل البيت، بدءاً بالإمام علي وأولاده الأوصياء حاملي لواء الإسلام الحنيف وشهداء قضيتهم عبر الزمن...

رجل الدين عند المسلمين الشيعة هو السفير بامتياز لهذا التراث، والممثل النقي لهذا الإرث، هو العالم المؤمن العفيف الشريف الزاهد الذي لا يعرف الارتهان والتملّق ومداراة الظلم والتعسف... إنه الكتاب الناطق الزاخر بنور المعرفة وهدى الإيمان وثورة الحق.

والناس عندما يقبّلون يده أو ينحنون أمامه فإنما هم يقبّلون في الوقت نفسه كلَّ هذه الفضائل أو ينحنون احتراماً لها... ويدركون - تمييزاً لهم عن بقية الناس - أن هناك تواصلاً عبر الزمن بين هذه اليد وبين الأيدي النظيفة النقية الشريفة القابضة على قيم الإسلام لأئمة آل البيت.

هذه الظاهرة الفريدة لدى رجل الدين تجعل له مقاماً مميزاً ... وقد ظهر ذلك بوضوح عبر القرون. والمجتمعُ العامليُّ اليوم خير شاهد على ذلك كما أن إيران تشكل المثل الساطع في واقع الحياة وحتى في الألقاب التي يطلقونها عليهم، وهي تعبّر عن الدور القيادي والتوجيهي المؤثّر في الحياة السياسية والاجتماعية.

***

نعود إلى جبل عامل، وإلى بنت جبيل بالتحديد، هذه القصبة المنداحة على آخر رابي جبل عامل، القريبة من فلسطين وسوريا والتي صمدت أمام جحافل الصليبيين والمماليك والأتراك والفرنسيين وكل المحتلين، وملأت ساحتها حركة، وتعدَّت مساحتها عطاء، فتفاعلت مع بيئتها وموقعها وشكّلت منارة علمية وأدبية وسياسية ودفعت غالياً ثمن هذا الصمود من القتل والتهجير والنفي والتشريد والسجن والعذابات المتمادية.

وها أنا اليوم مع أحد أبناء هذه البلدة الذي شكّل طرازاً جهادياً فريداً وخاض بصبر وأناة وإيمانٍ معارك ضد التخلف والجهل عاملاً على تنوير العقول واللحاق بركب العلم والتقدم.

لماذا موسى الزين شرارة؟

بدايةً عليّ أوضح أن العامل الشخصي لم يكن له تأثير في اختياره موضوعاً لرسالتي الجامعية لأنني لو أردتُ ذلك لكان بوسعي الكتابة عن آخرين ممن يمتّون إليّ بصلة القربى أكثر منه، لكنني وقفت أمام هذا الإنسان مقدراً قامته الشامخة في الصدق والتصدي لأسباب التخلف، وهو الذي لم يهادن أو يساوم على قناعاته، وبالتالي فقد اخترته لهذه الأسباب:

- لأنه الشاعر المناضل العنيد الذي تصدى للمشاكل الاجتماعية والسياسية، واستشرف المستقبل.
- لانفتاحه ونزوعه إلى الحوار.
- لإيمانه بتحرير المرأة وتعليمها لأنها نصف المجتمع والجناح الآخر الذي يطيرُ به.
- للتصدي للفساد المستشري في المجتمعات والأفكار.
- لترفعه عن المهاترات وإثارة المشاكل الصغيرة والتفرغ للقضية المركزية.
- لالتزامه الأخلاقي والوطني بالمبادئ والمثل التي آمن بها طيلة حياته.
- لوضوح وعيه القومي ورسوخ ثوابته الوطنية.
- للأمانة والموضوعية في رواية الحوادث.
- للحس الإنساني ومشاركة بسطاء الناس في معاناتهم وأوجاعهم.
- لتعاليه عن الحقد والانتقام ومسامحة من أساؤوا إليه.
- لإيمانه بالرسالة التي يحملها غير عابئ بالتبعات وخطورة الطريق.
- لتواضعه وقربه من الناس.
- لاحترامه لنفسه ووعيه التام للقيمة الأدبية التي يمثّل، والمحافظة على موقعه.
- لنظرته التقدمية التي لم تتغيَّر رغم النكسات والمصائب التي حلّت بأمته.
- لروح الدعابة التي ضمَّنَها قصائدَهُ وكانت أشبهَ بالكاريكاتور الذي ينتظرهُ الناس ويرون أن إيحاءاته تتجاوز أحياناً ما يرمي إليه صاحبُهُ فيترك للمشاهد أو القارئ لذَّة التحليل والاستنتاج.
- لأن شعره كان سجل التاريخ الحقيقي الذي لا يحوِّرُ ولا يزوّر ولا يشوّه كما وصفه عبد

اللطيف شرارة.

- لأنه كان أحد الأسلحة المهمة في معارك التنوير والتحرير على حد تعبير مُنح الصلح.
- لأنه كان وحي فطرته وصدى معاناته ومرآة نفسه، وصورة مجتمعه.
- لأنه ديوان للمكان والزمان، يُقال ليُسمع وينتشر على ألسنة الناس، تحفظه وأنت تردده كأنه لسان حالك.
- لأنه نقل المرسل من دفتي الكتاب إلى جهات الحياة يلتزم بالمكان والبشر والتقدم كما قال محمد علي فرحات.
- لأنه لم يبدأ بداية وإنما طفر طفرةً من تلك التي كثيراً ما يؤتى بمثلها كما قال حسن داود.
- لأن شعره يؤلف جبهة تقف في وجه جبهة مُعادية هي المجتمعُ العاملي بكل ما فيه من رواسب الإقطاع والجمود والتخلف كما قال عبد اللطيف شرارة.
- لأنه شاعر الوطنية الصادقة والثورة اللاهبة في جبل عامل... هو ماهر في التحريض، داعية للاتحاد والتضامن والثورة على الدُخلاء كما قال قيصر مصطفى.
- لأن بنت جبيل وموسى الزين شرارة معاً في أحلام الأطفال وعيون الصبايا ووقار الشيوخ... معاً في النضال والثورة وتحدّي الزمن الأصعب... معاً في المُعاناة مرسومة على ورقة التبغ الخضراء وعلى غصون شجرة التين، في العشايا... كما قال ابراهيم بيضون.
- لحضوره اللافت والذاكرة المميزة وطلاوة الحديث.
- لأنه كان - كما قال الشيخ علي سرور - الطالب والمطلوب، دافع عن قضية الناس، وعَبَدَ الله باختصار لا كما يعبده الكثيرون... عَبَدَهُ بالموقف والصدق والأمانة والكلمة، وتلك عبادة الأنبياء.
- وأخيراً لقدرته على التكيف والانسجام مع الأجيال الصاعدة وتطلعاتها.

المصاعب والمنهج

عندما قررتُ أن يكون الشاعرُ موسى الزين شرارة موضوع دراستي هذه لم يَدُرْ في خلدي أن مصاعب جمّةً كانت تنتظرني، وأن الإحاطةَ بأحداث جبل عامل في الفترة التي سبقَتْ مولدَهُ أو ترافقتْ مع نشأته ويفاعته وشبابه وأواخرِ أيامه تتطلّب جُهداً ليس باليسير، خاصةً وأن أحداثاً جساماً بدأت مع مطلع القرن العشرين، وتوالت حتى أواخره، غيّرَتِ الأوضاع السياسيةَ والاجتماعيةَ في المنطقة العربية، وجزّأتْها وأدَّتْ إلى إنشاء كيان دخيلٍ زلزل استقرارها وأسَّسَ لحروبٍ راحتْ تُطاولُ هذه المنطقة دون انقطاع... وانعكست نتائجُها على حياة الناس في مختلف المناحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية.

وعندما شرعتُ في دراستي اتضح لي مدى العذاب الذي ينتظرني للإحاطة بما كتب موسى الزين... فهو لم يُصدرْ ديوانَهُ الذي طالما وَعَدَ الناس به... ولم يتسنَّ لي أن أطّلع على ما ترك... كُنتُ أطلبُ وأُوعدُ وأنتظرُ، وكثيراً ما مرَّ الوقتُ ولم تُنفَّذِ الوعود!!! كان عليّ أن أجمع بنفسي ما أستطيع أن أجدَهُ في الكُتُبِ والصحُفِ والمجلات، أو مما حفظَهُ أو احتفظ به بعضُ مُحبيه... ساعدني أحباء وأصدقاء قَدرَ استطاعتهم... وعلى ضوء ما توفر لي رافقتُ أبا عدنان، استرجعْتُهُ من الماضي، واستأثرتُ به... كانتْ رحلةً مُمتعةً تمنّيْتُ ألاّ تنتهي، وندمتُ كثيراً لأنني أضعتُ فُرصاً وأياماً كان بوسعيَ أن أكونَ فيها إلى جانبِهِ يوم كان يفيضُ حيويةً وألَقاً وعطاءً... ومع ذلك فأنا اليوم سعيدٌ لأنني سافرتُ إليه، مشيتُ معه خطوةً خطوةً، وراح يعظُمُ في عيني وأنا أُصاحبُهُ طفلاً ويافعاً وشاباً، هو لم يهرَمْ... بقيَ شاباً في روحه وصلابتِهِ وعنفوانه على الرغم من بياضِ الشعرِ وتجاعيدِ الوجه وكرِّ الأيام... واستمرَّ الشاعرَ الوطنيَّ المُلتزم، حاملَ القضية.

يا أبا عدنان سلامٌ عليك حيثُ أنت... اسمحْ لي أن أُلمِّمَ بعضَ ذكرياتك وأنثُرَ أريجَهَا عليَّ وعلى من أحبُّوك.

إحسان

الحياة الإجتماعية في جبل عامل

إن جبل عامل لم يشكل طيلة تاريخه كياناً سياسياً وإنما كان اقطاعياتٍ تتمدّدُ أو تنكمش تبعاً لسلطة ونفوذ الحاكم الذي يدين له بالولاء أمراء أو مشايخ جبل عامل، والذين كانوا بدورهم يتولون إدارة شؤون البلاد ويدافعون عنها ويحافظون على الأمن ويجبون الأموال التي يكلفون بها من قبل الوالي التركي.

وكان المجتمع يومئذ مجتمعاً زراعياً بدائياً يعمل فيه الفلاح لدى مالك الأرض فلا يكاد يحصّل ما يكفيه، وكان المالك في الوقت نفسه باستمرار مرهقاً أمام (المقاطعجي) الذي لا هم له سوى تحصيل الضرائب وإذلال الناس.

وإذ هبّت رياح الحرب الكُبرى (١٩١٤) أصابت ويلاتُها جبل عامل فعانى المجاعة وعذاب (سفربرلك) وانتشار وباء الكوليرا، وكأنّ تلك المصائبَ لم تَكْفِ حتى جاءت فرنسا تفرضُ عليه مع حملة نيجر (أيار ١٩٢٠) مئة ألف ليرة ذهبية جُبيت أضعافاً مضاعفة بالإضافة إلى ما أصاب البلاد من حرائق ودمار وسلب ونهب وإذلال... يصف ذلك الشيخ أحمد رضا قائلاً "كان الجيش يحتل القرية لجباية ما فرض عليها من الغرامة فلا يستطيع أهل القرية ذلك فيستاقون مواشيها إلى لجنة فتحدد هذه أثمانها على نسبة المئة بعشرة أو بعشرين ثم تتسلمها اللجنة بهذه الأثمان البخسة وتبيعها في أسواق فلسطين بأثمانها الصحيحة، وهكذا بلغ ما جمعوه خمسة أضعاف ما فرض... سُلِبَتْ كلُّ الثروة من سكان جبل عامل من الطائفة الشيعية بحيث لو وزعت على النفوس كبيرِها وصغيرِها، نسائها وأطفالها لأصابَ كلَّ نفسٍ عشر ليرات ذهبية"[1]. هذا بالإضافة إلى سياسة الإبعاد المتعمدة والحرمان المقصود وهَوَسِ الإنتقام والتنكيل والإذلال... وقد صوَّرَت مجلة العرفان الغبن اللاحق بالشيعة في عددها ٦/٢٩٥: "لقد خلت منهم أكثر الدوائر وخاصة المحاكم ولم يبقَ في محكمة صيدا شيعي واحد ولا كاتب بسيط".

نتيجة لهذا الواقع قدّم بعض علماء جبل عامل سنة ١٩٢١ إلى الجنرال غورو والكومندان ترابو عريضة ورد فيها: "إن الشيعة يشكلون الأكثرية أو يكونون في الدرجة الثانية من مجموع سكان لبنان ويدفعون ما يقارب من نصف واردات بيت المال ومع ذلك

(١) مذكرات للتاريخ، الشيخ أحمد رضا، العرفان ٣٣/٢٠٥

فلغيرهم الغُنم وعليهم الغُرم، فلا يوجد منهم موظف قط في العاصمة لا كبير ولا صغير، وموظفوهم في لواء لبنان الجنوبي قليلون جداً"[1].

وعندما عُيّن الجنرال ويغان خلفاً للجنرال غورو سنة ١٩٢٣ قدّم له بعض أعيان الشيعة مذكرةً شكوا فيها من الضرائب المرهقة ولفتوا نظرَهُ إلى التمييز الحاصل بينهم وبين أبناء الجبل... ولما عُيِّن بعد سنوات المفوض السامي ده جوفنيل قدمت له عريضة ثالثة: "نحن أهالي جبل عامل منذ الحاقنا بلبنان الصغير ما زلنا نرى الغُرم علينا والغُنم له، ندفع الضرائب ولا يُنْفَقُ علينا منها سوى القليل حتى نرى حقنا مهضوماً، فلا نعطى من الوظائف ما نستحقه، ومعلوم أن هذا الاستئثار شديدٌ على النفوس جداً لذلك نطلب من عميد الدولة المسيو ده جوفنيل تحقيق أمالنا وهي فصلنا عن لبنان"[2] .

عندما كان شارل دباس رئيساً للجمهورية زار مع بعض الوزراء مرجعيون وحاصبيا والنبطية وتناول الشاي في كفررمان عند يوسف بك الزين، فوقف الشيخ أحمد رضا متحدثاً عما يعانيه الجنوب فوعدهم الرئيس خيراً وحثّهم على تعليم أبنائهم... وعلّقت العرفان في حينه: هل هذا هو السبب في هضم حقوقهم أم هناك أسباب وأسباب؟[3]... وكانت الجريدة المرجعيونية (القلم الصريح) قد ذكرت "تفقدنا الأسبوع الماضي قرى جبل عامل الشيعي فإذا نحن أمام البؤس والشقاء، أمام الذلّ والهوان، أمام الفقرِ المدقعِ والجوعِ الداهم". وذكرت في افتتاحيتها في ١٠ تشرين الأول ١٩٣١: "ولدنا في عهد السياسة التركية سوريين فشاءت السياسةُ الإفرنسيةُ أن نعيشَ لبنانيين، أولئك عرّفونا على أمنا سوريا وهؤلاء عرّفونا على أبينا لبنان وبالنتيجة قالوا لنا: كونوا فكنا لبنانيين أو ملحقاً باللبنانيين... نحن دخلاء في لبنان وحكومة لبنان تحرم علينا أن نتولى بعض وظائفها أو أن تفيدنا ببعض الاصلاحات"[4] .

في سنة ١٩٣٠ أغلقت حكومة الرئيس إميل إده ١١١ مدرسة في لبنان أصاب جبل عامل منها إغلاق ٤٥ مدرسة بدلاً من أن تعمل هذه الحكومة على فتح مدارس جديدة إبتدائية وتكميلية لمساعدة الجنوب المحروم.

(١) العرفان ١٩٢٢/١٨٦/٧٠.
(٢) حسن قاسم، السياسة في الشعر العاملي المعاصر، ص ٤٤٦ (أطروحة دكتوراه).
(٣) العرفان ١١٧/١٢/١٩٢٦.
(٤) حسن قاسم، السياسة في الشعر العاملي المعاصر، ص ٤٤٦ و ٤٥١.

بعد انعقاد مؤتمر الساحل في بيروت في ١٠آذار ١٩٣٦ في منزل السيد سليم علي سلام[١] قدّم المؤتمرون إلى المندوب السامي الفرنسي مُذكرة جاء فيها: "إن أهالي الساحل والأقضية الأربعة يدفعون ٨٢٪ من واردات الخزينة في حين يصرف ٨٠٪ على جبل لبنان بصفة رواتب وإصلاح طرقات وتشجيع اصطياف واعانة بلديات ومدارس ومستشفيات، بالإضافة إلى أن المناصب العالية في يد أبناء لبنان القديم"... وكان عقد اجتماع لبعض العلماء في كفررمان طالبوا فيه بمساواة جبل عامل بغيره من المناطق اللبنانية وأشاروا إلى حاجاته من الطرق ووجوب إلغاء الضرائب التي ينفرد بدفعها: "إننا حتى الآن لم نشعر ونحن خُمسُ الجمهورية بالمساواة مع غيرنا منذ ألحقت بلادنا بلبنان القديم... إننا نحتاج إلى أربع أو خمس طرق وإصلاح الطرق الموجودة، ونطلب زيادة المدارس ونطالب أن تعمل الحكومة على مساواتنا ببقية بلدان الجمهورية بالضرائب كلها دون استثناء"[٢].

وكأنَّ كل هذه الممارسات لم تكن كافية حتى أطلت سنة ١٩٣٥ حاملة مشكلة إضافية تمسّ الجنوبيين في الصميم؛ ففي هذه السنة منحت الحكومة اللبنانية إمتيازاً لشركة الريجي الفرنسية لمدة خمسةٍ وعشرين عاماً حصرت بموجبه ترخيص زراعة الدخان والتنباك وإنتاجه وشرائه وتعليبه وبيعه بهذه الشركة وحظرت وألغت تبعاً لذلك (البندرول) أي حرية الصناعة والتصنيع... (قرار رقم (٣٨) L.R ١٩٣٥/٢/١٩) وهكذا تولت الشركة المحتكرة بدورها الترخيص بالزراعة والإشراف على جميع مراحل الإنتاج وصولاً إلى الشراء.

هذا الإمتياز لشركة حصر التبغ والتنباك أحدث تحركاً طاول معظم الحواضر، فانتشرت مظاهرات وإضرابات ضد هذا الإحتكار كان أعنفها في بنت جبيل حيث حمل الأهالي تابوتاً وضعوا فيه الآلات الزراعية وجللوه بالسواد... كما حضر في حينه إلى بنت جبيل المطران المعوشي الذي صار فيما بعد كاردينالاً واتفق مع الأهالي على المطالبة بزيادة الأسعار وإعطاء مساحات أوسع للمزارعين[٣] لاسيما وأن ٧٣٪ من هذه

(١) كان هذا المؤتمر رداً على مؤتمر مطارنة وأساقفة الطائفة المارونية الذي عقد في ٦ شباط ١٩٣٦، وكانت الغاية من انعقاده معرفة آراء المجتمعين والممثلين لمناطقهم بشأن العلاقة مع سوريا الأم، وذلك بمناسبة تأليف الوفد السوري الذي سيذهب إلى باريس للمفاوضة في مصير البلاد السورية، وقد عُقد هذا المؤتمر قبل مؤتمر الوحدة السورية الذي تم في صيدا بعد تلك الفترة، وظهر فيه اتجاهان: متشددون للوحدة مع سوريا (جبل عامل)، وطالبو استقلال لكل من سوريا ولبنان بوضعهما الانفصالي وتأجيل أمر الوحدة إلى الوقت المناسب. (مصطفى بزي، جبل عامل في محيطه العربي. ص ٢٨٥).

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) من دفتر الذكريات الجنوبية، موسى الزين شرارة، ص ٧٢

الزراعة في الجنوب و٧٠٪ من المزارعين جنوبيون (إحصاء ١٩٧٠)[١] ..."وقد حوصر سجن بنت جبيل ونُقب أحد جُدرانه وسقط في مظاهرات بنت جبيل ثلاثةُ شهداء، وجرت إعتقالات طاولت حوالي ثلاثين شاباً؛ وعند المساء نقل الدرك المسجونين إلى صيدا فتجمهر الناس في صيدا تأييداً لإنتفاضة بنت جبيل، وفي اليوم الثاني عمّ الإضراب جميعَ مدنِ وقرى الجنوب وكذلك مدينة طرابلس وقد بلغ تأييد المزارعين للحركة حدّاً جعل بعضَهم يزحفُ على طريق بيروت حاملاً آلاتِ الحرثِ والفلاحة؛ وخوفاً من أن يُحاصَرَ سجنُ صيدا كما حوصر سجنُ بنت جبيل من قبل، ارتأتْ سلطاتُ الإنتداب نقلَ المساجين إلى سجن الرمل في بيروت، حيث استقبلنا في بيروت بنفس التأييد من قبل الشباب الوطني، وفي اليوم الثاني جيء إلى سجن الرمل بالشيخ أحمد عارف الزين صاحب مجلة العرفان وبالأستاذ عادل عسيران والأستاذ الفرد أبي سمرا صاحب جريدة القلم الصريح المرجعيونية... وقد مكثنا في السجن مدة شهر تقريباً أُفرج بعدها عن المساجين لإيقاف انتفاضة كبيرة كانت قد أخذت تتفاعل على صعيد جبل عامل ولبنان[٢] ".

يبقى أن نشير إلى أن شركة الريجي في حينه وزعتْ رخصَ الزراعة على العديد من رجالات السياسة والوجهاء بهدف إحتوائهم ووظّفَتْ لهم المحاسيب والأزلام ومنحتهمْ تسهيلات كان من نتيجتها إتساعُ دائرةِ نفوذهم؛ بالإضافة إلى اعتماد سياسة التمييز الكيفي في الأسعار، كما حَجَبَتْ عن كثير من المزارعين - أصحابِ الملكيات المتوسطة والصغيرة - إعطاءَ أيةِ رخصة مما اضطرهم إلى ضمان الرخصة من الزعيم أو الوجيه لقاء مبالغَ من شأنها إمتصاصٌ معظم تعب الفلاح طيلة السنة، وهو الذي كان يعمل دون انقطاع واصلاً ابتداء السنة بختامها متحملاً أبشع ممارسات الإستغلال ليؤمّنَ قوتَهُ وقوتَ عياله.

لهذه الأسباب كانت شتلةُ التبغ بالنسبة لأهل جبل عامل شعاراً جنوبياً فجاءت صرخةَ وجع الشاعر، وصورةَ لوحةِ الرسام، وموّالَ غناءِ الشادي، وحديثَ السمر في جلسات الأماسي... كما كانتْ في الوقت نفسه الصورةَ المحببةَ للنضال المرير ضد المستغلين، والحكايةَ الأثيرةَ لمسيرةِ العرق والتعب الموصولة بدايتها بالنهاية عندما تنطلق مجدداً كُلَّ سنة ورشةُ الزراعة قبل أن يتمّ تسليم الموسم السابق للشركة فتلتقي معاً سيرتا

---

(١) السياسة في الشعر العاملي المعاصر، حسن قاسم، ص ٤٥٩.

(٢) من دفتر الذكريات الجنوبية، موسى الزين شرارة

الكدح وتتواصل نقاط دائرة العذاب من عام إلى عام...

وإذا كان جبل عامل لم يعرف الاقطاع الزراعي بمفهومه الواسع نظراً لعدم وجود مساحات شاسعة تعود لكبار المالكين وتستتبع استرقاقَ الفلاحين واستعبادَهم فإنه عرف نوعاً من "الإذلال السياسي" - من قبل الزعماء النافذين-، والإرهاق النفسي الذي يميت العنفوان ويقتل الكرامات... ربما كان ذلك يعود لتلك المطاردات المتواصلة عبر التاريخ التي استهدفت العامليين في أنفسهم ومعتقداتهم وأموالهم وأرزاقهم... أو للحصار المُحكم والإرهاب العاتي اللذيْن لازماهم طويلاً وخلّفا لديهم انطواءً حزيناً، وطَبَعا حياتَهم بحذَر يَقِظ من السلطة والزعيم والحاكم الذين عمل كلٌّ منهم على إنهاك الإنسان العاملي مادّياً ومعنوياً لتدجينه وادخاله مستسلماً في الحاشية أو الرعية... وكان حتى بين رجال الدين مناصرون لهم تلاقت مصالحهم وتشابكت منافعهم واستفادوا من هذا "التدجين المسالم" فشكلوا - حتى دون تخطيط - حِلفاً غيرَ مكتوب فَرَضَ نفسَهُ وتسلَّلَ إلى نسيجِ الحياة الاجتماعية وأسبغ عليها لوناً فاقعاً بدتْ معه ارهاصات المعركة المقبلة بين "البرجوازيين المحافظين" والمقهورين من بسطاء الناس... وبين هؤلاء المقهورين كثيرون أخذهم النعاس، وجانبهم الوعي، وآثروا أن يبقوا في حضن الأسياد ورعاية المتدينين المتزمتين.

وهكذا فالناس محكومون لأصحاب النفوذ السياسي وهم كما أرادهم الحاكم، ضعفاء مستكينون، خانعون أمامه... وفي نفس الوقت أقوياء، متجبرون، ظالمون لشعبهم يتحكمون به بواسطة أزلام ومحاسيب على شاكلتهم لا يعرفون رحمة ولا شفقة.

ورجال دين -طبعاً البعض منهم - متحجرون، متزمتون لا يتحلّون بتقى وزهد السلف، أغْرَتْهُمْ مباهجُ الدنيا ومظاهرُها فسالموا الظالمين وسكتوا على جورهم...

وناسٌ استشرى الجهل بينهم فأخذوا يفاخرون بمآثر الأجداد وينامون على سالف الأمجاد، فعطّل ذلك تفكيرهم وأبعدهم عن استشراف المستقبل وإمكانية كُل تطور أو تقدم...

نظر موسى الزين شرارة - الشاب الناشئ - إلى الناس في مجتمعه فرآهم يمشون في ركاب الزعيم مدفوعين بعمى التعصب والتخلف والسذاجة البلهاء.

نظر مُستهجناً إلى رجل الدين الذي لا يقاوم الظالم ولا يثور على فساد الحاكمين... تأمل الجهل المتفشي الذي يَلُفُّ الناس... تطلع بوجع إلى المرأة القابعة في بيتها

المحرومة من العلم والتحرر... آلمه وأوجعه السواد المسيطر على آفاق الحياة، وتعجب لحال هؤلاء الناس الأحياء كالأموات، فرثاهم بسخرية لاذعة مضحكة... و"شر البلية ما يضحك"...

ها نحن مع شاعرنا الذي ناضل وسجن مرات عديدة، وكثيراً ما تعرض للملاحقة والإيذاء ورأى عندما سافر إلى سيراليون أننا لا نختلف عن زنوج أفريقيا تخلفاً وجهلاً وسذاجة، ورأى كذلك عندما عاد – بعد سنوات من الغياب – أننا في استقلالنا أصبحنا أسوأ حالاً: "رحلت من العبيد إلى العبيد" وأن رفاق النضال تغيّروا مع مواقعهم الجديدة، حتى إذا شغل منصب رئاسة البلدية في بنت جبيل رأى الفسادَ المُستشريَ في إدارات الدولة ولَمَسَ إهمالَ المصالح العامة وممارساتِ الأزلام والمحاسيب واعتمادَ التمايز بين المناطق، كما شهدَ نشوء دولة إسرائيل وما رافقها من هزائم، وعاصر بفرح فترة عبد الناصر والمد القومي والآمال الكبيرة... كما شهد أعراس الوحدة وفجيعة الانفصال سنة ١٩٦١، وتواليَ الانكساراتِ وآخرها الحرب الأهلية في لبنان... وعلى الرغم من ذلك لم يفقد إيمانه بشعبه ووطنه ومستقبله... وكان شعره سجلاً حافلاً بهذه الأحداث، وكتاباً ناطقاً يروي معاناة الوطن وعذاب الناس المحيطين به، وانهيارات الأمة المتوالية...مؤكداً أن الشعوب لن تموت، وأن زمن الظلم والقهر والتسلط لن يعمر طويلاً وأن النصر للصابرين المناضلين من أجل قضاياهم المحقة العادلة.

***

الناس المميزون في مجتمعاتهم هم تلك الصفوة غير العادية التي تتمتع بصفات نادرة تختص بها دون الآخرين، وتؤهلهم لتبوُّءِ مواقعَ تتناسب مع هذه الصفات الموروثة أو المكتسبة، ومستوى الذكاء الذي يرفدها ومدى الوعي الذي يحكمها.

لهذا كانت القيادة والريادة من نصيب أصحاب العقول النيّرة والذكاء اللمّاح إذا توفرت لهم الحظوظ المؤاتية... وساعدتهم على تحقيق مواهبهم وطموحاتهم.

والإنسان وفقاً لعلم الوراثة يأخذ عن أبويه الكثيرَ من الصفات الخُلقية والخَلقية التي تكوِّن شخصيتَهُ، وتظهرُ ميّزاته... من هنا نرى مثلاً أن ملكة الشعر تنتقل في الأسرة من جيل إلى جيل، كما هي الحال في الموسيقى والرياضيات والغناء.... إنها السمة البارزة التي نلاحظها بين الناس، ونراها في المجتمعات... فهنالك عائلات تتوارث الشعر والأدب وعائلات تتوارث فنَّ الرسم والتصوير، وعائلات أخرى تتوارث جمال الصوت

وخفة الروح، كما هي الحال مع آل البستاني وآل المعلوف[1] وآل الأمين شعراً وأدباً ومع أُسر تحترف فن الرسم أو النحت حيث تُصبح الريشة أو القلم أو الإزميل لدى طفلها امتيازاً موروثاً، وكما هو الأمر ببيت المغني صاحب الصوت الرخيم عندما يصدف أن تكوِّن العائلة فرقة إبداع وإنشاد وطرب (الرحابنة، آل الصافي، آل بندلي)... وبالأمس القريب عندما كتب السيد حسن الأمين عن شاعرة الأرجنتين وأميركا اللاتينية باللغة الإسبانية نيليدا سعيد شرارة العاملية المحتد، كان يؤكد أثر عامل الوراثة في التكوين حتى ولو اختلفت اللغة وتغير الموطن. هذه الملكات المتوارثة عبر الأجيال، قد يتوفر بعضها بشكل ملفت وغير عادي، ويختص إنسانها بموهبة فريدة نادرة، وذكاء خارق يتيح له أن يتجاوز الآخرين ويعطي فوق طاقتهم أي يتجاوز عطاءاتهم ويصبح بالتالي نادر النوع أو عبقرياً كما دعاه العرب.

أنا لا أزعم أن الوراثةَ وحدَها قاعدةُ حياة، إنما أريد أن أقول إن قُدْراتٍ معينةً "وصفاتٍ خاصةً" تنتقلُ عَبْرَ الوراثة من جيل إلى جيل، من شأنها أن تُسهم إذا توفرتْ لها أجواءٌ خاصة في تكوين شخصية الإنسان.

ذلك أن للبيئة أو المحيط دوراً مهماً في توجيه هذا الموروث وتنميته وتطويره وإبرازه... فالبيئة الأدبية توقظ موهبة الشعر أو ملكة الكتابة عندما توفر المناخ الملائم لترعاها وتمدها بأسباب الحياة، تماماً كما يوفر الجو الفني لموهبة المُغني أن تتهذب وتُصَقَّلَ وتَشِفَّ وتنمو.

والمحيط المُتقدم هو الوسط الصالح الذي يحضن ويرعى المواهب ويُوفر لأصحابها ميدان التجارب ومُختبر العمل ووسائل النجاح وبيئة الانطلاق خلافاً لما هي عليه الحال في البلاد المُتخلفة أو في العالم الثالث، حيث تُدفن كفاءاتٌ عديدةٌ أو لا يُقيَّضُ لها أن تتحقق وتبرُز بسبب الفاقة والعوز وعدم توفر الجو الملائم المساعد على ظهورها وانطلاقها... هذه هي ميزة التفوق التي تتمتع بها البلاد المُتقدمة على الآخرين... حيث يُقدرلأبنائها أن يُحققوا ذواتهم ويُعطوا ويُبدعوا ويخترعوا، أما أبناء المجتمعات الفقيرة أو قليلةِ الإمكانات فإنهم إذا ما تسنى لهم أن يكملوا دراساتهم

(١) مات الشاعر الزحلي رياض المعلوف نجل العلاّمة عيسى اسكندر المعلوف، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ودمشق وشقيق الشاعرين فوزي (صاحب ملحمة على بساط الريح)، وشفيق (صاحب ملحمة عبقر) ... هو آخر الثالوث الشعري المقدس... وُلد فوجد نفسه غصباً عنه في الشعر فترسّل له... شرب الشعر مع الحليب والماء، تنشقه فتى، وعاشَهُ شاباً، ومارسه رجلاً يعرف معنى الأبيات والأوزان... ومن جميل الصدف أن أخوالَه هُم شعراء أيضاً وهم قيصر وجميل وميشال وشاهين وفدعا المعلوف... وقد قيل في الشعراء المعالفة: "ارضها صعبة والصيد فيها عسير". انطوان أبو رحل، النهار ٢ نيسان٢٠٠٢ ص ١٩.

وتحصيلهم فإنهم يُتابعون ويتخصصون في جامعات الدول المتقدمة ويعملون في مختبراتها العلمية، وهذه الدول تعمل جاهدة على إغرائهم و"سرقتهم" والاستفادة من عطاءاتهم... وهذا ما يظهر واضحاً في هجرة العقول إلى أميركا ودول أوروبا الغربية التي قُدر لها أن تحتكر قصب السبق والريادة في معظم حقول المعرفة والاكتشافات في عصر التكنولوجيا والاختراعات.

ثم إن الرعايةَ الملائمةَ للموهبة حتى تتحقّق دون تشويه أو التواء يجب أن تتوفر في المحيط... تلك هي المسألة اليوم وكل يوم... وهكذا فنحن عندما ندرس شاعراً أو أديباً فإننا يجب أن ننطلق من بيئته، ومحيطه، نظراً لأنه ابن هذه البيئة المرتبطة بكل ما حولها.. فكما أنه لا يمكن درس التاريخ من الناحية السياسية بمعزل عن التطورات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فإنه كذلك لا يمكننا أن ندرس الأدب دون أخذها كلها بعين الاعتبار لأن الأدب كما قال الأستاذ حسن عثمان "مرآة العصر[1] ، والتعبير عن أفكار الإنسان وعواطفه... إنه يفصح عن البشر، ويصور أحلامهم وأمانيهم ويرسم نواحي مختلفة من حياتهم أفراداً وجماعة ".

إن هذا الارتباط الوثيق بين الإنسان وبيئته يجعل العلاقة بينهما علاقة تلازم وتواصل وتكوين وتأثير متبادل بحيث لا يمكن أن نتصور إمكانية الفصل أو التباعد بينهما... إنها شبيهة بعلاقة النفس بالجسد، أو الروح بالجسم... هل يمكننا مثلاً أن نفصل بين طفولة المتنبي والكوفة؟! أو بين شبابه وحلب؟ هل يمكن أن نتصور قصائده الحربية وصور البطولات إلا في إطار فروسية سيف الدولة؟

لهذا كله كانت الدراسة الأدبية هي دراسة الشاعر أو الأديب في بيئته المعيَّنة وزمنهِ المحدد، علينا أن ندركَ أن الدراسة الأدبية تتطلبُ أن ننتقل ولو بالخيال إلى ذات المحيط الأدبي، نضع أنفسنا فيه، موقعاً وطريقة حياة وعاداتٍ وتقاليدَ وعلاقاتٍ اجتماعيةً وسياسيةً وثقافيةً لنستوعب كيف كان يحيا ويتحرك ويفكر، ونلاحظ كيف كان يتفاعل مع محيطه ويتأثر فيه... الدراسةُ الأدبية تقتضي كذلك أن ندرس الشاعر في بيئته وزمنه بتجرد لنكون موضوعيين IMPARTIAL كما كان يقول المفكر الفرنسي الكبير VOLTAIRE علينا أن ندرسه بتجرد كما لو كنا مكانه ونتفهمَ طريقةَ أدائه ونمطَ تفكيره ونحتفظَ برأينا الخاص لأنفسنا نظراً لأننا ندرسه كما هو لا كما يحلو لنا أن نتخيلَهُ أو نتصورَهُ أو كيف كنا نفضلُ لو كان عليه.

---

(١) حسن عثمان منهج البحث التاريخي راجع د. مصطفى بزي ص ٥، مقدمة رسالة الماجستير في التاريخ الجامعة اللبنانية - (تطور المجتمع في بنت جبيل بين الحربين الأولى والثانية).

وإذا كان الأدب كما يقول محمد كمال الدين يوسف مصدراً مهذباً من مصادر التاريخ فلأنه يُلم بروح الحوادث والأطوار المتعاقبة فيصورها متأثراً بها.. وكما يلتقي الأدب بالتاريخ فإنه في الوقت نفسه يلتقي كذلك بالاقتصاد من حيث أنه يتناول الأحوالَ الاقتصاديَة كمؤثرات ضرورية في حياة المجتمع والأفراد، كما تلتقي السياسة بالأدب باعتبارها العلمَ الذي يدرس نظَامَ الحكم، وهي وسيلةٌ لحماية الأفراد والمجتمع وتنظيم العلاقات بينهم، والملاحظ أن الثورة لاتقوم إلا إذا شعر الشعب بظلم اجتماعي واقع عليه[1]، يشعر به عن طريق الأعمال الأدبية، وبالتالي "فالأدب قوة اجتماعية فاعلة، عظيمة التأثير وقادرة على إحداث تغييرات هائلة في حياة الأمم ونظمها"، وبات الأديب شاعراً كان أم ناثراً تبعاً لذلك "مسؤولاً اجتماعياً" كما أحب أن يسميه الأديب رئيف خوري، أو صاحب رسالة هادفة تحمل هموم الناس وتستجيب لحاجاتهم ومتطلباتهم وطموحاتهم.

من هذا المنطلق اجتمعت الأمم على تقدير شعرائها، وأظهرت فرحها وتقييمها لهذه الفئة المميزة وراحت تُفاخر الأمم الأخرى وتتباهى بمواهب وعطاءات هؤلاء الشعراء لأنهم قممُها الشامخةُ ومَناراتُها المُضيئةُ وسُفراؤها الخالدون الذين يصبحون مع مرور الأيام سِجلَّ أحداثها وكتابها الناطق، يستأثرون بالتراث وزاهي الأمجاد حتى لكأنهم حكاية الزمان والأسطورة الحيَّةُ التي تحجبُ العروش وتغيِّبُ السلاطين وتقبِض على أعنَّةِ التاريخ كما يُجسد ذلك قول المتنبي:

وما الدهرُ إلا مِنْ رُواة قصائدي ... إذا قلتُ شِعراً أصبحَ الدهر مُنشدا
فسار بـه من لا يسيـر مُرنّمـاً ... وغَنَّى بِـهِ مَـنْ لا يُغنـي مُغـرِّدا

هذا الفرح الغامر بالشاعر يعود إلى كونه إنساناً مميزاً - تماماً كالمحامي - يُبرز المحاسن والفضائل ويُفاخر بالبطولات ويردّ على الاتهامات ويدافع عن المواقف، يجيد التعبير عما يحسّ فيرسله عفو الخاطر، منتزعاً من الأعماق، يُصوّر مشاعر الناس، يُضيء أحاسيسهم، يَشعر بوجعهم حتى لكأنه يتفطّر معهم ألماً، ويُغني هَنَاءَهم فَيَكَادُ يَطير فَرَحاً... ويُشارِكهم حُزنهم فيذوب معهم شَجَناً ويحمل هُمومهم فينُوء تحتها نصبَاً... هو يُغني حُبَّهم فيشفُّ معهم وَجْدا، ويُصوّر طُموحهم فتَزْهرُ أحلامُهم أملا.. هو الصورة والمرآة، حادي القافلة، وشادي الركْبِ.

---

(١) محمد كمال الدين يوسف، الأدب والمجتمع، الدار القومية القاهرة - ١٩٦٢، ص ١٣٥.
تُراجع المقدمة في السياسة في الشعر العربي المُعاصر، أطروحة دكتوراه في العلوم الاجتماعية، الجامعة اللبنانية الفرع الأول حسن قاسم.

حدود جبل عامل

ذكر العلامة الكبير السيد مُحسن الأمين في كتابه خطط جبل عامل صفحة ٦١:

"إن حده من الغرب هو ساحل البحر المتوسط ومن الجنوب فلسطين ومن الشرق الأردن، "الحولة ووادي التيم وبلاد البقاع" وقسم من جبل لبنان الذي هو وراء جبل الريحان ووراء إقليم جزين، ومن الشمال نهر الأولي، ويُوضح المؤرخ حسن الأمين حدوده كما يلي:

إن حد هذه الجبال أو هذا الجبل يبتدئ من الشمال بمصب نهر الأولي شمال صيدا، فتدخل مدينة صيدا فيه، ثم يذهب صُعُداً إلى الشرق شمالي قرية البراميه، ويتجاوز في خطه قرية روم من الشمال، إلى أن يصل إلى جزين، فيضم إليه واديها وشالوفها، ويقطع جبل التومات منحدراً إلى مشغرة ويتصل بنهر الليطاني من شمالي سُحُمر، ثم يذهب ليحُط على ينبوع نهر الحاصباني ويتجه عندئذٍ جنوباً على مجرى النهر المذكور، فيدخل في جبل الظهر، ومشغرة، وعين التينه وميدونٍ، وسُحُمر، ويُحمُر، وقلِية، وزلايه ولوسه من قرى البقاع الجنوبي، وتدخل فيه قُرى كوكبا، وبرغز، وسوق الخان من ناحية حاصبيا، ثم ينتهي هذا الخط على ضفة بُحيرة الحوله الغربية، وينعطف غرباً جنوبي مقام يُوشع وشمال الهرّاوي ويمتد غرباً فيتبع مجرى وادي فارة، وينتهي عند مصب وادي القرن جنوبي قرية البصّة التي كانت مدار نزاع بين العامليين وحُكام عكا وصفد[١].

ولكن بعضاً آخر من العامليين لا يرون التوسع في حدوده بل يخرجون منه جبل الظهر وقرى مشغرة وعين التينه وميدون وسُحمُر ويُحمُر، وقلية وزلاية ولوسة، كما ينفون أن تكون قُرى كوكبا وبرغز وسوق الخان والخالصة ضمن حدوده[٢] .

وإذا أردنا أن نعتمد الحدود التي بينتها التقسيمات الإدارية في الجمهورية اللبنانية اليوم، نقول نقلاً عن كتاب معالم الأدب العاملي[٣] "هو جبل مُنبسط قليل السهول كثير الأودية والهِضاب يمتد منه إلى البحر الرأس المعروف بالرأس الأبيض أو الناقورة جنوبي صور وينتهي عند القاسمية، ثم يبتدئ سهل عدلون حيث ينتهي عند رأس الصرفند، وينتهي عند نهر الأولي، سهل صيدا المُتصل بسهل الغازية. وفي سفح هذا

(١) العرفان، عدد أ.م. ٧٠ كانون الثاني ١٩٨٠، ص,٣

(٢) نفس المرجع أعلاه.

(٣) عبد المجيد الحر، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص ,١٩

الجبل سهل يرتفع عن سطح البحر أكثر من ٦٠٠م كسهل الجرمق وسهل الميذنة في سفح جبل الريحان، وكسهل (قدَس) في الجنوب، وترتفع أعلى قمة فيه عن سطح البحر فوق مشغرة وهي قمة جبل التومات نحو ١٨٠٠م، إلى جنوب جبل التومات قمتا جبل الريحان وهُما قمتا سُجُد وصافي، ووراءهما إلى الشرق قمة أبي الركاب، وفي القسم الجنوبي قمة جبل المنارة وارتفاعها يبلغ ٤٠٠م.

وقد دُعي جبل عامل بجبل الخليل لا جبل الجليل[١]، وينقسم إلى قسمين جنوبي وشمالي يفصل بينهما نهر الليطاني (الليطاني كلمة سريانية معناها ذو الضجة بسرعة انحدار) مساحته نحو ٣٠٠٠ كم٢، وسكانه عرب خلّص بنسبهم ولغتهم متحدرون من عاملة بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وهي قبيلة هاجرت من اليمن إلى أطراف الشمال قبل الميلاد بـ ٣٠٠ سنة على وجه التقريب بعد انهيار سد مأرب. يبلغ متوسط طوله من الشمال إلى الجنوب نحواً ٨٠ كلم٢ ومتوسط عرضه ٤٠كلم٢ فتكون مساحته ٣٠٠٠كم٢[٢].

وقد سمي جبل عامل ببلاد بشارة نسبة إلى الأمير حسام الدين بشارة بن أسد الدين بن مهلهل بن أحمد بن سلامة العاملي كما يرجح المؤرخ محمد جابر آل صفا[٣] . ويقال إن محمد بن هزاع الوائلي كان معاصراً للأمير بشارة أو لأحد أعقابه وصهراً لهم، وإليه انتقلت الإمارة في جبل عامل بعد انقراض سُلالة الأمير بشارة، وابن هزاع هذا هو الجد الأول لآل علي الصغير[٤].

وقد كانت قصبة جزين وملحقاتها وجبل الريحان حتى مشغرة من أعمال البقاع تابعة أيضاً لجبل عامل[٥].

---

(١) ص ٢٤ تاريخ جبل عامل (محمد جابر آل صفا) الطبعة الثالثة (دار النهار).

(٢) جبل عامل في الحرب العالمية، الشيخ سليمان ظاهر ص٢٤.

يرى نفس الرأي السيد كاظم الأمين، راجع الياس صادر ثورة جبل عامل سنة ١٩٢٠ ص١٨ كما يراجع الدكتور مصطفى بزي ص١١ مجتمع بنت جبيل بين الحربين ١٤ و ٣٩

(٣) نفس المرجع، ص ,٢٨

(٤) نفس المرجع، ص ,٢٨

(٥) جبل عامل في الحرب الكونية، (الشيخ سليمان ظاهر) ص , ٢١

إقتطاع الحولة من جبل عامل[1] :

كان من نتائج الحرب العالمية الأولى، وإختلاف مصالح الدول، ومساعي الصهيونية العلنية والخفية، والإتفاقات السرية التي كثيراً ما تناقضت مع الوعود الظاهرة أن جرى إقتسام الكثير من أراضي السلطنة العثمانية وتوزيعها بين المنتصرين، وتقديم بعضها جوائز ترضية وهبات، والتنازل عن مساحات هنا أو مناطق هناك كما هو الأمر في فلسطين والإسكندرون وأجزاء من جبل عامل.

"وعندما فكر الصهاينة بمشروعهم الكبير للإستيطان في فلسطين كانوا يتطلعون للإستيلاء على القسم الأكبر من جبل عامل وحتى الليطاني، ليكون هذا النهر المهم جداً جزءاً من دولتهم المعهودة، وبالرغم من إصطدام الهجرة اليهودية إلى فلسطين بالقوانين الصادرة عن الباب العالي والتي كانت تمنع عليهم النزول في الأراضي الفلسطينية فإنهم كانوا يتسللون إلى فلسطين بطرق عديدة، وكان المسؤولون الصهاينة هناك وبعض المرتبطين بهم يسهّلون لهم هذه العملية التي كانت تتزايد يوماً بعد يوم...

كان التطلع في البداية نحو سهل الحولة لأهميته البالغة، وكان سبق للجيش الفرنسي أن وضع سنة ١٨٦٢ خريطة تبيّن أن شمال بحيرة الحولة وسهلها كانا تابعين لقضاء مرجعيون، وكانت قرية المطلّة مزرعة درزية على الطريق الممتد بين وادي التيم وقرى الجليل والجولان وبقيت على هذه الحالة حتى اشترى قسماً منها جبّور رزق الله من صيدا ليبيعها لاحقاً مع أملاكه للبارون الصهيوني رويتشلد حوالي سنة ١٨٧٥.. فأرسلت المؤسسات الصهيونية تاجراً يهودياً سكن البلدة وتوصل إلى شراء معظم الأراضي التي كانت تخص الفلاحين فهجرها أهلها وانتقلوا إلى مزرعة الماري وجبل الدروز وحاصبيا وبلاد الجليل، كما تمّ على فترات شراء أراضي واسعة سنة ١٨٩٢ قرب منابع المياه وفي المناطق الحدودية المتداخلة بين لبنان وسوريا وفلسطين وخصوصاً في سهل الخيام والمطلّة والمنارة... ومع نهاية القرن التاسع عشر وتوسع المساحات المشتراة من قبل اليهود راحت الصهيونية تعمل جاهدة في سبيل الإستيلاء على المنطقة كلها؛ وكتب هرتزل سنة ١٩٠٣ إلى السلطان عبدالحميد عارضاً عليه تقديم مبلغ مليون ليرة تركية مقابل موافقة السلطات العثمانية على إقامة اليهود في منطقة الجليل على مقربة من مياه لبنان الجنوبي باعتبار أن نهر الليطاني يشكل مركزاً مهماً في إنجاز

(١) المعلومات الواردة في الصفحات اللاحقة مأخوذة حرفياً وأحياناً بتصرف عن كتاب جبل عامل وتوابعه في شمال فلسطين، لمؤلفه مصطفى بزي، منشورات دار المواسم، الطبعة الأولى ٢٠٠٢، ص ٣١٣ وما يليها.

المخططات اليهودية في المنطقة. (طارق المجذوب، الليطاني في العقيدة الصهيونية، ملحق النهار ٢ نيسان ١٩٩٧، ص٦).

والحولة كانت تدعى "جورة الذهب" لخصوبة أرضها ووفرة مياهها ذات الأهمية القصوى التي إذا استغلت وصبت في النقب فإنها تجعل القفر يزهر... وفي سهل الحولة تتجمع رواسب جبل الشيخ والجولان وتخترقه في أبعادٍ متناسقة مياه الحاصباني والوزاني واللدان وبانياس حيث تلتقي في بحيرة الحولة وتشكل - وفقاً لتعبير الأستاذ سلام الراسي - حنفية فلسطين التي لا تنضب، فأرضها من أخصب الأراضي في العالم تعطي ثلاثة مواسم في السنة ويبلغ فيها الخصب درجة تفوق حد التصور، ومساحة الحولة مع منطقتها حوالي ٢٥٠ ألف دونم تقريباً منها ١٠٠ ألف دونم أراضي جبلية غرب سهل الحولة و٥٠ ألف دونم تقريباً مساحة البحيرة ومجاري الأنهار والمستنقعات والباقي أراضٍ زراعية.

في سنة ١٩١٣ بعد المؤتمر العربي في باريس أعطت السلطات العثمانية إمتيازاً لبعض الزعماء لتجفيف المياه في مستنقعات أراضي الحولة لقاء تملك هذه الأراضي. لكن إندلاع الحرب العالمية الأولى أدى إلى توقف العمل.

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى وصدور وعد بلفور راحت المخططات الصهيونية تتضح... الإنكليز يعملون على إلحاق الحولة بفلسطين رغم معارضة السكان ورفضهم ومطالبتهم بإبقائهم تابعين إلى المنطقة الفرنساوية تحت حكم الدولة العلية فرنسا العظيمة... وبالرغم من ذلك باع إقطاعيون لبنانيون إلى المستوطنين اليهود نحو ٦٥ ألف دونم ولم يبقَ حينئذ للعرب سوى ٤٥ ألف دونم.

ترسيم الحدود بين لبنان وفلسطين من قبل الإنتدابين الفرنسي والبريطاني يُفقد جبل عامل أجزاءً من أراضيه:

إن ترسيم الحدود بين لبنان وفلسطين جاء نتيجة مفاوضات إنكليزية وفرنسية طويلة وعسيرة وعلى عدة مراحل ولم يكن فيها رأي فاعل ومؤثر للبنانيين والسوريين والفلسطينيين.

طبقاً لإتفاقية سايكس - بيكو كانت الحدود بين لبنان وفلسطين تبدأ من نقطة تنطلق من شمال عكا حتى بحيرة طبرية، وقد حددت الإتفاقية المنطقة الزرقاء منطقة نفوذ فرنسي في الجنوب من نقطة على البحر المتوسط هي مصب نهر الزيب - وادي

القرن – شمال عكا بخط يجاري وادي القرن ثم ينحني ليضم بحيرة طبريه دون الشاطئ الغربي منها.

وكان هناك إتجاه قوي في أوساط السياسة البريطانية لتوسيع حدود فلسطين إلى أقصى ما يمكن نحو الشمال أي إلى مصب نهر الليطاني جنوب صيدا؛ وقد سعى لورانس من جهة أخرى لضم لبنان إلى سورية الفيصلية وكذلك اقترح الجنرال كلايتون صيغة مشابهة وبعد محاولات عديدة تمّ التوصل في ٣٠ أيلول ١٩١٨ بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية إلى تفاهم جديد حول تطبيق إتفاقية سايكس – بيكو، لكن الصراع إستمر خفياً حول الشرق إلى حين إقرار الإنتداب في مؤتمر سان ريمو في إيطاليا في نيسان ١٩٢٠ (لبنان المياه والحدود ١٩١٦–١٩٧٥، عصام خليفة، ص٣١ بيروت ١٩٩٦). وعلى الرغم من ذلك إستمرت الضغوطات البريطانية على الفرنسيين لمصلحة المشروع الصهيوني وساهمت في تعديل الحدود بعد إنتهاء الحرب الأولى سنة ١٩١٨ وفقاً لخط جديد أطلق الإنكليز عليه إسم Occupied ennemy Territory Administration وتمّ نقل الحدود أكثر نحو الشمال ولم تنجح بالتالي الحركة الصهيونية والإنكليز في إيصالها إلى صيدا، وبقيت مسألة الحدود بين لبنان وفلسطين حاضرة حتى في مؤتمر السلام الذي عقد في باريس أول كانون الثاني ١٩١٩ لتسوية القضايا الناجمة عن نهاية الحرب، وقد ضغطت الحركة الصهيونية على الوفود لتكريس وعد بلفور وقدم الوفد الصهيوني الذي كان برئاسة حاييم وايزمن وناحوم سولوكوف مذكرة طالبت الدول بتأكيد الحق التاريخي لليهود في فلسطين وحقهم بإعادة بناء وطنهم القومي الذي تحده صيدا من الشمال وخط يصل إلى حرمون، وكان الهاجس الذي يشغل القيادة الصهيونية هو السيطرة على منابع المياه... وقد رفضت فرنسا هذه المطالب، وتتالت المفاوضات وتعددت الإقتراحات، ومعظمها يطالب بضم الليطاني للدولة اليهودية ولم ترضخ فرنسا، وأبلغت رفضها لبريطانيا، ذلك الرفض الذي آخذ زخمه وقوته من مطالب القوميين المسيحيين اللبنانيين الذين شكلوا ثقلاً مماثلاً للثقل الصهيوني الذي كان يستفيد منه الإنكليز. (عصام خليفة نفس المرجع السابق).

في أثناء إنعقاد مؤتمر السلام في فرساي، اتصل بن غوريون ووايزمن بالبطريرك الماروني وحاولا إقناعه بالتخلي عن جنوب لبنان الذي تسكنه أكثرية إسلامية لقاء وعد بتقديم مساعدات فنية ومالية إلى الدولة اللبنانية الناشئة ولكن البطريرك رفض هذا العرض. (طارق المجذوب المرجع السابق).

في ٢٨ حزيران ١٩١٩ أقرّ المؤتمرون معاهدة فرساي وميثاق عصبة الأمم.. وكانت في نفس هذه الفترة لجنة كنغ كراين التي ألّفها الرئيس الأميركي ويلسون تستطلع آراء السكان في بلاد الشام بشأن المستقبل الذي يتطلعون إليه، وقد حاول الرئيس الأميركي - أثناء المباحثات الإنكليزية والفرنسية التي كانت تجري في أيلول ١٩١٩ - بالتنسيق مع لويد جورج وتحت ضغط المنظمات الصهيونية الضغط على الفرنسيين لتوسيع حدود فلسطين في الشمال والشرق لتشمل نهر الليطاني ومنابع المياه في حرمون... إلا أن الرئيس كليمنصو رفض تلك المطالب وأصرّ على إبقاء الحدود على حالتها دون تغيير حفاظاً على مصالح ونفوذ الفرنسيين.

لم تهدأ محاولة الصهاينة السرية والعلنية لتكريس الليطاني ومنابعه ضمن حدود فلسطين الشمالية حتى إذا تحددت دولة لبنان الكبير في ٣١ آب سنة ١٩٢٠ من الشمال والشرق والغرب لم تحدد من الجنوب وقد ورد: أما في الجنوب فحدود فلسطين ستحدد لاحقاً باتفاقات دولية. وأعلن الجنرال غورو في أول أيلول ١٩٢٠ ولادة الدولة الجديدة وبلغت مساحتها ١٢ ألف كلم٢ تقريباً... وكانت الحولة ضمنها، فتحفظت بريطانيا عاملة على فرض صيغة جديدة.

في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ ووفقاً لمعاهدة سان ريمو أقرت عصبة الأمم صك الإنتداب وفي ٢٩ منه أي بعد خمسة أيام بدأت محادثات فرنسية إنكليزية لترسيم الحدود بين لبنان وفلسطين وإستمرت الخلافات بينهما كما استمرت سياسة بريطانيا في إبتزاز الفرنسيين لإرضاء المطامع الصهيونية حتى تمّ الإتفاق في ٢٣ كانون الأول سنة ١٩٢٠ على ترسيم جديد للحدود بحيث سلخت مناطق جديدة من لبنان وضمت إلى فلسطين. وشمل التعديل بشكل رئيس المنطقة الشمالية الشرقية بين فلسطين ولبنان حيث منابع الأردن وأصبحت الحدود كما يلي:

خط يبدأ من رأس الناقورة على ساحل البحر المتوسط ثم يتجه شرقاً بالقرب من لبّونة ويارين ورامية ويارون في الجنوب اللبناني ثم يتتابع شمالاً مع ميل طفيف نحو الشرق ماراً بقرى ألحقت بفلسطين مثل صلحة والمالكية وقَدَس والمنارة حتى المطلّة في أقصى الحدود الشمالية تقريباً ثم يتجه نحو الجنوب الشرقي ماراً بالقرب من إبل القمح والسنديانة وتل القاضي ودان ليتجه بعدها جنوباً ماراً وسط بحيرة طبرية... ولم ترض الحركة الصهيونية بهذه الحدود واستمرت تمارس ضغوطها بمساعدة الإنكليز...

وفي أوائل حزيران سنة ١٩٢١ اجتمعت لجنة فرنسية انكليزية لترسيم الحدود مجدداً وبدأت أعمالها على الأرض ترأسها من الجانب البريطاني الكولونيل New comb ومن الجانب الفرنسي الكولونيل Paulet وأخذت وقتها في العمل؛ وفي ٣ شباط ١٩٢٢ سلمت اللجنة تقريرها النهائي إلى المعنيين في الجانبين وتم توقيع هذا التقرير وبموجبه دخلت بحيرة طبريه وبحيرة الحولة وقرية الحِمّة في فلسطين وتمددت الحدود في الشمال لتضم معظم منابع الأردن وما عُرف بأصبع الجليل وخسر لبنان مساحة تقارب ٣٢٥كلم٢ بطول ٢٢ كلم وعرض ١٤ كلم.

واتخذت هذه الحدود شكلاً قانونياً وأقرت كوثيقة دولية وأبرمت هذه الإتفاقية في ٧ آذار سنة ١٩٢٣ لتصبح نافذة بعد ثلاثة أيام وأودعت عصبة الأمم واصبح لها طابع دولي وبموجب هذه الإتفاقية تمّ سلخ القرى السبع وهي: طربيخا، صلحة، المالكية، النبي يوشع، قَدَس، هونين، إبل القمح.

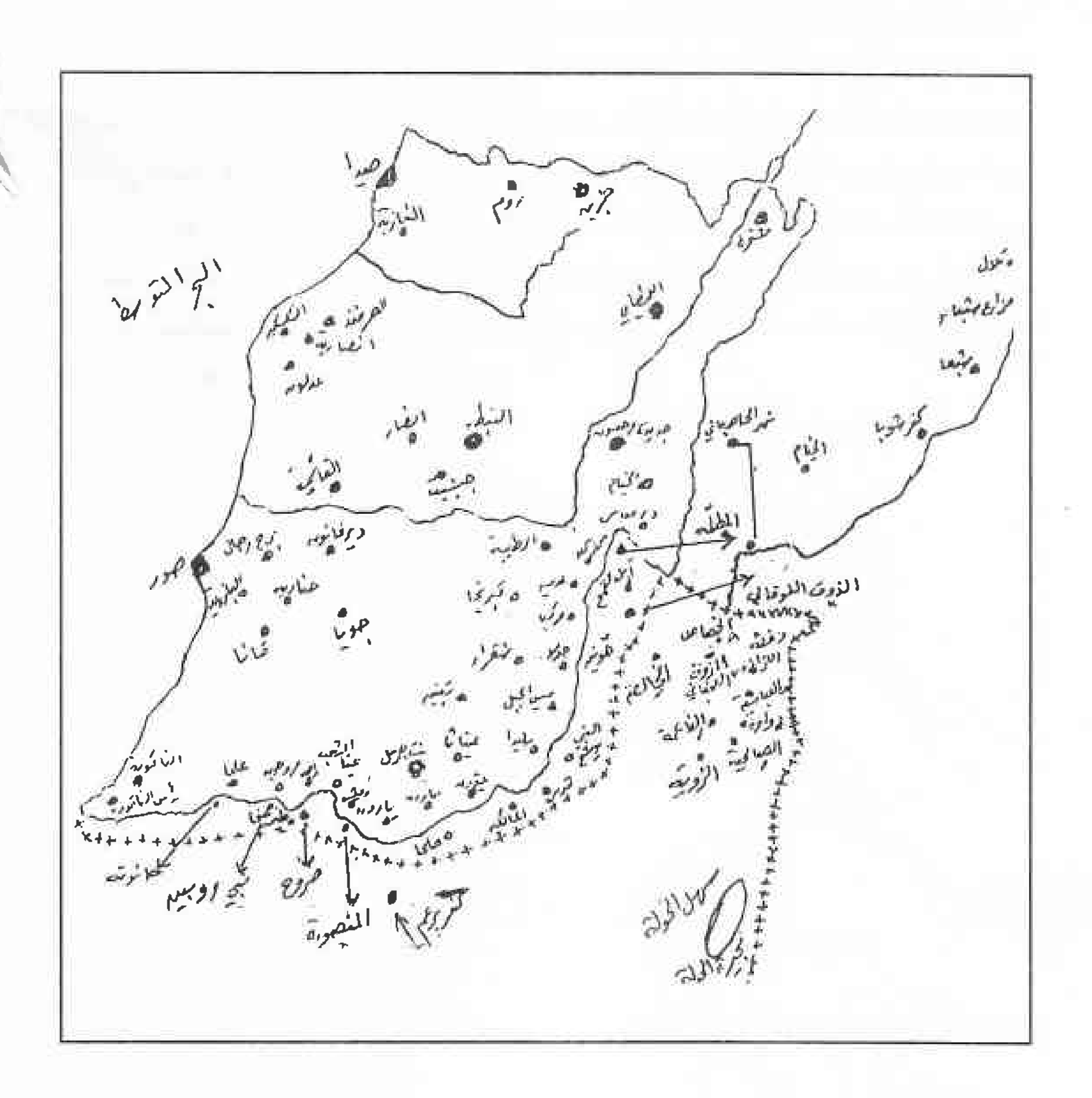
وبالرغم من ضم هذه القرى إلى فلسطين فإن سكانها ظلوا يحملون الجنسية اللبنانية... علماً أن هذا الترسيم خلّف الكثير من المشكلات الإجتماعية والإقتصادية التي أدت إلى نشوب أعمال عنف... الأمر الذي استدعى عقد إتفاقية حسن الجوار.

واتفاقية حسن الجوار كانت بدورها تعديلاً آخر للحدود... (وقد تمت بموجب إتفاق في ٢٣ حزيران سنة ١٩٢٣) وكان مجدداً على حساب لبنان إذ تنازلت السلطة المنتدبة عن كامل المنطقة اللبنانية من الحولة وخسر لبنان من جديد نحو ٢٣ آلف دونم تعود ملكيتها للقرى اللبنانية (مرجعيون - كفركلا - دير ميماس - حاصبيا - القليعة - ومزارع أخرى).

المشكلة الأساسية تمثلت بفصل حوالي ست وعشرين قرية ومزرعة لبنانية عاملية وضمها إلى فلسطين وهي: النخيلة، الصالحية، الناعمة، الخالصة، الزوية، المنصورة، الذوق الفوقاني والذوق التحتاني، خان الدوير، الدّوارة، الخصاص، العباسية، دفنة، اللزازة، الدحيرجات، الزاوية، المطورة، شوكة، صروح، النبي روبين، معصوبة، المطلة، إقرت، حانوتة، معسولة ودحرجة، جردية كفربرعم. (مسعود ضاهر، المرجع السابق).

لم يُسلّم الإنتداب الفرنسي القرى دفعة واحدة للإنتداب البريطاني وإنما على مراحل وبالتدرج ولم تأخذ الحدود شكلها النهائي إلا في نيسان ١٩٢٤ ولم توضع موضع التنفيذ إلا في ٢ شباط سنة ١٩٢٦ بموجب معاهدة القدس.

وبعد هذا التاريخ فرض الإنتداب الإنكليزي على الأهالي ترك هوياتهم اللبنانية وحمل الهوية الفلسطينية... وفي سنة ١٩٣٤ صدقت عصبة الأمم على اتفاق ترسيم الحدود النهائي بين فرنسا وبريطانيا. والجدير بالذكر أن المادة الثالثة من معاهدة القدس نصت على أن من لهم ملكيات في جهة أو أخرى من الحدود لهم الحق بمتابعة التصرف بهذه الحقوق كما في السابق... وهذا استتبع لاحقاً الإحتفاظ بمساحات كبيرة من لبنان ضمن فلسطين وقضم مساحات أخرى ومنع المواطنين اللبنانيين من إستغلال أرضهم المغتصبة وعلى طول الحدود ومن جميع القرى والبلدات المحاذية لفلسطين إبتداءً من الناقورة وإنتهاءً بمزارع شبعا.

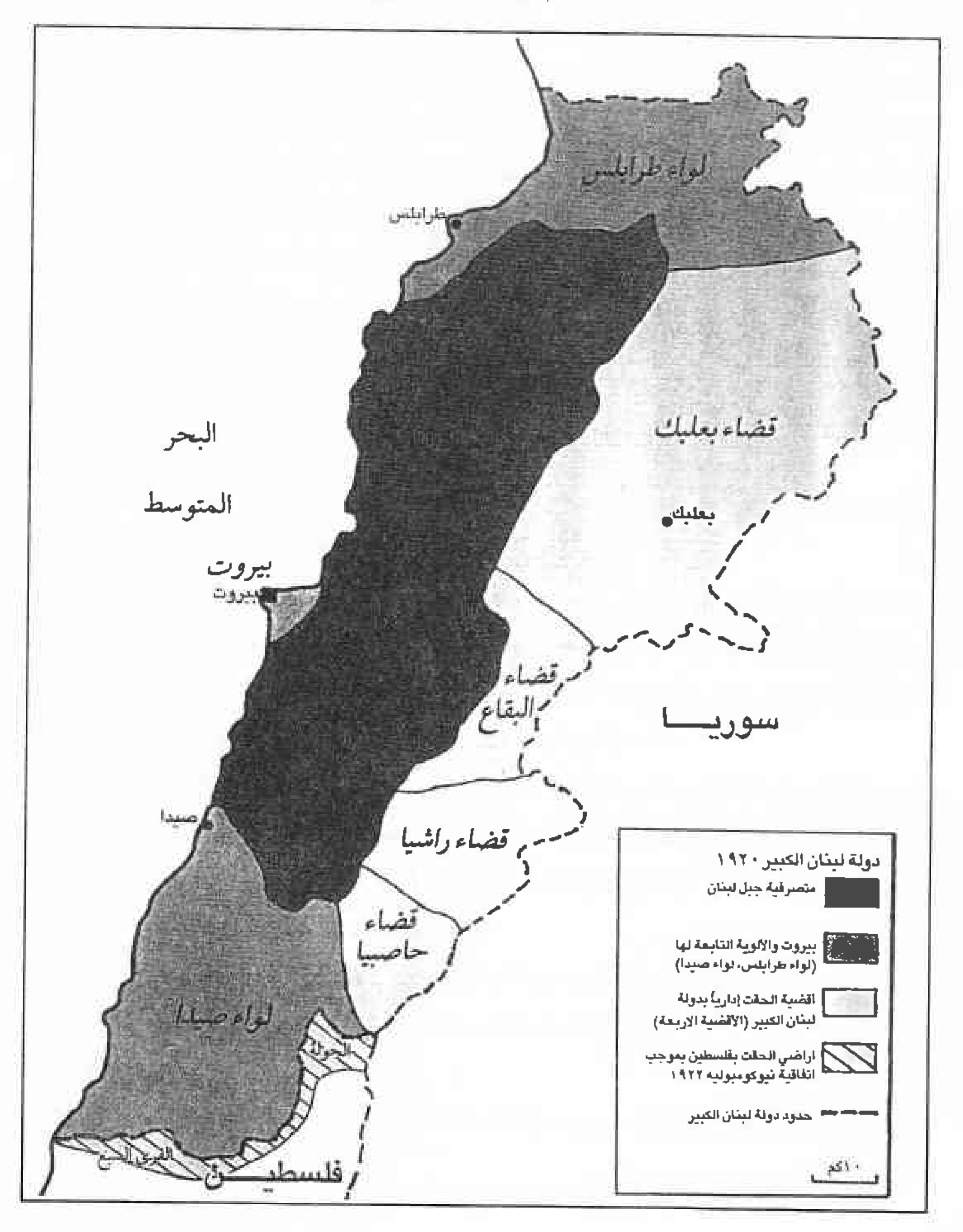


.... جبل عامل منذ سنة ١٩٢٦ حتى اليوم.

++++ جبل عامل مع القرى السبع.

++++ جبل عامل مع القرى الأخرى في أصبع الجليل والجليل الغربي وسهل الحولة.

أقسام دولة لبنان الكبير



قضية مزارع شبعا:

يمهد إبن شبعا النائب السابق السيد منيف الخطيب[1]، لكتابه "قُدّر لبلدة شبعا ومزارعها أن تكون في منطقة هامة وحساسة جداً في قلب جبل الشيخ، وعلى ذُراه وهضابه وسفوحه أو في أوديته، وأن تتمدّد وصولا إلى سهل الحولة على ضفاف بحيرته. وأن تكون مزارعها موزعة منذ نهاية الأربعينيات من القرن الماضي على ثلاث دول هي: فلسطين وسورية ولبنان. وتشاء العناية الإلهية أن تتفجر في هذه الأرض ينابيع عدة: فجبل الشيخ أكبر خزان للمياه في المنطقة، والثلوج على قممه ترفد هذه الينابيع بالمياه طوال العام. وهي ينابيع بالغة الأهمية، تنبع من أراضي المزارع ومحيطها. ومجاريها على تماس مع أراضي المزارع كالبانياسي والسعّار في سوريا، والحاصباني والوزاني في لبنان، أو تنبع من أرضها كاللدان في مزرعة المغر، أو نبع الجوز، ونبع المغارة في أراضي بلدة شبعا، بالإضافة إلى العديد من الينابيع والعيون كمنطقة جنعم وقاطع برختا ووادي العسل وسواها.

كما أن انتشار هذه المزارع الواسع، وتعدّد مواقعها، وتفاوت ارتفاعها عن سطح البحر، قد أكسبها ميزات عديدة وفوائد جمة.

وهي تتدرج من المناطق المنخفضة الدافئة جداً، حتى الحارة صعوداً باتجاه المناطق المعتدلة، فالباردة حيث الثلوج والجليد. إن هذا التنوع المناخي، وتنوّع طبيعة الأرض من مناطق سهلية منبسطة مستوية، إلى مناطق جبلية وعرة، قد جعل من مزارع شبعا مصدراً للإنتاج الزراعي والحيواني المتنوع والوفير في آن معاً.

تقع مزارع بلدة شبعا على منحدرات وسفوح الجهة الغربية لجبل الشيخ، وتتناثر هذه المزارع على التلال وفي حنايا الأودية، أو تتربع على المنبسطات السهلية. وهي امتداد لبلدة شبعا، تفصلها عنها بعض التلال، ومنطقة النقار الزراعية التابعة للبلدة وتنحدر هذه المزارع تدريجياً وصولاً إلى سهل الحولة.

وهذه المزارع هي: مراح الملول، برختا، المشهد، رمثا الربعة، بيت البراق، كفردورة، حرف الغبرة، بسطرا، زبدين، قفوة، القرن، خلة غزالة، فشكول، المغر. بالإضافة إلى مشهد الطير.

ليست هذه المزارع ملكاً لفرد أو عائلة. فلكل مزرعة مالكوها الكثر من العائلات

(١) مزارع شبعا، حقائق ووثائق الذي صدر عن سنة ٢٠٠١ عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ص ١١.

المتعدّدة. وبذلك تشكل كل مزرعة قرية صغيرة لها طابعها، ومساكنها، وأحراجها، ومراعيها. وهي إما متقاربة من بعضها، وإما متباعدة. ولكن مشاعاتها متّصل بعضها ببعض، ولا فاصل بينها، وتمتد في منطقة واسعة جداً يملكها جميعها أبناء البلدة، وليس هناك مالك أو مقيم في هذه المزارع من خارج البلدة. فهي شبعاوية الملكية، وشبعاوية الانتماء إذا جاز التعبير.

إن بلدة شبعا المتربعة في أحضان جبل الشيخ تشكل مع مزارعها الزاوية الجنوبية الشرقية من لبنان.

أصبحت بلدة شبعا ومزارعها لبنانية منذ إعلان دولة لبنان الكبير بموجب القرار ٣٢٠ تاريخ أول أيلول ١٩٢٠، الصادر عن الجنرال غورو المندوب السامي الفرنسي الذي كان قد أصدر قراراً رقم ٢٩٩ نصت مادته الأولى: "على أن تلحق إدارياً كل من أقضية حاصبيا وراشيا وبعلبك والبقاع المعلقة بالأراضي اللبنانية". ومن المعروف أن هذه الأقضية الأربعة كانت تابعة أساساً لولاية دمشق[1] .

بعد إعلان دولة لبنان الكبير، وضم الأقضية الأربعة: بعلبك الهرمل، البقاع الأوسط، راشيا، حاصبيا، واعتماد الحدود بين الدولتين الشقيقتين سورية ولبنان كما حددتها المادة الثانية من القرار ٣١٨، أي حدود الأقضية أصبح قضاء حاصبيا بكامله لبنانياً بما فيه بلدة شبعا ومزارعها. وقد اعتمدت رؤوس القمم في السلسلة الشرقية نقاط حدود بين البلدين، والمقلب الشرقي للمياه، أي الجهة الشرقية لجبل الشيخ، يقع ضمن الحدود السورية، والمقلب الغربي للمياه، أي الجهة الغربية لجبل الشيخ، يقع ضمن الأراضي اللبنانية. كما ورد نص واضح يتعلق بالحدود اللبنانية في المادة الأولى من الدستور اللبناني الذي أعلن عام ١٩٢٦، وكذلك في دستور العام ١٩٤٣.

وبذلك أصبحت الحدود الدولية للمناطق اللبنانية الجنوبية والجنوبية الشرقية واضحة، ومعترفاً بها دولياً، ومودعةً لدى عصبة الأمم التي حلت محلها فيما بعد الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، كما صدر القرار رقم ٢٧- R4 تاريخ ٤ شباط ١٩٣٥ وفي النص التالي:

cette frontière est constituée par la ligne de faite de L'Anti-Liban, c'est-à-dire par une limite géographique.

(١) نفس المرجع أعلاه، ص ٢٩.

وهذا يؤكد أن خط الحدود في السلسلة الشرقية يجب أن يتبع خط القمم.

وفي العام ١٩٣٤، بدأت عملية الترسيم ميدانياً على الأرض بوضع النقاط - المعالم - على رؤوس القمم في جبل الشيخ. عملت إسرائيل لاحقاً على إزالة هذه المعالم لطمس الحقائق وتغيير معالم الحدود.

وتكرست الحدود على الأرض باتفاق الدولتين السورية واللبنانية عبر اللجان المشتركة بعد إستقلال كل من البلدين.

وقد تشكّلت لجنة مشتركة سورية لبنانية قامت بزيارة ميدانية جرى خلالها تثبيت الحدود بشكل نهائي. وكان حاضراً وزير الدفاع اللبناني ذلك الوقت الأمير مجيد أرسلان، فكان الإتفاق تاماً (روى ذلك الأمير مجيد إرسلان بالتفصيل. وكان وفد من نواب الجنوب قوامه النواب: عبداللطيف بيضون، رائف سمارة، علي العبدالله، منيف الخطيب، يراجع رئيس الوزراء تقي الدين الصلح يوم الجمعة ٢٤ شباط ١٩٧٣ بشأن مطالب أصحاب المزارع المحتلة. وتشاء الصدف أن يضم ذلك الاجتماع آخر ثلاثة سياسيين يعتمرون الطربوش وهم: الرئيس تقي الدين الصلح، الأمير مجيد ارسلان والنائب عبد اللطيف بيضون).

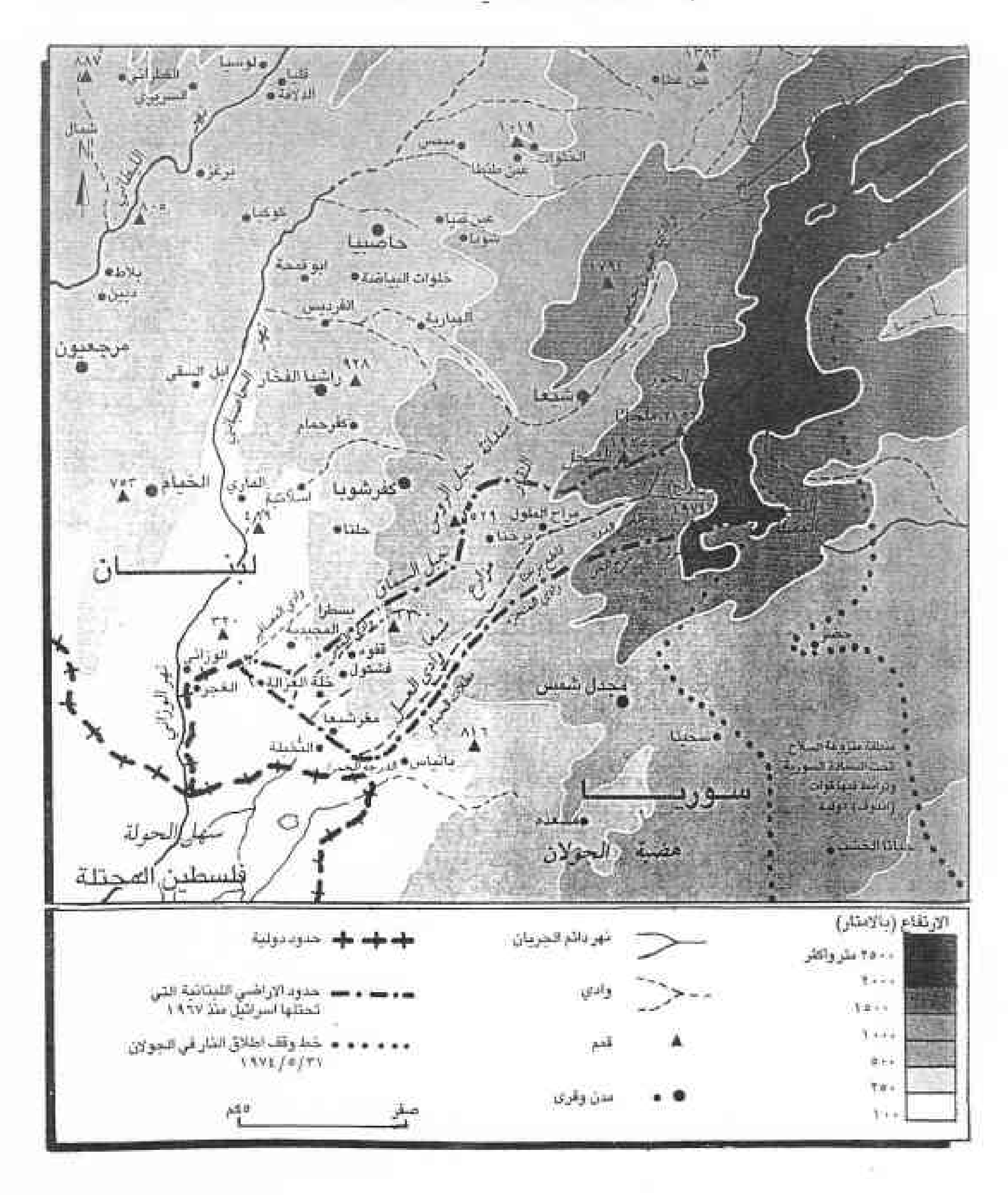
ومنذ ذلك الوقت، تأكد أن مزارع شبعا جميعها لبنانية باستثناء مزرعة المغر المعروفة: بـ "مغر الشباعنة"، أو "مغر شبعا" التي أصبحت سورية مع قسم من أملاك هذه المزرعة والقسم الآخر من أملاكها في فلسطين في محيط نبع اللدّان وسهل الحولة. وهكذا تكون مزرعة المغر فلسطينية - سورية أرضاً وحقولاً. ومنازلها سورية. أما أصحابها، فشبعاويون لبنانيون.

بعد حرب حزيران ١٩٦٧ أمست جميع مزارع شبعا تحت مرمى النار الإسرائيلي فبدأت إسرائيل بإرسال الدوريات وممارسة الإستفزازات والقصف والتدمير، وفي مرحلة لاحقة بدأت تقيم المواقع العسكرية الثابتة في العديد من المراكز والتلال الإستراتيجية وتنقب عن الآثار وتوسّع شبكات الطرق وتسيّج مناطق واسعة بالأسلاك الشائكة المكهربة وبزرع الألغام لتشكل حزاماً واقياً حولها، ثم تتابعت عملية القضم التدريجي لا سيما في عامي ١٩٧٣ و١٩٧٤ وإبان إجتياح ١٩٨٢ وكانت نهاية المطاف ضم مزرعة بسطرا في نيسان ١٩٩٠ وطرد سكانها وتدمير ما فيها من عمران وبذلك أكملت إسرائيل إحتلالها لمزارع شبعا.

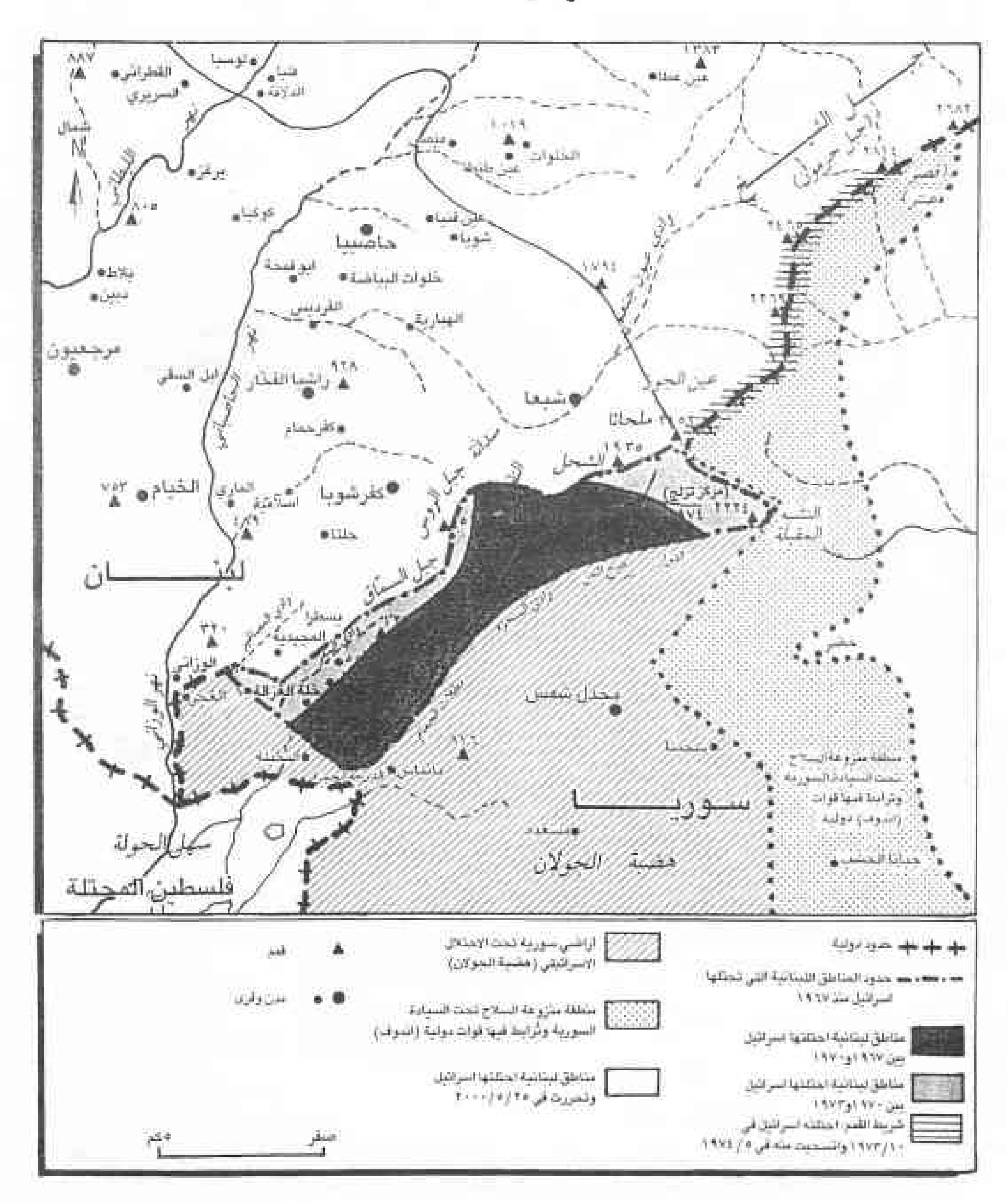
وتجدر الإشارة إلى أن القوات السورية لم تكن متواجدة في مزارع شبعا قبل حرب حزيران ١٩٦٧ وعدم وجود قوات دولية (أندوف) كما تدعي إسرائيل... ثم إن إحتلال إسرائيل لم يقتصر على مزارع شبعا بل تعدّاها إلى قمم جبل الشيخ حيث أقام الإسرائيليون مراصد عسكرية للمراقبة والإستطلاع"[1] .

(١) نفس المرجع أعلاه، ص ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ و١٢٤

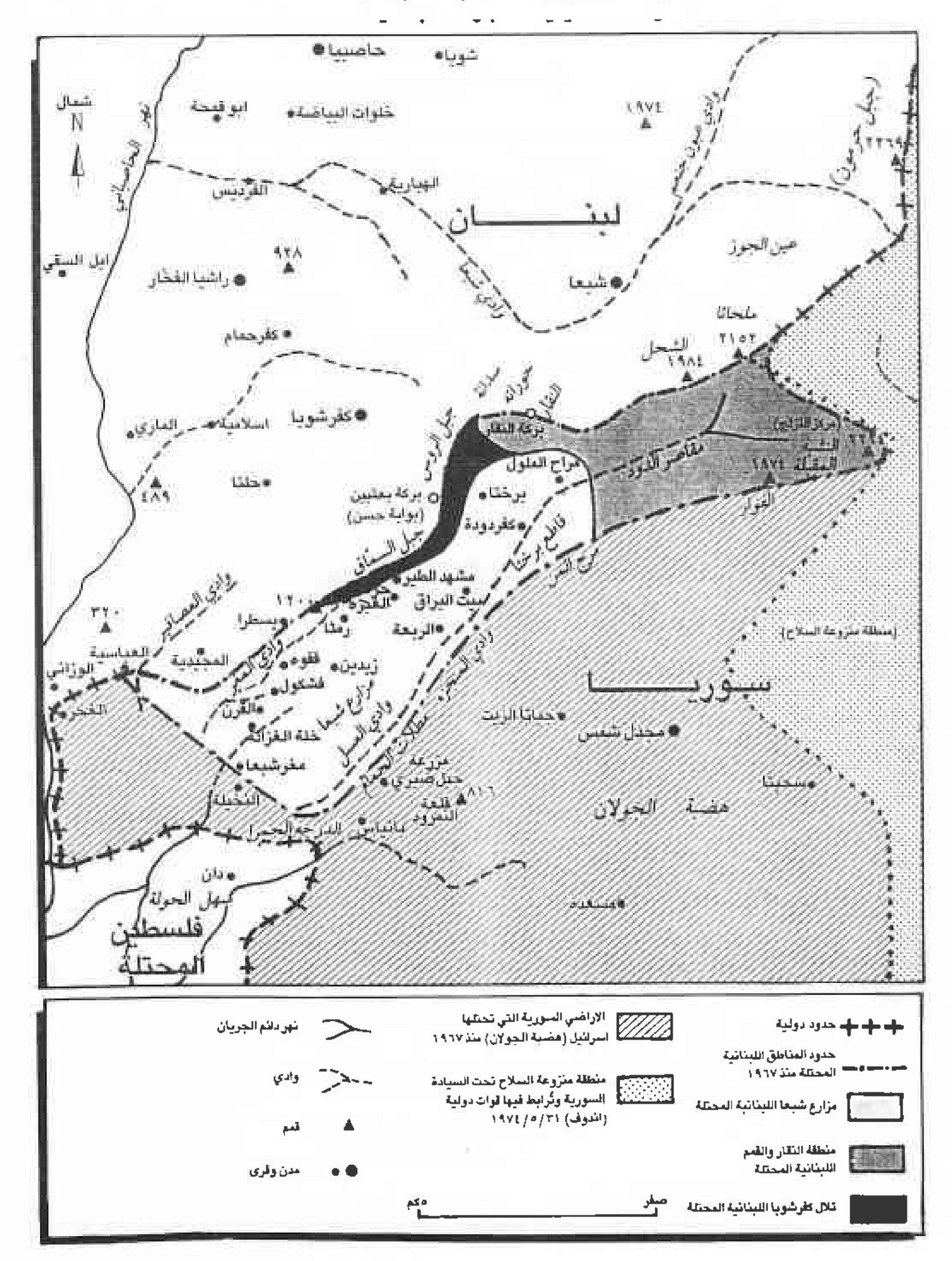
خارطة طبيعية للأراضي اللبنانية المحتلة



مراحل الاحتلال



خارطة تفصيلية للأجزاء اللبنانية المحتلة



الأطماع في المياه:

في الصفحة ١٣١ من كتابه مزارع شبعا يورد المؤلف الخطيب:

"في عام ١٨٦١، وبتكليف من منظمة الصهيونية العالمية، قامت أول بعثة بدراسة أوضاع المياه في فلسطين ومحيطها. وقامت بجولات ميدانية واسعة شملت جبل الشيخ ومحيطه، وأوصت بوضع ينابيع جبل الشيخ والجولان وجنوب لبنان ضمن المخطط الصهيوني لإقامة دولة إسرائيل، ومدّها بالمياه، التي ستصبح في المستقبل أغلى من الدماء في منطقتنا.

عقد مؤتمر بال المشهور سنة ١٨٩٧؛ بيد أن الاهتمام بجبل الشيخ ومياهه سبق هذا المؤتمر بـ ٣٦ سنة؛ واندرج ذلك في المخطط النهائي لتنفيذ الحلم الصهيوني بإقامة إمبراطورية بني صهيون التي ستحكم العالم بشتى الوسائل والسبل والأشكال، ذلك الحلم الذي حدّدت له فترة زمنية قدرها مئة سنة.

أما موضوع المياه، فقد كان في طليعة الاهتمامات الإسرائيلية، ويتقدم على ما عداه من الموضوعات التي تطرحها المزارع. وفي العام ١٩٤١، إبّان الحرب العالمية الثانية، طلبت الوكالة اليهودية رسمياً، من الحكومة البريطانية، إطلاق يد اليهود في فلسطين كلها وضمت جنوب لبنان إليها حتى نهر الليطاني، في مقابل دعمهم للمجهور الحربي البريطاني. وقد رفض تشرشل هذا العرض في بيان رسمي ألقاه في مجلس العموم.

كما نشرت صحيفة "معاريف" رسالة من بن غوريون مؤرخة في العام ١٩٤١، موجّهة إلى الخارجية البريطانية ١٩٤١، يقول فيها: "علينا أن نتذكر أنه من أجل بقاء الدولة اليهودية... يجب أن تكون أرض النقب، وكذلك مياه الأردن والليطاني في أراضينا".

منذ ذلك الوقت، بدأت المخططات الهادفة إلى وضع اليد على تلك المنطقة، وضمّها إلى الكيان الصهيوني المنوي إقامته على أرض فلسطين، عندما تسمح الظروف وتتمكّن القوى الصهيونية، والقوى المساندة لها، من تحقيق هذا الهدف، وذلك للأسباب الهامة الآتية:

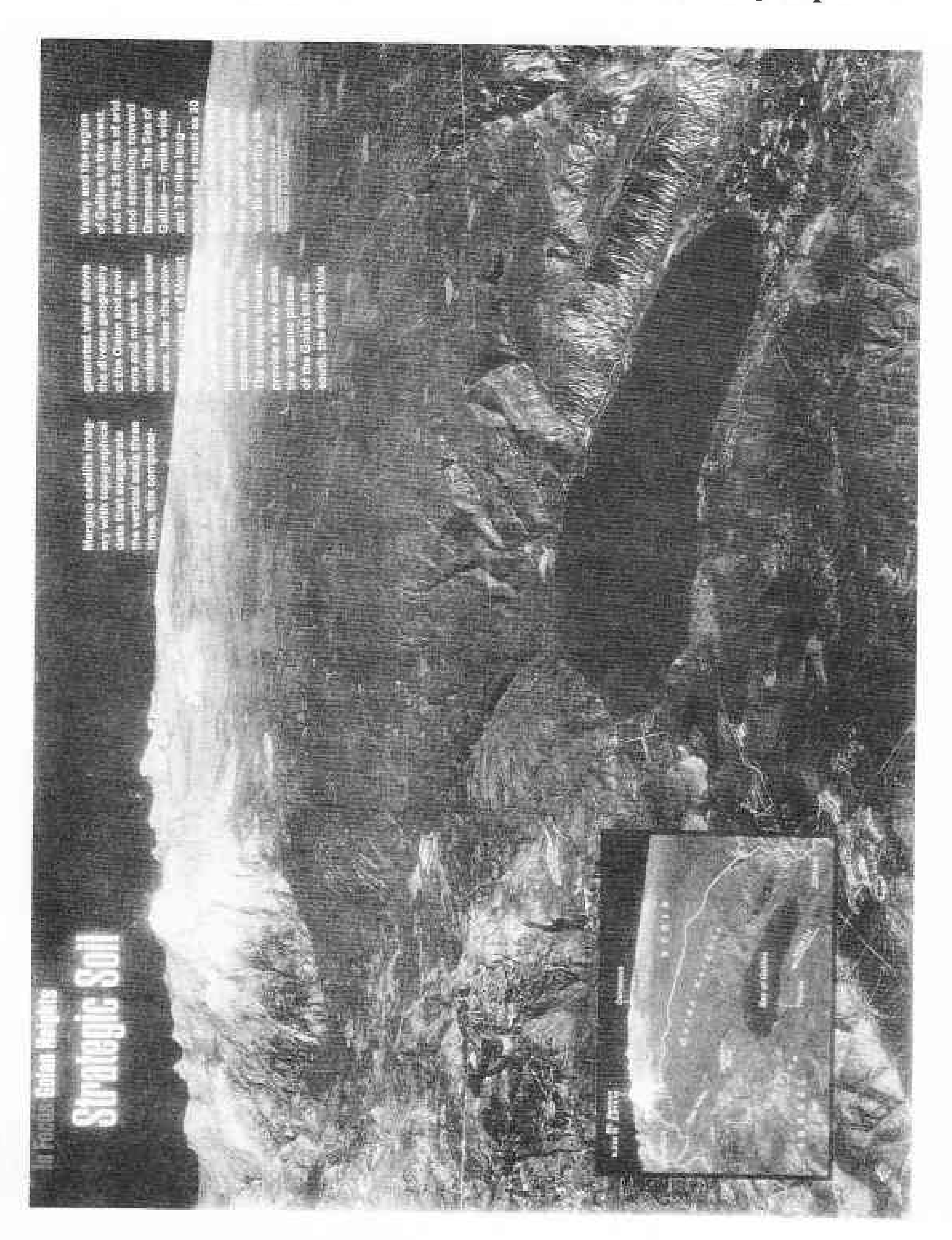
١- إن جبل الشيخ، المعروف أيضاً بجبل "حرمون" يشكّل أكبر خزان للمياه في المنطقة، وتتفجّر من سفوحه وأوديته الينابيع التالية: الحاصباني، الوزاني، الجوز، المغارة في شبعا، السريد قرب الماري، بالإضافة إلى ينابيع صغيرة أو موسمية في لبنان، والبانياسي، وبيت جن، والسعار في سوريا، واللدان في فلسطين.

٢- إن جبل الشيخ، بثلوجه ومياهه وأحراجه وهوائه الطيب العليل، يشكّل منطقة مثالية للسياحة الاصطياف والإشتاء لفلسطين البلد الحار والجاف، والذي لا توجد فيه مناطق اصطياف. وقد عرف الإسرائيليون الأهمية السياحية لجبل الشيخ، ولديهم خطط جاهزة لمشاريع سياحية هامة، منها إنشاء بحيرات اصطناعية وفنادق ومصحات جبلية. وقد أنشئت محطة تزلّج في منطقة مقاصر الدود، بين رأس الشحل ومركز الفوّار، ضمن الأراضي اللبنانية. ونظِّمت رحلات سياحية دائمة إليها. ولدى إسرائيل النية الخبيثة بتوسيع نطاق السياحة في جبل الشيخ.

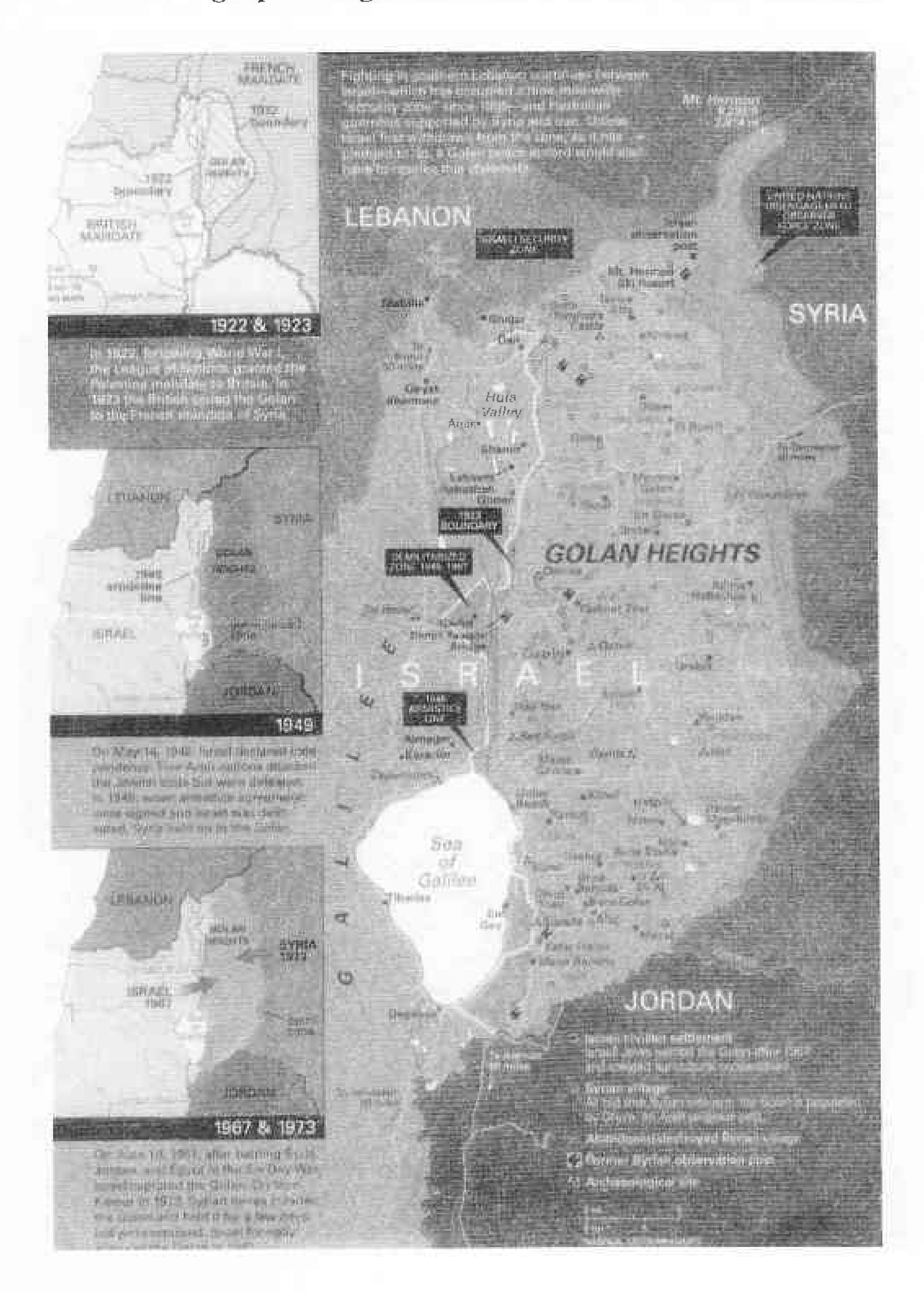
٣- إن هذا الجبل، الذي يعلو ٢٨١٤م عن سطح البحر، هو أعلى جبل يطل على فلسطين وسوريا والأردن وسهل البقاع ووادي التيم وجبل عامل. وهو بذلك يشكل منطقة مثالية وهامة جداً، من الناحية الاستراتيجية، إذ إن القوة المتمركزة فيه تستطيع أن تسيطر على ما حولها. وطموح العسكريين الصهاينة أن يكون تحت سيطرتهم للتحكّم بمصير المنطقة وحفظ أمن إسرائيل.

٤- هناك ما يمكن تسميته "الاستراتيجية التاريخية"، وفق العقيدة الصهيونية. وهو اعتقاد فئات كبيرة من اليهود المتديّنين الأصوليين. **وترتكز هذه الاستراتيجية على مفهوم مفاده أن دولة إسرائيل لا تؤخذ إلا من الشمال أي من وادي التيم وسهل البقاع وهضاب حرمون**، كما حصل في قديم الزمن على يد نبوخذ نصّر، الملك البابلي الذي كان على خلاف قوي مع اليهود بسبب تصرفاتهم وألاعيبهم، فضرب يهوياكين ملك يهودا، واستولى على كنوز الهيكل. وقد هاجمهم أكثر من مرة، إلى أن كان الهجوم الكاسح سنة ٥٨١ ق.م، حيث أحرق المدينة، وهدم أسوارها وأسر منها ٧٠٠ شخص، فاضطرّ من تبقى أن يفرّ إلى مصر. وكان نبوخذ نصّر قد أوقع بالملك صدقيا، وسمل عينيه، وساقه أسيراً إلى بابل".

National Geographic In focus. Golan Heights the key to peace.



National Geographic Pages 102 - 107 Author: Don Author Belt



أقسام جبل عامل الداخلية

كان جبل عامل ينقسم إلى ثماني نواحٍ أو مُقاطعات، كُل مقاطعة أو ناحية تلحق بها قُرى يحكمها حاكم واحد يُقرر عليه الحاكم العام مالاً مقنناً يدفعه لخزينة الدولة ويستوفي هو الخراج والضرائب من أهلها[1].

وهذه النواحي منها أربع في القسم الجنوبي وهي:

جبل هونين وقاعدتها بنت جبيل	
جبل تبنين وقاعدتها تبنين	تُسمى بلاد
ساحل قانا وقاعدتها قانا	بشارة وحكامها
ساحل معركة وقاعدتها صور	آل الصغير

وأربع في القسم الشمالي وهي: ناحية الشقيف وقاعدتها النبطية | آل صعب

ناحية الشومر وقاعدتها أنصار	آل مُنكر (المناكرة)
ناحية التُفاح وقاعدتها جُبع	ويلقبون بالمقدمين
منطقة جزين وقاعدتها جزين	

أما في عصرنا الحالي فإن كلمة جبل عامل تكاد لا تُعرف من الناحية الرسمية؛ ذلك أن هذه المنطقة أصبح يُطلق عليها اسم جنوب لبنان بعد أن ضُمت إلى لبنان في أوائل القرن العشرين بعد إنشاء دولة لبنان... وقد سُلخ عنها الشريط الممتد من البصه على سالح البحر الأبيض المتوسط حتى الخيام بعد أن ضُمت إلى فلسطين المُحتلة... غير أن الحكومة اللبنانية تُطلق الآن هذا الاسم على مشروع المياه الذي يروي الجنوب من الليطاني (مصلحة مياه جبل عامل)[2] .

وقد جرى تعديل حدود جبل عامل بموجب معاهدة (بولين - نيو كمب)، التي عُقدت بين فرنسا وبريطانيا بتاريخ ١٩٢٢/٢/٢٢، لتحديد التخوم بين فلسطين ولبنان، ونتيجة

(١) خُطط جبل عامل، ص ١٣١، السيد محسن الأمين

(٢) الشعر العاملي الحديث، دكتور قيصر مصطفى، ص ٢٣

لذلك اقتطع من لبنان ٢٣ قرية ومزرعة وألحقت بفلسطين "وهذه القرى لم تُسلخ عن لبنان إلا بعد ١٩٢٦ لأن اتفاق القُدس حصل في ١٩٢٦/٢/٢، بين بريطانيا وفرنسا، والذي كرّس ما اتفق عليه في اتفاق (بولين – نيو كمب) بتاريخ١٩٢٢/٢/٢٢، وهي: صلحا – هونين – طربيخا النبي روبين سروح – المالكية – قدَس– يوشَع – إبل القمح.

والمزارع: إقرط – جردية – حانوتا – المطلة – غبطية – الخصاص –الصالحية – دفنة – ذوق التحتانية – الدوارة – الخالصة – اللزازة– الناعمة – الزربة – السينارية – خيام عرب النحيوان وعرب الزهران[1] .

مدارس جبل عامل الدينية:

من الحقائق شبه الثابتة أن جبل عامل عرف التشيّع باكراً وفي الوقت الذي حلّ فيه أبو ذر الغفاري منفياً في عهد الخليفة عثمان بن عفان... أقام هذا الصحابي في ميس الجبل وفي الصرفند، وفيهما مسجدان عرفا بإسمه.. وقد حافظ علماء جبل عامل عبر تاريخ على صلاتهم بأئمتهم، فأخذوا عنهم تعاليمهم وأصول مذهبهم، وراحو يعلمونها في مدارسهم ويسهرون على تطبيقها وينشرونها حيثما استطاعوا، وتحملوا في سبيل ذلك معاناة الإضطهاد، وعبء مناهضة الحاكم، ومسؤولية الموقف المعارض في مجتمعات ضيقة الآفاق لا تتسع للراي الآخر، ولا تقبل اختلاف الرؤية... هذا الضيق بالنظرة المغايرة والمفهوم المتباين انسحب طويلاً عبر الزمن وأنتج عصبية عمياء وإدانة ظالمة كان من آثارها إضطهاد وملاحقات ومظالم وحروب قدم فيها الشيعة كثيراً من الشهداء المظلومين، كان أئمتهم في طليعتها، بالإضافة إلى ما أحرق من مؤلفاتهم وكتبهم ودورهم ومدارسهم.

"ومما لا شبهة فيه – يقول محمد جابر آل صفا – أن الضغط والإضطهاد الذي وقع على العلويين في العصرين الأموي والعباسي ألجأ من كان منهم في جبل عامل، وهم حفنة صغيرة أحاط بها من خالفوها مذهباً وسياسة، إلى التكتم والتقية درءاً للأضرار، وخوفاً من الموت المحتم. ولذلك غمضت الأخبار وخفيت الحقائق ولم يصلنا من حوادث تلك الأيام إلا النزر اليسير، ولما دالت تلك الدول وانقضى عهد الجور والإرهاق وظهرت دولة بني بويه في العراق وفارس، ودولة بني حمدان في حلب والموصل، ودولة العلويين في مصر والشام والحجاز وآفريقيا استطاع الشيعيون أن يجاهروا بمذهبهم

(١) المحامي حسن علويه، الجنسية اللبنانية وطرق استعادتها، ص٥ و٧ و٨١.

في مختلف الأقطار ونشأت مدارس حلب في سوريا للسادة بني زهرة المعروفين بفقهاء حلب، وكان لها أثر نافع دام حتى أواخر القرن السادس للهجرة حيث تقوضت أركانها في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ ١١٩٣م.

واشتهر بعدهم في جبل عامل جماعة من أهل العلم والفضل منهم الشيخ طمّان بن صالح العاملي المتوفي سنة ٧٢٨هـ. والشيخ صالح بن مشرف العاملي، والشيخ مكي بن حامد الجزيني وغيرهم، ولم يذكر المؤرخون انهم أسسوا مدرسة أو درّسوا في معهد والغالب أن عوامل السياسة التي أشرنا إليها كانت تمنع هؤلاء أيضاً من الدراسة بالصورة الظاهرة فكان الأبناء يتلقون عن الآباء تحت طي الخفاء"(١).

وأول مدرسة إنتظم فيها التدريس كانت في جزين أسسها الشيخ شمس الدين محمد بن مكي الجزيني العاملي الذي عرف بالشهيد الأول، والذي درس على أبيه ثم انتقل إلى الحلة في العراق حيث نال درجة الإجتهاد وعاد إلى وطنه، فذاع صيته، وطارت شهرته، وكثر تلاميذه.. مما أزعج المتعصبين - في زمن المماليك - فألقي القبض عليه وسجن في قلعة دمشق ثم قتل وصلب وأحرقت جثته سنة ٧٨٦هـ - ١٣٨٤م. وكان ألّف في السجن كتاب "اللمعة الدمشقية" الذي ما زال من أهم كتب الفقه على المذهب الجعفري وله العديد من المؤلفات في مختلف أنواع العلوم... وإليه يرجع آل شمس الدين في نسبهم.

مدرسة ميس الجبل:

أسسها المحقق الميسي الشيخ علي عبد العالي المتوفي سنة ٩٣٣هـ - ١٥٢٦م وكانت كما يقول المؤرخ محمد جابر آل صفا مثابة طلاب العلوم ورحلة فضلاء الشيعة من العراق وإيران وشيعة سوريا.

المدرسة النورية في بعلبك:

درّس فيها الإمام زين الدين بن علي العاملي الجبعي المعروف بالشهيد الثاني المولود سنة ٩١١هـ - ١٥٠٢م الذي درس في ميس الجبل ثم في الكرك ثم انتقل إلى مصر ودرس على علمائها في الأزهر ثم أدى فريضة الحج وسافر إلى القسطنطينية وعاد إلى بلاده وحصل على براءة بالتدريس في المدرسة النورية على المذاهب الخمسة

(١) تاريخ جبل عامل، محمد جابر آل صفا، منشورات دار النهار، بيروت، الطبعة الثالثة، شباط ١٩٩٨، ص. ٢٣٤

وكان كما قال العلامة بن عودي شيخ الطائفة وفتاها، وبمبدأ الفضائل ومنتهاها... لم يصرف زمناً من عمره إلا في اكتساب فضيلة[1]... ألّف ستين كتاباً في علوم الدين وشَرَح اللمعة الدمشقية للشهيد الأول، لكن الحاقدين الحاسدين وشوا به فاستتر وغادر وطنه خفية، إلا أن رجال الشرطة أدركوه في مكة وحملوه إلى القسطنطينية وقتلوه على مقربة منها سنة ٩٦٦ هـ - ١٥٥٨م وحملوا رأسه إلى السلطان فأنكر تصرفهم وقتلهم.

مدرسة شقراء:

أسسها العلامة السيد أبو الحسن موسى بن حيدر الحسيني العاملي سنة ١١٩٥هـ -١٧٨٠م وكانت تضم ما يقرب من اربعمائة طالب في فترة كانت مزدهرة بالعلماء والأدباء... لكن تسلط الجزّار على جبل عامل - بعد استشهاد الزعيم ناصيف النصار - وإرهابه لسكانه ومصادرة كتبهم وأموالهم واغتيال علمائهم أدى إلى هجرة معظمهم وإغلاق مدارسهم وإلحاق الكوارث بهم لفترة تجاوزت العقدين من السنين حتى وصل بعضهم إلى البحرين والعراق وإيران والهند وأفغانستان.

توفي الجزار سنة ١٢١٩هـ ١٨٠٤م وتنفس الناس الصعداء، فقد رحل الطاغية، بعد أن أرهق العباد وأرهبهم... حتى إذا جاء بعده سليمان باشا، إعتمد أسلوباً مختلفاً فهادن الناس ودعاهم إلى الطاعة، وكذلك فعل بعده عبدالله باشا الخزندار... فعاد الأمن وعادت الحركة العلمية وعاودت المدارس الدينية إنتشارها في جبل عامل، يتحلق طلابها حول عالم مجتهد يعمل على تعليمهم وتثقيفهم وإعدادهم تبعاً لما تسمح به مواهبهم وإمكاناتهم وظروفهم المادية... وسأعرض لأشهر هذه المدارس:

مدرسة الكوثرية:

أسسها العلامة الشيخ حسن قبيسي قريباً من النبطية في فترة كان الناس بحاجة ماسة إليها وقد خرّجت الرعيل الأول من علماء الدين، وقد قدر لبعضهم أن يلعب دوراً مهماً في الحياة الثقافية والاجتماعية والدينية والسياسية... كالشيخ عبدالله نعمة الجبعي والشيخ محمد علي عز الدين والسيد علي ابراهيم والشيخ علي سبيتي وحمد البيك صاحب بلاط تبنين وزعيم جبل عامل.

---

(١) نفس المرجع، ص ٢٣٨.

مدرسة جبع:

لم ينقطع في جبع حبل التدريس ولم تخل من علماء وفقهاء[1]... أسس مدرستها الشيخ عبدالله نعمة بعد رجوعه - مجتهداً كبيراً ومرجعاً للفتوى - من النجف وإيران، تخرّج على يديه عدد كبير من العلماء وأهل الفضل الذين توزعت عطاءاتهم على مختلف ساحات جبل عامل وأوجدت فيه تياراً نهضوياً تمثل بحركة تناولت الكثير من مناحي الحياة الإجتماعية والعلمية والثقافية والدينية... يكفي أن نشير إلى الأسماء الكبيرة من تلامذته كالسيد حسن يوسف مكي والشيخ موسى شرارة والشيخ محمد سليمان الزين والشيخ حسين الزين والشيخ علي الحر وسواهم من الخريجين طيلة أربعين عاماً حافلة بالعطاء توفي سنة ١٣٠٢هـ - ١٨٨٥م.

مدرسة حنوية (قرب صور):

أسسها العلاّمة الشاعر الشيخ محمد علي عز الدين وعمل على تخريج العديد من العلماء وكان من تلامذته السيد نجيب فضل الله المتوفى سنة ١٩١٧ (والد العلاّمة المرحوم السيد عبد الرؤوف فضل الله وجد العلاّمة المرجع السيد محمد حسين فضل الله).

مدرسة بنت جبيل:

أسسها العلاّمة الشيخ موسى بن الشيخ أمين شرارة الذي قدم من العراق وقد سبقته شهرته والتحدث بغزارة علمه وطلاقة لسانه ومقدرته الخطابية بالوعظ والإرشاد[2]... وقد قصدها طلاب المدارس من قديم وحديث وانضم إليهم عدد وافر من المشتغلين في طلب العلم وأصبحت بنت جبيل في عصره دار العلم في جبل عامل ومحط رحال الأدباء ومنتجع أهل الفضل وقد أبت الأقدار الغاشمة أن تتم هذه النعمة الجزيلة في هذه البقعة فعاجل المرض رئيسها وكان نحيف البنية عليل الجسم فتوفي سنة ١٣٠٤هـ - ١٨٨٦م عن عمر يناهز ٣٦ سنة فكان الأسف على فقده عاماً والحزن شديداً وأقفلت بعده تلك المدرسة وتفرّق طلابها. من تلامذته الشيخ حسين مغنية، السيد محسن الأمين، السيد نجيب فضل الله، الشيخ عبد الحسين صادق، السيد يوسف شرف الدين، السيد حيدر والسيد جواد مرتضى، الشيخ موسى مغنية، الشيخ عبد الكريم الزين، الشيخ محمد دبوق.

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٥ و٢٤٦.

مدرسة شقراء (الجديدة):

إن قرية شقراء قد سعدت بالأسرة الكريمة (آل الأمين) وقد نبغ منهم علماء أعلام وفقهاء أجلاء وشعراء أدباء شادوا فيها المدارس وألفوا الكتب النافعة نذكر منهم العلامة السيد علي محمود الأمين والعلاّمة السيد محسن الأمين كبير المجتهدين ونزيل دمشق ومؤسس المدارس العلوية فيها والمعروف بسعة إطلاعه وسمو قصده وبتآليفه الوفيرة النافعة وإحاطته بعلمي المعقول والمنقول وسيره على خطة السلف الصالح ورحلته إلى الأقطار الشاسعة للبحث والتنقيب عن مؤلفات أحد الشيعة ونشرها للإنتفاع بها (أعيان الشيعة)[١] .

مدرسة عيناثا:

إرتبط إسمها بآل فضل الله وقد استمر علماؤهم لأجيال متعاقبة حملة الرسالة يعلمون اللغة والأدب والفكر وعلوم الدين حتى غدا كل مكان يحلون فيه مركز هداية ومنارة علمٍ ومنتدى أدب ومرجعية دينية.

مدرسة النبطية الصغرى (المدرسة النورية):

نسبة لآل نور الدين من أساتذتها في الفترة الأخيرة السيد محمد علي نور الدين وكان عالماً ورعاً فاضلاً... خرجت هذه المدرسة الكثير من الأدباء والعلماء ومنهم العالمان الفاضلان الشيخ سليمان ظاهر والشيخ أحمد رضا والمؤرخ محمد جابر آل صفا والشيخ علي مروة.

المدرسة الحميدية:

أسسها السيد حسن يوسف الحسيني بعد رجوعه من العراق سنة ١٣٠٩هـ - ١٨٩١م وكان عالماً متبحراً متواضعاً، جريئاً لا يخشى في الحق لومة لائم وله مواقف مشهودة في صور والخيام؛ وهي آخر مدرسة دينية على النهج القديم، وبوفاته سنة ١٩٠٦م أغلقت المدرسة أبوابها وأسرع إليها الخراب وتساقطت سقوفها وجدرانها وأصبحت أثراً بعد عين، بعد أن كانت دار علم وفضل وروضة أدب وثقافة ست عشرة سنة وبقيت خراباً ما يقرب من عشرين عاماً، فجددها الزعيم يوسف بيك الزين بمساعدة اخيه الفاضل الحاج حسين الزين واستلمت إدارتها جمعية المقاصد الخيرية فأتمت ترميم غرفها[٢] .

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٤٧.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٦٥.

جبل عامل في مطلع القرن قبل الحرب العالمية الأولى

منذ أوائل القرن السابع عشر كانت البلاد العربية جُزءاً من السلطة العثمانية تَدين بالولاء لها وترى في السلطان رأس الدولة وحامي المسلمين، وقد ارتضى العرب طويلاً هذه العلاقة التي تشدُّهم إلى الأتراك واندمجوا في حركاتهم السياسية والدينية والاجتماعية، ولم يشعروا يوماً أن هناك ما يفرقهم ويبعدهم عن الشعوب التي تتكون منها هذه الأمبراطورية العثمانية، وبعبارة أخرى لم يكن لهم حتى مطلع القرن العشرين وبالمعنى الشامل أية تطلعات سياسية مُغايرة... كانوا رعية السُلطان يمارسون السياسة كما يمارسها الأتراك وضمن أحزابهم وتجمعاتهم، وأقصى ما كانوا يرمون إليه الإصلاح أو التطوير... لكن الانعطاف الكبير حدث عندما ظهر في السلطنة ذلك الشعور الطوراني المتعصب، الذي راح يُميز بين الأتراك وبقية القوميات، وأثار بالتالي إحساساً جديداً فرّق بين شرائح المُجتمع وقسمها إلى مجموعات قومية وعصبيات مختلفة، لم يسبق أن شعر بها الناس لأن الإسلام كان الرابط الجامع الذي ألف بينهم وخلق تماسكاً اجتماعياً مُتجانساً.

استقبل الأتراك والعرب بحماسة العهد الجديد بعد إطاحة السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ على يد جماعة تركية الفتاة وكانوا غير مُرائين في شعورهم ووطنيتهم[١].

وحسنت الحال في أول الأمر في جبل عامل لكنه لم يمضِ وقت وفير حتى ظهر الاتحاديون بثوبهم الحقيقي وانكشفت سياستهم ذات الوجهين الظاهري والباطني[٢] فانسحب العامليون من الجمعية الاتحادية وأقفلوا نواديهم وخاصة عندما تبين أن هناك اتجاهاً يعمل على تتريك أو صهر غير الأتراك بالبوتقة الطورانية، أي تذويب الأكراد والألبان والأروام والأرمن والعرب؛ ومارسوا سياسة الجور والعسف والاضطهاد والسجن والنفي، وكانت هذه الأعمال توطئة لما سوف يحصل لاحقاً من أحكام عرفية ومحاكمات صورية وتعليق مشانق في كل من بيروت ودمشق.

---

(١) نفس المصدر، ص ١٨٣.

(٢) نفس المصدر، ص ١٨٤.

بعض حواضر جبل عامل وقراه

١- صيـدا

عاصمة جبل عامل وإحدى أشهر مدن الحوض الشرقي للبحر المتوسط ورد ذكرها في العهد القديم كما ذكرها هوميروس في شعره لدن سمى الفينيقيين صيدانيين[١] ونقل منير خوري عن المؤرخ الفرنسي جاك فانتي من كتابه تاريخ لبنان قوله: "إن أول مدينة أسسها الفينيقيون هي مدينة صيدا حوالي ٢٨٠٠ ق.م، وكانت صيدا منذ القدم إحدى الدول الفينيقية المهمة المشهورة بموقعها وتجارتها وأسطولها وبطولة أبنائها وشراسة مقاومتها وصمودها أمام الغزاة[٢]، وتعاقب على حكمها المصريون والأشوريون واليونان والرومان والعرب الذين دخولها فاتحين سنة ٦٦٧م ثم خضعت لاحقاً لحكم الصليبيين والمماليك والأتراك لتصبح في أواخر القرن التاسع عشر عاصمة جبل عامل[٣].

في كتابه "تاريخ صيدا" صفحة ٦١، يذكر الشيخ أحمد عارف الزين:

"أجمع المؤرخون بأن صيدا بقيت خراباً أو قرية حقيرة لا شأن لها ما يقرب من ثلاثة قرون ١٣٢١-١٥٩٥م، وفي هذه السنة هبط إليها الأمير فخر الدين الثاني فجدّد بناءها وبنى الشارع الكبير الممتد من البوابة الفوقا إلى البوابة التحتا وخانات كثيرة وقصوراً فخمةً".

وقد قدر لصيدا أن تلعب دوراً هاماً ومؤثراً في تاريخ جبل عامل الحديث[٤] فكانت رائدة في نشوء الحركات السرية والجمعيات التحررية، وكان لمجلة العرفان الأثر الهام والفاعل في حياة الجنوبيين بالتحديد. لأنها كانت أول مجلة تنطق باسم العامليين تحمل همومهم وأوجاعهم وطموحاتهم وآمالهم، كانت خلال عشرات السنين جريدتهم ومجلتهم وإذاعتهم وناقلة آرائهم ونقاشاتهم إلى مجتمعهم والمجتمعات الأخرى لا سيما في النجف الأشرف - الجامعة الثقافية الدينية - التي تؤثر في عمق حياتهم الدينية والسياسية والثقافية والاجتماعية.

يوم أطلت العرفان وصدر العدد الأول في ٥ شباط (١٩٠٩) كتب الشيخ سليمان

---

(١) أيوب حميد في كتابه الشيخ أحمد عارف الزين ص ٣٣.

(٢) إعرف لبنان، موسوعة المدن والقرى اللبنانية، الجزء السادس، ص ٣٩١ ونفس المصدر السابق ص ٣٤.

(٣) أيوب حميد، ص ٣٥.

(٤) أيوب حميد، الشيخ عارف الزين، ص ١٢٠، منشورات مجلة العرفان ١٩٨٦.

ظاهر عن هذا الحدث[1] وعن الشيخ أحمد عارف الزين "قام منفرداً بنفسه معتمداً على طموحه وشغفه بحب المعالي بإصدار مجلته العرفان في مدينة صيدا العريقة في زمن مضطرب بالأحداث السياسية، وفي بيئة سائد فيها الجهل، عزيزٌ بها القرّاء، نزرٌ بها الكتاب، قليل فيها البذل على العلم، وهو فيها في تراجع، ولم يكن في سعة من المال".

والواقع أن الشيخ أحمد عارف الزين (مولود سنة ١٣٠١هـ /، ١٨٨٤م) عمل في الصحافة باكراً، وتصدى لمسؤولية عظيمة يرزح وينوء تحتها الكبار.

نحن لا يمكن أن نطلّ على جبل عامل ثقافياً ونرصد حركته الفكرية دون أن نطلّ عبر العرفان، هذه المجلة الثقافية الوطنية كانت معلماً فكرياً ينتظره الناس كل شهر، كانت باب الشهرة، ومنبر الفكر، ومنارة العقول - كانت مجلة الخاصة، وجريدة العامة، تروي عطش القراء، وتشبع نهم المطالعين؛ يتداول الناس أخبارها، ويحفظون قصائدها ويعبون من معين مواضيعها الأدبية والعلمية، والاجتماعية... هي مجلة العامليين بامتياز، تصلهم بالحركات الفكرية العربية في لبنان ومصر وسورية والعراق وكل دنيا العرب... وهي كذلك رسالة الوطن إلى أبنائه في النجف، ورسالة النجفيين إلى العامليين... أنا لا أتصور بيتاً عاملياً واحداً ليست فيه أعداد من العرفان، ولا أتصور أن هناك عالماً أو شاعراً أو أديباً أو صحافياً أو سياسياً إلا وكان له موقع أو شأن مع العرفان... الشيخ أحمد عارف الزين كان فعلاً وواقعاً إطلالةً تاريخيةً مشرقةً في دنيا العرب عامةً وجبل عامل خاصة... فكما أن صيدا بوابة الجنوب كلّه فإن مجلة العرفان هي ألف باء الثقافة التي نهلها بامتنان وتقدير أبناءُ جبل عامل في عصرٍ أو فترةٍ كانت هذه المجلةُ جريدتَهم ومجلتَهم وإذاعتَهم ومحطةَ إرسالهم لكلِّ مقروءٍ جديدٍ بتكوينٍ ثقافي..

ويجدر بنا أن نثمن عالياً ذلك الحسّ من الوعي الوطني والقومي والإسلامي الذي كان يتمتع به الشيخ أحمد عارف الزين، ذلك الفاضل الشريف الذي لم يرهبْ سجناً ولا حاكماً وبقي طيلة حياته نظيفَ الكف، عفيفَ اللسان، شريفَ السيرة، عميقَ الإيمان.. كان مدرسةً في الأخلاق والاستقامة. وستبقى العرفان المنارة المميزة الساطعة، ومنبر الحرية في عصرٍ كان الاستبداد والجهل والتخلف السمة الملازمة له، وكان العلم وقفاً على الفئة القليلة الميسورة.

---

(١) العرفان ج١، ص. ٣٥

مجلة العرفان كانت من خيوط المعرفة والنور الأولى التي ظهرت في جبل عامل مبشرة بالحياة الجديدة، وداعية إلى الحرية، والكرامة والتعليم والمساواة وإنشاء المدارس ونبذ التقاليد البالية والاعتماد على النفس وتحرير الأفكار والإرادات من أغلال الجهل والخرافات[١].

إن إلقاء نظرة شاملة على مسيرة هذه المجلة منذ صدور عددها الأول سنة ١٩٠٩ وحتى وفاة مؤسسها أي خلال خمسين عاماً من التعب المضني والجهد الدائب والمعاناة الصعبة، وقلة الموارد بالإضافة إلى التعطيل الظالم والقسري، وخلق العوائق ومنع الدخول، والمحاربة المقصودة، كل ذلك يظهر التصميم العنيد على تجاوز جميع هذه المعوّقات والإرادة الصلبة على إكمال المسيرة وبلوغ الهدف بنشر الثقافة وتعميمها على الناس، تلك الثقافة التي تناولت معظم المشاكل الاجتماعية والتربوية والسياسية والأدبية والدينية واللغوية بالإضافة إلى الترجمات.

لقد كانت مجلة العرفان الكتاب الجامع لكل الناس، حتى أصبح الكتاب عرفاناً... كما قال الناقد الأستاذ حسين مروه، وقد حافظ عليها العامليون بفخار، تصدرت مكتباتهم بعد أن نوّرتْ عقولهم، وفتحت آفاق أفكارهم وأمدَّتْهم بمختلف أنواع المعارف وزوّدَتْهم بغنى كنوزها ووافر عطاءاتها.

وهي بحق وكما قال صاحبها: "كانت أول صحيفة قرأها جلّ العامليين والنجفيين، ولم تبقَ شاردةٌ ولا واردةٌ إلا دوّنَتْها، ولا نبذةٌ تاريخيةٌ أو سانحةٌ أدبيةٌ إلا أثبتتها... وقد توخّت في عملها هذا أن يجتمع من مجموع ما نُشر تاريخٌ صحيح يُرجع إليه ويُعتمد عليه[٢] .

إنها مدرسة جبل عامل السيارة[٣] " وخير سفارة يَوْمَ لم تكنْ سفاراتٌ بين لبنان وبلاد الاغتراب في أميركا وأفريقيا وكل المغتربات... كانت صوتَ الوطن ولسانَ حاله وخيطَ النور الآتي من فجر النهضة الحديثة.

نحن في جبل عامل وحيثما وصلت العرفان يقتضي منا الوفاءُ للشيخ أحمد عارف الزين والعرفان أن نعترفَ ونقرَّ أن جيلَ أبائنا - وجيلنا نحن - مدينٌ بثقافته ومطالعاته ومعلوماته وبعض مناحي تفكيره لهذه المجلة الرائدة، فقد كانت منذ العقد الأول من

(١) ايوب حميد، الشيخ احمد عارف الزين، منشورات دار العرفان، ١٩٨٦، ص,١٤٩
(٢) نفس المصدر أعلاه.
(٣) نفس المصدر ص ١٥٠ ، ,١٥٤

القرن المنصرم وطيلة خمسين عاماً الصحيفةَ والكتابَ والإذاعةَ يوم عزَّتْ الصحف والكتب والإذاعات، كانت المكتبةَ المتنقلةَ والغذاءَ الدسم، والزادَ الوفير... كانت منبرَ الأحرار ومنارةَ جبل عامل ومَعْلَمَ صيدا، وثالثَ قلعاتها، وستبقى أبداً هذه المجلةُ العزيزةُ علينا التراثَ المميَّزَ الرائدَ في ماضينا وحاضرنا، والكتابَ الأثير الذي يزيّن واجهة مكتباتنا، وسيبقى الشيخ أحمد عارف الزين في الطليعة من رُواد نهضة جبل عامل وأحراره المُناضلين؛ ويوم تُذكر الذكريات العاملية - قال السيد حسن الأمين عن ذكرياته - فإن الإكبار كُلَّ الإكبار يجب أن يوجّه إلى الشيخ أحمد عارف الزين وإلى مجلة العرفان، ولا أعرف رجلاً له من الأثر في إنهاض بلاده ما كان للشيخ أحمد عارف الزين من الأثر في جبل عامل[١] .

٢- صور

لن أعرض لتاريخ هذه المدينة القديمة لأن ذلك يتطلب كُتُباً إنما سأستعرض منه القسم الوسيط... في كتابه (منطلق تاريخ لبنان) منشورات كارافان نيويورك الطبعة الثامنة ١٩٩٢، يذكر كمال الصليبي (في الصفحة ٥١).

"لم يطل الوقت بعد واقعة اليرموك في صيف ٦٣٦م حتى تمت السيطرة للمسلمين على أجزاء كبيرة من الشام بما فيها لبنان وما جاوره من المناطق، ثم أقام المسلمون في البلاد نظام الأجناد، فأتبعوا بلاد جبيل والبقاع ووادي التيم وجبل لبنان وكذلك الثغور الساحلية من طرابلس إلى صيدا، بجند دمشق، وصاروا يوكلون إلى عامل بعلبك مهمة السهر على هذه المناطق، وأتبعوا في الوقت ذاته جبل عاملة مع سائر الجليل وما يليه من الساحل بجُند الأردن، وجعلوا قاعدة هذا الجند مدينة طبرية، وقد اكتملت هذه الترتيبات في عهد معاوية بن أبي سفيان أول الخلفاء الأمويين...

اهتم الخلفاء الأمويون المتأخرون بأمر صور، من ثغور جُند الأردن، وجعلها هشام بن عبد الملك (٧٢٤-٧٤٣م) مركزاً لصناعة السفن فأصبحت لها بالتالي مكانة خاصة بين ثغور الساحل الشامي، وقد كانت هذه المكانة من قبل لعكا، وذلك منذ عهد معاوية" .

... ورد في مؤلف الدكتور أدوارد روبنسون[٢] "تهيّب بيبرس الهائل الصاعق قوة صور ومناعة تحصينها فامتنع عن مُهاجمتها مُباشرةً في بادئ الأمر، على أنه في العام

---

(١) حسن الأمين، من الذكريات الجنوبية، منشورات دار الكِتاب اللبناني، ص ١٨ .
(٢) ادوار روبنسون، يوميات في لبنان" الجزء الأول، ترجمة أسد شيخاني، منشورات دار المكشوف، ص٤٦-٤٨

١٢٦٧م، نهب البلاد التي تُحيط بها ليثأر كما ادعى لأحد مماليكه الذي قُتل هُناك ولم يرتوِ إلا بعد أن دفع له السكان دية الدم خَمْسَةَ عَشَرَ ألف قطعة ذهب وأطلقوا سراح الأسرى العرب فعقد معهم صلحاً لعشر سنوات... وفي أثناء ذلك أخضع القِلاع في البلاد واستولى على يافا وآرسوف وقيصرية في الجنوب وعلى أنطاكية وغيرها من المُدن في الشمال:"في عام ١٢٨٩ حاصر قلاوون طرابلس وأخذها... وعاد بعد ذلك إلى مصر وبدأ يستعد للهجوم على عكا، فتوفي سنة ١٢٩٠م، وخلفه في السلطنة ابنه الملِك الأشرف خليل (١٢٩٠-١٢٩٣)... وخرج خليل إلى الشام في العام التالي، وحاصر عكا وأخذها في عام ١٢٩١"، بعد حصار دام شهرين مرتكباً فظائع مروعة. (نفس المرجع السابق، ص١٠٢).

أخذ الفرنجة الساكنون في صور ما أمكنهم حمله وأسرعوا إلى سُفُنِهم في عشية اليوم عينه الذي سقطت فيه عكا تاركين هذه المدينة المهمة للعرب الذين احتلوها في اليوم التالي. ولم يطل الأمر بالفرنجة حتى تخلوا عن صيدا كما تخلوا عن صور... أما بيروت فأُخذت خدعة وهُدمت حصون المدينتين، وكانت جبيل قد سقطت عسكرياً في أيدي المماليك بعد سقوط طرابلس يقول (بروكاردوس) قبل هذا الوقت بقليل إن صور كانت مُحصنة من البر بأسوار منيعة ذات أربعة جُدران تتصل بقلعة على الجزيرة لها سبعة أبراج وتُعتبر غاية في المناعة...

أورد د. نافذ الأحمر في الصفحة ١٩٣ وما يليها في مقالة نُشرت في كتاب (صور): التاريخ الاجتماعي الاقتصادي في مختلف الحقب التاريخيةً الصادر عن مُنتدى صور الثقافي لمجموعة من الباحثين (١٨ باحثاً).

"في التاسع عشر من أيار سنة ١٢٩١م أُزيلت السيطرة الصليبية عن صور ووقعت تحت السيطرة المملوكية بعد أن سقطت بيد الملك الأشرف فدخلها المماليك وخرّبوها خوفاً من عودة الافرنج والتحصن بها وضمّوها مع صيدا وعكا إلى إمارة صفد.

وطيلة فترة حكم المماليك لصور التي امتدت حتى سنة ١٥١٦م بقيت صور في حالة خراب تام، وهذا ما لاحظه أبو الفداء عندما زارها سنة ١٣٢١م: "إن صور ليست سوى أطلال"، وعندما قصدها ابن بطوطة سنة ١٣٥٥م "ولم يرَ من أسوار المدينة ومن مُنشآت مرفئها إلا بقايا، ثم سافرت من عكا إلى مدينة صور وهي خراب وبخارجها

قرية معمورة وأكثر أهلها أرفاض"[1]... كذلك كان الأمر بالنسبة لكل من القلقشندي الذي زارها حوالي سنة ١٤٠٠م وخليل الظاهري الذي زارها حوالي سنة ١٤٥٠م... وقام الرحالة ساندي سنة ١٦١٠ بزيارة إلى صور فوجدها لا تزال "كومة من تراب". وهذا دليل على أنها كانت مُهدمة كُلياً ولم يكن فيها أي عُمران أو حياة تستدعي انتباه واهتمام هذا الرحالة... سنة ١٦٦٨م قام الرحالة الفرنسي الأب ميشال نو Michel Nau فوجدها قريةً صغيرة يعمرها الإهمال وبعيدة عن أي اهتمام، وكانت كناية عن مجموعة من الخرائب والأنقاض يسكنها بعض الفلاحين الذين وفدوا إليها حديثاً.

وعندما زارها موندريل Maundrel سنة ١٦٩٧ لم ير فيها منزلاً قائماً:

إن ما رآه هو (بابل من الجدران) Babel de Murailles ولم يكن يسكنها يومها إلا عدة صيادين فُقراء يعيشون تحت الأدراج والقناطر والقبب المُهدمة... لكنهم ما لبثوا أن هجروها لتعرضهم لهجمات القراصنة وتُجّار الرقيق الذين كانوا يغيرون عليهم بين الحين والآخر.

سنة ١٧٢٢م زار صور الرحالة الإنكليزي الدكتور شاو Dr. Shaw فرآها قريةً شبه مصحرة، كما زارها سنة ١٧٣٧م الرحالة الإنكليزي الدكتور بوكوك Dr. Pocock فوجدها خرائب متناثرة وأبنية مُدمرة وقال بأنها كانت لجهة الغرب مُحاطة بثلاثة أسوار تهدمت مع مرور الزمن.

ذكر هاسلكويست Hassel Quist في العام ١٧٥١: إنها قرية بائسة لا يزيد عدد سُكانها مسلمين ومسيحيين عن العشرة يعتاشون من صيد الأسماك. في العام ١٧٦٦م استولى المَتاولة من الجبال المجاورة على صور وبنوا الأسوار الحالية، واضعين بعملهم هذا الحجر الأساسي في تجديد بنائِها ونهضتها وبعد مُضي عشرين سنة يقول فولني Volney أصبحت الأكواخ الحقيرة التي تتألف منها القرية مُنتشرة على ثُلث شبه الجزيرة.

وذكر الرحالة ف. غيرين M.V.Guerin إنه حتى سنة ١٧٦٦م بقيت صور مدينةً مُهملة فقيرة (أي بعد ٤٧٥سنة على تهديمها)، لكن اعتباراً من هذه الفترة نزح إليها من شيعة المناطق المُجاورة فسكنوها واستقروا فيها وبنوا الجدران المحيطة بالمدينة الصغيرة من الشرق، وإن الثقوب كانت تنتشر بكثرة عندما زارها... سنة ١٨٤٣م يذكر الرحالة

(١) العرفان، الجزء السابع من المجلد الأول، تاريخ ١٨ تموز ١٩٠٩، ص. ٣١٤

الفرنسي جول دو برتو Jules de Bertou: " بدت صور أثناء زيارته لها أقل تعاسة مما كانت عليه عندما زارها موندريل سنة ١٦٩٧، وبلغ عدد سكانها ١٢٠٠ نسمة يتوزعون مُناصفة بين مسلمين شيعة ومسيحيين... ويتألف المسيحيون بدورهم من الموارنة والكاثوليك والروم الأرثوذوكس.

"في سنة ١١٠٠هـ هبط إليها قسم من سكان جبالها واستوطنوها واشتغلوا في زراعة وفلاحة أراضي المحل المعروف برأس العين... ولما كانت العساكر التُركية آنئذٍ تَمُر بالسواحل أثناء ذهابهم للقطر المصري فتُحمِّل السُّكان من المصاريف ما تنوء تحت حمِلْه، اضطر أولئك القرويون إلى عميد يحمي حوزتهم ويجمع كلمتهم فانتخبوا الشيخ حمزة من أُسرة علي الصغير الشهيرة، الذين ينتمون لوائل وهُم أعظم عشائر جبل عامل، وقد قدموا له أراضي المَحل المدعو بالمعشوق، وهو قرب صور، وبعد حلول الشيخ بها حلّ بها الأمن وبُنيت دور السُكنى وبعد وفاته قام مقامه ولده الشيخ عباس وفتح أبواب التجارة للقطر المصري فكانت تأتيه المراكب الشراعية من دُمياط مشحونة بالأرز والجلد وتستعيض عنها بالأخشاب التي كانت تُقطع من أحراش جبل عامل والفحم المعمول من السنديان... فقصدها الأهالي وتزاحمت بها الأقدام[1] .

وقد أورد المؤرخ محمد جابر آل صفا في كتابه تاريخ جبل عامل صفحة ٩٢ ما يلي:

"نشأ خلاف بين الشيخ قبلان (أحد أحفاد علي الصغير) وبين أبناء عمه على حكم المُقاطعة (بلاد بشارة) انتهى بتحكيم الشيخ ظاهر العمر وكان صديقاً لزعماء جبل عامل فانقسمت المُقاطعة إلى ثلاثة أقسام، الأول لقبلان والثاني لعباس بن محمد مشرف والثالث لناصيف بن نصار بن محمد بن مشرف... وكان سهم الشيخ قبلان جبل هونين، وسهم الشيخ ناصيف جبل تبنين، والبلدان الجنوبية كلها، وسهم الشيخ عباس مُقاطعة قانا، ومُقاطعة شحور ومُقاطعة الشّعب... وأعطيت صور للشيخ قبلان فرفض قبولها بحجة أنها بلد خربة لا يوجد فيها إلا مصنع للملح (ملاّحة)، فأعطيت للشيخ عباس فاستلم عباس صور وبنى فيها داراً للحكومة لم تزل عامرة إلى اليوم وموقعها على باب المدينة، وشاد فيها مسجداً وكنيسةً وسوقاً ودوراً كثيرة... وأسكن فيها عائلات كثيرةً من المسلمين والمسيحيين من سكان جبل عامل وجبل لبنان، وكان يصرف فيها فصل الشتاء ويُصيِّف في قلعة مارون الواقعة في ناحية شحور في القرب

(١) نفس المرجع. ص ٣٦٢.

من دير دغيا، ولم يمضِ أربع سنين حتى غدت صور بلدة تجارية وكثر فيها الأخذ والعطاء وأمّت إليها السُفن الشراعية لإفراغ شُحنها وابتياع حاصلات البلاد من حبوب وتبغ وقطن وزيوت.

وفي عام ١١٧٠هـ ١٧٧٣م بنى الشيخ عباس بن حمزة السوق المعروفة بسوق الأحذية "السكافية" وصفّاً من المخازن على شاطئ البحر ممتداً من الجنوب للشمال فبلغ عدد سُكّان صور بمدته ٥٠٠ نسمة، ثم شاد المسجد الوحيد الباقي للآن ومن جُملة من أتى صور جرجس البتراكي جد الأسرة المعروفة (مشاقة) واستأذن الشيخ عباس في بناء كنيسة للمسيحيين في صور لأنهم إذا كان لهم معبد يتهافتون على سُكناها فأذِن له بذلك، ومع مُعاونة مُطران صور الذي كان مركزه حينئذٍ بقانا، شُيِّدت أول كنيسة بصور ودُعيت باسم "مار توما"[1] ... توفي الشيخ عباس سنة ١٧٨١م، وأوصى أن توقف أراضي المعشوق للمسجد الخ...

في سنة ١٧٩٣م صدر أمر الجزار بمصادرة أملاك المشايخ فتوغلوا وهربوا في الجِبال، وأقام الجزار أحد الآغاوات حاكماً على صور، وبقيت صور تابعة لحاكم عكّا حتى سنة ١٢٤٦هـ ١٨٤٧م وعندما انكفأ ابراهيم باشا إلى مصر واسترجعت الدولة العُثمانية سوريا ولبنان وفلسطين أُلحقت صور بصيدا، سنة ١٢٥٥هـ ١٨٥٦م، وفي تلك السنة أصابها زلزال عظيم هدم أكثر أبنيتها وخرّب قسماً عظيماً من مسجدها إلى أن أصلحه بعد ٣ سنوات (١٢٥٩هـ - ١٨٥٩م) المرحوم السيد عبد الله المُغربي (جد آل المغربي في صيدا)... وفي سنة ١٢٨٣هـ - ١٨٧١م أُلحقت مديرية تبنين بصور وشكّلت صور قائمقامية[2].

---

(١) ورد في جريدة النهار عدد ٢١٢٦٥، تاريخ ٢٠أيار ٢٠٠٢، صفحة ١٢ ما يلي:

"تدشين مطرانية صور بعد ترميمها ووسام بطريركي لفؤاد شمندي":

"جرى أمس تدشين مطرانية القديس توما للروم الأرثوذكس في صور بعد إتمام ترميمها وإصلاحها على نفقة فؤاد جرجي شمندي.

واقيمت للمناسبة صلاة احتفالية ترأسها المطران الياس كفوري في حضور المطران مارون صادر والمطران يوحنا حداد ورئيس بلدية صور عبد المحسن الحسيني ورئيس معهد قدموس الأب جورج حرب والنائب الأسقفي الأب نبيل الحاج وجمع من المؤمنين.

بعد الصلاة والقداس ألقى المطران كفوري كلمة جاء فيها: "الفرح من العالم يدوم لأيام. أما فرح الله وسلامه فهما النور الذي يشرق وينير بصائرنا، اليوم نحن نبحث عن السلام، لكن هناك أناس لا يريدون لنا الفرح ولا السلام ونرى ما يحصل في الأراضي المقدسة في فلسطين الجريحة إنها الجرح النازف في خاصرة الإنسانية والعرب إنها المكان الذي أطلق منها السيد الشرارة التي أضاءت العالم.

فإذا بإسرائيل تزرع فيها الموت والعذابات للناس وليس عندها خطوط حمراء ونسأل العالم متى سيضع لها حدوداً".!؟

(٢) العرفان، الجزء الثامن من المجلد الاول، ١٧ نيسان ١٩٠٩، ص ٣٦٤.

ملاحظة: أكثر اعتمادنا فيما ننقله على تاريخ سوريا للمطران دبس.

ويعتقد رئيس فريق الغطاسين الأثريين السيد مراد العموري أنه وجد أشياءً عدةً جديدةً ومنشآتٍ وعدداً من الأعمدة في الحوض الغربي لم تكن ملحوظةً في خريطة بوادوبار التي وضعتها بين عامي ١٩٣٤ و١٩٣٦، كما عثر على الكثير من الأعمدة الضخمة في الحوض الشرقي يبلغ قطر الواحد منها نحو المتر وطولها نحو ٦ أمتار، إضافة إلى جدران ومنشآت... ويلفت إلى أنه سبق لفروست أن عثرت على نحو ٤٤ عموداً سنة ١٩٦٦، وطاحونة ومرساة، ويوجد كثير من طواحين البازالت الحجر البركاني الذي يأتي من سوريا ووجدنا في منطقةٍ صخر الأرض محفوراً، ولكي يكون الصخرُ محفوراً يجب أن يكون خارج الماء مما يعني أن هذه المنطقة كانت تُشكل جزءاً من المدينة القديمة غرقت الآن... وثمة أشياء وعناصر كثيرة تجعلنا نعتقد أنها ليست مرفأ بل قطعة أرض غمرتها مياه البحر".

٣ً- تبنين

عندما انتقل الحُكُم من المعنيين إلى الشهابيين هاجم الأمير بشير الأول بلاد بشارة وقبض على مُشرف بن علي الصغير وأخويه الحاج محمد والشيخ حمزة فانتقلت الزعامة إلى الشيخ ناصيف النصّار الذي جدّد قلعة تبنين... وفي اجتماع عُقد في صور سنة ١٧٤٩م ١١٦٤هـ بين مشايخ المتاولة برئاسة ظاهر العمر تقاسموا فيه المقاطعات والقلاع والحُصون فأخذ الشيخ ناصيف قلعة تبنين الذي كان يقطنها أصلاً وفيها مركز حُكمه[١].

كان ناصيف النصّار فارساً مِقداماً، أهلته شخصيته الفذّة أن يُصبح الزعيم الكبير في جبل عامل طيلة أكثر من ثلاثة عُقود، وخاض معارك عديدة، كان النصر حليفه فيها جميعاً، وأهمها معركة البحرة، (ضد والي دمشق ١٧٧١)، ومعركة كفر رمان (ضد الأمير يوسف الشهابي ١٧٧٢)، ومعركة صيدا الغازية ١٧٧٢ (ضد تحالف والي الشام والأمير يوسف)... وجعل من تبنين مركز القرار السياسي الأهم في جبل عامل، ومنتدى الأُدباء والشعراء وقد استُشهد لاحقاً في معركة يارون التي خاضها ضد أحمد باشا الجزّار (والي عكا) سنة ١٧٨٠، إذ زلّت قدم جواده على "بلاطة يارون" فسقطا معاً هو والجواد وعاجله بعض الجنود بإطلاق النار عليه... قال عنه قنصل فرنسا في صيدا "إنه كبير شيوخ المتاولة والشهير بين جماعته بالبسالة" أما القِس حنا المنيَّر فقال: "إنه عامود

(١) حسن محمد صالح، تاريخ تبنين، ص ١١٥

في عدد النهار التاريخ ٢٠ تموز ٢٠٠٢ صفحة ١٤، كتبت السيدة مي عبود أبي عقل تحقيقاً عن تنقيبات صور البحرية التي يقوم بها فريق أمبورو الاسكندراني، بالتعاون مع اختصاصيين (جيومورفولوجيين) وتقضي بأخذ عينة من التربة لفحصها وتحديد مستويات اليابسة والماء لتحديد مكان المرفأ القديم، ومما ورد فيه:

"منذ القرن التاسع عشر اهتم خبراء الآثار بمعرفة تاريخ مدينة صور ومرافئها، ويشير الاختصاصيون إلى أن علم الآثار يعتمد في الكثير منه على التوراة، وصور هي المدينة الثانية التي يكثر ذكرها فيه بعد أورشليم، من هنا أهميته الكبيرة بالنسبة إليهم، إضافة إلى أنها تتمتع بتاريخ بحري عريق يمتد إلى ما قبل القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وقد زارتها بعثات أثرية عديدة لتحديد مواقع المرافئ الغارقة والجزء الغارق من المدينة، وأولها كانت عام ١٨٧٣ ويعتبر الفرنسي جول دوبيرتو أول الأثريين الذين أتوا إلى صور ويقال أن خريطته هي الأفضل، إضافة إلى كوندور وكتشنير اللذين وضعا خريطة برية لغرب فلسطين، والفرنسيين أرنست رينان وأوغيست بوادويار والألماني نيموك سيب.

كانت صور في البداية جزيرة تأسست على أنها مرفأ تجاري وارتدت دائماً الطابع البحري، ويعود تاريخ تأسيس السكان فيها إلى الألف الثالث قبل الميلاد، والمراكب هي التي كانت تنقلهم، وعلى مدى العصور كان يوجد أساطيل تجارية وبحرية غرقت في مياهها، لذلك يُعتبر محيطها واحداً من أغنى المناطق التي تحوط المدينة بالسفن الغارقة.

قسط مدرسي لا غير..!!

صدّقوني إنني عرفت في هذا الموقف كيف يبكي الفرحون، وكيف تشفُّ الروحُ جذلى من السعادة... وكيف يخرَسُ الإنسان بَدَلَ أن يصرخ طرباً.. وددت لو أضمُّهُ امتناناً... أقبّلُ يديه كَيَدَيْ أبي اعترافاً بشهامته وتقديراً لكرمه.. ورأيتني في هذه اللحظة خلقت من جديد.. ها هو مستقبلي أمامي، وهذا السيد جعفر يمسك بيدي، يحضنني، يرعاني، يفتح الأبواب المغلقة والآفاق المسدودة... ها هو في منارته الصورية يأخذنا إليه، يسدد خطانا، ينمي طموحاتنا، ويزرع كل واحد منا في محيطه، يوزع عَبْرَنا نوره، وعطاءاته، والأدبَ وخيرَهُ العميم.

أتعلمون أن الكلية الجعفرية -هذه المنارة الصورية - كانت منذ نصف قرن أو يزيد أمَّ المدارس على مساحة جبل عامل..؟!.. في تلك الأيام الصعبة كان جنوبنا على هامش الوطن.. وكان سكانُهُ خارجَ دائرة الاهتمام، بعيدين عن مراكز القرار، وغريبين عن ساحة الحركة... من الصعب ان يدرك أبناؤنا ما كان عليه آباؤهم... وحَدَهُ جيلُنا يعي بعمقٍ وتفهمٍ ما عانى من الجهل والحرمان والتسلط والوجع والقهر.. وكان للكلية الجعفرية ومؤسسها ومديرها وأهلها الريادةُ والنضالُ والجهادُ والكفاحُ على مساحة وامتداد الوطن ساحلاً وجبلاً وشمالاً وجنوباً وبقاعاً...

يا أبا محمد، يا ابن الأكرمين... أيها العامل المتواضعُ البعيدُ عن حبِّ المظاهر... لمثلك تُحنى الرؤوس، وتُقرعُ الأجراس... بالله عليك أطلَّ علينا من عليائك.. فهذا بلدُك قد ملأتْهُ آلافُ المدارس ومئاتُ الكليات وعشراتُ الجامعات... ها قد نعمت أقاصيه بالماء والكهرباء وواسع الطرقات... ها هم شبابُهُ يتوزعون على صنوف العلوم والآداب والاختصاصات... لكننا أنّى كنا، وإلى أين وصلنا... سنبقى نذكر بامتنانٍ وفخارٍ وعرفانٍ أن هذه السوامقَ من البنيان والمعارف ما قامت إلا على الأساس الذي بَنَيْتَ، والركن الذي شيَّدْتَ، أنت والطيبون من أهلك... فسلام عليك حيث أنت في رحاب الرب الكريم!

إحسان شرارة

ويعتقد رئيس فريق الغطاسين الأثريين السيد مراد العموري أنه وجد أشياءً عدةً جديدةً ومنشآتٍ وعدداً من الأعمدة في الحوض الغربي لم تكن ملحوظةً في خريطة بوادوبار التي وضعتها بين عامي ١٩٣٤ و١٩٣٦، كما عثر على الكثير من الأعمدة الضخمة في الحوض الشرقي يبلغ قطر الواحد منها نحو المتر وطولها نحو ٦ أمتار، إضافة إلى جدران ومنشآت... ويلفت إلى أنه سبق لفروست أن عثرت على نحو ٤٤ عموداً سنة ١٩٦٦، وطاحونة ومرساة، ويوجد كثيرٍ من طواحين البازالت الحجر البركاني الذي يأتي من سوريا ووجدنا في منطقةٍ صخر الأرض محفوراً، ولكي يكون الصخرُ محفوراً يجب أن يكون خارج الماء مما يعني أن هذه المنطقة كانت تُشكل جزءاً من المدينة القديمة غرقت الآن... وثمة أشياء وعناصر كثيرة تجعلنا نعتقد أنها ليست مرفأ بل قطعة أرض غمرتها مياه البحر".

٣- تبنين

عندما انتقل الحُكم من المعنيين إلى الشهابيين هاجم الأمير بشير الأول بلاد بشارة وقبض على مُشرف بن علي الصغير وأخويه الحاج محمد والشيخ حمزة فانتقلت الزعامة إلى الشيخ ناصيف النصّار الذي جدّد قلعة تبنين... وفي اجتماع عُقد في صور سنة ١٧٤٩م ١١٦٤هـ بين مشايخ المتاولة برئاسة ظاهر العمر تقاسموا فيه المُقاطعات والقلاع والحُصون فأخذ الشيخ ناصيف قلعة تبنين الذي كان يقطنها أصلاً وفيها مركز حُكمه(١).

كان ناصيف النصّار فارساً مِقداماً، أهلته شخصيته الفذّة أن يُصبح الزعيم الكبير في جبل عامل طيلة أكثر من ثلاثة عُقود، وخاض معارك عديدة، كان النصر حليفه فيها جميعاً، وأهمها معركة البحرة، (ضد والي دمشق ١٧٧١)، ومعركة كفر رمان (ضد الأمير يوسف الشهابي ١٧٧٢)، ومعركة صيدا الغازية ١٧٧٢ (ضد تحالف والي الشام والأمير يوسف)... وجعل من تبنين مركز القرار السياسي الأهم في جبل عامل، ومنتدى الأُدباء والشعراء وقد استُشهِد لاحقاً في معركة يارون التي خاضها ضد أحمد باشا الجزّار (والي عكا) سنة ١٧٨٠، إذ زلّت قدم جواده على "بلاطة يارون" فسقطا معاً هو والجواد وعاجله بعض الجنود بإطلاق النار عليه... قال عنه قنصل فرنسا في صيدا "إنه كبير شيوخ المتاولة والشهير بين جماعته بالبسالة" أما القِس حنا المنيَّر فقال: "إنه عامود

(١) حسن محمد صالح، تاريخ تبنين، ص. ١١٥

المتاولة وأفرس أهل عصره كان مِقداماً تعوّد قيادة الجيوش وخوض المعارك وممارسة الحُروب، يهزأ بالمنايا، ولا يُبالي بالموت، كان ناصيف النصّار بطلاً شُجاعاً وأميراً مُطاعاً[١] .

وباستشهاد ناصيف النصّار دخلت جيوش الجزّار جبل عامل فأحرقت ونهبت وقتلت ودمّرت كُل ما توصلت إليه حتى الكُتُب أُخذت وبقيت أفران عكا تعمل عليها آياماً وأياماً، يقول القس حنا المنيّر "إن عسكر الجزار نهب بلاد المتاولة وسبى نساءهم وأطفالهم وكانت تُباع المرأة بقرشين والولد بقِرش"، أما المؤرخ عيسى اسكندر المعلوف فقال: "إن الجزار سبى نساءهم حتى باعوا المرأة في أسواق عكا بِعُشُر مصاري"[٢].

وهكذا فقد آهلك الجزار الزرع والضرع والناس ولم يتنفس الناس الصعداء إلا عندما مات سنة ١٨٠٤، فعاد لتبنين مجدُها مع حمد المحمود (١٧٧٥-١٨٥٢) الذي اتخذ من القلعة مقراً فرمّم قصر والده محمود النصّار وقصور أبناء عمومته ناصيف وسلمان عباس المحمد، واستقر في تبنين وصفت له الأيام وتفرّغ للأدب والشعر.

يقول المؤرخ السيد حسن الأمين "أقبلت الجيوش العُثمانية تُطارد المصريين ووصلت طلائعها إلى حَلَب وتحرك الأسطول الإنكليزي في البحر المتوسط، فاستصرخ حمد قومه فلبوه فخفَّ ليُلاقي الأمير مجيد الشهابي على جسر القاقعية فيهزمه ويمضي ويلتقي بالجيوش العُثمانية في حمص ويخوض معها معاركها كُلَّها على المصريين، ويُعجب به القائد التُركي عزّت باشا فيُعينه حاكماً على جبل عامل ويطلب إليه أن يُطارد المصريين ويتقدم إلى فلسطين، فيطاردهم وينتصر عليهم[٣] ، ويبرز الشعراء ملتفين حول حمد مندفعين في تهنئته والإشادة بانتصاراته والتغني بأمجاد جبل عامل... ويخيّل إليك وأنت تُراجع شعر تلك الفترة أن حياةً مُصغّرةً لسيف الدولة الحمداني قد انبعثت في الجبل العاملي.. وكما كان سيف الدولة شاعراً ذوّاقة فكذلك كان حمد وكما كان الأول فارساً مقداماً فكذلك كان الثاني... كان المال موفوراً واليد مبسوطة فازدهر الشعر ازدهاراً يعزُّ مثيله، وشهد جبل عامل عصراً ذهبياً للشعر[٤] .

و"قد صارت تبنين مرمى الأبصار ومنتجع الآمال" كما يقول، وعندما توفي دفنه

(١) نفس المرجع ص ٢٦٠، ٢٦١.
(٢) نفس المرجع ص ٢٦٦.
(٣) حسن الأمين، عصر حمد المحمود، ص ٤٨.
(٤) نفس المرجع.

حفيد أخيه علي بك الأسعد في مقام النبي يوشع بن نون، وبنى قُبّتين إحداهما على مُقام النبي والثانية على القبر وجعلها أصغر من قُبّة النبي بقليل تعظيماً له[1] ".

وبعد حمد المحمود بدأ هذا المجد يخبو ولم تعد تبنين كما كانت مع عظيميّها مركز قرارٍ أول في جبل عامل، حتى إذا دبّت الخلافات بين الأبناء رأيناهم يُبارحون تبنين ويتوزعون بين الطيّبة واستنبول والعقبيّة ويطوون صفحات مُشرقةً من التاريخ العاملي كان فيها كلٌّ من ناصيف النصار وحمد المحمود الزعيمَ المُميّز والفارس الشُجاع والبطل المُدافع عن جبل عامل... كانت فترة حُكمِهما التي تعدّت الأربعين عاماً عصراً ذهبياً ازدهر فيه الأدب والشعر وشكّل نهضةً أدبيّة فريدة، فضارعت فيه قلعة تبنين قلعة حلب.

وستبقى قلعة تبنين - خلافاً لجميع القلاع في بلادنا - الوحيدة التي حضنت الفترة المُضيئة من تاريخنا الأدبي لأن فارسيّها الكبيرين خلقا حولهما بلاطاً أدبياً رعياه وحضناه وأعطياه الكثير، فلم يبخل عليهما وبادلهما عطاءً ومنحهُما مزيداً من الذكْر الحسن وطيب الخلود، وكانت تبنين -بالإضافة إلى فُرادة قلعتها- رائدةً بشاعرتها زينب فوّاز والتي كانت مدعاة فخرٍ لكل جبل عامل، فقد أضاءت بأدبياتها حيثما حلّت يوم كانت نساء جبل عامل راسفات في الأمية وظلام الجهل، وأطلت زينب فواز من مصر على دُنيا العرب بشعرها ونثرها المشرقين وكانت السفيرة بامتياز لبلدها ووطنها.

٤- الخيام

هي من أمهات قرى جبل عامل، من قرى مرجعيون، غربيها مرجٌ فسيح خصيب يُنسب إليها يشقّهُ جدولٌ (هو واقعاً نبع) يُسمى (الدردارة)، وهي على جبلٍ مُشرف على ذلك المرج وفي أسفل الجبل عينٌ تُسمى عين الدوير وعندها حدائق وبساتين[2].

تقع بلدة الخيام في الجنوب الشرقي من لبنان على بُعد خمسة كيلومترات من حدود فلسطين وعشرة كيلومترات من الحدود السورية، تُطل على سهل مرجعيون الذي يقع غرباً، ومن جهة الشرق على بُقعة سُهيلة (منخفض جبل حرمون أو جبل الشيخ حيث يجري نهر الحاصباني)، ترتفع عن سطح البحر نحو ٧٠٠م وتُشرف على مجموعة من البلدات والقُرى الواقعة في مُحيطها، بما فيها سهل الحولة.

(١) حسن صالح، تاريخ تبنين، منشورات دار الجُمان بيروت، ص ٢٤٣.
(٢) السيد مُحسن الأمين، خطط جبل عامل، ص ٢٧٨.

هذه الميزة للموقع كانت سبباً للاهتمامات خلال الحرب العالمية الأولى، فأنشأ الإنكليز في سهلها مطاراً عسكرياً، وبنوا مستشفى تحت الأرض، وزرعوا فوق هذا المبنى غابةً من شجر الزيتون... كما أن الفرنسيين أقاموا فيها في الثلاثينات ثكنة عسكرية حصينة (صـــارت مؤخـراً سجن الخِيام)، ووقعت في نِطاقها سنة ١٩٤١ معركة عُرفت بمعركة الجلاحية (بين جيوش الحلفاء وحكومة فيشي).

إن موقعها القريب من التقاء الحدود اللبنانية السورية الفلسطينية جعلها مركزاً تجارياً مُهماً، كما أن ثروتها المائية - بالإضافة إلى اتساع وخصوبة تربتها - ، عملت على ازدهار الزراعة وأهّلتها أن تكون بلداً زراعياً وتجارياً.

أكبر عائلات البلدة آل عبد الله الذين لعبوا طيلة قرون دوراً سياسياً تعدى بلدتهم إلى الجوار باعتبارهم العائلة البورجوازية - المالكة لمساحات كبيرة من الأراضي - التي ارتبطت بمصاهرات وتحالفات مع بعض مواقع القوى في الجنوب (آل الأسعد، آل بزي) ... وهم من أهل الشهامة والوجاهة والذكاء وفيهم الشعراء والأدباء، وسكن الخيام جماعة من آل يحيى والد الشيخ ابراهيم بن يحيى الشاعر المشهور، منهم الشيخ عبد الحسين بن ابراهيم بن صادق بن ابراهيم بن يحيى العالم الشاعر المعروف[١].

وعندما نقول الخيام يتبادر إلى الذهن الشاعر الكبير عبد الحسين عبد الله ربيب بنت جبيل وابنها الثاني الذي طالما حضنته ورعته وقدّرته... كما أن الأبناء والأحفاد لهاتين العائلتين (عبد الله وصادق) لعبوا دوراً لافتاً في الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية.

٥ً- الطيبـة

قرية في جهة هونين كانت ملك محمد بك وخليل بك ولدي أسعد الخليل من أحفاد الشيخ ناصيف النصّار الذي هو الجد الثالث لكامل بك بن خليل بن أسعد بن خليل، وكانت لأجدادهم من قبلهم، أقطعتهم إياها الدولة العثمانية مع قطائع أخرى في الشومر عوضاً عما سلبه الجزار من أملاكهم، وهم عشيرةٌ أهل شهامة ورياسة ومكارم[٢] .

الجدير بالذكر أن هذه البلدة كانت خلال حقبة طويلة عاصمة سياسية لبلاد بشارة يتسع نطاقها أو يضيق تبعاً لشخصية الزعيم الذي يتصدر هذه العائلة، وللدور الذي يشغله في الحياة السياسية.

---

(١) خطط جبل عامل، ص ٢٧٩.
(٢) خُطط، جبل عامل، السيد محسن الأمين، ص ٣١٩.

٦ً- بنت جبيل

هي بلدة تقع على الطرف الجنوبي الأوسط من جبل عامل تحدها عيترون من الشرق وعيناتا وكونين والطيري من الشمال وعين إبل من الغرب ويارون ومارون الراس من الجنوب، معتدلة المناخ نقية الهواء تدل بعض آثارها على أنها كانت مسكونة منذ القدم... واسمها العربي قد يوحي ارتباطاً بينها وبين جبيل الفينيقية اذ يعتقد أن أميرة جاءت من جبل عامل وأقامت فيها إمارة أو مملكة صغيرة فسميت هذه الأرض باسمها، وقد ذكر كل من ادوار روبنسون ولويس كورتيه[1] أنهما زاراها... تبعد بنت جبيل ستة أميال عن تبنين وأربعة كيلومترات عن الحدود الفلسطينية أي حوالي ٢كلم Vol d'oiseaux ... وقد تحملت على مر التاريخ وزر هذا الموقع الحدودي فليس بعدها جنوباً سوى بلدة واحدة من المسلمين الشيعة، لذلك كانت تمتص أو تتحمل أوصاب الغزوات المناهضة لسكان جبل عامل الآتية من الجنوب والشرق، كما أن هذا الموقع المتطرف أكسبها أهمية اقتصادية وسعت مدى سوقها التجارية (سوق الخميس) إلى مقاطعات بعيدة في سوريا وفلسطين والأردن.

جميع سكانها مسلمون أسوة بالقرى التي حولها باستثناء بعض القرى المسيحية القريبة منها والتي جاء سكانها حديثاً إلى هذه المنطقة منذ حوالي قرنين، وفقاً لرأي الشيخ سليمان ظاهر إذ يورد أن بعض مشايخ بني الشدياق اللبنانيين الموارنة جاءوا إلى عين إبل سنة ١٧٥٩.

تختص بنت جبيل بظاهرة لافتة جعلت منها مكاناً أثيراً ومركز استقطاب... فقد كان فيها على الدوام مُناخٌ أدبيٌ وانفتاحٌ ثقافيٌ وتحرك ريادي فاعل في مختلف حقول العمل السياسي والاجتماعي... كانت وما زالت نُقطةً مُضيئةً تَشُدُّ إليها الذين يزورونها أو يعملون فيها فتحضنهم ويُصبحون كأبنائها تُبادلهم حباً وعطاءً (عبد الحسين عبد الله، حسين مروه، الشيخ علي الزين، محمد فلحة).

هي بلدة العلماء والشعراء والمثقفين والسياسيين من علمائها الشيخ موسى شرارة، وابنه الشيخ عبد الكريم وحفيداه الشيخ محسن والشيخ موسى شرارة، بالإضافة إلى السيد مهدي الحكيم وابنه السيد هاشم الحكيم، والشيخ حسين بزي وابنه الشيخ علي بزي.

---

(١) مصطفى بزي ، بنت جبيل حاضرة جبل عامل، ص.٢٥٣

مصطفى بزي، تطور المجتمع في بنت جبيل بين الحربين العالميتين، رسالة ماجستير، ص١٣ غير منشورة.

ومن شعرائها: الشيخ علي شرارة وأولاده محمد وعبد اللطيف ومُرتضى شرارة، والشيخ أمين شرارة، وموسى الزين شرارة، وحسن فياض شرارة وابنه تحسين، وابراهيم شرارة وأخوه حسن شرارة.

وهي كذلك بلدة السياسيين: الحاج محمد سعيد بزي، وعلي بزي وعبد اللطيف بيضون، والحاج علي بيضون والعديد من الشباب العروبيين المتنوّرين وأساتذة الجامعات.

٧ً- عيناثا

بلدة قرب بنت جبيل في شماليها، كانت إحدى قواعد الحكم للسادة الشُكريين حُكّام جبل عامل في فترة معينة وإليها انتقل من مكة المكرمة أشراف آل فضل الله الحسنيّون وهم بيت علم وشرف... وعيناثا كانت دائماً منبع العلماء هي وجُبع ومشغرة وجزين وميس الجبل، وكانت مقر أُسرة آل خاتون المعروفة بالعلم ومنها انتقلوا إلى جويّا[1] ... أنشأ آل خاتون حوزة عيناثا في أواخر القرن التاسع الهجري وكانت مرجعاً للدراسات الدينية العُليا وتخرج منها العديد من العلماء.

تُعتبر عيناثا أحد أحياء بنت جبيل إذ البلدتان تتشاركان معاً في الهموم والشجون وفي جميع مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية...

وإذا كانت عيناثا منبع العلماء فهي في نفس الوقت منجم الشعراء، يكاد أهلها يتحدثون نظماً ويتخاطبون شعراً، حتى الأميّون بينهم ينظمون الشعر على السليقة، لهذا كانت جلسات الشاي في بيوتاتها ندوات أدبيةً راقيةً ومُطارحات فكريةً ونقاشات لغوية... عيناثا آل فضل الله كشقراء آل الأمين، كانت كُلٌّ منهما وما زالت منارةً عاليةً أعطت جبل عامل تُراثاً دينياً وكنزاً أدبياً وغنىً روحياً تجاوز المحيط والوطن إلى البلاد العربية والإسلامية.

٨ً- شحور

تقع بلدة شحور في الزاوية الشمالية الشرقية من قضاء صور، تبعد ٢٢كلم عن مركز القضاء، و٤٥كلم عن صيدا، و٩٥كلم عن بيروت ترتفع ٣٤٥م عن سطح البحر، وتُطلّ من الشمال على وادي الليطاني، وهي لا تتمتع بموقع استراتيجي وتقبع وسط هِضاب جبل عامل؛ وهي لم تتكون إلا خلال فترة الحروب الصليبية أي منذ حوالي ٨٠٠ سنة تقريباً،

(١) مصطفى بزي، بنت جبيل حاضرة جبل عامل، ص ٣٢٨.

وقد تعرضت خلال تاريخها للحرق على يد الأمير ملحم الشهابي سنة ١٧٤٩، ثم للانتقام والتقتيل على يد الأمير إسماعيل الشهابي (معركة صدر القتلى).

كان لشحور عبر أبنائها دور مهم تعدى نِطاق البلدة ولبنان إلى البلدان المجاورة نذكر منهم العلامة المُجتهد السيد عبد الحسين شرف الدين والشيخ أحمد عارف الزين، صاحب مجلة العرفان، والسيد موسى الصدر.

من أقدم العائلات التي سكنت شحور آل الزين (أواخر القرن الخامس عشر)، وللعائلة فروع تُكنى بأسماء أخرى منها آل الخليل، وآل السعيدي، وآل الخطيب، وآل الصيداوي، وآل شمّيس، ولا يوجد في شحور من هؤلاء سوى آل الخليل، الذين يرتبطون بصلة نسب مباشرة مع آل الخليل في صور... ويُشير النسّابون إلى أن آل الخليل وآل الزين من سُلالة واحدة[١] .

٩- النبطية

قصبة الشقيف ومحل تجارته وهي من أمهات بلاد جبل عامل فيها الدارات الشامخة والحدائق الناضرة بسبب الماء العذب الذي جلبه إليها يوسف بك الزين من نبع الطاسة سنة ١٩٢٥.. سكنها من العلماء السيد حسن بن السيد يوسف الحبّوشي، وأنشأ فيها مدرسة بناها له الحاج حيدر جابر، انتهت بوفاته... سكنها العلامة الشيخ عبد الحسين صادق، وتوفي فيها، وأنشأ فيها حُسينية، ومن علمائها الشيخ أحمد رضا، والشاعر البارع المؤلف الشيخ سليمان ظاهر (من ذرية الشهيد الثاني)، ومن كُتّابها ومؤرّخيها الأديب محمد جابر آل صفا، وممن برع فيها في الاختراعات حسن كامل الصبّاح، وكانت مقر الأمراء الصعبية[٢] ، وهي منبع العلماء تُضاهي جزين ومشغرة وعيناثا[٣] .

لعبت النبطية دوراً مميزاً بصفتها أكبر تجمع سكاني في بلاد الشقيف، ومركزاً رياديّاً في القرار السياسي، الذي كان يتفاعل مع الأحداث منذ مطلع القرن، فقد كان فيها مُثلثها المشهور، الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر، والمؤرخ محمد جابر آل صفا، الذي راح يقود الشباب ويواكب تطلعاتهم وطموحاتهم السياسية والوطنية، وتَوْقِهم إلى الوحدة مع سوريا... كما كانت نقطة التجاذب بين مختلف التيارات نظراً لزعامتها المتجذّرة والتي حاول الانتداب أن يُحارب عبرها الاتجاه العُروبي... كان يتسابق على

(١) أخذت هذه المعلومات من كتاب الدكتور خليل الأرزوني (تاريخ شحور الاجتماعي).
(٢) خطط جبل عامل، السيد محسن الأمين، ص ٣٦٤.
(٣) نفس المرجع، ص ٣٦٥.

تمثيلها مجموعات الشباب المتحالفة - داخل الوطن وفي سوريا - مع أصدقاء يُعارضون الانتداب ليواجهوا خطاً تقليدياً تؤيده السلطة وتسعى إلى تثبيت وتكريس زعامته، وبقيت ساحة النبطية الميدان الواضح لهذا الصراع، واستمرت نتائجه تطاول كل جبل عامل لأن النبطية كانت وما زالت إحدى المراكز الفاعلة في حياة الوطن.

١٠- شقراء

بلدة في قضاء بنت جبيل فيها آثار قديمة وآبار ومدافن منحوتة في الصخر، حلّ فيها آل الأمين عندما جاؤوا من العراق من الحلة منذ ما يزيد على ٣٠٠سنة وأصبحت وحتى أيامنا بلدة العلماء والفقهاء وواحدة من مراكز الإشعاع الديني، وقد أمدّتِ العديد من القرى المجاورة والعديدة بعلماء فاضلين من آل الأمين، فكانوا رسل هداية وتنوير، نُشير إلى العلامة الكبير السيد محسن الأمين والدور الرائد الديني والوطني الذي قام به في جبل عامل ثم في دمشق حيث كان بيته محجة السياسيين الوطنيين والزعماء والعلماء، والذي رفض بكبرياء مرسوم تعيينه (رئيساً لعلماء الشيعة)، بعد أن أصدرته السلطات الفرنسية وقال للرسول الذي حمله إليه. "قل لصاحبه إن هذا الأمر لا أسير إليه بقدم ولا أخطُّ فيه بقلم ولا أنطق فيه بفم"[1] والذي رفض كذلك اعتبار الشيعة في سوريا من الأقليات، بُغية تخصيصهم بمقاعد في المجلس النيابي خاصةٍ بهم، وقدّم للحكومة كتاباً بأن الشيعة تعتبر المسلمين طائفة واحدة ولا تُريد الافتراق عن إخوانها السنيين، وقررت الحكومة تبعاً لذلك أن المسلمين طائفة واحدة لا فرق بين سنيّيهم وشيعيّيهم وأن جميع هذه المقاعد المُعيّنة للمسلمين في جميع أنحاء الدولة السورية هي للسُنيّين والشيعيّين على السواء.

ولا ننسى كذلك بقية علماء وأدباء وشعراء ومؤرخي آل الأمين، لا سيما السادة عبد المطلب وجعفر وحسن وهاشم وعبد الرؤوف (فتى الجبل) والدور الذي لعبوه في مختلف الحقول التي عملوا بها.

وتبقى شقراء دائماً مع آل الأمين المنارة السامِقة التي شعّت وتشع على جبل عامل وكُل الوطن وعلى العالمين العربي والإسلامي.

١١- جبُع

وتعرف بجباع الحلاوة تمييزاً لها عن جُبع الشوف في جبل لبنان، وجُبع بنيامين في

(١) هيثم الأمين وصابرينا ميرفان، سيرة السيد محسن الأمين، ص١٨٩، شركة رياض نجيب الريس، شباط ٢٠٠٠

فلسطين... تشتهر بعذوبة هوائها وطيبة مائها وكثرة ينابيعها، مما يجعلها مركزاً مهماً للاصطياف ويُطل عليها جبل صافي الذي طالما تغنى به الشعراء... هي أكبر قُرى إقليم التفاح وبلدة العلماء والزهّاد بدءاً من الشهيد الثاني (زين العابدين بن أحمد العاملي)، صاحب شرح اللُّمعة الدمشقية والعديد من المؤلفات وسلسلة طويلة من أبنائه بالإضافة إلى العديد من العلماء الكِبار من آل نور الدين ونعمة والحُر والكركي، ومنها الشيخ الهمذاني وولده الشيخ البهائي والشيخ الكفعمي[1] .

١٢- ميس

وتعرف بميس الجبل بلدة كبيرة غربي الحولة تتصل أرضها بها، ذات حارتين غربية وشرقية فيها جامع يُنسب للصحابي أبي ذر الغفاري، وفيها جامع آخر على بُنيانه أثر القدم والاتقان، جدّد بُنيانه الشيخ موسى قبلان... خرج منها الكثير من العلماء منهم المُحقق الميسي صاحب كتاب الميسيّة في الفقه، وشيخ الشهيد الثاني الذي تخرج من مدرسته... وكانت تجمع ٤٠٠ طالب ومنها الشيخ لطف الله (ابن حفيد المحقق الميسي) وكان الشيخ البهائي يعترف له بالفضل ويأمر بالرجوع إليه، وسُمّي مسجد باسمه في أصفهان[2] .

١٣- جزين

كانت جزين منبع عُلماء جبل عامل إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، وكان أهلها جميعهم شيعة ثم هاجروا منها وتفرقوا في البلدان بسبب ما توالى عليهم من الفتن والمحن وظلم الحُكام في جبل لبنان، ومن علمائها الشهيد الأول محمد بن مكي (قُتل في دمشق لأجل تشيّعه سنة ٧٨٦هـ)، وهي أخت جُبع في طيب الهواء وعذوبة الماء، "وقد وُجد فيها من عهد قريب كِتاب عليه خط طُبِع في بيروت رأيته مطبوعاً يقول -السيد مُحسن الأمين- وغاب عني اسمه وموضوعه وفيها جبل يُعرف إلى اليوم بعريض شرارة، مما دل على أن آل شرارة كان منهم من يسكنها[3] " .

خرج المتاولة من جزين وجوارها بعد الحروب التي دارت بينهم وبين الدروز سنة ١١٧١هـ ، حتى ١٧٥٧م، وانتهت بهزيمتهم وتشريدهم، وسكن المسيحيون هذه المناطق وفصلوا بذلك بين الفريقين بدءاً من شرق صيدا حتى أعالي جزين.

---

(١) السيد محسن الأمين، خطط جبل عامل، ص ,٢٥٧

(٢) نفس المرجع السابق، ص ,٢٦٣

(٣) نفس المرجع، ص ,٢٦٤

جبل عامل وإيران

من المعروف أن إيران كانت سنيّة المذهب رسمياً، رغم قِدَم انتشار التشيّع بين العديد من شرائح المجتمع الإيراني في مختلف فترات تاريخهم بدءاً من العُصور الأولى للإسلام وحتى أيام الصفويين.

إلا أن المذهب الجعفري لم يصبح مذهب الدولة إلا مع الشاه اسماعيل الصفوي (توفي سنة ٩٣٠هـ) وقد صدر مؤخراً للباحث الإيراني مهدي فرهاني كتاب بالفارسية عن منشورات (أمير كبير)، ويتضمن الكتاب مقدمةً وخمسة فصول يشير في الفصل الأول إلى أن الصفويين استخدموا قوة السيف في إجبار الإيرانيين على الانتقال من المذهب السني إلى المذهب الشيعي، وأدركوا أن الأمر يحتاج إلى تعميق التشيع من خلال بناء فقهي فكري متين، وهذا ما دعا الشاه اسماعيل إلى توجيه أنظاره صوب جبل عامل حيث كان العلماء الذين تربّوا على يد الشهيد الأول فقام بدعوتهم للهجرة إلى إيران لأداء هذه المهمة وكان دورُهم أشدَّ تأثيراً من علماء الشيعة الفرس والذين هاجروا من العراق والبحرين.

يورد المؤلف فرهاني في الصفحة ٨٩ من كتابه، "كان همُّ الصفويين كيفيةَ السيطرة على روح القتال والمواجهة لدى اتباعهم والانشغال بإصلاح هيكلية الإدارة وإقرار النظام وحكم القانون في المجتمع والاهتمام بالاقتصاد؛ من هنا كان الصفويون بحاجة إلى تدعيم أركان حكمهم عَبْرَ كسبِ شرعية دينية تمكنّهم من بسط سلطانهم بشكل كامل، وفي المقابل كان هناك نقصٌ كبير في رجالِ الدين وأهل الرأي الشيعة، ونقصٌ كبيرٌ في الكتب الدينية الشيعيّة، وغياب هذه الكتب انسحب على المدارس الرسمية أيضاً، وبمجيء الحاكم الصفوي طهماسب الأول بدأ التفكير ثانيةً باستقدام علماء الدين من جبل عامل لإناطة علوم الفقه الجعفري بهم"... مع الإشارة أن الشيعة وعلماءهم كانوا خلال عهد المماليك هدفاً للاضطهاد والإيذاء والتضييق عليهم وقتلهم نذكر حملة المماليك عليهم التي استمرت أربعة عشر عاماً من ١٢٩٢-١٣٠٥ ميلادية، وفتوى مفتي الشام ابن تيمية بقتلهم.

في الصفحات ١٣٢ حتى ١٣٦ من كتابه "منطلق تاريخ لبنان" يذكر المؤرخ كمال الصليبي: "ما إن تم إخراج الفرنجة من عكا وصور وصيدا وبيروت عام ١٢٩١م حتى جرّد الملك الأشرف الخليل بن قلاوون العساكر إلى جبل كسروان لكسر شوكة العشائر المُتمنّعة عن قبول سلطة الدولة هُناك، وكان أهالي كسروان ومعظمهم من الشيعة

الإمامية "وهم الرافضة على حد تعبير أهل السنّة في ذلك العصر"، قد بقوا حتى ذلك الوقت خارج سطوة ملوك دمشق وحكامهم. وكان سبق للأمير بدر الدين بيدَرًا، نائب السلطة في مصر أن جرّد حملةً على كسروان في صيف ١٢٩١، وعاد شبه مهزوم، فزاد استياء المماليك وأهل السُنّة في الشام منهم، وقدم كبير أئمة الشام شخصياً إلى كسروان سنة ١٣٠٤ على رأس وفد من الأمراء لمفاوضتهم في الرجوع إلى الطاعة، فلم ينجح في مهمته وعاد إلى دمشق وأخذ يدعو في جميع أنحاء الشام إلى حملة جديدة ضد أهل كسروان تقضي عليهم قضاءً نهائياً... وفي ٢٥ تموز ١٣٠٥م سار الأمير جمال الدين آقوش الأفرم على رأس جيش قارب الخمسين ألف راجل ، فانكسر أهل كسروان في عين صوفر وانهزموا فلحقهم آقوش الأفرم إلى جبالهم، ونازلهم وضرب خيامهم وقطع رؤوسهم ومزّقهم بعدما قاتلهم أحد عشر يوماً... ووضع فيهم السيف وأسر ستماية رجل وغنمت العساكر منهم مالاً عظيماً... وكانت الواقعة الكُبرى بين عسكر دمشق والكسروانيين في قرية (نيبيه)، وكان عدد الكسروانيين في تلك الواقعة أربعة آلاف رجل فراح تحت السيف منهم خلقٌ كثير والسالمون منهم تفرقوا في جزين وبلادها والبقاع وبلاد بعلبك..."

وتجدر الإشارة إلى أن الكثيرين منهم اعتنقوا المسيحية طلباً للسلامة والأمان، وهرباً من الاضطهاد والظلم والتكفير ("آل الهاشم - آل زغيب وسواهم").

وعندما جاء السلطان سليم وانتصر على المماليك، تابع نفس سياسة الاعتقال والاضطهاد والإيذاء والقتل وإغلاق المدارس كما أصدر مفتي البلاط العثماني الشيخ نوح حنفي فتوى بوجوب قتل الشيعة وعلى أساسها تم إعدام الكثير من العلماء والفقهاء في جبل عامل وحلب ومناطق أخرى فازدادت هجرة علمائهم واتسع نطاقها إلى إيران والحجاز والهند، وكانت الحصيلة أن ٩٧ عالماً من جبل عامل ، هاجروا إلى إيران ولم يعد منهم إلا سبعة فقط[1].

هذه الهجرة إلى إيران أدت إلى تعميق جذور هذا المذهب بين الناس والتفقه في فقهه واجتهاداته في معالجة الأمور الدينية والدنيوية بالإضافة إلى شموله معظم البلاد بعد أن كان محدود الانتشار قبل الصفويين، كما استتبع تحجيم الحركة الصوفية التي يرفضها هذا المذهب، وهذا ما سمح لعلماء جبل عامل في أن يتبوأوا المراكز الكبيرة

(١) يراجع كتاب مهدي فرهاني، هجرة علماء الشيعة في جبل عامل إلى إيران، جريدة النهار ٢٠٠١/١٢/٢٠، ص١٥، بقلم الاستاذ سالم مشكور كما تراجع مستدركات أعيان الشيعة المجلد الأول الطبعة الثانية، ص ١٨-١٩, ومنطلق تاريخ لبنان لكمال الصليبي.

في تركيبة الدولة الملتزمة رسمياً المذهب الجديد. نشير هنا إلى الألقاب التي منحت لبعضهم في إيران مثل مجتهد الزمان، وخاتم المجتهدين ونذكر الدور العظيم الذي قام به الشيخ بهاء الدين العامليّ، (توفي سنة ١٦٢٠ م) في الدين والرياضيات، والمحقق الكركي والشيخ حسين عبد الصمد الحارثي وقد كتبوا ودرّسوا بالعربية وتناولوا مواضيع في مختلف أنواع العلوم.. هذه النهضة الدينية والعلمية استتبعت إقامة مكتبة ضخمة في مشهد (استان قدس رضوي) جمعت فيها معظم المؤلفات بالعربية والفارسية.

في مقدمته لكتاب المؤرخ محمد جابر آل صفا يقول السيد حسن الأمين صفحة ٥٠:

..."إن اسم جبل عامل ينطلق بك إلى الماضي البعيد الذي كان فيه هذا الجبلُ العظيمُ مصدرَ ثقافات ومبعثَ دراسات ومطلَع دعوات أفاضت الخيرَ العميمَ لا عليه وحدَهُ بل على أقطار قصيّة كان رجاله فيها بُناةَ النهضاتِ وحملَةَ الإشعاعات ممّا لا تزال آثارُهُ ماثلةً حتى اليوم... ففي مدينة أصفهان بإيرانَ مثلاً يحملُ شارعٌ من أعظم شوارعها اسمَ نابغة من نوابغ جبل عامل تعترفُ به المدينةُ الكبيرة بفضل هذا الرجل وتُقرُّ بإحسانه، ذلكَ هو محمد بهاء الدين العاملي الذي يُعرف هناك باسم الشيخ البهائي... وفي المدينة نفسها مسجدٌ من أفخم مساجد الدُنيا يحمل اسمَ عامليٍ آخرَ هو الشيخ لُطف الله العاملي.

وفي مدينة مَشْهَد بإيران ضريحان لعامليَّيْن اثنيْنِ هُما موضعُ الإجلال والإكبار ومحطُّ رحال الزوار، أولهما ضريحُ الشيخ البهائي نفسه، والثاني ضريحُ الشيخ محمد حسن الحُر العاملي.

وفي مدينة حيدر آباد في الهند ضريحٌ لعاملي آخرَ هو الشيخ محمد علي خاتون، يتهافت لتحيته المُتهافتون ويُقبِلون لتكريمه كُلَّ يوم...

وحين تُكرِّم تلك المُدن ذكرى هؤلاء الأربعة، وتظلُّ حفيةً للتردد إلى قبورهم فلأنهم كانوا من الأعلام المصابيح التي اهتَدَتْ بنورها تلك الربوعُ ولأنهم حملوا دعوةَ العلم والفكر والصلاح فنشروها حيث حلّوا، ولأنهم من الأركان التي قامت عليها نهضاتُ تلك الشعوب.

وحين أختص بالذكر هؤلاء الأربعة فليس لأنهم كانوا الوحيدين فيما شادوا وفيما أفادوا بل لأجعل منهم شاهداً لما كان عليه المئات من أمثالهم الذين أطلقهم هذا الجبل فكانوا دُعاة الخير والحق، وكانوا رُسُل الثقافة والدين".

الحياة العلمية والدينية في جبل عامل

إن تاريخ جبل عامل - هذه الرقعة الضيقة نسبياً من الأرض - تمثل جهاداً مستمراً يَقِظاً للمحافظة على الذات، نظراً لأنه شكَّلَ بيئةً مستهدَفَةً من جيرانها لعدم تطابق النظرات في كثير من القضايا الخلافيّة... كان جبل عامل بالواقع معارضاً لأداء الحاكمين، رافضاً خضوع الاستسلام طلباً للسلامة، كان يحمل قضيةً مبدئيةً لا تقبل المساومة وأنصافَ الحلول، فآثَرَ حمْلَ مسؤولية الرسالة بطُرُقها الخشنة وصراطِها المستقيم تماماً كما استمدّها من حمَلَتِها، وكما اختطّها نزيلُ جبل عامل أبو ذر الغفاري منذ العهد الأول للرسالة في الصرفند وميس الجبل.

وقد ورد في كتاب الباحث الإيراني مهدي فرهاني في الفصل الأول - وقد أشير إليه سابقاً- أن المؤرخين يجمعون على أن البناء الأول للعصر الشيعي في جبل عامل جاء على يد أبي ذر الغفاري، الذي نفاه الخليفة الثالث عثمان بن عفان إلى هذه المنطقة حيث أقام في قرية الصرفند وقرية أخرى، وابتنى جامعيْن مسجديْن اتخذا اسمه في جنوب لبنان.

كان عالمُ الدين في جبل عامل بالواقع يكوّنُ حوله مدرسةً قرآنيةً تعلم أبناء البلدة التي انتدب لها فإذا بلغ درجة الاجتهاد انتظمَتْ حوله مدرسةٌ عليا تتدارسُ مع طلابها علوم الدين والصرف والنحو واللغة والمنطق وفقاً للتحصيل والمرتبة؛ ودرجة الاجتهاد تمثل الدرجة العليا في الفقه وعلم الكلام والحديث والسنة بالإضافة إلى الزهد والتقى والورع، ويذكر السيد محسن الأمين في الجزء الخامس من أعيان الشيعة، أنه اجتمع في جنازة في قرية من قرى جبل عامل سبعون مجتهداً في عصر الشهيد الثاني وعلى هذه الشاكلة سارت الأمور لاحقاً وقد أغنى جبل عامل كثيراً من الأقطار بعلمائه ومجتهديه.

«قد يعجب المرءُ وتعتريه الدهشةُ إذا علم أن هذه البقعةَ - المعروفة بجبل عامل- قد خرّجت عدداً وافراً من أهل العلم والفضل وذوي الثقافة العالية لا يتناسب مع ضيق رقعتها وقلة ساكنيها، فقد فاق عدد العلماء من الشيعة في جبل عامل عن خمس مجموعهم في أنحاء المعمورة مع أن بلادهم بالنسبة إلى باقي بلدان الشيعة أقلُّ من عُشْرِ العشر[1] .

إن هذه البقعة بقيت رغم كل العسف والاغتيال والتنكيل البيئةَ الصالحةَ لتخريج

(١) يراجع كتاب تاريخ جبل عامل لمحمد جابر آل صفا، ص ٢٣١. طبعة دار النهار.

الكثير من العلماء المتبحّرين والمجتهدين وقد تجاوزت عطاءاتهم جبل عامل إلى كل مكان استطاعوا الوصول إليه حيث عملوا على نشر أفكارهم وتعميق معارفهم وترسيخ معتقداتهم وإنشاء المدارس الفقهية التي أغنت العلوم الدينية وزوّدَتْها بالكثير من الجدليّة والتبحر.

كانت هذه المدارس أشبه بالكليات منها بالمدارس العادية، كان يدرَّسُ فيها الفقهُ والأصولُ والحكمةُ الإشراقيةُ وعلمُ الكلام والمنطقُ والفلسفةُ القديمةُ عدا علوم الدين واللغة.

كانت حلقاتُ التدريس محبوكةً يحضرها التلامذة من مختلف الأعمار تقوم على الاستدلال وارتشاف مناهل العلم، مع روح التساهل والإخاء، وقد كان من نتيجة الضغط الذي مورس على هذه البيئة المحاطة من كل جانب بمن يخالفها الراي والمعتقد أن اضطر هؤلاء لممارسة التقية أي التظاهر أمام الغرباء بالتزام مذهب السلطة الحاكمة وممارسة الشعائر وفقاً له، حتى إذا أمِن الناس عدم وجود غرباء أو عملاء بينهم عادوا إلى ممارسة شعائرهم وفقاً لمذهبهم.

هذه التقيّةُ التي لجأ إليها الشيعة مضطرّين كانت الردَّ العاقلَ المدروسَ على التعصب الأعمى وكانتِ الوسيلةَ السليمةَ الحكيمةَ التي أنقذَتْهم من عمى الكراهية الذميمة وحفظَتْ لهم وجودَهم وتراثَهم في تلك الفترة المظلمة. حيث كان الحاكم عبر مختلف العصور ضيق الصدر والأفق لا يحتمل معارضة ولا يقبل جدالاً.

هذه التقيّةُ المفروضةُ – نتيجةَ الإرهاب والضغط على البيئة العاملية – عملت على توفير بعض الراحة والاطمئنان للمسلمين الشيعة وخَفَّفَتْ من غلواء التعصب ضدهم وأنقذتْهم من متاعبَ لا تحمدُ عقباها تبعاً لفتاوى ظالمة دفعوا حياة كثير منهم ثمناً لها، وفي مختلف العصور كما جرى مع الشهيدين الأول والثاني ومع العديد من علمائهم... وبقيت صُوَرُ مآسيها عالقةً في وعيهم كمذابح كسروان وتصفيات علماء حلب وجبل عامل وسواها من المناطق.

الحياة الأدبية في جبل عامل

يقول أسد رستم في مقال له: "والاسكندر الكبير إذ تحدته صور وصمدت في وجهه واضطر أن يحاصرها حصاراً طويلاً، أحب في يوم من أيام الحصار أن يُروّح عن نفسه برحلة صيد قصيرة فقام من ضواحي صور ممتطياً جواده واتجه شرقاً متسلقاً جويا وتبنين فوجد نفسه فجأة بين قومٍ من العرب؛ هكذا يقول أريانوس، أقدمُ من أرّخ للاسكندر وأقربهم إليه زماناً"[1].

وعندما فتح العرب الساحل الشامي بما فيه لبنان في العام ١٣ من الهجرة أصبح جبل عامل جُزءاً من ذلك المدى الواسع، الذي ذابت فيه جميع الديانات وأصبح لكل من هذه البلاد شعراؤها وأدباؤها وعلماؤها[2].

من شعراء جبل عامل في العصر الأموي عُدي بن الرقاع، وفي العصر العباسي عبد المُحسن الصوري، ومن عُلمائه الكبار الشهيد الأول (محمد بن مكي)، الذي كان طليعة النهضة بعد جلاء الصليبيين، وقد سبق له أن درس في الحلة التي كانت مركز التدريس قبل النجف، وعندما عاد إلى لبنان سنة ٧٥٥ هجرية ١٣٥٣م عمل على بعث نهضة علمية أدبية في جبل عامل، انطلاقاً من مدرسته التي أنشأها في جزين، والتي خرجت عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء، لكن هذا الإمام لم يسلم من شُرور التعصب وكيد الحُساد والوشاة، كالقاضي ابن جماعة الدمشقي، وتقي الدين الخيامي وغيرهما .فقبض عليه بأمر من نائب دمشق الخوارزمي في عصر السلطان برقوق من ملوك دولة المماليك البُرجية المصرية، وسُجن في قلعة دمشق، ودام اعتقاله أحد عشر شهراً ثم قُتل وصُلب وأُحرقت جثته (سنة ٧٨٦ هـ، ١٣٨٤م)، فأُطلق عليه اسم الشهيد الأول لأنه أول عالم قُتل في سبيل الدين والعلم في جبل عامل[3]. وكان صنّف كتاب (اللُمعة الدمشقية) في الفقه الجعفري في سبعة أيام، أما بقية مؤلفاته في مختلف العلوم والفنون فأَرْبَتْ على المئة، وبمقتله أُقفلت مدرسته في جزين وتفرق تلامذته.

وقد تعددت المدارس بعد وفاته ونشأت حول علماء متبحّرين، درّسوا علوم الدين وكان لهم الفضل في نشر المعرفة في مدارسهم ومحيطهم وأشهرها في تلك الحقبة مدرسة ميس (التي أسسها المُحقق الأول الميسي الشيخ علي عبد العالي المُتوفى سنة

---

(١) السيد حسن الأمين، مجلة العرفان، كانون الثاني ١٩٨٢، ص ٤ - ٥.

(٢) نفس المصدر

(٣) محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص ٢٣٥.

٩٣٣ هجرية ١٥٥٥ ميلادية) ومن تلامذته الشهيد الثاني... ومدرسة الكرك أسسها العلامة الشيخ علي بن عبد العالي الكركي، المُحقق الثاني.. المتوفى سنة ٩٣٧ هجرية ١٥٣٠ ميلادية، ومدرسة بعلبك (النورية) (ارتبطت بجبل عامل) وقد تولى التدريس فيها الشهيد الثاني (الإمام زين العابدين الجبعي)، الذي وُلد سنة ٩١١ هجرية ١٥٣٣م ودرس على والده وارتحل بعد وفاة والده إلى ميس سنة ٩٣٦هـ ١٥٥٨م، ثم إلى مدرسة الكرك ودمشق ومصر حيث درس في الأزهر، وعندما عاد لمع نجمه ودرّس في بعلبك بموجب براءة من السلطان سليمان القانوني على المذاهب الخمسة وألَّفَ ستين كتاباً وشرح اللّمعة الدمشقية لمؤلفها الشهيد الأول[1] . لكنه لم يسلم من كيد الحاسدين فوشوا به ولفقوا هذه التهم فاستتر ثم فرّ إلى الحجاز، وفي مكة ألقى رجال السلطان القبض عليه، وساروا به إلى القسطنطينية، وقتلوه على الطريق سنة ٩٦٦هجرية ١٥٨٨ ميلادية، وحملوا رأسه إلى السُلطان الذي أنكر فعلتهم وعاقبهم بالقتل، فأُطلق عليه اسم الشهيد الثاني.

وبقي جبل عامل وعُلماؤه عرضة للملاحقة والاضطهاد والتنكيل طيلة عقود طويلة كما بقيت المدارس الدينية فيه مُحافظة نسبياً وقدر الإمكان على هذا التُراث وفي هذا يقول السيد حسن الأمين:

كانت نكبة جبل عامل بأحمد باشا الجزار من النكبات القاصمة إذ فوجئت البلاد بزحفه عليها وهي على غير استعداد، فاستطاع التضييق عليها وعلى من لقيهم من أبنائها ثم أطلق جنوده يعملون التخريب والتقتيل والسلب، وكان أفجع ما لقيَه جبل عامل في تلك المحنة نهبُ مكتباته نهباً عاماً وحملُ كُتُبه إلى عكَا... وكان يُمكن أن يكون الأمر سهلاً لو أن تلك الكُتُب أُريد لها في عكا الجمع والحفظ، لكنّ الجزار وأعوانه رأوا زيادة في الانتقام أن يُبيدوا تلك الكتب فيسلموها إلى أصحاب الأفران، يوقدون بها أفرانهم، ويكاد يُجمع المؤرخون العامليون على أن تلك الكُتب ظلت تُغذي الأفران في عكا أسبوعاً كاملاً"[2] .

وبذلك تكون أفران عكا قد التهمت نتاج خمسة قرون من الأدب والشعر ومختلف أصناف المعرفة، وذهب مع لهيب نيرانها عطاءٌ فكريٌ عظيم كان مقدراً له أن يُزيِّنَ المكتبات ويُنيرَ العقول ويُغنيَ الأفكار...

(١) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٢.
(٢) السيد حسن الأمين، عصر حمد المحمود، ص ١٦.

كان ذلك إحدى ضرائب الجهل، وعَنَتِ التعصّب الذي طالما تعرض له هذا الجبل العاملي، الذي اعتاد أن يتحمَّلَ الظلم ويصبرَ على القهر ويستمرَّ صامداً حاملاً لواء المبادئ التي التزم بها ومُعارضاً حتى الاستشهاد لكل ما يراه مخالفاً لقناعاته وعقيدته وإيمانه. كما كان مقتلُ زعيم الجبل ناصيف النصّار ذروةَ هذه الكوارث والنكبات، بالإضافة إلى فتك الجزار بالعديد من العُلماء وهجرة من لم يُسجن إلى خارج البلاد، إذ شخص بعضهم إلى إيران والهند وبلاد الأفغان فَخَلَتِ البلاد أو كادت من العلماء، ووقف التدريس وأُغلقت المدارس ونشبت حرب العصابات وكانت هائلة فازداد البلاء والشقاء[١] .

ودخلت البلاد لاحقاً جيوش ابراهيم باشا، وكان الأمير بشير حليفاً له، فضم إليه جبل عامل، الذي فقد سيادة أهله، وقامت ثورة حسين بك شبيب وأخوه محمد علي سنة ١٨٣٦، وانتهى أمرهما على أسوأ حال، فعانت البلاد ضغطاً فظيعاً وقاست بلاءً شديداً[٢] .

عندما بدأ إبراهيم باشا بالتراجع أمام الجيوش العثمانية وحلفائها تحرك زعيم جبل عامل حمدالبيك أو حمد المحمود (وهو حفيد الشيخ محمود النصّار المعروف بأبي حمد الذي كان تابعاً لأخيه الشيخ ناصيف النصّار وقد قتل في حياته ومن أجله - صفحة ٣٩ عصر حمد المحمود حسن الأمين)، وكان فارساً مقداماً، أديباً وشاعراً، جمع جيشه والتقى على جسر القاقعية الأمير مجيد الشهابي وانتصر عليه، وقاتل المصريين، وأُعجب به القائد التُركي عزت باشا وعيَّنَهُ حاكماً على جبل عامل، فطارد المصريين وهزمهم في سهل رميش واحتل صفد وطبرية وعكا والناصرة وقسماً كبيراً من شمال فلسطين.

وفي هذا السياق يورد السيد حسن الأمين:

"أصبح حمد المحمود الحاكم المُطلق في البلاد، منصوباً من الدولة التي قدَّرَتْ له موقعه فأطلقت يده في الجبل وككلّ حاكمٍ مُطلق ينطلق في اجتناء أكثر ما يمكن من المكاسب، انطلق حمد المحمود، فكان المال موفوراً واليدُ مبسوطةً فازدهر الشعر ازدهاراً يَعزُّ مثيله وشهد جبل عامل عصراً ذهبياً للشعر... وإذا كُنا قد عرفنا الكثير من وقائع حمد فإننا لم نعرف الكثير من شعره، فلم يكن يُعنى -على ما يبدو- بتدوين شعره لأنه كان في شاغلٍ عنه شأنه في ذلك شأن سيف الدولة الذي لم يصلنا من شعره إلا

(١) محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص ١٣٩.

(٢) السيد حسن الأمين، عصر حمد المحمود، ص ٤٩.

القليل، ومن شعره هذان البيتان الغزليان:

حَضَرْتَ فكُنتَ في بصري مقيماً ... وغِبْتَ فكنت في وســـط الفؤادِ
ومـــا شـــطَّت بنـــا دارٌ ولكـنْ ... نُقِلْتَ من الفؤاد إلى الســـواد

وحسبهما دلالة على شاعرية صاحبهما. (حسن الأمين نفس المرجع أعلاه).

وكانت تبنين قاعدة حكمه وفيها مُلتقى وفاده فجدّد بناء قلعتها وأعاد لها أمجاد سلفه الشيخ ناصيف النصّار وأرّخ ذلك في الأبيات التالية:

حُـصـن تـبـنـيـنَ رفـيـعٌ شـامـخٌ ... شـاده بـالـعـز غـوثُ الـمـسـلـمـينْ
ذاك نـاصـيـفُ مـلاذُ الـمُـلـتـجـي ... مـأمنُ الـخـائفِ غـيثُ المعـتـفـيـن
وبـه نـالـتْ فـخـاراً عـامـل ... ذكـرُهُ بـاقٍ لـهـا فـي الآخـريـن
مـا الـذي حـلَّ بـهـا مـن بـعـده ... ودهـاهـا مـن فـعـالِ الـجـائرين
جـدّد الـيـوم لـهـا الـفـخـرَ فـتـى ... عـوَّدَ الـسـيـفَ على قطْعِ الوتين
دارةُ الـبـدر لـقـد جـدَّدَهـا ... حـمَـدُ الـقـومِ لأمْـنِ الـخـائفـيـن
مـربـعـاً لـلـعـزِّ قـدْ شـاد لـنـا ... نـاصـرُ الإسـلام غـوثُ الـعـالـمـين
يـا لـهـا مـن قـلـعـةٍ تـاريـخـهـا ... تبنين برج السعد حصنُ المؤمنين

وقد قال فيه الشيخ صليبي الواكد:

جدَّ المسيرَ إلى تبنينَ تلقَ بها ... شهماً إلى ذروةِ العيّوق مَرقاهُ
قد أصبحت من نداهُ روضةً وغدَتْ ... حِصناً متيناً وعينُ الله ترعاهُ
ربيعها (حَمَدٌ) هامُ المُلوك وقد ... ساسَ الأمُورَ فأضحتْ طوع يمناهُ
لَيْثٌ، براثِنُهُ البيضُ الرقاقُ ومن ... يلقَى الألُوفَ فتخشَى هولَ لقياهُ
هيهاتِ لم يدركوا أدنى مآثرِهِ ... ولا أقام عمودُ المجدِ إلاّ (هو)
فاسلم بعزٍ ومجدٍ غيرِ منقطعٍ ... مليكَ فضلٍ وشكرٍ من رعاياهُ(١)

وهكذا نرى أن جبل عامل قد شعر ببعض الراحة وعرف هُدوءاً وتواصلاً طالما فقدهما وعادت إلى أجوائه الحركة العلمية والأدبية، واستأنفت مدارسه الدينية انطلاقتها بعد طول غياب، وشهدت البلاد نشاطاً وسباقاً لتعويض ما فات.

---

(١) حسن الأمين، عصر حمد المحمود، ص ٤٦.

موسى الزين شرارة

شهادة تعريف

اسم الوالد: الزين شرارة

اسم الوالدة: سكنه عجمي

الولادة: ١٩٠٢

مكان الولادة: بنت جبيل

رقم السجل: ١٨٥ عين الصغيرة

توفي والده وهو في السادسة من عمره كما توفي عمه علي (شقيق والده) في اليوم الثاني وبذلك أصبح يتيماً وحيداً لا أخ له ولا أخت ولا عم ولا خال ولا عائلة غنية أو ذات نفوذ...

في محاضرة ألقاها الشاعر في مركز المجلس الثقافي للبنان الجنوبي في بيروت يقول: "ولدت سنة ١٩٠٢ في بنت جبيل وفي سنة ١٩٠٢ توفي المرحوم والدي وهو في ريعان شبابه وبقيت مع الوالدة التي كنت أصحو واستيقظ على نواحها، الأمر الذي أرهف حسي وجعلني أحس مع كل مُصاب وأتألم مع كل منكوب وأهبّ لمساعدة كل مظلوم وأحارب الجَوْر والطغيانَ وكلَّ أنواع الاستبداد"(١).

كان والد الطفل يتعاطى تجارة الحبوب بالشراكة مع السيد عقيل شامي وتربطه به مودةٌ وصداقةٌ كان من نتيجتها أن تزوجت أرملتُهُ أم موسى من أخي الشريك عقيل ويُدعى "علي شامي" واستتبعت هذه العلاقة القديمة بين عقيل شامي ووالد الطفل اليتيم، رعايةً حادبة عوّضَتْهُ الكثيرَ مما افتقد... "فقد احتضنني ورباني وغمرني بحبه وحنانه الأمر الذي تركني لم اشعر بمرارة اليتم وقسوته"، يقول في رثائه:

مَنْ غيرُ حبكَ حينَ أيْتَمَني القضا؟ ... عني أزاح دجى المصابِ وبدّدا

وسواكَ منْ آسى جراحاتِ الحشا؟ ... وأنا - ابْنُ ست لا أزالُ - وضمّدا

وأماط عن وجهِ الطفولةِ برقعاً ... كالليل لَفَّتْهُ الغياهبُ أسودا

واعادني للسرب بين صغاره ... أشدو لأزهار الحقول مغرّدا(٢)

---

(١) من دفتر الذكريات الجنوبية، منشورات دار الكتاب اللبناني، سنة ١٩٨١، ص ٥٩.

(٢) في رثاء عمه (أبي زوجته) عقيل شامي.

ها نحن مع الطفل موسى في طفولته مع ابني عمه محمد سعيد وعبداللطيف وقريبه حسن فياض شرارة، وها هو يشرح لنا كيف تعلم مبادئ القراءة والكتابة.

"وضعتني والدتي عند الشيخ المحلي أحمد مهدي شرارة سنة ١٩٠٨ فقرأت عليه الأحرف الهجائية وبعدها القرآن الكريم وبعدها الكتابة على اللوح، واللوح من تنك حيث كان السمكري يجعل من تنكة الكاز أربعة ألواح يبتاعها من الطلبة ويكتبون عليها بقلم غزّار، والمدادُ كان من حجرٍ كلسيٍ يسمى (فِرْس) كُنا نُذيبُهُ في الماء كالكلس ونكتب به، وكان الأستاذ أو الشيخ يكتب لنا سطراً بأعلى اللوح نسميه (القاعدة) والتلميذ يكتب مثْلَهُ وبعد أن يملأ اللوح يحملُهُ للاستاذ الذي يعاينُهُ فإذا كان الخط جيداً والنقلُ صَحيحاً يقول له (عفارم)، وإلا فعلى كل غلطةٍ ضربةُ قضيبٍ على اليد الصغيرة، والقاعدةُ هذه غالباً ما تكون بيتاً من الشعر:

أذكر منها:

تعلّـــمْ يا فتى فالجهل عـــارُ ولا يرضـــى به إلا الحمـــارُ

ومنها أيضاً

تعلـــمِ العلـــمَ وكنْ أميـــرا ولا تكنْ جاهلاً ترعى الحميرا

بعدها انتقلتُ لمدرسة شيخ إيراني لأتعلم الخط الذي يسمونه (ديواني) وأكتبُهُ بالخط الصغير وبالحبر ولكن لا يزال القلم غزّاراً لأن الريشةَ لم تكنْ موجودةً وهذا الشيخ - سامحه الله - كان قاسياً جداً يضرب التلميذ بدون شفقة وغالباً ما كان يعملُ بتوصية أولياء التلاميذ الذين يقولون له عندما يسلّمونه الطفل "يا شيخنا إلَكْ اللحمُ ولنا العظم" إذا تشيطن أو أخطأ أو أهمل واجباته... وكان عنده خزانة في البيت كالزنزانة يسميها (حبس الفار) يسجن بها الطفل بعد الفلقة وشمط الأذن".

يتابع موسى الزين شرارة في محاضرته وصف المرحلة الثانية المتقدمة من التعليم "سنة ١٩١٣ دخلت المدرسة الأجنبية وهي التركية، والتي كان التعليم فيها بالدرجة الأولى باللغة التركيّة التي كان الأتراك يريدون فَرْضَها على البلاد العربية، لأن هذه المدرسةَ كانت تمنعُ تلامذتها التكلم بغيرها... كانت تعلّمُنا التاريخَ التركي والحضارةَ التركية وعظَمَةَ (البادشاه) أي السلطان والتدريبَ العسكري والنشيدَ التركي والأغنيات. ولم يكن سوى هذه المدرسة بكل منطقة بنت جبيل والذي أذْكُرُهُ أن عدد الطلاب كان

فيها لم يتجاوزِ المئةَ طالبٍ، أما عددُ الأساتذة فكان واحداً أحداً لا شريك له! يدعى عبد الهادي أحمد خليل من برج البراجنة، أحد أقرباء الشهيد عبد الكريم الخليل... وكان عازباً وذلك الوقت كان لا يوجدُ مطعمٌ في البلدة فيفرضُ كلَّ يوم على عدد معيّن من التلامذة تأمينَ طعامه وبالطبع لم يكنْ هذا الطعامُ نوعاً واحداً فكان عنده طنجرةٌ صغيرةٌ يضع فيها كلَّ ما يأتيه من طبخٍ ويخلطه ويضعه على النار ويأكله... وعندما ذهب الأتراك ذهبت المدرسة معهم وخرجنا بدون شهادة رسمية وأخذنا الشهادة التي كان يعطيها للتلاميذ الكبار الذين يجيدون (قراءة المكتوب) فكانوا يمتحنون الولد بالقراءة والكتابة فإذا أجادهما قبلوه وقالوا له: إذهب... مبارك... ختمت... وجمعت (الحرف)[1]".

***

سأحاول أن أقارن بين كتاتيب بنت جبيل وكتاتيبَ أخرى في جبل عامل أو أبعدَ نطاقاً منه، في نفس تلك الفترة الزمنية، أو فترةٍ تُقاربُها لأُظهِرَ ما يجمع وما يُفرّق بين هذه الكتاتيب تدليلاً على ما كان يُعانيه أهلُ جبلِ عامل من العذاب والحرمان والتخلُّف بحيث تُخنقُ كفاءاتُهم ومواهبُهم، وما كان يتوفر لغيرهم من تسهيلاتٍ تُساعدهم على أن يحققوا ذواتهم وينجحوا ويبدعوا.

يقول الشيخ **علي الزين** متحدثاً عن مدرسته الأولى:

"لم يتسنَّ لي في طفولتي الجوُّ الذي يجعلها مُلفتةً للنظر، نَشَأْتُ في قرية زراعية مُنعزلة لا يوجد فيها أيُّ عامل ثقافي ينمّي مواهبي سوى ما تيسر لي أن أتلقّفَهُ في جو بيتنا في (جبشيت)... لم يكن الكُتّاب موجوداً في جبشيت، وفي حال وُجد كان يتولاه مَنْ لا يُحسن التعليم... فنصف الدرس ضربٌ والنصفُ الآخرُ ضغطٌ، أما التوجيه فقد كان معدوماً... وقد تيسّر لي أن أتعلم في أحد (الكُتّاب)... كُنتُ أقضي السنة كأنني في سجن، فقد كان المُعلم - رحمه الله - رجلاً طيباً، لكنه لا يُتقن طرق التعليم... حفظت جزءٍ (عمَّ) من القرآن الكريم ولم يكن عندي فرق في ذلك أكُنت أحفظ لغةً تركيةً أم عربيةً لأنني لم أكنْ أفْقَهُ شيئاً... لذلك بقيت مُدةً لا أُحسن القراءة مُستصعباً كُلَّ شيء إلى أن أتانا مُعلم فاضل يُحسن التدريس فتعلمت لديه القراءة والكتابة خلال شهر.

(١) من دفتر الذكريات الجنوبية، منشورات دار الكتاب اللبناني، طبعة ١٩٨١، ص ٦٥.

وعلى الرغم من أن والدي كان عالماً دينياً ويتردَّدُ عليه علماء آخرون ومثقفون من ذلك الزمن إلا أن الطفل بطبعه يميل إلى اللعب فلم أكن لأستفيد شيئاً من هذه الأجواء... وبقيت على هذه الحال أقرأ قصص عنترة وبني هلال وغيرها حتى فتح العلامةُ الشيخ عبد الحسين صادق (والد الأستاذ حبيب) مدرسة دينية في النبطية فأرسلنا والدي - شقيقي وأنا - للتعلم عنده فحفظت كتاب الصرف والنحو المُسمى (الأجرومية) ودرست قسماً من (قطر الندى) لابن هشام ولكن باسلوب فاتر جداً..

ومن ذكرياتي في النبطية أنني كُنت أذهب إلى محلات الحلاّقين لأتأمل صُوَرَ (عنتر وعبلة) وغيرها فأضع ورقة أمامي وآخذ في تقليد هذه الصور[1] .

***

... مدرستي الأولى في صور - يقول السيد **حسين شرف الدين** - "لم أَقْضِ فيها وقتاً طويلاً، فلم آخذْ منها شيئاً إذ لم أشاركْ بأكثرَ من تلاوة آيات قرآنية دون تجويد كما لم يسمح الوقت القصير لأستلم أول قاعدة من قواعد الخط لأتدرب عليها، ولكنَّ يوماً واحداً فيها يكفي لأن يحيط التلميذ بكل جوانب التعامل من أوقات الدوام إلى المواد التعليمية التي لم تَتَعَدَّ القراءة الجودة للقرآن الكريم، وأصول الخط العربي، إلى أنواع القصاص من الضرب بالعصا على الأيدي والأرجل (الفلق) إلى تعليق (مشكاك) القباقيب أو صورة الحمار المرسوم بقلم المعلم على صدر المُقاصَص، والإحاطة بجوانب أخرى درج عليها مجتمعُ المدرسة مثل تزلّفِ الصغارِ إلى (الحاجة) زوجةِ المعلم بالابتياع مما تُعِدُّهُ من الحلوى، أو تحضّرُهُ من (الدربس) والكراميل وبزر البطيخ الممنوع (قصقصتُه) في المدرسة تقيداً بأصول النظافة والابتياع من (الحاجة) يساعد على نيل شفاعتها لعفوٍ أو تخفيفِ قصاص.

معلمنا كان السيد نور الدين الأخوي - رحمه الله -، جاء أبوه من إيران وسكن صور، ولا أدري سبب هجرته، كما لم أدْرِكْهُ. وكل ما أعلم هو أن السيد نور الدين إيراني الأصل ومن مدينة شيراز المشهورة بكبار الشعراء والمتصوفة والمميزة بطبيعتها وعيون نسائها.

افتتح السيد نور الدين (كتّاباً) في أوائل القرن العشرين، ويطلق على (الكتّاب) أو المدرسة القرآنية حسب المصطلح الرسمي، يطلق اسم (الشيخ) لارتباط العمل بصفة

(١) من الذكريات الجنوبية، الشيخ علي الزين، منشورات دار الكتاب اللبناني، ١٩٨١، ص ٣٦.

القائم عليه، إذ المشهور أن يكون ممن له تماس بعلوم الدين.

تلاميذ (الشيخ) من مختلف عائلات بلدتي - صور - فيهم أولادُ الأفندية، وفيهم أولاد الموظفين وتجارِ الحبوب والأقمشة، وفيهم أولادُ الباعة الصغار وأولادُ الكادحين، كما كان بينهم عددٌ قليلٌ من بنات "الأفندية" أو من يقاربهم في المستوى المعيشي من الموظفين الكبار مثل قاضي الصلح.

ويقتصرُ التحاقُ هذا المستوى من البنات بكتّاب السيد نور الدين لأنه الأمْيَزُ في الكتاتيب في الذهن العام، ويناسب المقام، حتى أن السيد نفسه لا يقبل سوى هذا المستوى، وهذا الاختصاص يفتح أمامه صدر مجالس (النخبة). وبالمقابل فالبنات يكتسبن صفة التخرّج أو التعلّم في (شيخ) السيد نور الدين، وهي ليست بحاجة أكثر من هذا، فاسم (العيلة) يغطي كل مقتضيات المظهر الاجتماعي، وضمان العريس المناسب، واسم (العيلة) فضيلةٌ بحد ذاته، بينما الأخريات يحتجن لفضائل الطبخ والعجن وترتيب البيت والاهتمام بصغار (العيلة)، أما رفع المستوى (العلمي) فيتم عند (شيخة) ليس لها من المشيخة سوى حفظِ بعضِ السُّوَرِ القصار، أو عند خيّاطة تلبّي حاجاتِ من يطلب الأسعارَ الشعبية، وإن كانت الابنة (بنت عيلة) ولكنها ممن تحسبهم أغنياء من التعفف فتُلحَقُ الابنةَ عند سيدةٍ تتقنُ التطريز وسواه من أشغال الإبرة الظريفة مما يزرع الأناقة في استعمالات البيت من شراشف وأغطية وستائر.

بيت معلمنا في الطبقة الثانية، ننزع ما بأرجلنا من أسفل الدرج ونحمله باليد حتى لا تحدث ضجة أو يتسخ الدرج، وهذا المهم عند (الحاجة) وبوصولنا إلى الأعلى نضع ما في أيدينا في مكان مخصص ومناسب للمقام، فالصبابيط - أحذية أولاد الأفندية - لها مكانها الأقرب تناولاً عند الانصراف، ثم (السرامي) وبعدها القباقيب الملحوظ لها المساحة الكبرى والقيمة الأدنى، والويل لمن يخطئ بتناول حاجته عند الانصراف، وخوفاً من غضب السماء والأرض يعمد الصغار أو الأهل لوضع علامة فارقة لما يحتذيه الولد، فليس في قانون السيد نور الدين غلط أو اشتباه، فكلُّه سرقةٌ، ولذلك ليس مهماً التحقيق لتحديد المخطئ، فكلاهما للقصاص، وكلاهما مُتَّهَمٌ إلا إذا تجرأ أحدُهما ليقول بأن حذاءَهُ جديدٌ وهذا الحذاء المتروك أقلُّ ميزةً، فيتخلص من العقاب.

الدوام اليومي من الساعة الثامنة صباحاً حتى أذان الظهر والعطلة الأسبوعية يوم الجمعة وأجمل اللحظات عند التلاميذ الشروع بالادكار لأنه المبشر بقرب الشروع بالأذان. فيطفح البِشْرُ في كامل غرفة الصف، وإن كان بشراً مشوباً باحتمال غلط أو

اشتباه، ولكنه لا يفقد أَلَقَهُ، فالغلط احتمال أما الانصراف فهو فرج أكيد.

مع نداء المؤذن (الله أكبر) تتفتح آذاننا لتلتقط النداء الحبيب: (ضُبُّوا عَ السكت)، وما أحيلاه هذا (السكت) المتراقصُ طرباً في أعماقنا.

وبعد أن (نضُبّ) دفترَ الخط والمسكةَ والريشةَ (نمرو) أربعة إلى جانب (جزو عمّ) في (بيت الكتب) وهو قماشة مصنَّعَةً بشكل محفظة، بعد هذا نقبَعُ متحفّزين لتحديد ساعة الصفر التي تزغرد بعد لحظات: (ولاد الصبابيط يقومو) والمعني هم التلاميذ الذين يحتذون (صبابيط) وعددهم قليل والمساحة الملحوظة لأحذيتهم قليلة ولكن قدرهم كبير. والدور بعد أولاد الصبابيط لأولاد "السرامي" (المشايات) ومن ثم أولاد القباقيب، وأنا منهم.

على كل تلميذ أن يحمل حذاءه بيده إلى اسفل الدرج دون أي صوت وكأن (لا حسيس ولا أنيس)، وهذا ما يتظاهر به على مضض (ولاد القباقيب) إذ يكونون أكثرَ (ملائكيةً) في تلك اللحظة من (ولاد) الصبابيط، مع أنهم مشهورون بأنهم (لطمةٌ على عين) حسبَ الصفة الشائعة للمتشيطنين من الأولاد. ولكنها ليست سوى خطوات قليلة من (الشيخ) حتى ننَزعَ القباقيبَ لنتحوّلَ إلى حفاة لا يطيقون أي قيد وإن تعرضتْ الأرجل إلى قِطَعِ الزجاج أو المسامير الملقاة في الطرقات، أو لأشواكِ البرّيةِ حيث ملاعبُنا المفضلة، فَسَيْرُنا حفاةً يساعدنا على التسابق، وتضييعِ أثرِ الضجة التي يحدثُها الحذاءُ في لعبة (الغميّضة)[1].

... هكذا كانت المدرسة الأولى في بنت جبيل وجبشيت وصور -، كانت كُتّاباً يُعلم فيه الشيخ تلامذته مبادئ القراءة والكتابة والحساب... ويحلو لي أن أنتقل إلى مدرسةٍ أولى (خارج هذه الأماكن) وخارج جبل عامل، لأُلقي الضوء على وجوه التشابه والاختلاف بين تلامذة تلك الفترة حيث يتبين أنّ حُزم القُضبان والعصا والفلق كانت مشتركة، وكذلك عبارة أن اللحم للمعلم والعظم للأهل، كما أن التخرج من عند الشيخ بختم القُرآن، يُشابه التخرج من عند المعلم بمزامير داود الذي كان غاية الغايات.

هذه هي المدرسة الأولى في كتاتيب المسلمين، أو تحت السنديانة عند المسيحيين، العلم كان مقصوراً في بداياته على رجال الدين الذين يُشرفون على تلميذهم حتى يصبحَ بوسعه أن "يجمع الحرف" ويقرأ ويكتب ويتعلم مبادئ الحساب، أما مدارس المسيحيين في هذه المرحلة فكانت بمعظمها مدارس الرهبان أو مدارس التبشير، التي تتولى تعليم

(١) مجلة الأمة، العدد٣، ١ شباط ٢٠٠١.

التلميذ وتؤمن له كُلَّ ما يلزم الدراسة وتُساعده على إكمالها وبذلك وفرت لأبنائها رعاية أهّلتْهم وأوصلتهم إلى المراكز المتقدمة سواء في الدولة أو في المجتمع، وسمحت لهم أن يسبقوا أقرانهم من باقي الطوائف.

يقول مارون عبود واصفاً مدرسته الأولى:

"... دق قلبي دقات عنيفةً عندما قال أبي لأمي: دبَّرْنا له مدرسة، والتفت إليّ وهو يجرّ كلماته.. غداً تصيرُ الشدياق مارون (أدنى من الكاهن درجة واحدة) فلم أُبْدِ ما كان ينتظره من الارتياح فأعرض عني، ودخلتُ المدرسة مع من دخلوا فكانت الفاتحة أن أكلتُ قضيبَيْنِ سُخْنَيْنِ على ظهري... فأرخيت لرجلي العنان، فاستقبلني والدي العملاق بأحد قضبانه...

كان غفر الله له يعملُ بنصيحة ابن سيراخ القائل: إذا أحببْتَ وَلَدَكَ فهيِّئ له القضبان حِزَماً حِزَماً... ثم قادني بأُذُني كالعنزة الشاردة وهناك على أعين التلاميذ كان الكلمة المأثورة للمعلم: اللحم لك والجلد والعظم لي، ثم التفت بي وقال: فهمتَ يا بُنيّ؟... ومنذ ذلك الحين صرت أطْوَعَ من الخاتم وأَنْعَمَ من المخمل.

يوم أحد الورديّة[1] (أول أحد من تشرين الأول مخصصة لعبادة العذراء) الكبيرة خرجنا من الزيّاح فإذا بزمّارينَ معهم دُبٌّ يغنّون له ويرقصُ على وقْع الدف والقصب، فعجبت من طواعيةِ الدبّ واستوائه كالبشر، يعرض العصا بين كتفيه كالناطور ويمشي مِشْيَةَ الصبايا والعجائز، ينام ويقوم كما يكلفه صاحبه حتى أنه يُدخّن بالغليون.

قلت لوالدي: الدب كيف تعلم هذا؟ فضحك وقال لي المثل المعروف: العصا تعلم الدبّ الرقص، ففهمتُ تعريضَهُ لي وقلت في نفسي: "إذا كانتْ كقضبانكَ تعلِّمُ أكثرَ من دبّ".

هذه واحدة من ذكرياتي المدرسية الأولى: مدرسة تحت السنديانة حيث كُنا نصطف خطّاً طويلاً حدَّ حيْطِ الكنيسة الأعلى فالأعلى علْماً... وفي تلك المدرسة كانت تسوسنا العصا، أُستاذُ الدُب. أما عقاب الجرائم الكُبرى فكان الفلق، ليْتَكَ تذُوق طعمها!... الفلق خشبة تكمُش الساقين كالعضّ، لتعرضَ القدمينِ إلى قضيب المُعلّم فينصبُّ بلا شفقة... إنني لم أذقْ هذا العلاج والفضلُ لحزمةِ قضبان الوالد الذي إذا مات منها سيد قام سيد... ويتابع في الصفحة ١٠٣ أما كيف كانوا يعلمون ويتعلمون فإليك الخبر: يكتب

---

(١) مارون عبود الأقاصيص (المجلد السابع من مؤلفاته) ص ٩٣ دار مارون عبود.

المعلم الألف باء على ورقة يَشْكُلُها الولد بخشبة مفروضة لها متكأً، ويأخذ "مُدلاً" وهو عود رفيع يدل به على كل حرف تعلمه، ومتى عرفَ الألف باءَ طرداً وعكساً وانتقاءً، كتب له القسيس (الأبجد) ثم ينقله إلى (القدّوس) (اسم كتاب)، وغاية الغايات كان (مزامير داود)... يقرأونه ولا يفهمونه".

هذه المرحلة هي الأولى التي كان يقف عندها الأكثرون وهي تُضاهي الشهادة الابتدائية اليوم، وإذا كان الولد ابن بيت ميسور أدخله أبوه مدرسة أعلى... وهذه المدارس كانت منتشرة في لبنان، يقوم على فتحها الكهنة المتبتّلون فيعلمون أبناء القرى المجاورة ومن يقدر أبوه على تعليمه فهناك مدارس عالية للتعمق في درس النحو واللغة.

ويقول ميخائيل نعيمة(1)

كُنت أسمع عن المدرسة أشياء وأشياء، فهناك القضيب وهناك الفلق، وهو – ولن أعرِّفَهُ خيراً من القاموس- عودٌ يربط حبل من أحد طرفيه إلى الآخر، وتجعل رجلا المجرم داخل ذلك الحبل ويُشدان ويضرب عليهما، وهناك النهوض باكراً والانحباس الطويل ضمن جدران أربعة غير أن يكون لك الحق بالخروج ساعة تشاء وفي الصحيح اللعب كما تشاء.

وجاء ذلك اليوم... فاقتادني أخواي إلى المدرسة، وقد أمسك كلٌّ منهما بيد من يدي وراحا يُبالغان في مُلاطفتي، وكُنت أمشي بينهما ذاهلاً على الأرض تحت قدمي، ومزهواً بحمّالي الجديد، وفيه كُرّاسُ الألف باء الذي انحدر من أخي الأول إلى الثاني ثم إليّ، وفي رأسي تدور أغرب التخيلات عن ذلك العالم السري الذي يدعونه المدرسة، وعما ينتظرني فيه من مفاجآت سارة وغير سارة.

كانت المدرسة في الدور الثاني من علِّيّة تبعد عن بيتنا زُهاء ثلاثمائة متر، وحتى اليوم لا تزال بقايا من حجارتها الدكناء ماثلةً للعين ويالَيْتَهُ كان لي أن أستنطقَها عمّا كان بيني وبينها... وكان في المدرسة معلمان وغرفتان للتدريس، إحداهما للصغار والثانية للكبار، والكبار كانوا من سن العاشرة فما فوق، وكلتا الغرفتين، كانت مجهزةً بمقاعدَ خشبيةٍ باليةٍ لا ظهورَ لها ولا صدور... أما المعلم فيها فرجلٌ نصفُ أمّيٍ استقبلني بمنتهى اللطفَ، وكان كهلاً دون الربّعِ من القامة، في إحدى رجليه عَرَجٌ وفي يديه قضيب ولباسه من الطراز البلدي، وما أن أزفت ساعة الدرس حتى هزّ قضيبه

(1) ميخائيل نعيمة المجلد الأول . طبعة ١٩٧٩، دار العلم للملايين، ص ٥٤ – ٥٥ -٥٦.

وضرب به الطاولةَ أمامنا، ثم قطّبَ حاجبيه وصاح بنا: اسكتوا فسكتنا ولبثنا بُرهةً ساكتين إلى أن جاء صوته ثانية يأمرنا بأن نفتح كراريسنا على الصفحة الأولى وأن نُنغّم معه بملء حناجرنا ألف - باء - تا - جين - حا - طا، وأن نُعيدها الكرَّةَ بعد الكرَّة، ومن بعد أن تعب وتعبنا راح يطلب إلى كل منا إعادتها عن ظهر قلب، فمن أخطأ تناوله بالقضيب ومن أجاد كافأة بقوله: عفاك، أقعد.

كُنت في السابعة من عُمري، وقد كُنت أنهيت كراس "طوبى"، وهو كُراس فيه مختارات من مزامير داوود النبي، وأولها المزمور الذي مَطْلَعُهُ: "طوبى للرجل الذي لم يسلكْ في مشورة الكفرة"...

وكان من تقاليد المدرسة أن يُساق التلميذُ الذي أنهى ذاك الكُراس إلى أهله ويداه موثقتان إلى ظهره فلا تُفك يداه إلا بعد أن يُقدِّمَ الأهلُ "الحلوينة" لمعلمه وجمهور مرافقيه... والحلوينه كانت في الغالب زبيباً وجوزاً ونحو ذلك؛ والعملية كانت بمثابة شهادة للتلميذ بأنه قطع الشوط الأول من أشواط دراساته... وقلّ من كان يقطعه أو يقطع أبعد منه.

***

من مقارنة كتاتيب جبل لبنان وجبل عامل يظهر بوضوح أن الناس في جبل لبنان كانوا أيسرَ حالاً وأكثرَ غنى ورفاهاً من أهل جبل عامل، وأن رُهباناً تفرغوا لإدارة مدارسهم الدينية والأخذ بيد أبناء رعيتهم، لتعليمهم وإيصالهم إلى مراتب متقدمة...

فمارون عبود انتقل إلى الحكمة مدرسة الطائفة في بيروت، وميخائيل نعيمة انتقل إلى الناصرة، وقيّض لهما أن يتعلما ويَنبُغا ويحققا ذاتيهما، كما قُيِّض لغيرهما من الرفاق، ذلك أن الأجواء مفتوحة أمام الجميع على عكس ما كانت عليه آجواء جبل عامل المُغلقة دون أُفق، والفقيرة حتى الإملاق، وهُنا يقتضي أن نُنوِّهَ بما أمّنَتْهُ الرهبانيات في ذلك الوقت من مدارس وإمكانات وفُرصٍ جعلتْ أبناءها يتقدمون على باقي الطوائف، وخاصة المسلمين.

يجمع بين هذه الكتاتيب المختلفة المواقع مكانٌ فاصلٌ يحدِّدُ أو يُعيِّن انتهاء المرحلة الأولى من التحصيل، هو (ختم القرآن عند المسلمين) وكُرّاس طوبى المختار من مزامير داود عند المسيحيين، ثم احتفاء الأهل والرفاق (بالحلويني) تُقدّم للمعلم أو

الشيخ... وهي مما تيسر من التين أو التمر أو الزبيب ويشترك الجميع في تناولها إعلاناً بأن الخرّيج قد "جمع الحرف" وأصبح متعلماً بوسعه أن يقرأ ويكتب ويُطالع...

***

... نعود إلى موسى الزين شرارة يُحدثنا عن شأنه فيقول: "وأما الكتب التي كُنا نُطالعها بعد أن تعلمنا القُرآن و صرنا - نوعاً ما - نجيد القراءة هي قصص بني هلال وعنترة والزير المهلهل، ولمّا تقدمنا بعض الشيء صرنا نُطالع نهج البلاغة والكشكول، وما يقع بيدنا، وهذه الكُتُب كانت غالباً عند المشايخ، لأنه لم يكن هناك مكتبات أو صحف ومجلات سوى العرفان، التي كانت تسمى (الكرِّيطة)، وكان الرجال والنساء إذا سمعوا أي خبرٍ يقولون: قالت العرفان... مع أن العرفان ليست جريدة إخبارية ولكنهم كان يعتبرون جميع العالم (العِرفان) لأنها كانت النافذةَ الوحيدةَ على التراث والعلم الحديث، وإذا كان جيلنا قد أتيح له أن يطلع على ما يحدث خارج جبل عامل فالفضل يعود لمجلة العرفان، فهي التي أخذت بيد أوائل مثقفي جبل عامل وشجعتهم على الكتابة وحببتهم بالثقافة، يضاف إلى ذلك أنها كانت مدرسةً وطنيةً وأخلاقيةً فمؤسسها الشيخ أحمد عارف الزين كما عرف الجميع كان وطنياً صادقاً جريئاً صريحاً، وكان انتسابه لرجال الدين ولعائلة عاملية نافذة يعطيه القدرة على نشر أفكار لم يكن غيرُهُ بقادرٍ على نشرها".

ونتابع رحلتنا مع موسى الزين شرارة[1]، منذ دخلت تركيا الحرب العالمية مع ألمانيا والنمسا ضد فرنسا وبريطانيا وروسيا وسقط نظام المتصرفية، وأعلنت الأحكام العرفية وجاء جمال باشا بظلمه وجبروته وتعصبه وحقده يذكر شاعرنا ذلك ويعطينا صورتين لا ينساهما عن تلك الفترة العصيبة.

الصورة الأولى: كما وردت حرفياً: "سنة ١٩١٤ أي في السنة التي توفي فيها الشيخ عبد الكريم شرارة ابن المرحوم الشيخ موسى شرارة العالم الكبير المعروف من الجميع وقد جاءت وفود كثيرة لبنت جبيل من شتى القرى والمدن العاملية وكذلك الفلسطينية المجاورة للمشاركة في تشييع الجنازة وتقديم التعزية وقد حضر لهذه المناسبة ضابط تركي مع ثلة من الجنود للمحافظة على الأمن وهذا الضابط يُدعى عارف بيك الحسن وهو عربي من طرابلس الشام[2] ، كما كان يقال في ذلك الوقت وبعد تشييع الجنازة

(١) دفتر الذكريات الجنوبية، ص ٦٠

(٢) هو من بتوراتيج معروف بالباشا (جد المحامي عامر الحسن لأمه).

استدعى جميع مخاتير القرى التي كانت موجودة وأمرهم بفض التحارير المغلقة التي كانوا قد تلقوها من الحكومة وطلب أن لا تُفضَّ إلا بأمرٍ منه، وقد تبين أن مضمونها دعوةٌ (لسفر برلك) أي التجنيد العام وأنه يجب على جميع الذكور من سن ١٨ إلى ٤٠ أن يكونوا بتاريخ عَيَّنَهُ لهم في قاعدة القضاء، - وكان جبل عامل في ذلك الوقت ثلاثة أقضية هي صيدا وصور ومرجعيون - ، لأجل المعاينة والإحصاء وإثبات الوجود، وقد لبى الجميع الدعوة وبعد المعاينة جندوا منها (الأسكية) أي المدربين وساقوهم فوراً وسمحوا للباقين بالعودة لقراهم وعلى أن يكونوا تحت الطلب.

الصورة الثانية: يقول: "كان ذلك يوم خميس وهو يوم سوق عام في بلدة بنت جبيل، حيث تعرض فيه جميع السلع والغلال واللحوم والفاكهة والأقمشة والألبسة وغيرها ويجتمع فيها حشد كبير من أبناء القرى المجاورة من الجليل لابتياع ما يلزمهم، وكانت الساعة بحدود التاسعة صباحاً وكان ذلك سنة ١٩١٦ على ما اعتقد وإذا بي أسمع صوتاً متهدجاً يصيح: الله أكبر سُبحان من تعزز بالقدرة والبقاء. هذا ما وعد الله ورسوله!! فظننت للوهلة الأولى أن هناك تشييع جنازة وإذا بي أرى رجلاً مكبلاً بالحديد وعلى رأسه عمامة خضراء وقد أحيط بالجنود وكلهم شاكي السلاح فلحقت بهم مع من لحقوا فإذا على البيدر المتاخم للسوق (سيبة) معدة هناك وقد أحرق قلبي وأبكاني منظر امرأة عجوز حدباء يكاد وجهها يلتصق بالأرض فلا أدري إذا كان ذلك من الشيخوخة أو بسبب رزيّتها بولدها، تقدم الجلاد وألبسه رداءً أبيض مكتوباً عليه (الفرقان) أي الأسباب التي استحق بموجبها الإعدام وهي الفرار من الجندية وكان ذلك بالقرعة التي فرضتها الأوامر العسكرية وهي وضع تسعين ورقة بيضاء و١٠ أوراق سوداء في كيس وكل من يسحب ورقة سوداء يعدم بدون محاكمة أي ١٠٪ أقول: تقدم الجلاد وسحب الكرسي من تحت قدمي السيّد فانقطع الحبل ووقع المسكين على الأرض والدماء تسيل من وجهه وهو يصرخ كعادته ويقول: "هذا ما وعد الله ورسوله" والجماهير التي هي عبارة عن نساء وشيوخ وأطفال تصيح الله أكبر وتطلب له العفو، ولكن العتاة أحضروا حبلاً ثانياً وشمعوه وأعادوا الكرّة فانقطع الحبل للمرة الثانية وصاح الناس بصوت أقوى الله اكبر، الله أكبر وصاح من بينهم شخص طاعن معمم ذو لحية بيضاء ناصعة مهيبة اتقوا الله خافوا الله، واعفوا عن هذا السيد الذي لا يريد له الله أن يموت كمجرم فانقضوا عليه وراحوا يضربونه بدون رحمة حتى أغمي عليه، وهذا الرجل هو الحاج محمد صعب من بنت جبيل الذي كان في شبابه من الأبطال...

إجمالاً أحضروا حبلة ثالثة مثبتة وعلقوه بها حتى قضى رحمه الله، وقد شاهدت آنذاك العشرات من النساء والأطفال قد أغمي عليهم"[1].

... هكذا كان يُحكم جبل عامل بالإرهاب والظلم والحديد والنار وهكذا أُخذ الشبابُ إلى أتون الحرب وسعيرها وأُفرِغَتِ البلاد وسُرِقَتِ الخيرات... لم تكفِ سفر برلك وحدها حتى جاءت الكوليرا مع المجاعة كما جاء الجراد، يقول شاعرنا: كنت تراه في الحقول والشوارع وفي كل مكان كالسيل الجارف لا يمرّ بأخضر مهما كان كثيراً أو قليلاً إلا وغادَرَه بعد ساعات أرضاً جرداء قاحلةً سواء أكان ذلك في الزرع أو الكروم أو حدائق الأشجار المثمرة وإلى جانب ذلك كانت جثثُ موتى الجوع والوباء ملقاةً بالشوارع تنتظر النساء وبعض الغلمان لتُحَضِّر القبورَ لعدم وجود الرجال!!.

بالإضافة إلى هذه المأساة والظلم المقيم كان الهارب من الجندية ومن أشداق الموت المخيم على الآفاق إذا ما قدر له أن يصل إلى بيته ليرى أطفاله أو إخوته أو أهله يتلقّفُهُ سماسرةُ المخافر وزبانيتُها لتسخيرِهِ عندهم في أرضهم أو مزارعهم في خدمة بيوتهم أو يفرضون عليه ضريبةً شهريةً يتقاسمونها مع المخفر وإن أبى أو عجز تلقي الجندرمة القبض عليه، ويرسلونه إلى جبهات القتال أو يأخذونه إلى خارج البلدة ويطلقون عليه النار بحجة أنه حاول الهرب، هكذا قتلوا حسين محمد من بنت جبيل وحسن حجازي من عيناثا، قتله الدركي ثم ربط رجله بحبلٍ وركب حصانَه وسحبه خَلْفَه، مسافةَ كلم تقريباً على الشوك والأحجار.

ويستطرد المُحاضر كان كذلك هناك ضريبةٌ يسمونها "البلصة" فبالاتفاق مع المخاتير والوجهاء يفرضونها على الناس وكل من يعترض أو يتمنَّعُ عن الدفع يُحَوِّلُ عنده العسكر أي يرابط الجنود على بيته على فراشه وفراش عائلته بعدما يتلف كل شيء ويخلط المؤونة على بعض: الحمص والزيت والدبس واللبن والعسل وكل الموجودات بعد تحطيم الأبواب والنوافذ والموقد والداخون[2] ".

هذه المظالم التي تقشعر لهولها الأبدان ولا يتصورها عقل كانت تخيم على حياة الناس في جبل عامل... هذا القهر المتعسف طبع حياة الناس وجعلها جحيماً وذلة ومهانة واستبداداً.

فالشباب تلتهمهم الحرب... يقاتلون بدون هدف مجبرين على خوض غمراتها في

---

(١) من دفتر الذكريات الجنوبية، ص ٦١، محاضرة للشاعر.

(٢) نفس المرجع ص ٦٢

نفير عام، دون قناعة بعد أن سيقوا لها ليقاتلوا دون قضية بينما تظل نفوسهم مضطربة وهم يفكرون بأهلهم وذويهم، قلقين مما يكون قد جرى لهم، و يختم شاعرنا: "هذه الحقبة لا تُعد من عمر الناس".

في كتابه لبنان والبلدان المجاورة صفحة ٣٤٥، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٣يورد المؤرخ جواد بولس نقلاً عن لامنس: "كان العهد العثماني بالنسبة للتطور التاريخي لبلدان شرقي المتوسط عهد انحطاط اقتصادي واجتماعي وثقافي وسياسي، كان نسيجاً من المظالم والخيانات والمجازر والحروب ما بين الباشاوات أو مع جيش الانكشارية... وتسرب هذا الفجور السياسي الأخلاقي من الباشوات الأتراك إلى الأمراء إلى العائلات الحاكمة المحلية... ولما كان حكام الولايات (الأتراك) بعيدين جداً عن مُراقبة الحُكم المركزي - حيث كانوا يُدبرون بمهارة عملاء لهم- ولما كانوا يتمتعون بسلطة غير محدودة لم يكن يقف أي حاجز في وجه غرائزهم الجامحة".

جمال باشا

في ٢٧ نيسان ١٩٠٩ خُلع السلطان عبد الحميد ونُفي إلى سالونيك وتولى الضباط الاتحاديون السلطة وراحوا يعملون على تقوية السلطة المركزية، وبناء دولة عصرية على أُسس طورانية تهدف إلى احتواء وتتريك القوميات الأخرى مما استتبع ردَّ فعلٍ تمثل بتحرك عربي للمطالبة بحقوقهم... وبذلك يكون الأتراك قد فتحوا باباً لتذمّرٍ غير الأتراك فظهرت بين العناصر بوادرُ سوءِ ظنٍ وكان ما كان من المُشادة العنصرية التي فرقت العرب عن التُرك وحولت أنظارهم إلى العصبية القومية[١]، كما ألهبت الشعور بالقومية في نفوس العرب نظراً لأن اللعب بالأحاسيس القومية وبالشعور الوطني في امبراطورية تتألف من قوميات مختلفة، ومن وطنيات مختلفة أمرٌ محفوفٌ بالمخاطر[٢]... وهذه الأمور عملت على بلورة الفكر القومي العربي في مواقفَ سياسيةٍ برزت من خلال مُطالبةِ العرب بحقوقهم والنظرِ إلى أنفسهم على أنهم جماعةٌ تؤلفُ العنصرَ الأكبرَ في السلطنة، وكانت سياسةُ جمال باشا وما رافقها من التنكيل بدعاة القومية العربية وإعدام العديد منهم نقطةَ التحوّل في تاريخ العلاقات العربية التُركية، إذ اشتدت بعدها الدعوة إلى الثورةِ وانفصالِ العرب عن الدولة العثمانية[٣]، بينما كانوا يرون قبل هذه المُمارسات وقبل انكشاف نوايا الاتحاديين، أن المحافظةَ على الدولة العثمانية ثالثةُ العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله - كما قال الشيخ محمد عبده - لأنها وحدها الحافظةُ لسلطان الدين الكافل لبقاء حوزته.

وهكذا في أوائل كانون الأول سنة ١٩١٤ وصل إلى سوريا وزير حربية الحكومة التركية جمال باشا فأعلن الأحكام العرفية وشكل المحاكم التابعة لها وظهر بمظهر المنتقم والسلطان غير المسؤول وجعل لنفسه السلطة في تكييف أحكام تلك المحاكم على هواه[٤] وقد نشر في البلاد جواسيسه وضباط استخباراته الذين راحوا يرفعون إليه من الوشايات الكاذبة ما يزيد في مدى الإرهاب والترويع والانتقام... كان الناس يُؤخذون بمجرد الظنّة والتهمة اللتين لا تثبتان عند التحقيق النزيه... وقد اعتقل في محكمة عاليه العرفية نحو ٣٠ متهماً بينهم رضا بيك الصلح وعبد الكريم الخليل، وكانت الشهادات التي يُدلي بها الشهود المزيفون مستمدةً من منبع واحد ترمي إلى إلصاق التُهم بالمعتقلين... وما كُنا لنحلم (أن تلك الأمور الملفقة، مما يؤدي إلى الإدانة من أحد

---

(١) انيس المقدسي، الاتجاهات الادبية ، ص.١١٧

(٢) زين نور الدين، نشوء القومية العربية، ص ,٩٨

(٣) حسن قاسم، راجع كذلك السياسة في الشعر العاملي، ص.٦٩

(٤) الشيخ سليمان ظاهر ، جبل عامل في الحرب الكونية الأولى ص ,٣٧ الطبعة الأولى ١٩٨٦ دار المطبوعات الشرقية.

منهم، وما كانت شهادة الشهود التي أدانت رضا بك الصلح بعض الإدانة لتُدين عبد الكريم الخليل)[1] ، واستمرت المحاكمة على أولئك الأشخاص مُدة سبعة أيام في أربع عشرة جلسة، في كل يوم جلستان... وإذ ذاك أوقفت المحاكمة، اللهم إلا استدعاء بعض أفراد منهم لبعض استيضاحات مدة ٥٣ يوماً، وانتهت الرواية بنفي رضا بك الصلح وولده رياض، وبهاء الدين الزين، والحكم بالموت على من حُكم عليه كعبد الكريم الخليل وعبد الغني العريسي ورفاقهما.[2]

وفي مرحلة أولى وبين محكمتي دمشق وعاليه العرفيتين سيق الكثيرون ظلماً وانتقاماً إلى ساحتي البرج والمرجة، وعلقوا على أعواد المشانق بانتظار فوج ثالث تُنفذ به الأحكام لاحقاً، ولولا ثورةُ الشريف حسين التي أعلنها في ١٠ حزيران ١٩١٦، في الحجاز وتهديدُهُ بقتل الأسرى الأتراك مقابل المناضلين الذين يتعرضون لإرهاب جمال باشا، لولا ذلك لما انتهى الأمر مع جمال باشا إلى هذا الحد ولكان استمر في تنفيذ أحكامه الجائرة.

وهكذا يُتابع المؤرخ محمد جابر آل صفا: "أوقفت ثورة الحجاز طغاة الاتحاديين عن التمادي بخُطّتهم التي كانوا يُبيِّتونها للعرب بإجلائهم عن ديارهم بالأناضول واستدعى الاتحاديون أنور وطلعت جمال باشا من سوريا، وأخذوا يلقون التبعة عليه وحده مع أن الثابت أن التبعة واقعة على الجمعية الاتحادية وحدها لأن من برامجها السرية صهر سائر العناصر غير التركية، في البوتقة الطورانية، كما صرح جمال باشا أن ما قام به كان كله برأي الحزب".

وقد ذكر الأستاذ محمد كردعلي في كتابه خطط الشام مجلد ٣ ص ١٤٢، نص إنذار الشريف حسين للأتراك بواسطة جمهورية أميركة الاتحادية وقد ورد فيه: "أن كلَّ منفيٍ أو عربيٍ أو مسجونٍ إذا أصيب بأذى بأدنى إهانة فهو مستعد أن يعمل أضعافه مع الأتراك الذين في أسره".

هذا الإرهاب طاول الشيوخ والأطفال وهم يساقون إلى المنافي ولم يوفر رجال الدين ولا المجندين في ساحات الوغى الذين كانوا عرضة للازدراء والتحقير والترويع والتجويع كما طاول عامة الناس إذ تحكَّمَ بمصادرة أقواتهم وانتزاع ما بين أيديهم وأكثر همهم كان إجبارهم على التعامل بالورقة التركية بقيمتها الذهبية، تحت سوط العدالة، ووصل الأمر بهم إلى الامتناع عن تمويل الجيش بالرغم من أن الأهراءات كانت مملوءة بالأقوات.

(١) نفس المرجع السابق، ص ٣٩.

(٢) محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص ٢٠١.

يقول محمد جابر آل صفا[1] "إن جمال باشا قائد الجيش الرابع كان يشعر بتحفّز أحرار العرب للثورة بسبب كرههم التقليدي للترك وللضيق العظيم الذي عمّ البلاد بسوء الإدارة الملكية والعسكرية خلال الحرب وقبلها، بالإضافة إلى أنه كان ميالاً بطبعه للفتك والتنكيل... كان يبحث عن وسيلة يرهب فيها الجمعيات السرية العربية" كما ورد في المذكرات، وقد ورد فيها أن الشهيد عبد الكريم الخليل أعدم نتيجة وشاية بتأليف جمعية ضد الدولة التركية وشهود زورٍ كانت السلطة تُكرهُهُمْ وتُجْبِرهُمْ رغبةً بتجريم الموقوفين كيفما اتفق الحال. رغم التنافر الذي كان واضحاً في إفاداتهم وقد بكى عبد الكريم الخليل لدى سماعه شاهدَيْن "فسأله رئيس الديوان العرفي عن سبب بكائه فقال إنما أبكي على وطنٍ تعيس فَسَدَتْ فيه الأخلاقُ وَهَوَتِ النفوسُ فأنتج مثل هؤلاء الأنذال الذين غرَّرْتُمْ بهم وأكرهتموهم بالشهادةِ علينا فأين القانون والإنصاف"... وقد عُلِّق الشهيد عبد الكريم الخليل مع من علقوا في أواخر آب سنة ١٩١٥ الذي كان يقول مؤرخنا صفا أنه من أنبغ شباب العرب علماً ومن أفضلهم وطنيةً وحجىً وله في جبل عامل منزلةً رفيعةً لاتصاله بفريق كبير من العلماء والأعيان[2] .

يؤكد السيد حسن الأمين أن الشهيد عبد الكريم الخليل زار بنت جبيل مرات عديدة كان يجتمع بزعمائها سراً وكان يتفق معهم على التحرك المشترك ضد الأتراك[3] ... وقد سمعت شخصياً من جدي الشيخ عبد الأمير شرارة أنه يتذكّرُهُ جيداً عندما زار بنت جبيل وأنه حث الناس على التعلم وقال: إن بوسع كل امرأة أن تربِّيَ دجاجةً وصيصانها وتبيعَها وتؤمِّنُ لولدها ثمن الدفتر والقلم.

ويؤكد الشاعر موسى الزين شرارة في مقابلة مع مصطفى بزي على ان عبد الكريم الخليل كان يجتمع بأعيان بنت جبيل سراً ويتفق معهم على تنفيذ بعض المطلوب[4] .

"كانت الثورة العربية ثورة حقيقية بالمفهوم السياسي للفكر التاريخي، وأنها قامت بنتيجة اضطهاد الأتراك القومي للعرب، هي ثورة القومية العربية ضد القومية التركية، وهي بالتالي قمة التعبير للتمايز بين القوميتين، وتهدف إلى الدفاع عن الكينونة العربية ضد محاولات الأتراك طمس هذه الكينونة[5].

---

(١) تاريخ جبل عامل: محمد جابر آل صفا، الطبعة الثالثة منشورات دار النهار، ص ٢١٣ و٢١٧.
(٢) مصطفى بزي ص ٢٤.
(٣) مصطفى بزي، تطور المجتمع في بنت جبيل بين الحربين العامليتين ص ٢٤.
(٤) نفس المرجع أعلاه.
(٥) حسن قاسم، السياسة في الشعر العاملي المعاصر، أطروحة دكتوراه في العلوم الاجتماعية، الجامعة اللبنانية الفرع الأول، ص ٨٤.

جبل عامل بين ثورة الشريف حسين وانتهاء الحرب العالمية الأولى

ألهبت أعمال جمال باشا اللاإنسانية مشاعر العرب جميعاً فازدادوا حماسة وتحدياً بعد ٦ أيار ١٩١٦، وأصبح الاستقلال السياسي والسيادة القومية العربية أمراً حيوياً بالنسبة إليهم وتفجّرت تلك المشاعرُ بثورة عربية ضد الأتراك[١] وقد ساعد البريطانيون الشريف حسين بمفاوضات أجراها الشريف مع السير آرثر ماكماهون وكان لتلك الثورة أَثَرُها الفعّال على مسيرة الحرب في تلك البلاد، لكن المؤسف كانت تلك الميكيافيليه الغادرة، ففي الوقت الذي كانت تجري فيه المُراسلات السرية بين الشريف حسين أمير الحجاز والمعتمد البريطاني في مصر السير مكماهون، دخلت انكلترا وفرنسا في اتصال مُباشر، وفي ١٩١٥/١١/٢، باشر الدبلوماسيون جورج بيكو الفرنسي، ومارك سايكس الإنكليزي والروسي سازانوف، إجراء مُباحثات تمَّتْ في لندن وأسْفَرَتْ عن عقد اتفاق تحوَّلَ بعد مُدةٍ إلى مُعاهدةٍ عُرفت بمعاهدةً سايكس بيكو سازانوف، تم الاتفاق فيها على اقتسام المناطق الخاضعة للدولة العثمانية، بين الدول الثلاث الموقعة على المُعاهدة، على أن يتم ذلك بعد هزيمة تركيا في الحرب... وكانت البلاد العربية من ضمن هذه المناطق التي شملتها الاتفاقية. وحمل العرب السلاح ضد تركيا، وظلوا يجهلون من أمر الاتفاقية إلى أن أفشت روسيا أسرارها بعد نجاح الثورة الشيوعية ١٩١٧، وانسحابها من الحرب[٢] وعندما دخل الأمير فيصل دمشق في ١٨ تشرين الأول ١٩١٨ أعلن الحكومة العربية وأرسل رئيسها الأمير محمد سعيد الجزائري برقيات إلى عمر الداعوق في بيروت ومحمود الفضل في النبطية ليعلمهما بذلك ويفوضهما تشكيل إدارات عربية باسم الحكومة الهاشمية وقد تشكلت حكومة رياض الصلح في صيدا، والحاج عبد الله يحيى الخليل في صور مما أزعج الزعيم كامل الأسعد.

يذكر المؤرخ محمد جابر آل صفا[٣] ، أنه في ٥ تشرين الأول سنة ١٩١٨ قدم إلى النبطية كامل بك الأسعد بصحبة السيد إيليا خوري مندوب الأمير فيصل تخفق أمامه الراية العربية، وهي المرة الأولى التي رفعت في ربوع جبل عامل وركزت في أعلى دار آل الفضل وعَقَدَ في النبطية بدعوة من كامل الأسعد اجتماعاً حافلاً بالعلماء والأعيان،

(١) حسن سعد، جبل عامل بين الأتراك والفرنسيين من ١٩١٤-١٩١٨ ص ,٦٩

(٢) السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩-١٩٥٨، دار النشر للسياسة والتاريخ١٩٦٤٠، ص٣٠٨/,٥

(٣) المؤرخ محمد جابر آل صفا، من كتابه تاريخ جبل عامل، ص ,٢٢٣

وكان الغرض منه إسقاط حكومة رياض الصلح في صيدا نظراً للعداء السياسي المُستحكم بين آل الصلح وكامل بك الأسعد.

ولما وصلت الحملة العسكرية للحلفاء بقيادة الجنرال اللنبي إلى صور وصيدا متجهة نحو بيروت وحلب، عُيّن ضابط فرنسي (فيجل) لإدارة حكومة صيدا وملحقاتها وعلم هذا بالاجتماع الحاصل في النبطية فأرسل قوة عسكرية نشرت إعلاناً في الساحة العامة مؤرخاً في ١٩١٨/١٠/١١ باسم القائد العام لجيوش الحلفاء الثلاثة انكلترا وفرنسا والأمير فيصل يمنع الاجتماع العام والمظاهرات السياسية من أي نوع كان ومن خالف عُد مسؤولاً ومستهدفاً للجزاء، ونشر مثله في كل من صيدا وصور ومرجعيون وصفد[١].

فوجئ الناس وصدموا مما حدث وانتشر في جبل عامل شعور بالإحباط وبدأت علائم الانقسام في المواقف تظهر وراجت سوق الجواسيس والمنتفعين والمقربين من السلطة الجديدة وكثرت التقارير والوشايات بحق المواطنين الشرفاء فيما راحت تتكون تبعاً لذلك قيادات ترفض ما آلت إليه على أرض الواقع نتائج الأحداث.

ومما زاد الطين بلّة ممارسات الموظفين الفرنسيين الذين كانوا يعاملون الناس بشدة وتعالٍ وازدراء مقربين منهم أصحاب النفوس الصغيرة فزاد التذمر وبدأت إرهاصات الفوضى وعلائم التمرد فاختل الأمن وأطلت العصابات وبَانَ انقسامٌ واضح في المجتمع بتشجيع من السلطة راحت تطلّ عبره ويلاتٌ أو فواجعُ وتؤذنُ بكوارثَ قادمة.

كانت الخطة ترمي إلى تشتيت القوة وقسمة المجتمع ليتقاتل أفراده ويتحاربوا... كان المطلوب إزالة هذه اللحمة والوحدة بين مختلف الشرائح فكثرت الدسائس وراجت الإشاعات وبدأ التماسك يهتز ويترنح، وأطلت الفتنة نتيجة التحرشات والاستفزازات وانطلت الخدعة على ضعاف النفوس وامتدَّتْ يدُ الشر سراً وعلانيةً لتسلح الناس بدعوى الدفاع عن النفس.

كان معظم الناس - خاصة المسلمين منهم - مصدومين محبطين رافضين للواقع المفروض، كانوا مع وحدة جبل عامل وسوريا وملكها فيصل، كانوا يتمردّون على استبدال غريب بغريبٍ آخرَ ويودّون أن يروا بلادهم موحدة... كانوا يحلمون بالحرية والاستقلال وعدم التبعيةً وإذا بهم (يصدمون) بمحرر جديدٍ يعيدهم إلى ظلام العبودية

(١) نفس المرجع أعلاه، ص ٢٢٤.

ويقتل فيهم الحلم الوليد ويسلط عليهم بعض مجتمعهم والكثير من المنتفعين المطبّلين والمزمرين ضعاف النفوس والضمائر..

وهكذا انتشرت الإشاعات كالنار في الهشيم في مجتمع قابل لذلك، واتخذت الطائفية سبيلاً للتدمير الذاتي.. وأطلت الفتنة برأسها البشع: خبرٌ هنا وآخرُ هناك يتناول المقدسات وثوابت الإيمان... والسلطة المتآمرة تراقب بفرح الساحة التي تموج بالمكائد وتَغْمُرُ بالشرور.. ويذهب بعض العاقلين يراجعها قبل أن يقع مالاتحمد عقباه... فتتقاعس وتوحي بعدم الاستطاعة ووجوب الحذر...

يومئذ انتشرت العصابات في جبل عامل.. منها عصابات لمحاربة الفرنسيين، ومنها عصابات السلب والنهب وكانت قد تألفت بمواجهتها عصابات مسيحية مؤيدة للاحتلال ومدعومة منه[1] ، يقول السيد حسن الأمين في كتابه الذكريات من الطفولة إلى الصبا "العصابات الوطنية التي قادها كل من صادق حمزة وأدهم خنجر ومحمود الأحمد بزي في جبل عامل لقتال المستعمر الفرنسي كانت التعبير العملي للثورة العاملية على الفرنسيين، تلك الثورة ما اتسمت بالفوضوية إلا لكونها لم تَجِدْ زعيماً يضبطُها ولا مفكراً يتبنّاها ويقودُها ولا جهازاً تنظيمياً يوجِّهُها"[2] .

هكذا كان كل شيء في جبل عامل ينذر بالشر القادم، نظراً لانقسام الناس حول الفرنسيين ووجود فئتين مسلَّحتين على أهبة الاستعداد للتقاتل رغم اختلاف الموازين.

---

(١) مصطفى بزي، تطور المجتمع في بنت جبيل بين الحربين العالميتين ١٩١٤ -١٩٤٣، رسالة ماجستير بالتاريخ الجامعة اللبنانية، ص ٣٨.

(٢) نفس المرجع أعلاه.

مؤتمر وادي الحجير:

يقع هذا الوادي قرب بلدة القنطرة، فيه سيل ماء يدير طواحين حبوب، وعلى جانبيه أشجار متنوعة وسط طبيعة غنّاء... وسبب انعقاد هذا المؤتمر أن حكومة دمشق كان يهمها أن يكون جبل عامل ضِمنَها، وكانت أرسلت للزعيم كامل بك الأسعد أن يحسم موقفه فإما أن يكون معها ويستعد للثورة أو لا... فيكون علينا ويكون لنا وله شأن(١). وقد وفد عليه السيدان آحمد مريود وأحمد العاصي ليبلغاه ذلك.

يقول العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين "في هذه الفترة غلت مراحل الغيظ واضطربت الحال وجاءت رسل الرؤساء من عشائر الفضل في المنطقة الشرقية يحملون لكامل الأسعد وسائل الثورة ويدعونه إلى خوض المعركة ويخيرونه بين اثنين: إما أن ينضمَّ إليهم بجبل عامل فيكونَ معهم حرباً على فرنسا وإما أن يعتزلَ فيكونَ غرضاً لحربهم قبل فرنسا، ولم يجد هذا البلاغ استعداداً من كامل بك لأنه لم يكن مهيأ له، فاستمهل الرّسُلَ وحمّلهم إلى أصحابهم رسالته: أنه ليس بالمفرد بالرأي في (عاملة) من دون العلماء من أولي الشأن ودون زعماء الدين، فلهم كلمتُهم ولهم أتباعُهم، فلا بدّ من أجلٍ يضربُهُ لميعاد ويجتمعُ فيه العلماء والزعماء ويبحثون في هذه القضية على ضوء التفكيرِ والتأمل وهكذا كان"(٢) .

والجدير بالذكر أن موقع جبل عامل كان مهماً بالنسبة لحكومة دمشق خاصة وأن الاتصالات كانت لاتنقطع بين مختلف سكانه وبينها نظراً لنفس التوجهات والمطامح...

وكانت السلطة الفرنسية في نفس الوقت دأبت على الاتصال برجالات جبل عامل، إما عن طريق استدعائهم إلى بيروت أو صيدا، أو عَبْرَ زيارات يقوم بها قادة الاحتلال إلى البلاد العاملية للوقوف على رأيهم ومحاولة التقرب منهم، لكنها كانت لا تلقى التجاوب المنتظر، يؤيد ذلك ما وصفه الشيخ أحمدرضا في مجلة العرفان مجلد ٣٣ ج٥ ص ٤٧٢، حول زيارة الجنرال غورو إلى النبطية في ٢٥ شباط ١٩٢٠، "ورد يوم الاثنين أمر من حاكم صيدا العسكري بأن تستعدَّ النبطية وما حولها لاستقبال الجنرال غورو يوم الأربعاء الساعة التاسعة صباحاً، فنشر مدير ناحية النبطية الأمر وأبلغه إلى مختاري القرى بطريقة رسمية، ولم يأتِ من القرى المجاورة أحدٌ حتى من النبطية لم يحضر هذا الاستقبال سوى جماعة لايزيد عددها عن بضعة عشَرَ رَجلاً من الوجهاء!!

---

(١) حسن سعد، جبل عامل بين الأتراك والفرنسيين، (رسالة ماجستير في التاريخ في جامعة بيروت العربية ص١١٦).
(٢) نفس المرجع أعلاه، ص ١١٦، ١١٧.

وبالإضافة إلى ذلك جرت محاولات لتوقيع عرائض ضد حكومة دمشق الهاشمية، وبالرغم من كل الإغراءات والتهديدات رفض الأهالي التوقيع عليها، وبرّر ذلك مدير ناحية النبطية "إن ذلك غير ممكن للروح السائدة في البلاد من التعلق بالملك فيصل وبالوحدة السورية والنفور من الالتحاق بلبنان"... وقدتكرر نفس الأمر لاحقاً في اجتماع الخردلي: في آذار ١٩٢٠ حيث رفض الزعماء العامليون توقيع العرائض ضد السلطة الهاشمية في دمشق، مما دفع الفرنسيين للجوء إلى أساليب الضغط والإكراه والعمل على إثارة الفتن الداخلية، وما استتبعت من ردود فعل على مختلف الأصعدة وعجّل في انعقاد مؤتمر وادي الحجير وكان أحد أسبابه الملحة...

عقد هذا المؤتمر في ٢٤ نيسان ١٩٢٠ وقد دعا إليه وترأسه كامل بك الأسعد وحضره حوالي ستماية مدعو من وجوه وعلماء جبل عامل، كما حضره صادق حمزة فقط من زعماء العصابات... وموقع وادي الحجير وقتئذ كان يخرج عن نطاق تواجد الفرنسيين... افتتح المؤتمر السيد عبد الحسين شرف الدين وعرض في مستهل خطابه للحوادث الجارية في البلاد، وآخرها حادثة بين متطوعي العسكر من اللبنانيين وأهل صور وأظهر معانيها ومراميها، وتسويف الحاكم العسكري في معالجتها وحذّر من مضاعفاتها المُحتملة على العلاقات بين الطوائف العاملية[1].

ولكن فيما يذكره الشيخ أحمد رضا في مُذكراته ما يدل على أن هُنالك بعض التناقض والنُفُور الحقيقيين بين جناحين من القيادة العاملية: الجناح السياسي، والجناح العسكري إذا صحّت التسمية، فبعد أن استُدعي الشيخ صادق حمزة ليأخذوا عليه وعلى رجاله الأيمان المُغلّظة أن لا يتعرض لأحد من المواطنين أبناء جبل عامل مسلمين كانوا أو مسيحيين بسوء أو أذيّة[2]، دخل الشيخ صادق حمزة السُرادق يُحيط به رجاله شاهرين بنادقهم حوله، ولم يُبدِ خُضوعاً تاماً لتأثير القادة السياسيين والروحيين للطائفة الشيعية، بل حافظ على نوعٍ من الاستقلال لمواقف العصابات وقرارها العسكري - السياسي، وأقسم على عدم التعرض للمواطنين واستثنى من كان منهم آلياً للفرنسيين على الوطن واستقلاله مُجاهراً بذلك مع الغاصبين المحتلين مُسلماً كان أو مسيحياً أو من أي مذهب كان، لأن جهادنا سياسي لا ديني على حد قول صادق حمزة[3].

---

(١) الاتجاهات السياسية في جبل عامل. أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامع القديس يوسف، كلية الآداب، محمد سعيد بسّام.

(٢) نفس المرجع أعلاه.

(٣) العرفان، مجلد ٣٣ ، جزء ٩، ص. ٩٩١

بعد هذا الخطاب والمداولة صيغت المقررات من قبل لجنة منتخبة مؤلفة من الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر ومحمد جابر آل صفا والحاج اسماعيل الخليل والشيخ عز الدين عز الدين وتقرر بالإجماع الانضمام إلى الوحدة السورية تحت تاج الملك فيصل ورفض الانتداب والحماية... وانتُخِبَ العلامتان السيدان عبد الحسين شرف الدين وعبد الحسين نور الدين لإبلاغ الحكومة السورية هذه المقررات.

الأمر اللافت في هذا المؤتمر أنه اقتصر على الشيعة، مما جعل موقف شريحة من المسيحيين حذراً خاصة وأنه قد أشيع في أوساطهم المستنفَرَةِ أن الهدف من انعقاده هو ذبح المسيحيين والتنكيل بهم واقتلاعهم من ديارهم... وقد كان مجرّد انعقاده مادة دسمة استغلها موتورون وعملاء لإثارة هذا الرعب في أوساطهم والذعر من نتائجه... مع العلم أن الفرنسيين كانوا على علم تام بكل الأبحاث التي دارت والمواقف التي اتخذت، وأن نقاشات تناولت الحوادث المشبوهة والإشاعات المسمومة وكذلك التي تتعرض للمقدسات الإسلامية مما ساهم في توتير الأجواء وخلق مناخاتٍ غيرِ مريحة تنذر بشرٍّ مستطير بات على الأبواب...

وجدير بالملاحظة أن هذا المؤتمر يفترض أن يكون تعرّض لما كان يجري على ساحات جبل عامل من استفزازات وتصرفات تتناول بالعمق علاقات المسلمين والمسيحيين نظراً لأن وجود هذا الحشد من الزعماء والوجهاء والعلماء لا يمكن أن يمرّ دون التطرق إلى ما يتناول أمنهم الاجتماعي ومنع التعرض للمقدسات، بالإضافة إلى السبب الأساسي لانعقاد هذا المؤتمر أي التطلعات السياسية ومصير البلاد... كما يمكن أن يكون البحث تناول أو تطرق إلى اعتماد حل أو حلول ناجعة... وإذا كان الزعماء السياسيون هم الأكثر تجربة وتعقلاً لأنهم الأبعد نظراً والأوسع أفقاً والأكثر دراية بخواتيم الأمور... فإن أي إثارة للمشاعر قد تكون صدرت عن رجل دين يمكن أن تكون لاقت صداها بين جيل الشباب المتحمس أو المتهور. وليس بعيداً أن يكون هذا قد حدث ووقع فعلاً وتطابق مع الإشاعات التي انتشرت في البلاد ونشرت في الصحف لأن التاريخ علَّمَنا أن لا ينبعثَ دخانٌ دون أن تكون النار مصدراً له...

مراسل جريدة البشير في عين إبل أبلغ جريدته أن الحاج محمد سعيد بزي بعد انتهاء المؤتمر طمأن أهالي عين إبل وهدّأ من قلقهم قائلاً: "إذا حدث شيء افتديناكم بالأرواح" موضحاً أن الغاية من عقد المؤتمر كانت راحة البلاد واستتباب الأمن... يقول

موسى الزين شرارة في مقابلة مع مصطفى بزي: "إن صادق الحمزة فكَّر أكثر من مرة في الاعتداء على عين إبل، لكنه كان يخشى ذلك بسبب تحذيرات عديدة وُجهت إليه من بعض متنفذي بنت جبيل الذين طالبوه مراراً بعدم الاعتداء على عين إبل.[1]

لكن من يراجع أعداد جريدة البشير في تلك الفترة يلاحظ بوضوح الدس والافتراء والعمل على تهييج المسيحيين وإثارتهم على جيرانهم الشيعة، أو على الأقل تحذيرهم منهم، حتى وصل الأمر برجل محترم وأديب كبير هو أمين الريحاني أن يورد في كتابه "ملوك العرب" أن المؤتمر عقد في الحجير لذبح المسيحيين...

يقول الشيخ سليمان ظاهر وهو من الذين حضروا وكان حضوره فاعلاً "وفي الحق أن من أهم أغراض ذلك المؤتمر تقرير رفع التعدي عن المسيحيين ويتضح من مجريات الأحداث واستقراء المواقف أن الزعامات السياسية والدينية كانت فعلاً وواقعاً ضد أي فتنة رغم رفض الاستفزازات وإدانة المسّ بالمقدسات"[2] ... لكن الأمور عندما تتطور سلباً في أجواء محمومه، أُعدّ مسرحها بعناية، وأمسك المخرج خيوطها خلف الستار فقد يفلت زمام السيطرة عليها إذا أشعل فتيلها متهوّرٌ أو متعصبٌ أو عميلٌ يدفع حوادثها وأحداثها نحو جنون الحقد والإجرام والتذابح...

***

(١) جبل عامل في محيطه العربي، ص ١٨٩، الطبعة الأولى ١٩٩٣.

(٢) سليمان ظاهر، في كتابه جبل عامل في الحرب الكونية صفحة ٧٣.

مقدمات الأحداث:

يذكر الدكتور مصطفى بزي في رسالته للماجستير[1] في التاريخ (تطور المجتمع في بنت جبيل بين الحربين العالميتين في الصفحة ٤٠ نقلاً عن إبن عين ابل الأستاذ إلياس صادر: "حضر أحد خوارنة عين إبل إلى السيد شاربانتييه المستشار الفرنسي في لواء الجنوب يشكو القبضايات، وكانت في صيدا قوة كافية لمطاردتهم والتنكيل بهم فكان الجواب منه: أن دافعوا عن أنفسكم!!!... وهكذا فإن فرنسا كانت هي المسؤولة فعلياً عن أحداث سنة ١٩٢٠، لأن القيادة الفرنسية العامة كانت مسؤولة عن أمن البلاد (كانت تستطيع أن ترد عن البلاد وأهلها النكبات كلها)[2].

يورد مصطفى بزي في كتابه بنت جبيل حاضرة جبل عامل في الصفحة ٤٩٧ ما حرفيته: "حدثت مأساة عين إبل بعد انقضاء مؤتمر الحجير بأيام قليلة ومما لا شك فيه أن هذه الأحداث تستمد أسبابها من الجو السياسي العام الذي كان سائداً في جبل عامل بعد دخول الفرنسيين إلى لبنان والواقع أن زعماء بنت جبيل السياسيين حاولوا جاهدين في تلك الفترة الحؤول دون حصول أي عمل مضاد تجاه عين إبل إلا أنهم لم يوفّقوا إلى ذلك وزاد في عدم التوفيق في المسعى ما حاكته السلطات الفرنسية من دسائس كان من شأنها أن تقضي على كل أمل بالوفاق بين أبناء المنطقة الواحدة الذين كانوا يعيشون قبل تلك الفترة في جو عيش مشترك واحد دون أن يعكر صفو الأمن والطمأنينة أي حادث يُذكر، وأكثر من ذلك - وبحجة حماية المسيحيين والأقليات - سلَّحَتْ فرنسا هؤلاء بالسلاح والذخيرة وأغرتهم بالتحرش بجيرانهم ومواطنيهم.

إننا إذا أردنا أن نقيّم الأحداث في تلك الفترة فليس أبلغ مما قاله الشيخ فؤاد الخوري الذي كان يعتبر أن الفرنسيين هم الذين أوصلوا الأوضاع في المنطقة إلى الحد الذي وصلت إليه سنة١٩٢٠ وأنه التقى شخصياً الجنرال De la Bistière في صور وكان الشيخ فؤاد مترجماً مع الفرنسيين في تلك الفترة، وسأل الشيخ فؤاد الضابطَ الفرنسي عن الوضع الأمني في المنطقة فأفاده أنه وزوجته ينامان في "شختورة" بعرض البحر خوفاً من اعتداءات صادق حمزة وعصاباته! وكان الشيخ فؤاد يرى أن هذا الأمر يتناقض مع ما حصل لاحقاً من تزويد المسيحيين من الأسلحة وتحريضهم على إخوانهم الشيعة وذلك لشحن النفوس وإيصال الأوضاع إلى حافة الهاوية ليكون لفرنسا

(١) رسالة كفاءة غير منشورة في كلية التربية - الفرع الأول.

(٢) يراجع امين الريحاني ص ٣٤٨ ، كتابه ملوك العرب، ج٢.

المبرر لدخول المنطقة، وهذا ما ظهر جلياً عند دخول القوات الفرنسية إلى جبل عامل واجتياحه... يُعلق الشيخ فؤاد على ذلك فيقول: كيف يمكن القول إن الجنرال الفرنسي كان يضطر في تلك الفترة إلى النوم في عرض البحر في وقت كان باستطاعة الفرنسيين اجتياح المنطقة منذ البداية ووضع حد لتلك العصابات؟؟!... إن الحقيقة تثبت أن فرنسا كانت تريد أن توتِّرَ الجو بشكل كامل في المنطقة حتى يكونَ دخولُها حاجةً ملحةً للقضاء على العصابات واحتلال المنطقة حتى دمشق".

كيف جرت الأحداث:

"المعلوم أن عين إبل قرية كبيرة من قرى المسيحيين وهي تقع بين بنت جبيل وعيناتا وكونين والطيري وحانين ورميش ويارون، انتقل سكانها في القرن الثامن عشر من الشمال في عهد إمارة الأمير منصور الشهابي وأكرم مثواهم أهالي جبل عامل... وكان يحدث بينهم وبين بعض القرى المجاورة بعض حوادث لا تخرج عن العادة، فكانت تُتَلافى بالحكمة، وهكذا استمرت الحال إلى عهد الاحتلال الذي شاء أن يكدّر بينهم وبين أخوانهم الصفاء عملاً بسياسة التفريق[1]".

يُتابع الشيخ سليمان الحادثة التالية: "قتل أهالي دبل شيخاً من دير انطار، واجتهد عقلاء الشيعيين وبعض عقلاء تلك القرية لملافاة أثر قتل ذلك الرجل من النفوس والمصالحة على دفع ديّة، وكان ذلك في الوقت الذي خلت منه البلاد من القوة الحاكمة وفي زمن استفحال أمر العصابات، وكان موعد الاجتماع لصرف المشكل بين وجهاء عين إبل وبعض وجهاء بنت جبيل وكونين بعد اجتماع الحجير يعني في أوائل أيار سنة ١٩٢٠ وشاء القدر أن يضم الاجتماع فريقاً من رجال الثورة الشيعية الذين لم يحضروا اجتماع الحجير (ربما كان يعني محمود الأحمد ورفاقه).

ويتابع الشيخ سليمان ظاهر "ومن الصدف أن كامل بك الأسعد في ذلك الحين كان قد دعاه الكولونيل (نياجر) لمقابلته في النبطية... وكان قد أنذره كامل بك بأن بقاءه في بلده مما تقضي به حال الخلاف المستحكمة بين أهالي عين إبل وبعض أبناء طائفته فلم يُصغِ إلى إنذاره وألحّ عليه بالحضور (يعني ذلك أن حضور كامل بك الأسعد الاجتماع كان من شأنه أن ينهي هذا النزاع)...

يستطرد الشيخ سليمان في الصفحة ٧٤ من نفس المصدر، "كان من جراء ذلك أن

(١) الشيخ سليمان ظاهر، جبل عامل في الحرب الكونية، ص ٧٣-, ٧٤.

لم يحضر كامل بك ذلك الاجتماع الخطير وأن لم يصغ أهل عين إبل لتسوية ذلك الخلاف ولم يعبأوا بأمر الاجتماع والمجتمعين واستعدوا بما يملكونه من آلات الدفاع والسلاح وبمن جمعوه من إخوانهم من القرى المجاورة لهم للمقاومة".

ويورد مصطفى بزي: "إن السبب القريب لحوادث ١٩٢٠ هو مقتل أحد المسلمين في وادي الدب قرب بلدة ياطر وما أشيع عن اعتداء على امرأة مسلمة من قرية حانين وهي بائعة لبن حيث تصدى لها في قرية عين إبل بعض أوباش القرية المغرومين بالفرنسيين وعرّوها من ثيابها بالقوة وأمروها أن تمشي أمامهم هكذا ذاهبة جائية ثم تداولوها بالفاحشة"[١] (نقلاً عن الشيخ أحمد رضا مذكرات للتاريخ، الجزء التاسع، ص ٩٩٢-٩٩٣).

يتابع د. بزي في هذه الأجواء المتوترة بدأ رجال العصابات يعقدون الاجتماعات لبحث الوضع الأمني واتخاذ المواقف للرد على الاستفزازات.

الاجتماع الأول كان في ميادين بنت جبيل، وكان الداعي له محمود الأحمد بزي وتقرر فيه الاتصال بكامل بك الأسعد وإعلامه بآخرالتطورات بانتظار اتخاذ موقف سريع قبل الإقدام على أي رد.

الاجتماع الثاني كان على بركة كونين صباح يوم الأربعاء ٥ أيار ١٩٢٠، ولم يكن محمود الأحمد بين الحاضرين لأنه كان في الشِّعب (منطقة صور)، ويذكرالشيخ أحمد رضا أن كامل بك الأسعد كان أرسل وفداً إلى محمود الأحمد بزي يأمره ورفاقه بأن يخلدوا إلى السكينة ويتركوا الأمر للعقلاء.... وفعلاً ذهب الوفد إلى بركة كونين حوالي الظهر حيث كان المسلحون وقد تجاوزوا المئتين من مختلف البلاد ولم يكن بينهم من بنت جبيل أكثر من عشرين شخصاً يلتهبون حماسة وأبلغهم بالرسالة والطلب... وأطلقت النار بين رجلي عبد الحميد بزي فعاد الوفد وقد فشلت مهمته[٢].

والروايات تختلف حول عدد المسلحين وكيفية بدء الهجوم على عين إبل، ففي حين تقدر المصادر المسيحية أن العدد كان بالألوف تقدر المصادر الإسلامية أن العدد كان حوالي المئتين، ذكر ذلك الشيخ أحمد رضا في مذكراته للتاريخ (ج ١٠ ص١١١٦)، كما ذكر أن بدء الهجوم كان نتيجة إطلاق النار ومن محيط عين إبل البعيد ومن شبابها وهم

(١) مصطفى بزي، رسالة الماجستير في التاريخ (غير منشورة) الجامعة اللبنانية ١٩٧٨، ص٤٨.
(٢) نفس المرجع.

يراقبون تجمع المسلمين على بركة كونين.. لم يعد مهماً في هذه الأجواء مَنْ أطلق الرصاصة الأولى، ومن كان البادئ... فَتَطَوُّرُ الأحداث كان قد حدّد سير المعركة وفَرَضَ حتميَّتَها وأَلْزَمَ وقوعها، إذ إن مجرد الاجتماع على بركة كونين قبالة عين إبل وحضور هذا العدد الضخم في حينه من المسلحين المتحمسين الذين لا يتبعون قائداً واحداً ولا يلتزمون بأوامر مسؤول أعلى جعل كل فردٍ قائد نفسه.

وبدأت المعركة ظهراً عندما اندفع المسلحون نحو عين إبل من الشمال والشرق، لكن المفاجأة كانت من الجهة الغربية بوصول محمود الأحمد بزي عائداً من الشِّعب، وأطبق المسلحون على البلدة، وحلَّت بها الكارثة وقتل جميع أهاليها؟! الذين لم يستطيعوا الهرب نحو فلسطين، ونهب المسلحون كل شيء وجدوه في البيوت والاسطبلات والصِّيَر وأحرقوا البلدة بكاملها[١]".

أحرقت عين إبل ونهبت وبقيت جثث القتلى أياماً في البيوت والشوارع وفي الكنيسة وحولها وهرب من استطاع النجاة، وهَجَرَ المسيحيون قراهم المجاورة وبدأت الخطة المرسومة - بعد هذه المأساة - تُنَفَّذُ... جريدة البشير والصحافة المماثلة لها تؤجج العواطف وتدعو للانتقام ولرد عنيف يتناسب مع الجريمة... ووضعت تفاصيل الرد دون تأخير... وجردت حملة عسكرية ضخمة على جبل عامل ترأسها الكولونيل Nieger مع أربعة آلاف جندي استهدفت بعض قرى الشيعة بالحرق والنهب والإعدامات والإرهاب، وضربت بنت جبيل بالطيران وتركها أهلها إلى قرى أكثر أماناً وإلى فلسطين والجولان.

بهذه الحادثة يؤرخ أهالي بنت جبيل سنةَ هجرتهم (أو سنة المهاجرة حسب تعبيرهم) إنه تاريخ محلي.. كثيراً ما تسمعه يتردد أمامك: فلان ولد سنة المهاجرة، أو فلان كان عمره سنة أو سنتين وقت المهاجرة.

في خطاب له في بلدة عين إبل بعد أيام من نكبتها وقف الكولونيل نيجر معزياً ومهدداً: "إن الدماء التي أريقت في عين إبل هي نفس الدماء التي أريقت في باريس، ولن أقبل ثمناً لهذه الدماء إلا تاج فيصل في دمشق"[٢].

يقول الشيخ سليمان ظاهر: "مشى نصف رجال الحملة تحت قيادة الكولونيل نيجر من صور يوم الأربعاء في ١٨ آيار، وكان وصلها على ظهر دارعة يوم الثلاثاء، وبوصوله

(١) بولس شحاده، نكبة عين إبل، مقال في جريدة النهار، ١٦/١١/٩٨.

(٢) مصطفى بزي ص ٥٣، رسالة الماجستير والتاريخ .....

أعدم ستة أشخاص من قرى مختلفة لم تشترك في حادثة عين إبل ولكن بعض أهلها زعم أن لهم يداً فيها"[1] .

مرت الحملة بقرية البازورية فهدمت بعض بيوتها لأن منها ثائراً يسمى يعقوب القرعوني، ثم مرت بقرية جويا فاستقبلها أهلها بالتسليم، لكن وشاية كاذبة ألصقت بالسيد يوسف طاهر قضت عليه بنفاذ حكم الموت فيه بصورة فظيعة.

قبل توجه النصف الثاني من الحملة المرابط في النبطية استدعى الليوتنان توليه الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر وأبلغهما وجوب مبارحتهما النبطية إلى صيدا لمقابلة المستشار العسكري الكومندان شاربنتييه، ولم يسمح لهما بمواجهة أحد من أهل بلدهما وأعلمهما بانتظار سيارة لهما على الطريق تقلّهما إلى صيدا، ولما دخلا على شاربنتييه قال لهما: إنني استدعيتكما لاقتضاء مصلحة الحملة العسكرية عدم وجود كما في بلدكما، ولتقيما هنا شرط عدم التدخل بالسياسة وعدم حضور أي اجتماع كان حتى تنتهي الحملة من أعمالها...

يوم الخميس ١٩ أيار مشت الحملة من جويا إلى تبنين لتلتقي حملة النبطية التي يقودها الليوتنان توليه التي مشت في هذا اليوم.... فترصّد طريق حملة صور في مرتفعات الوادي المسمى بوادي الحريق قوة من الثوار يبلغ عددها المائتين بقيادة محمود الأحمد بزي "بطل" نكبة عين إبل فاصطدمت بالحملة وكانت معركة حامية ضعضعت الحملة وألحقت بها خسائر في النفوس، ولولا نفاذ رصاص رجال الثورة وانقطاع المدد عنهم لما استطاعت الحملة اجتياز تلك المضائق... في تبنين استقبلت الحملة من المسلمين والمسيحيين بالتسليم والطاعة... وهناك فرّقت فصائلها على قرى باريش وأرزون وشحور ودبعال فهدمت من الأولى بعض البيوت ودمرت الثانية من شحور بيتاً واحداً ثم أطلقت النار على العلاّمة السيد عبد الحسين شرف الدين الذي ألصقت به تهمة إثارة الثوار على عين إبل زوراً وبهتاناً وقد نجا بأعجوبة وأحرقت مكتبته.

حملُة النبطية لم تلقَ مقاومةً في طريقها لأن صادق حمزة الذي كمن لها في وادي الحجير انسحب بناء لطلب ونصيحة كامل بك الأسعد الذي تمنى عليه عدم الاصطدام معها، والتقت الحملتان في تبنين.

(١) الشيخ سليمان ظاهر، من كتابه "جبل عامل في الحرب الكونية"، ص ٧٦.

وهكذا فحملة نيجر جاءت للانتقام لا للتأديب، وأطلقت أيدي مرافقيها من مسيحي عين إبل تقتل من يجدون على الطريق، وفي النهب وكان من الفجائع قتل سبعة رجال مكارين". ولما بلغت بنت جبيل سلطت مدفعيتها عليها وأعملت فيها النهب والسلب والحريق، وهدموا الحسينية وأهانوا المصاحف والكتب الدينية وجرت أعمال مماثلة في القرى المجاورة لبنت جبيل، بالإضافة إلى تصفيات انتقامية طاولت النساء والشيوخ.

واجتمع الكولونيل نيجر بكامل بك الأسعد في هونين... لكن الزعيم أوجس خيفة مما يضمره له قائد الحملة، فأعمل الحيلة في الرجوع إلى الطيبة بعد أن دعاه إلى وليمة يولمها له وأضمر الفرار وكان ذلك يوم السبت في ٢٨ أيار وعاد إلى الطيبة واتخذ الليل جملاً إلى الجاعونه ثم إلى دمشق[١].

في اليوم التالي حضر نيجر إلى الطيبة واستاء من قرار كامل بك ولولا وساطة بعض المسيحيين لنسفت دار الطيبة إلا أنها لم تسلم من النهب.

امتدت حملة نيجر سبعة عشر يوماً كانت البلاد خلالها بين نارالفرنسيين ونار الثوار فاضطرب أمنها وخيمت عليها الفوضى وانتشر فيها الخراب.

في ٥ حزيران ١٩٢٠ (بعد مرور شهر على نكبة عين إبل) اجتمع نيجر في دار الأسقفية الكاثوليكية في صيدا بحضور الكولونيل شاربنتييه ومتصرف لواء صيدا (رشيد بك جنبلاط) وقائمقامها (فؤاد العازوري) - ببعض وجوه العامليين وعلمائهم (وكذلك بحضور بعض مسيحيي صيدا وصور ومرجعيون) لإبلاغ هؤلاء ما تطلبه السلطة منهم للتنفيذ دون نقاش أو اعتراض... وفرض عليهم أي على زعماء وعلماء جبل عامل بعد التقريع والتجريح والتوبيخ والاتهامات الظالمة أن يوقّعوا مذكرةً معدةً سلفاً يلتزمون ما ورد فيها وإلا تعرضوا للإبعاد أو النفي حيث تنتظرهم دارعة في عرض البحر.

وكانت المطالب تتضمن[٢] :

جمع الأسلحة - دفع دية القتلى المسيحيين - إرجاع منهوباتهم - التعهد بحفظ الأمن - دفع ١٠٠,٠٠٠ ليرة عثمانية ذهباً غرامة على كل قرى جبل عامل - دفع الحصة العشرية وبقايا الأموال الأميرية - التعهد في حصاد مواسم عين إبل ورميش

(١) نقلاً وبتصرف عن الشيخ سليمان ظاهر ص ٧٧، حتى ٨٠.
(٢) الشيخ سليمان ظاهر، ص ٨٤.

والقوزح وغيرها - التصديق على ما أصدرته السلطة العسكرية من أحكامها المختلفة من إعدام وإبعاد ومصادرات على رؤساء الثوار وبعض العلماء والزعماء والوجهاء.

وقد وقعت العريضة من قبلهم بعد رفض أي بحث في التخفيف أو التعديل... ووقعت تحت صلصلة سيوف الشرطة والدرك وأزيز الدارعة في عرض اليم".

وقد أسفرت حملة نيجير على جبل عامل عن النتائج التالية:

- حكم جبل عامل بالحديد والنار والظلم والإرهاب.
- تسهيل ضم جبل عامل إلى دولة لبنان الكبير.
- إفقار البلاد بتحميلها هذا الكمّ من الغرامات بالإضافة إلى التهجير والنهب والحرق.
- مطاردة القادة وتصفيتهم عند الاستطاعة.
- محاربة كل تطلع وحدوي مع سوريا أو العرب.
- شراء الضمائر وتشجيع الانتهازيين وإفادتهم من خدمات السلطة.
- التمييز في المعاملة بين المسلمين والمسيحيين والتأسيس لفتن مستقبلية.
- تفتيت الوحدة الوطنية بالعزف على وتر المذاهب والأديان.
- تشجيع التوجه غير العربي ومحاولة خلق عصبية فينيقية بوجه الاتجاه العروبي.
- سياسة توظيف تستبعد المسلمين والعروبيين.
- تكريس وخلق زعامات في مختلف المناطق متعاونة مع الانتداب.
- ممارسة سياسة الانتقام السياسي (إهمال وحرمان من المنافع والوظائف).

النتائج السياسية والاجتماعية:

لم تحقق هذه الحملة النتائج المرجوة خاصة لجهة استتباب الأمن، إذ أن انكفاء العصابات المسلحة لم يكن تاماً، وبقيت تثير المتاعب في وجه السلطة بتعاونها مع الأمير محمود الفاعور في الحولة أو مع الثوار في وادي التيم، وامتداداً إلى سوريا. ثم إن ظهور العصابات المسيحية المسلحة لمعاونة السلطة واتّباعها سياسة الانتقام الكيفي بأفظع صُوَرِهِ ضد كل من لا يرتاحون له انعكس سلباً على الناس. وجاءت الضريبة المفروضةُ لترهقَهم وتزيدَ في إفقارهم خاصة وأنها جُبِيَتْ بواسطة الأزلام

والمحاسيب أضعافاً مضاعفة. يذكر الشيخ سليمان ظاهر في الصفحة ٨٤ من كتابه جبل عامل في الحرب الكونية. "لا نغالي إذا قلنا أن الغرامة قد فرضت مائة ألف ليرة ذهبية لكنها حصلت نصف مليون ليرة، وإذا ضممنا إليها ما سلب من البلاد عن طريق الحملة وعن غير طريقها، وما خرب من البلاد كان ما تكبدته من الخسائر في الأموال ما لا يقل عن مليوني ليرة ذهبية" ... وجاء سقوط الشام في ٢٤ تموز ١٩٢٠ بعد معركة ميسلون يزيد في الإرهاق والإحباط والإساءات ولا ننسى سياسة السلطة المنتدبة بالتمييز والانتقاء في الوظائف والخدمات تمييزاً متعمداً لإبعاد الشيعة عن مواقع النفوذ والقرار وحصرها بالمسيحيين عامةً وبأقلية من المسلمين متعاونة معها جعلت من لبنان مزرعة بدلاً أن يكون دولة وأسست لمشاكل ومتاعب طالت لاحقاً كل ما فيه وكادت تقضي عليه وتُخَلْخِلُ تماسكه الاجتماعي وتعايشَ شرائحه ووحدةَ مصيره.

بنت جبيل وعين إبل كلتاهما الضحية:

في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ سقطت دمشق بيد الفرنسيين بعد معركة ميسلون، وغادر الملك فيصل سوريا فيما دخل الجنرال غورو دمشق.

في هذه الفترة كانت بنت جبيل تلملمَ جراحها وتمسحَ عن وجهها سواد الحرائق وتعيدُ بناء ما تهدّم وتجدّدُ بَدَلَ ما نُهب وما سُلب.

لقد حُمِّلَتْ وِزْرَ الأحداث رغم أنها كانت ضحيتها... فالخطة التي نفذت فرضها تسلسل الوقائع، وسماح السلطة المنتدبة أو "تطنيشها" عما كان يتفاعل على الأرض... تلك الخطة استلزمت ترك الحبل على الغارب لإثارة الخلافات ونشر الشائعات ونبش الأحقاد وتدنيس المقدسات، وتسفيه الشعائر واستنفار العصبيات واستفزاز البسطاء... يكفي أن تسمي كلباً باسم (فيصل) وكلبتين باسم (خديجة وفاطمة) أو أن ترفع العلم الفرنسي على منارة مسجد[1].

بنت جبيل باندفاع الشباب وحماستهم، - وربما بتهور البعض منهم- ، كانت ضحية المؤامرة المحبوكة - في ليل أسود - بدم بارد، وعين إبل كانت ضحية عدم التعقل واللعب بالنار التي شاءها الأجنبي في حينه ليَنْفذَ عَبْرَ الدم المراق مجاناً، وينفِّذَ الخطة بالسيطرة على جبل عامل بالحديد والنار والفرقة والكراهية المتبادلة - والشعوب دائماً ضحية لعبة الكبار - وغداً عندما تتضح المؤامرة - كلُّ مؤامرةٍ - مع مرور الأيام يدرك

(١) الشيخ سليمان ظاهر، جبل عامل في الحرب الكونية، ص ٦٤.

الجميع: القاتل والمقتول، المعتدي والمعتدى عليه، الظالم والمظلوم، أنهم كانوا الأغبياء البسطاء، وقود النار وطرائد الصيادين... لا فرق بينهم فكلهم خاسرون والوطن قبلهم هو الخاسر بامتياز.

من هنا كان علينا أن تترك للزمن أن يحكم ويوضح اللبس والشطط والخطأ...

يوم الخامس من أيار سنة ١٩٢٠ وقبله حاول عقلاء بنت جبيل قدر استطاعتهم أن يمنعوا وقوع الكارثة، وأن يحولوا دون مآسي الشرّ القادم... لكن كلَّ شيءٍ كان معداً بعناية حتى يقع، والذين يقدَّر لهم أن يطّلعوا على أسرار الدول - بعد السماح بكشف غوامضها - يدركون ولو متأخرين أن عداواتٍ وخصوماتٍ وحروباً ما كان لها أن تقع لولا مؤامراتُ الكبار، وخطَطُهم الجهنميةُ، المعدَّةُ بإحكام... والناس العاديون البسطاء هم الضحايا، كلهم ضحايا، المنتصر منهم والمهزوم.

بهذا المنطق أفهم وأُدرك نكبة عين إبل ومأساة بنت جبيل... كلتاهما ضحية، لم يربح أحد منهما.... ربحتْهُما المؤامرةُ التي توصَّلَتْ لتحكم البلاد فوق أنهار الدم المسفوح باسم عداوةٍ مصطنعة، وأحقادٍ مُثارة، وخلافاتٍ كاذبةٍ وهم الأهل والجيران والأخوان الذين فرَّقتهم الفتن والمؤامرات.

لعبة "الكلّة" في دير القمر لم تكن بدورها سبب الفتنة سنة ١٨٦٠ بين الدروز والمسيحيين، ولا قصّةُ بائعة لبن "حانين" كانت سبب فتنة ١٩٢٠ بين بنت جبيل وعين إبل... كانت كلٌّ منهما القشةَ التي قصَمَتْ ظهر البعير... تماماً كـ"بوسطة" عين الرمانة التي أعلنت بداية الحرب الأهلية بين اللبنانيين والفلسطينيين ولتصبح لاحقاً حرب اللبنانيين فيما بينهم وحرب الآخرين في لبنان وحرب تدمير الوطن.

وضحايا الحروب الأهلية في بداياتها كلهم شهداء... يموتون دفاعاً عن قضاياهم ومعتقداتهم ومقدساتهم... لكن النظرةَ تختلف عندما تتضحُ الخيوطُ وتَتَحَدَّدُ الاتجاهات ونعرفُ اتجاه البوصلة ومكانَهُ الصحيح... وإذ ذاك ندرك مأساة الموت العبثي والقتال دون غاية أو هدف.

علينا أن نعي وندرك أن التقاتل الداخلي ليس بالضرورة حرباً في سبيل الوطن، وإنما قد يكون حرباً على الوطن أو ضربةً قاسمةً لكلا الفريقين ينفذ من خلالها العدو إلى إضعافه والسيطرة عليه. والتاريخ - قديمُه وحديثُه - حافل بالشواهد والأمثلة لكن

الناس قلّما يعتبرون ويستفيدون... إنهم على مرِّ الزمن الساذجون المغفَّلون، أعداءُ أنفسهم وأوطانهم من حيث يدرون أو لا يدرون.

ها نحن اليوم – ولم ننسَ بعدُ ويلاتِ حربنا الأهلية – نتساءل بعد أن تقاتلنا وتذابحنا وهدَّمْنا وطننا وشرّعْنا أبوابه للطامعين، هل توصلنا إلى أن نفهمَ ونعيَ وندركَ أن «الشرقيّةِ» كانت ضحية «كالغربية» وأن الجبل كان ضحية كالجنوب، وأن حروب الإلغاء والمذاهب والطوائفَ هي بالنتيجة هزيمةٌ للوطن، الوطن الذي هُزِمْنا جميعاً فيه.

بهذا المفهوم أنظر إلى ما جرى قديماً وحديثاً في بلدي ووطني وأرى أن بنت جبيل كانت في نفس الوقت ضحية، تماماً كما كانت عين إبل ضحية، وأن الدين استُغلّ وما زال يُستغل كمركب خشن، وأن الدماء الطاهرة التي روت أرضهما في قتال عبثي تنادينا أن نتوحد ونتآخى ونحافظ على أرضنا ووطننا ونذود عنهما أطماع الطامعين.

بنت جبيل بعد سقوط الحكم العربي

دخل غورو دمشق بعد معركة ميسلون في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ وسقط يوسف العظمة ورفاقه أبطالاً دفاعاً عن وطنهم وذوداً عن عروبتهم والحلم الكبير بوحدة أمتهم...

ومع عودة الجنرال أمست دمشق عاصمة الأحزان، سقطت دولة الملك فيصل بعد أربعة أشهر ونصف على نشأتها، فذوت الآمال الوليدة وماتت الأحلام الكبيرة... وفجع شباب العرب وأخذهم إحباط موجع... الدماء الغزيرة التي بذلوها ما جفت بعد... والضحايا التي قدموها قرابينَ على مذبح الوطن مازالت طريةً تنبض... والأحلامُ التي رَاوَدَتْهم في دولتهم ما برِحْت أمنيات.. لقد ذهبت كلها تحت ضَرَبات وعربات القادم الجديد وتبخرت الأحلام.

وتحملت بنت جبيل يومئذ التهجير والتهديم والحريق والاستبداد والظلم فلم تذعنْ أو تهدأ.. وكانت تشعر أن القضية تتطلب ذلك... لكنها لم تستوعبْ سقوط دمشق.. انهار الصرحُ العظيم.. وسقطَ الحُلُم... وكان على الفارس المُثخن بالجراح أن يترجل... عليه أن يهدأ ويلتقط الأنفاس حفاظاً على نَفَس الحياة ونبض الفؤاد .

كانت فرنسا حينئذ في أوج انتصارها... تقاسمت الغنيمة مع الإنكليز، وتفرغت للأمن وقضت على العصابات... فألقت القبض على كثير من المتطوعين وأعدمت البعض الآخر، ونشرت أمناً واستقراراً معقولَين، ثم أصدرت عفواً عن الذين كانت حكمتهم غيابياً بالإعدام... لأنها كانت متأكدة بأنهم - أو بمعظمهم - كانوا أبرياء ولأن مصلحتها في إدارة شؤون البلاد تقتضي ذلك، وفي سبيل إزالة التشنج وبعد أن زالت نسبياً التوترات.

صدر عفو عن كل من كامل الأسعد والحاج محمد سعيد بزي وصهره الحاج فياض شرارة، والحاج حسن طرفه والحاج محمد سويد .

حاولت البلدةُ التقاط أنفاسها، رغم الركود الذي انتابها كما حاولت أن تتكيف قدر الإمكان مع الواقع الجديد ليتمكن الناس من تحصيل قوتهم.... والانتباه إلى ممتلكاتهم... وعادت كذلك دورة الحياة... فَتحت المدارس الرسمية أبوابها، وراح الكثير من الأهالي يرسلون أولادهم إلى المدارس القرآنية لأنها تركز على حفظ القرآن الكريم ولأن المدرسة الرسمية قد تغرّبهم وتبعدهم عن دينهم.

عُيِّن المعلم الأول في المدرسة الرسمية الشيخ علي شراره بموجب القرار ٢٩٤ تاريخ

٢٣/١٢/١٩٢٠ كان يعلم اللغة العربية.. وكان في المدارس القرآنية معظم التلاميذ... وقد اضطر الشيخ علي أن يستعير بعض التلاميذ ليوهم المفتش أن عددهم في المدرسة لا بأس به كي لا يوقف المدرسة.

في ٢٩/١٢/١٩٢١ زار المفتش المدرسة ونظم تقريراً بوضعها وذكر أن الحاج محمد سعيد بزي طلب مدرساً للغة الفرنسية، وقد عُيِّن الأستاذ ملحم بركات من عين إبل بهذه المهمة ثم عين لاحقاً معلم آخر هو فؤاد ثم يوسف بركات.

الكتاتيب:

عرفت بنت جبيل المدارس الرسمية في أول العقد الثاني من القرن العشرين، لكن الكتاتيب أو المدارس القرآنية هي التي كانت تعلم قراءة القرآن والكتابة ومبادئ الحساب وهي قديمة العهد مرتبطة برجال الدين، أو بمحيطهم، لأن هؤلاء هم الذين حفظوا اللغة قراءة وكتابة، تعلماً وتعليماً، تحصيلاً محدوداً أو تبحراً، اكتفاءً بما بلغ الطالب في جبل عامل أو سعياً وراء الاستزادة في النجف الأشرف... الطالب في حينه إما أن يبلغ درجة عالية من التحصيل فيصبح عالماً، أو درجة محدودة فينصرف إلى ملء بعض الفراغ إذا لزم الأمر أو إلى التعليم في كُتّاب ينشئه... ... أتصور أن كتّاباً أو أكثر وجد في كل قريةٍ أو دسكرةٍ في جبل عامل واستمرت الحال حتى مطلع القرن المنصرم... يقول مصطفى بزي: "إن الكتاتيب في بنت جبيل قديمة العهد وتعود إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأنها تعدّت الاثني عشر في مطلع القرن العشرين وأنها كانت فعلاً وواقعاً مزدهرةً أكثرَ من المدرسة الرسميةِ وفي أكثرها عشرات التلاميذ، وأن بعضها استأثر بعدد لا بأس به من البنات (كان في كُتّاب الشيخ علي شراره ما بين تسعين ومئة ولد بينهم حوالي عشرين فتاة)، ولم تعرف بنت جبيل مدرسة رسمية للبنات إلا سنة ١٩٣٨"[(١)] وفي الصفحة ٢٤٥ من كتابه تطور التعليم والثقافة في جبل عامل، منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين الذي أصدرته هيئة إنماء المنطقة الحدودية، يورد مصطفى بزي ما يلي:

"يذكر أن إدارة الانتداب في تلك الفترة (مطلع الأربعينات) كانت تُشجع بعض المدارس الرسمية، لكن ضد الكتاتيب فقد كان في بنت جبيل في ذلك الوقت سبعةُ كتاتيب، ثم ظهرت ثلاثةٌ أيضاً لكل من الشيخ محمد أسعد شرارة، الشيخ أحمد قاسم بزي والشيخ عبد الكريم سعيد بزي، وقد ضم كُلٌّ منها أكثر من ثلاثين تلميذاً ثم ضمّ الكُتّاب الثاني أكثر من ٧٠ تلميذاً بينهم أكثر من ٣٠ تلميذاً، والباقي تلميذات،.

ودار صراع في بنت جبيل بين المدرسة الرسمية والكتاتيب، فمُدير المدرسة الرسمية عزت الخطيب كان يُرافق الجندرمة في البلدة لإقفال الكتاتيب ومنع الشيوخ من التعليم، لفقدان الترخيص لها بالتدريس من جهة ولتعزيز المدرسة الرسمية من جهة أخرى. والحؤول دون إعطاء المبرر لوزارة المعارف بإقفالها، إذا كان عدد تلامذتها

---

(١) مصطفى بزي، بنت جبيل حاضرة جبل عامل، ص, ٦٧٧

قليلاً، وكان الجندرمة يأخذون التلامذة إلى المدرسة الرسمية بالقوة، كما كان بعض التلامذة يهربون من المدرسة بعد ذهاب الدرك ويعودون إلى الكتاتيب، وأحياناً كان الدرك يقفلون الكتاتيب فيلجأ أصحابها إلى الزعماء والمتنفذين للاتصال بالسلطة لإعادة فتح كتاتيبهم...

سنة ١٩٤٣ ونتيجة للضغوط القوية التي مُورست ضد المشايخ توقفت الكتاتيب عن التعليم، قرابة ست سنوات إلا أنها استأنفت عملها بعد تلك الفترة "

بنت جبيل بعد هجرتها وما طاولها من نهب وسلب وحرائق، أخذت تسترد أنفاسها، وسُمح لأهلها بالعودة من هجرتهم القسرية نتيجة نكبة عين إبل وصدور العفو عن وجهائها... راحت البلدة تستعيد حياتها ونشاطها العمراني والتجاري والاجتماعي والسياسي والثقافي وفي ذلك الوقت كان شاعرنا موسى زين شرارة في أول العقد الثالث من عمره... كان يثقف نفسه على المشايخ والفقهاء الذين كانوا يتندّرون بالشعر ويتناولون مختلف المواضيع التاريخية والادبية في حلقات أو جلسات تتسم بالاطلاع وسعة الثقافة... وكان بيت الشيخ علي شرارة المجتمع الأثير ففيه الشيخ الأب والمعلم وهو رجل دين وشاعر ومثقف وحوله أبناؤه محمد وحسين وجواد وعبد اللطيف وحلقة من المريدين من بنت جبيل وخارجها أمثال حسن فياض شرارة وموسى الزين شرارة والشيخ علي الزين وحسين مروة والحاج علي بيضون وعلي بزي وسواهم من الجيل الصاعد.

هذا البيت كان نادياً أدبياً، شدّ إليه الفئة المميزة من جيلها... جمع واستقطب شلة متنورة متحررة وطنية واضحة الأفكار، تنشد العلم للشباب والبنات وترفض التبعية والنفوذ الأجنبي والتسلط والاستغلال.

يقول موسى الزين في حديث أجراه معه عباس بيضون منشور في جريدة السفير تاريخ ١٩٨٤/٩/٢٨جواباً على سؤاله بمن تأثرت من أدباء العائلة وعلمائها؟: - تأثرت بالشيخ علي شرارة، والد المرحوم محمد وعبد اللطيف شرارة.

كان رحمه الله شاعراً وأديباً معمماً منفتحاً... يحكى أن الناس جاؤوا ليتقاضوا أمام السيد محسن الأمين حين زار بنت جبيل فقال لهم: اتتقاضون عندي وفيكم مثل الشيخ علي شرارة؟!... اذهبوا إليه، وأذكر من شعر الشيخ علي شرارة هذا البيت:

ما العلمُ حملُ عصاً منقشةٍ ولا كفٌّ أرَقَّ أديمَهـا التقبيلُ

هذا البيت يشهد بروحه المتحررة ونظرته الإصلاحية.(١)

كان في الشيخ علي شرارة صفةٌ عرفتُها في كثيرين غيره من علماء جبل عامل... احتياطُ هؤلاء وخشيتُهم من كلمة النقد خَشية عذراء من خَدْشِ عفافها... لذا طوى هؤلاء آراءهم في صدورهم واستنكفوا عن البَوْح بها إلا للقريب الأقرب، ولو كان للشيخ علي شرارة جرأةُ الشيخين سليمان ظاهر وأحمد رضا لضاهاهما في تجديدهما... لقد طمسَ الشيخَ علياً تحرُّزُه من الإدلاء برأيه واحتياطُه الشديد...

كان الشيخ علي شرارة المولود سنة ١٨٧٧ المعلم الأول في مدرسة بنت جبيل الرسمية، وقد تبين من ملفه الشخصي أنه: "ليس لديه شهادة رسمية لأنه تعلم في مدارس أهلية لا تُعطي شهادات عادةً وإنما كان يحمل شهادة علمية من المجلس العسكري في عكا، مؤرخة في ١٥ تموز ١٩١٠، وقد قدم فحصاً أجاب فيه عن جميع الأسئلة، وصار تنظيم مضبطة بذلك من قومسيون معارف صور في ٢١ تشرين الأول ١٩٢٠.

يذكر السيد مُحسن الأمين أن أبناء العائلة بعد الحرب العالمية الأولى دعته أن يلتزم وظيفة التدريس في مدارس الحكومة فربى أجيالاً من الناشئة مُدة عشرين سنة انتقل فيها إلى عدة بُلدان وكان أول ممارسته التعليم في مدرسة بنت جبيل.

... عُيِّن معلماً بموجب القرار ٢٩٤ تاريخ ٢٣ كانون الأول ,١٩٢٠.. مارس التعليم في بنت جبيل وكان المعلم الوحيد لجميع الصفوف، كان مُجتهداً على تلاميذه كما ذكر مُفتش المعارف في تقريره وكان سلوكه جيداً جداً وهندامه حسناً وعلاقته مع أهالي الطلاب والسلطة المحلية حسنة جداً.

---

(١) الأبيات أدناه تُوضح بشكل جلي نظرة الشيخ إلى العلم، ويورد فيها كلمات من اللهجة النجفية تدليلاً على أن بعض رجال الدين كانوا يستعملونها ليفاخروا بتحصيلهم ويُظهروا أنهم تخرجوا من النجف وربما ليخفوا جهلهم.

ما العلـــمُ تكوير العمـامـةِ لا ولا — حَنَكٌ بجـــانبِ كورهـــا مســـدولُ
ما العلـــم حمـلُ عصاً منقشةٍ ولا — كـــفٌ أرقُّ أديمهـــا التقبيـــلُ
ما العلمُ "هِتْشي" أو "شَعِنْدَكَ" أو"أكُو" — كلا ولا "شْمَـدْريـنـــي" رُحْـتَ تقولُ
العلـمُ أن تسمو بقومـِكَ للعـلـى — وبهم إلـــى النهج القويـــم تميـــلُ

الكُور: العمامة المكوَّرة... كارَ العمامة على رأسه أي لفّها.
الحَنَك:يعني بها القسم من العمامة الذي يُسدل تعبيراً عن حزن.
هتشي: هكذا
شَعِنْدَك: ماذا عندك.
أكُو: موجود
شْمَدْريني: ما يُدريني

في ٢٣ كانون الأول ١٩٢٣ نقل إلى مدرسة جويا وأُعيد إلى بنت جبيل في ١٨ تشرين الأول ١٩٢٤، ثم نقل مُجدداً إلى مدرسة معركة (قضاء صور) في ١٧ تموز ١٩٢٦، وأعيد إلى بنت جبيل سنة ١٩٣٠، وفي السنة اللاحقة نُقل إلى يارون بسبب قصيدة حثَّ فيها على العلم وحَمَّلَ الزُعماءَ مسؤوليةَ تردي الوضع التعليمي في المنطقة ومما ورد فيها:

بنت الجبيل وتبتغي علماً بها — اللـه!! هـذا أكـبـر الأشـيـاءِ

السوق فيه كفايةٌ لمعاشنا — وهو الملاذ لنا من الأسواءِ!!

خفّض عليك أخي فلا تيأس فما — ذا العصرُ عصرَ جهالة وعماءِ

العصرُ عصرُ العلم، عصرُ معارف — العصر عصر العلم والعلماءِ

الويلُ كل الويل من زعمائه — ....

"ثم صدر بحق الشيخ علي قرار يُدعى "قلع بند" بالقانون التركي القديم قضى بنقله تأديبياً إلى قرية الرفيد في البقاع الغربي (كان من تلامذته هُناك النائب المرحوم ناظم القادري)... وحتى سنة ١٩٣٥ كان لا يزال هناك، ونقل بعدها إلى الزرارية ثم أُقيل في السنة الدراسية ١٩٣٥-١٩٣٦."

"هذا الشيخ المعلم" الحسن الأخلاق، الطيب الذكر بين قومه، المُقتدر باللغة العربية والذي لم ينقطع عن وظيفته أبداً، ولم يأخذ مأذونيةً مُدة وجوده في الوظيفة والذي كانت تمنياته - حسب تقرير المفتش- ترميم مدرسة بنت جبيل، خاصة الحكومة وإصلاحها وإيجاد لوازم لها من مقاعد وخلافها وإيجاد معلمين آخرين لكثرة التلاميذ وترقية معاشه لكثرة عائلته -خمسة بنين وبنت واحدة في حينه - وعدم قيام راتبه بما يحتاج إليه.

الشيخ علي كان في مطلع العشرينات المعلم الأول لجيل تلك الفترة، جيل الرواد الذين انتقلت بنت جبيل بهم ومعهم إلى رحاب العلم والانفتاح الفكري والتفاعل مع الحركات السياسية والثقافية التي كان يمورُ بها الوطن، وتُطاول المنطقة بأسرها... وقد قُدِّر للشيخ المعلم أن يتحمل بصبرٍ وِزْرَ معاندته الهادئة والصلبة للسلطة، ويدفع ثمن مواقف أبنائه ورفاقهم من تلاميذه، وهي مواقف عنيفة، صريحة لا تعرف المُهادنة والمُساومة والتراجع... تحمل بصبر المؤمنين وجلَدهم -وهو على حافة الحاجة المادية - النقل التأديبي والإبعاد التعسفي والنفي الظالم، وكَظَمَ غيظه وحمل أوجاعه لكنه لم يَحْنِ هامته أو يُبدِّلْ قناعته.

صحيحٌ أن شخصية الشيخ علي شرارة شكّلت في حينه مَعيناً ثقافياً رفَدَ هذه المجموعة من الشباب المتنورين بالأفكار المُنفتحة وعلّمهم كيفَ يَنهلون من كُنوزِ المعرفة، ويواكبونَ حركة التطور، وصحيحٌ أنه وفّر لهم في بيته مجالات التلاقي والنقاش والاكتساب والتعلُّم، لكنَّ الصحيحَ أيضاً أن أبناء الشيخ علي شرارة، كان لهم الدورُ الكبير في احتضان هذه الشلّة من الرفاق وفي المساهمة في دفعها إلى المزيد من التحرُّر والانفتاح، لأنهم شكّلوا مدرسة قائمة بذاتها، شدّت إليها كثيراً من العُطاشى إلى نور المعرفة، واكتناه العلم وتحصيل الثقافة ومجاراة العصر، وكان هؤلاء الرِفاق مجموعةً مُميزةً راحت تتواصلُ وتتكاملُ في جوّها الحميم الأثير، كان في بيت الشيخ علي مُناخٌ فكريٌ مُريح بعيد عن التحجُّر والانغلاق لأنّ الشيخ لم يكنْ مُتزمتاً ولا ضيِّق الأُفق... كان في الوقت نفسه الأبَ والصديق والمُعلِّم، بيتُهُ صباحاً مدرسة الجيل، وعصراً مُلتقى العُلماء والأصدقاء والتلامذة يتحاورون ويتناقشون حول سماور الشاي أو في جلسات السمَر.... وكان في أيام العُطل مرجعاً شرعياً، وقاضياً يقصده الناس لحل خلافاتهم، يمحضونه الثقة والتقدير والاحترام، يُصالحهم عند الإمكان، ويحكم بينهم عند الاختلاف، فيخضعون وينفّذون، كما كان بيته منزلَ العلماء ومنتدى الفقهاء، أمثال: الشيخ علي مهدي شمس الدين، والشيخ موسى مغنية، و الشيخ محمد نجيب مروة... تبدأ جلستهم بطرح قضية فقهية، أو لغوية، أو أدبية، يجري تحليلها، ونقدها ونقاشها والحكم عليها، وكان باستمرار رأيُ الشيخ المعلم مرجحاً[1].

ومع الأيام بات واضحاً هذا الانفتاح الفكري بآفاقه الفسيحة وكيف قُدِّر للشيخ المعلم بأن يؤثر ويتأثر ويترك بصماته وبصمات أبنائه وتلاميذه والمنتدين واضحةً في الميادين التي عملوا فيها... كانوا شخصياتٍ واعدةً، أفراداً مميزين، أعطوا وأبدعوا في السياسة والأدب والصحافة والتاريخ والاجتماع وفي الدعوة إلى التحرر ومواكبة ركب التطور.

وكان الشيخ علي كما وصفه السيد مُحسن الأمين في أعيان الشيعة "من الفضلاء والمبرزين، حاضر البديهة، سريع الجواب، لا تغيب عنه نُكتة شهدته مجالس العلم والأدب والمنتديات التي يكثر فيها حديث الشعر والعلم، وتشتجر فيها العقول والقرائح، هادئاً مُتزناً ذا ذوق جميل".

(١) مقابلة مع الخال الأستاذ احمد شراره (ابن أخي الشيخ علي)، بتاريخ ٢٣ آذار ٢٠٠٢.

ما يُميز مدرسة بنت جبيل عن مدرسة النبطية أن ثلاثي النبطية كان أشخاصه قادةً سياسيين بالإضافة إلى فقههم وعلمهم وتبحرهم التاريخي، بينما شلّة بنت جبيل كانت هرماً سياسياً احتوى بقاعدته نهجاً عريضاً وحركةً أدبيةً استطاعت أن تكون نبض الشارع في بنت جبيل وعلى مساحة جبل عامل، وأن تتصدر النضال السياسي وتحمل المطالب الاجتماعية، وتُقارع نفوذ السُلطة وتزمُّت بعض رجال الدين، وأن تبقى طليعة العمل الوطني... كان سقفَ مطالب هذه المجموعة مُرتفعاً وكانت طموحاتَها عريضةً، كما كانت أهدافها مُحددةً واضحة المعالم والمسالك، بالإضافة إلى إلمامٍ وحذقٍ وبراعةٍ في التصويب إلى مكامن الخلل عند السُلطة وأتباعها.

ثلاثي النبطية مع أهمية دوره لم يُشكل تياراً نضالياً واسعاً تجاوز حدود بلده كتيار بنت جبيل، تيار بنت جبيل كان أصغر عمراً وأكثرَ تجدداً وأعنفَ نضالاً وأشرسَ تصدياً في مواجهة الانتداب والنفوذ السياسي والتزمت الديني، لا يُهادن ولا يُساوم ولا يتراجع... يقول موسى الزين: أذكر أن الشيخ عبد الكريم شرارة وهو شيخ ورع منفتح نهاني عن التطرف والمصارحة ودعاني إلى الاعتدال والاتزان والتحفظ، فقلت له من شعري...

أبداً على كفّي دمي فكأنّني — جانٍ طريدُ العدل أو سلاّبُ
لم يبقَ لي في الناسِ إلا قلةٌ — وهُمُ الكرامُ أحبّةٌ وصحابُ

كان لا بد من شجاعة للنضال.. سواء أكانت المعركة أكبر منا أم لا.

في هذا الجو الاستثنائي تكونت شخصياتهم، وتنورت أفكارهم، وتحررت نظراتهم... اتسعت آفاقهم، وتعمقت مداركهم، حتى غدوا عصبةً متجانسةً تَعِدُ بالكثير من العطاءات... إنها قيادات في طور الإعداد والتكامل..

تعالَ معي لنستعرض هذه (الشلّة) النادرة - مع بعض فارق السن - موسى الزين شرارة، حسن فياض شرارة، الشيخ علي الزين، محمد شرارة، حسين شرارة، عبد اللطيف شرارة، - حسين مروة ، علي بزي، الشيخ محسن شرارة، الحاج علي بيضون، اسماعيل عباس، أنيس إيراني، عبد الحسين عبد الله الخ...

بنت جبيل مع هؤلاء حاولت الانتفاض على ما أصابها من عنت بعد نكبة عين إبل؛ كانت تتجاوب وتلتقي مع مثلث النبطية الشيخ سليمان ظاهر والشيخ أحمد رضا ومحمد

جابر آل صفا ومع الشيخ أحمد عارف الزين والسيد محسن الأمين ومع كل الرافضين للانتداب والمقربين منه أو المحسوبين عليه.

في هذه الفترة كان موسى الزين شرارة - وقد أصبح شاباً- ينمّي ثقافته ويصقلُ موهبته... التي تعد وتنبئ أن شاعراً ملء برديه سوف يطل عما قريب...

كان في نهاره يزاول عملاً يعتاش منه.. أحبّه السيد عقيل الشامي شريك أبيه السابق في تجارة الحبوب وقريب أمه وأحد وجهاء عائلته وأقنعه ليعمل معه... فأرسله مع ابنه البكر عز الدين إلى دمشق ودرعا ثم إلى حيفا، ليعمل في تجارة الحبوب والجلود، وعقيل شامي كما نعلم هو الذي حضنه صغيراً وأنساه مرارة اليُتم ومحضه الحُب والحنان والرعاية وزوجه ابنته لاحقاً، كما كان من وجهاء بنت جبيل يغشى بيتَه العُلماء والأُدباء.

يا سيدي وسواكَ في دُنيا الورى - وعُلاكَ - مَا ناديْتُ يوماً سيدا
... واعْذرْ إذا استَسْلَمْتُ بعدَكَ للأسَى - رَغْمَ الإبَا- وجعلتُ حزنيَ سرمدا
ضاقت عليَ الأرض، ضاق فضاؤُها - أمسَى بوجهِي الكَوْنُ باباً موصدا
مَا كَانَ مَوْتُكَ موتَ فردٍ في الورَى - بل كَانَ سهماً للصلاَحِ مُسَدَّدا
كُنْتَ الوَفيَّ فما غدَرْتَ بِصاحبٍ - حاشاك - بل كُنْتَ الوَفَاء مُجسَّدا

أقام موسى الزين عدة سنوات في حيفا وكانت فلسطين يومئذ تمور بالأحداث والحركات الصدامية نتيجة وعد بلفور ومؤامرات الإنكليز بالتنسيق مع الصهاينة، كان موسى الزين يواكب هذه الأحداث ويراقبها عن كثب، ويرى إرهاصات التمرد والرفض، وطلائع الثورة القادمة.. كان يذهب إلى الجوامع ويسمع خطب الجُمَع ويشهد كيف يجتمع الغرباء ويتعاونون وكيف يتفرق العرب ويتخاصمون، يشهد كيف تباع الأرض وتسلب، وكيف يسوِّرُها الغرباء ويجعلون منها مستعمرات مقفلة. هذه التناقضات كانت تجري أحداثها أمام عينيه، وهي تنبئ وتؤكد أن الصدام الكبير قادم والمنطقة إلى عراك عنيف... هذه الفترة في فلسطين الحافلة بالمشاكل، هي التي كونَّتْ لديه وعياً عميقاً وقناعةً، وإيماناً لا يتزعزع بأن القضية العربية مستهدفة وأننا ما زلنا في أول الطريق وأننا لسنا على مستوى المسؤولية المطلوبة.

يقول: "ذهبت إلى فلسطين كتاجر وكانت هذه الرحلة مفيدةً لي بحيث إن فلسطين كانت تتمخض في أحداث، وقد حضر في هذه الأثناء الشيخ عز الدين القسام والشيخ كامل قصاب"(١) .

عاد من حيفا إلى بنت جبيل ليبدأ النضال، بالكلمة الواعية، والقصيدة الملتزمة... عرف جيداً هدفَهُ وحدَّدَ مكان التصويب... حمل عصاه عصا موسى، ليتصدى للانتداب وللسحرة، وتجار الهيكل، وبطانة السوء وقد صمم ألا يدعهم يرتاحون.. صمم أن يتفرغَ لهم ويخوضَ غمار المعارك التي لن تهدأ.. ها هو الغبار قد انكشف عن عراك أول الطريق... وهو سوف يؤذن بمعارك متصلة متتابعة لا تعرف نهايةً ولا التقاطَ أنفاس - واللافت أن موسى الزين - وكذلك رفاقه - لم يُرِدْ أن يخوض معاركه في نطاق بنت جبيل الداخلي، ولا أن يُقَوْقِعَ نفسَهُ ضمن إشكالات الداخل، فقد رأى بثاقب نظره أن بلدته جزءً من كلّ، ومعاناتَها لا تختلف عما يعانيه جبل عامل، وأن الانتداب والسلطة اساس البلاء وأن التخلف والتسلط والجهل والتبعية والفرقة مظاهر فساد ونتاج نظام يعمل على معالجتها عندما تحارب أسبابها... بهذا الوضوح بدت ملامح العراك، وبهذه القناعة السليمة تجنب موسى الزين الصدام المجاني مع زعامات بنت جبيل المحلية... كان يعي ويدرك حساسيات التركيبة العائلية في بلدته ويعلم أن الحاج محمد سعيد بزي ووجهاء البلدة هم فعلاً وواقعاً (عليةَ القوم) وأنهم محترمون ومقدَّرون في البلدة والجوار، وأن الحاج الكبير، وأخويه مرتبطون بشكل علاقات تحالف ومصاهرة مع آل الأسعد وآل العبد الله وآل التامر وآل الزين وآل صادق تلك العائلات الرفيعة الشأن، الارستقراطية النبيلة... موسى الزين ورفاقه وعلي بزي والحاج علي بيضون وعبد اللطيف بيضون كانوا بمنتهى الوعي، أصحاب نظرة نفّاذة، ارتفعوا بنضالهم وحركتهم في بنت جبيل عن المشاكل الصغيرة، وتجنبوا مزالقها.. وعرفوا كيف يبلغون أهدافهم... صوّبوا نحو رأس الأفعى. ورأوا أن النجاح في الوطن أو في جبل عامل ينعكس إيجاباً في بيئتهم ويؤمن زخم اندفاعهم المرجو. فبنت جبيل ليست هدفاً، وزعامتها ليست غاية... بنت جبيل هي حاضنة الانطلاقة والمكان الأمين للعمل العاقل.. والملاحظ أنه طيلة هذه الفترة الطويلة من النضال لم تنقسم بنت جبيل على نفسها، لم تتفتت عائلاتها، ولم تصطدم في شباك أو عراك بين الأهل والأخوة، رغم حدة الاختلاف في الولاء السياسي... كانت هذه الشلة الصاعدة تعرف "مقتلها" إذا

(١) راجع الصفحة الثانية من مسودة محاضرته (بين الملاحق).

انحدرت إلى هذا الخطأ وتعلم أن الساحة تتسع للجميع وأن صعود الوجوه الجديدة الرافضة الثائرة يسبغ على البلدة جواً نضالياً ولا يلغي في نفس الوقت زعامة ومكانة الحاج محمد سعيد بزي والوجهاء الآخرين... هذا التعايش فرضه الوعي، وفَهْمُ الحساسية الداخلية، والتصويبُ الصحيح من المعارضة الصاعدة، التصويب خارج البلدة على الهدف الصحيح: الانتداب وأمراض التخلف.

كان موسى الزين شرارة مثلاً عضواً في البلدية برئاسة الحاج محمد سعيد بزي، الذي كان يومئذ صاحب القرار الكبير في اختيار ابناء العائلات الأخرى، إلى جانبه - وكان بوسعه بكل راحة أن يختاررجلاً سواه أكبر سناً من آل شرارة لو لم يكن مقتنعاً ومقدراً لشخص موسى الزين وأنه ليس هناك ما يحول دون وجوده معه حتى لو كان هناك اختلاف في النظرة إلى الأمور السياسية.

والأمر اللافت أنه عند صعود زعامة ما، في بيئة معينة مع وجود زعامة أسبق لا بد من وقوع صدام أو مناوشات بين المتحزبين.. نظراً لحساسية العلاقات خاصة ضمن العائلة الواحدة لكن هذا الأمر لم يحدث في بنت جبيل مع صعود نجم المناضل علي بزي ووجود وتجذّر زعامة الحاج محمد سعيد بزي وسبب ذلك الشخصيةُ المميزةُ للحاج وسعةُ صدره وثاقبُ نظرته ووعيُ وتفهمُ وإدراكُ وبعدُ نظرِ الزعيم الصاعد علي بزي، لقد تعايش التياران في الساحة الواسعة، وأظهرا أن اختلاف الرأي لا يفسد العلاقات المتشابكة في البيئة الواحدة إذا ما توفر هذا النوعُ الفريدُ من الرجال... وأهالي بنت جبيل يعرفون أنه طيلة عشرات السنين من المعارك السياسة لم يصدرْ عن الزعامات المختلفة أي تجريح أو تهجم شخصي يتناولون فيه بعضهم البعض. كانت الشلّةُ الصاعدة موسى الزين وعلي بزي ورفاقهما دافئةَ اللسان، تتعالى عن صغائر التصرفات والتهجمات... وكان الحاج محمد سعيد كبيراً واعياً خلوقاً يعرف مكانته ويحترم الآخرين.

الأحزاب السياسية والجمعيات في بنت جبيل

بنت جبيل شأنها شأن حواضر وقرى جبل عامل كانت مسكونة بفكرة الوحدة العربية، وعاشت بسعادة مع هذا الحلم الذي ما لبث أن انطفأ مع سقوط دمشق ومؤامرات الحلفاء، وقد حاولت فرنسا أن تخنق أي تطلع خارج الحدود بعد أن أعلنت دولة لبنان الكبير في أول أيلول ١٩٢٠ والدستور في ١٩٢٦/٩/٢٣، وإذا كان جبل عامل جزءًا من الدولة الناشئة، فإن أهله مازالوا يتطلعون إلى الوحدة السورية، ويطالبون بالانضمام إليها - من هذه الزاوية كانت النظرة إلى الأحزاب الجديدة - مرتبطة ومترافقة مع التطلع الوحدوي الذي جعل الأحزاب التي تحمل هذا الشعار تتقدم على سواها.

في هذه الأجواء نشأ في بنت جبيل حزب التضامن الوطني سنة ١٩٢٨ بمبادرة من بعض المغتربين الذين عادوا من أميركا برئاسة عبد اللطيف الحاج سليمان بزي (عم علي بزي وصهر الحاج محمد سعيد بزي) وانتسب إليه أكثر من ٣٠٠ عضو... بدأ عبارة عن جمعية ثم تحولت هذه إلى حزب سياسي (تابع لحزب التضامن الوطني في بيروت) وكان له شعاره ونشيده:

باسم التضامنِ والوَطَنْ — تحيا أمانينا
مهما يفرّقُنَا الزّمَنْ — فالحُبُّ حامينَا
يا شرقُ سِرْ نحوَ العُلى — فالغرب قَدْ سارَا
فجرُ الحضارة قد أتَى — والدهر قد دارا[1]

وتأسس مثله أيضاً في البلدة في حي آل بيضون برئاسة المرحوم أمين بيضون - والمضحك المبكي كما يقول موسى الزين أنهما كانا حزباً واحداً ومبدأ واحداً لكن الخلافات العائلية جعلتهما حزبين مختلفين.

وكانت شعارات الحزب وحدة الوطن والمواطنين. المحبة والاتفاق. وقد قام هذا الحزب بإعلان البناء وتوسيع جامع آل جمعة بإشراف الشيخ حسين بزي ووضع شعار الحزب على مدخل الجامع وهو عبارة عن كفين متصافحين وفوقهما قبة[2].

---

(١) مُقابلة مع الدكتور اسماعيل عباس في ٢٠٠٢/٣/١٨

(٢) مصطفى بزي، ص ٥٦٨، بنت جبيل حاضرة جبل عامل.

لكن هذا الحزب لم يعمر طويلاً، وكانت تجربة ملأت فراغاً في تلك الفترة ودلّلت على انقسام عائلي كثيراً ما كان يختفي ويظهر في بنت جبيل.

حركة الشباب في بنت جبيل (حزب الوحدة السورية)

حاولت سلطات الانتداب منذ إعلان دولة لبنان الكبير أن تخلق في جبل عامل، تياراً مُلتزماً يتبنى ويعمل لفكرة الكيان اللبناني، ويتصدى بالتالي للتيار العروبي الذي يدعو للوحدة السورية ويعمل لها بالتنسيق مع المؤيدين في جميع مناطق الوطن... وسبق للجنوب أن كابد مع حملة (نيجر)، محنة أَفْقَرَتْهُ واستتبعت حرماناً من المنافع وإبعاداً عن الوظائف وسياسةً مُتعمدةً لإبقائه مُهملاً شأن كُلِّ الملحقات... وكانت بنت جبيل المثالَ الصارخَ لهذه السياسة، كما كان لانتفاضتها ضدَّ شركة الريجي وسقوط عددٍ من الشهداء دورٌ فاعل في امتداد لهيب هذا التحرك إلى صيدا وبيروت وطرابلس، الّتي وقفت ضد سياسة الانتداب وطالبت بالانضمام إلى سوريا، مدعومة من الكتلة الوطنية التي كانت بدورها تتبنى نفس الشعارات؛ وقد تمثل هذا التيار العروبي بحزب الوحدة السورية.

كان شباب بنت جبيل طليعةَ هذا الحزب وأكثَرهم نشاطاً، وقد لاقوا دعماً لافتاً من العُلماء أمثال السيد مُحسن الأمين، ومن مجموعة ناشطة من العامليين كانوا يدرسون في النجف الأشرف، بالإضافة إلى تيار مُتعاظم معهم وعلى رأسه رياض الصلح وعبد الحميد كرامي، حتى وصل الأمر بالمندوب السامي الكونت دي مارتيل أن استدعاهما مع الشيخ أحمد عارف الزين وعمر بيهم والدكتور عبد الله البيسار، وأعرب عن انزعاجه من مطالبتهم بالوحدة السورية، فما كان من الشيخ أحمد عارف الزين إلا أن قال له: إذا قرأت اللاروس الذي تُعلِّمون به أطفالنا، فسترى أنكم كتبتم أن لبنان هو جبل في سوريا... مما دعاه إلى إنهاء المُقابلة[1]... وكان علي بزي وموسى الزين شرارة والشيخ علي الزين وكاظم الصُلح وعادل عسيران وغيرهم من أبرز الشبان تحركاً ونشاطاً إلى جانب رياض الصلح والشيوخ أحمد عارف الزين وعبد الحميد كرامي وسليمان ظاهر وأحمد رضا وأمثالهم . ولشدة تأييد وطنيي بنت جبيل لهذه الشعارات فإن التحية كانت عبارة عن كلمتين هُما (حيِّ العرب) وكل من لا يُحيي بهذه التحية يُعتبر خارجاً عن الصف الوطني وعن أهداف الشبيبة وتطلعاتها ويُتّهم بالرجعية... كما كانت الاتصالات بين بعض أعضاء الكتلة الوطنية وشباب بنت جبيل لا تنقطع... كان

(١) شفيق الأرناؤوط محاضراً عن الشيخ أحمد عارف الزين، وجوه ثقافية من الجنوب، ص ٤٨، دار ابن خلدون شباط , ١٩٨١

كذلك علي بزي يزور دمشق وينسق مع زُعماء الحركة الوطنية هُناك... أكد ذلك عبد اللطيف بيضون (النائب الأسبق) وأشار إلى العلاقات الوثيقة التي كان تربط شباب بنت جبيل بزعماء الكتلة الوطنية في سوريا[١].

وإذا كانت الانتفاضة ضد الريجي تُشكل ظاهراً أحد وجوه الصراع الاقتصادي فإن الدافع الخلفي والرئيسي كان سياسياً بامتياز، وهو المُطالبة بالوحدة مع سوريا والتصدي لممارسات الانتداب.

تعرض حزب الوحدة السورية في بنت جبيل لكثير من الضغوطات والإغراءات، فما لانَ شبابُهُ، ولا استجابوا، وبقيَت الوحدة مع سوريا هاجسَهم باستمرار حتى عندما رأى زعماء الكتلة الوطنية تأجيلَ أمرِ الوحدة إلى وقت مُناسب، استمر شبيبةُ بنت جبيل على موقفهم.

وإذا استعرضنا أسماء المنضوين من هذا التيار من بنت جبيل نرى أنهم واقعاً وفعلاً كانوا الطليعة المُتنورة التي عملت على بعث ورعاية التيار العروبي، والخط الوطني؛ يكفي أن أُشير إلى كل من علي بزي وموسى الزين شرارة والحاج علي بيضون، وحسين علي شرارة، وعقيل شامي، والشيخ مُحسن شرارة ومحمد سليم بزي وحسن فياض شرارة وأنيس إيراني واسماعيل عباس... وكان اسماعيل عباس أول طبيب من بنت جبيل تخرج سنة ١٩٤٠ من الجامعة السورية[٢]. كما كان أنيس إيراني ثاني طبيب من بنت جبيل تخرج سنة ١٩٤١ وهو من أكثر الشباب حماسة واندفاعاً وكان رئيساً لطلاب جامعة دمشق[٣] ... وكذلك محمد جميل عبد الحميد بزي الطبيب الثالث من بنت جبيل وقد تخرج سنة ١٩٤٢.

---

(١) مصطفى بزي، بنت جبيل حاضرة جبل عامل، ص٥٧١-٥٧٢.

(٢) (مارس مهنة طب الأسنان في بنت جبيل بضع سنوات، ثم هاجر ١٩٤٦ إلى سيراليون حيث تابع لفترة ممارسة مهنته، وعمل في حقل التجارة، وكان من أبرز وجوه الجالية اللبنانية، وقد صرف الكثير من الجُهد للأعمال الخيرية - وهو الرجل الملتزم أخلاقياً ودينياً - وأنشأ مع أخيه الحاج موسى وبمساعدة الخيّرين المدارس والأبنية والملعب البلدي ووقفها على أعمال الخير ومساعدة المحتاجين، وبذلك عوّض على بلدته حرماناً طالما عانته، وكان المؤسس - والمنتدب شرعاً - للأوقاف في بنت جبيل التي تعجز عن إقامتها المؤسسات الكبيرة.

(٣) وكان خطيباً مفوهاً ذا مهابة ورنين، وقد التقاه الأستاذ عباس بيضون في الأردن وقال: كان أنيس ايراني الوحيد الباقي حياً من قادة انتفاضة بنت جبيل... وعندما التقيته كان حقاً ملء اسمه. عملاقاً لم تهدمه الثمانينات، صاحي العقل والذاكرة إلى حدٍ مُدهش، نزيهاً إلى درجة بعيدة، وأكثر من ذلك لا يزال متمرداً، رافضاً للتقاليد والسنين، معترضاً لا يُساوم على عقله ونظره. لا يزال عاصياً، لم يُسلّم للعُمر ولا للخوف... ربما هو نبتةٌ عاصية من أول امرها، وفي النهاية هو رجل غير موالٍ، لم يكن موالياً في سوريا ولبنان وكذلك كان في الأردن. مصطفى بزي، بنت جبيل حاضرة جبل عامل، ص١٣٩١

تجدر الإشارة إلى أن والد الدكتور أنيس كان إيرانياً جاء إلى بنت جبيل بعد أداء فريضة الحج وسكنها وتزوج منها ومارس مهنة (الطب العربي)، وقد علّم أبناءه - صبياناً وبنات - في مدارس القدس، كما كانت بنتاه مريم (امرأة العم حسن فياض شرارة - أبي تحسين) ومجدية تجيدان العربية والانكليزية وتعتبران الطليعة المبكرة في جيلهما وأولى النساء المتعلمات في بنت جبيل وجوارها.

وكان تخرج هؤلاء الأطباء يومئذ فتحاً وحدثاً وأمراً لافتاً... وكان الحاج علي بيضون -العضو الناشط في الحزب- (والد الدكتور ابراهيم) شاعراً وأديباً، وطنياً متحرراً مثالاً نادراً في الصدق والكرم والتضحية، دخل السجن فما ازداد إلا عناداً وخرج منه ليتابع دون هوادة نضاله وجهاده، وبقي طيلة حياته مدرسة في الخلق النبيل والاستقامة والوفاء والعطاء.

أما العم حسن فياض شرارة (أبو تحسين) صديق ورفيق موسى الزين فكان الشاعر المتنور، والمحدث اللبق، والأديب الفطن، ويظهر أن الوظيفة نأت به عن جو البلدة بعد أن ترك بنت جبيل (كان أول كاتب عدل فيها) وانتقل إلى صور وصيدا وبيروت، أما الشاب علي بزي، فقد انضم إلى هذه الشلة التي كانت تلتقي في بيت الشيخ علي شرارة زوج خالته، وقد كان باستمرار مع أبناء خالته نظراً لأنه فقد والدته وهو صغير السن وكانت خالته (أمه الثانية) حضنته مع أبنائها، أترابه ورفاقه... كان علي بزي طلعة نادرة الذكاء سريع البديهة، حاضر النكتة، قوي الشخصية، لمّاح الفكر، واسع الأفق.. كان أصغر هؤلاء عمراً، ورغم ذلك كان يماثلهم حضوراً ويأسرهم حديثاً ويلفتهم استيعاباً، يقول الشيخ علي الزين في قصيدته بنت جبيل مشيراً إلى ذلك:

بنت الجبيل قد استبد هواكِ ... بفؤاد مكلوم الحشاشة ذاكي
وهفت بجامحه هوًى وصبابةً ... شيمُ الوفا والعطف من أبناك
... موسى ببابكِ في المكارم والعلى ... وعصاه في سحر البيان عصاك
وعلي منكِ على حداثة سنه ... بمحلِّ قلبكِ أو محل نهاك
حذق السياسة في مجاجة قوله ... وعلى الفعال سذاجة النسّاك
وإذا تسنّم صهوة أو منبراً ... - وقد ادْلَهَمَّ الأمر - فابنُ جلاك
أو فاجأتْك من الزمان ملمة ... كان الأبرَّ سجية بفداك

كل هذه الشمائل والصفات بالإضافة إلى بعد النظر والعناد في الحق والوطنية الصلبة وصدق الضمير ونظافة الكف أهلت علي بزي لأن يكون أحد كِبار رجالات الوطن والعروبة، ويلعب الدور المهم في حياته السياسية طيلة نصف قرن، حافظ فيها بذكائه اللّماح وفكره الثاقب على موقعه المميز وحضوره اللافت وإطلالته المهيبة واسمه الكبير.

ومما هو جدير بالملاحظة في هذه الفترة أن التجديد راح يُطاول الأسماء، فقد درج الناس قديماً على إطلاق أسماء على أولادهم متأثرين بأسماء الأنبياء والصالحين، تبعاً للديانة التي يتبعونها أو إحياءً لأسماء آبائهم وأنسبائهم وأصدقائهم والمعجبين بهم، فجاءت مُعظم الأسماء تُدلل على عبودية المخلوق لخالقه كأن تُطلق كلمة "العبد" مقرونة بأحد أسماء الله الحُسنى، مثل عبد اللطيف، عبد الرحمن، عبد السميع، عبد الرحيم، الخ...

وقد وصل الأمر ببعض الناس - مدفوعين بعمق إيمانهم - أن يُعظّموا ويرفعوا ويقدّسوا نبيهم وأئمتهم، ويجعلوا أبناءهم بالتسمية "عبيداً لهم" كأن تسمع أسماء: عبد النبي، عبد الرسول، عبد علي، عبد الأمير، عبد الحسن، عبد الحسين، كما هي الحال عند الشيعة.

وهناك تسميات للأبناء تُطلق تبعاً لاسم حاكم أو مسؤول، أو صديق أو إعادةً وتجديداً لاسم فقيد عزيز، وهي من الحالات الشائعة في مجتمعاتنا... كما أن هُناك أسماء تُطلق على الأبناء تبعاً لانفتاح الأفكار، وتدليلاً على نبذ التعصب أو استلهاماً للتاريخ... لذلك لاحظنا انحساراً في الأسماء التقليدية التي درجنا عليها لمئات السنين لتحل محلها أسماء جديدة وقد ظهر ذلك جلياً منذ فترة الثلاثينات في بنت جبيل، حيث رُحت تسمع أسماءً لم تكنْ لها سابقةٌ في مجتمع جبل عامل، مثل: فيصل، غازي، رياض، تحسين، عدنان، غسان، إحسان، نزار، طريف، طارق، حميد، نصري، زياد، ساطع، وضّاح، مُنذر، خالد، غاندي، جهاد، كِفاح، نِضال... روز، سلوى، هيام، سناء، سامية، أحلام، جنان، عفاف الخ...

هذه الحركة الأدبية في بنت جبيل قامت بتأسيس مكتبة التهذيب، وهي أول محاولة لإنشاء مكتبة عامة... يومئذ كان الكتاب نفسه نادراً، وكان موجوداً لدى رجال الدين، وكان بمعظمه دينياً - أما كتاب الأدب بنثره وشعره فلم يكن بمتناول كل الناس... كان عند رجال الدين إلى جانب مكتبتهم... وكان عند بعض الناس رفاهاً أو شيئاً ثميناً... لم تكن يومئذ كتب العلم والتاريخ والجغرافيا والرواية والقصة ومختلف المواضيع شائعة بين الناس..

وقلة منهم كانت تجيد القراءة والكتابة لذلك كان الكتاب كنزاً أو ثروة يتداولُهُ الرفاق وهاجسُ ضياعه أو فقده يؤرّقُهم - من أجل ذلك كان أمراً مهماً أن يصار إلى إنشاء

مكتبة في بنت جبيل... يقول موسى الزين ما حرفيته: "دب الخلاف بين الشباب الجديد الذي يريد نشر العلم في المنطقة وبين المتنفذين الذين يرون بعبعاً في العلم، وقد ساعد هؤلاء وجود مستشار في الجنوب يدعى بتشكوف، وهذا الأخير كان يفرض على أبناء جبل عامل أن تقام أقواس النصر له وأن يلاقيَهُ أبناء الشعب بالخيول والطبول والزمور و(زلغطة) النساء... ذلك طبعاً بمساعدة المتنفذين، وصادف أنني وقفت مرة ضد هذا الاستقبال وكنت في ذلك الوقت عضواً في البلدية فأحضرني الدرك إلى السرايا وبعد حوار حار مع المستشار قدمت استقالتي من البلدية[1].

مكتبة التهذيب العاملية في بنت جبيل

المكتبات العامة هي إحدى مظاهر نشاط الدولة في حقل نشر الثقافة والعلم، والصورةُ المُضيئةُ لمحو الأمية، وقد تقوم بهذه المهمة إلى جانب الدولة مؤسساتٌ تعليميةٌ خاصةٌ أو دينيةٌ أو علمانيةٌ محاولةً أن ترفع مستوى الناس وتفتحَ أمامهم آفاق المعرفة والتحصيل، لغايات سياسية أو دينية أو خيرية... وغالباً ما ترتبط المكتبات العامة بحزب أو جمعية أو جامعة أو سفارة على خلاف ما هي عليه الحال في المكتبات الخاصة التي تبقى شخصية ومرتبطة بالضرورة بمقدرة صاحبها على اقتناء الكُتب - إذا توفرت - ودرجة تحصيله وطاقته المادية.

كانت المكتبات في جبل عامل مكتبات خاصة تقتصر بشكل عام على رجال الدين وتشتمل على الكُتب الدينية والفقهية واللغوية والأدبية والفلسفية ومختلف أنواع العلوم، وكان قسم كبير منها مخطوطات نظراً لأن الطباعة لم تكن قد انتشرت بيُسر وشمولية ومن هذه الزاوية مثَّل الكتابُ قيمةً ثمينةً عزيزةَ التداوُل، فقد كانت بينه وبين صاحبه علاقةٌ حميمةٌ تستلزم محافظةً عليه مُتناسبةً مع القيمة المادية التي يكتنزها بين دفتيه والقيمة الأدبية التي يمثلها عندما يكون مكتوباً بعناية وبخط جميل من قبل صاحبه أو أبيه أو جدّه أو أيٍ من السلف الفاضلين بحيث يتوارثه من الأبناء الأعلم فالأعلم.

وكان مجرد التفكير بإنشاء مكتبة عامة في ذلك الوقت حدثاً غيرَ عادي خاصة إذا كانت هذه الفكرةُ حُلمَ شبابٍ ناهضين تعوزُهم الإمكاناتُ المادية لتأمين المكان والتجهيزات والكُتب والمجلاتٍ والجرائد والجهاز البشري اللازم للانطلاق... بالإضافة إلى الأجواء التي لم تكن مُشجعة هذا إذا لم نقل مُعادية نظراً لأن هؤلاء الشباب لهم

(١) من محاضرة للشاعر ص٢، انظروا الوثائق المرفقة في الملاحق.

تطلعات مغايرة للأجواء السائدة وخلفياتٌ سياسية تتعارض مع القوى المهيمنة.

كان شباب بنت جبيل يدركون قبل انطلاقتهم أن محاولة مماثلة سابقة جرت قبل عام في النبطية رغم اختلاف الظروف والأشخاص، وأن وشاياتٍ وعراقيل واجهتها قبل أن تُرخص لها السُلُطاتُ بدعم من يوسف بك الزين وعلى مسؤوليته الشخصية.

أما مكتبة التهذيب العاملية في بنت جبيل فلم يتوفر لها يوسف بك آخرُ، ورغم ذلك انطلقت من غرفة قرب الساحة القديمة في حينه في بيت الحاج حسين علي بيضون، (بيت السيد عبد الرؤوف فضل الله حالياً)، وأمَّنَ الشباب لها بعض التجهيزات المتواضعة وجمعوا قدر استطاعتهم الكُتب من مكتبات بيوتهم وأصدقائهم ومشجعيهم في بنت جبيل وخارجها حيث لاقوا مشجعين ومتعاونين معهم[١]. وراسلوا مجلات ودور نشر وجرائد في الوطن وخارجه.

"كانت هذه المكتبة تحتوي على مجموعة مهمة من الكتب التاريخية والادبية والسياسية، وكانت ترد إليها أكثرية الصحف والمجلات اللبنانية والسورية ونشرات المهاجر التي كانت تصدر في تلك الفترة باللغة العربية، كمجلة السمير لإيليا أبي ماضي، كما كانت تصلها مجلات من مصر كمجلة أبولو، وقد تعرف مثقفو بنت جبيل على أبي القاسم الشابي من خلال هذه المجلة التي كانت تنشر له؛ كما كانت تصلها مجلة المكشوف لاسكندر الرياشي، ومجلة الحديث ومجلة العاصفة وغيرها من المجلات الأخرى بالإضافة إلى مجلة العرفان التي كانت تصلها بشكل مستمر...

وكانت المكتبة تُزود ببعض الجرائد اللبنانية والعربية كجريدة القبس (من دمشق) وجريدة العهد الجديد وجريدة الفجر الصادق النجفية وجريدة أبابيل"[٢].

وقد أشار الشيخ سليمان ظاهر أن بعض الشباب الناهض في بنت جبيل افتتح مكتبة للقراءة مجاناً وعلى حداثة عهدها جمعت طائفة من الكتب وهي في ازدهار مستمر تُمد إليها يد المساعدة من المؤلفين ومن أرباب الصحف الدورية والعربية.

وكانت هذه المكتبة تتلقى الدعم من عُصبة الأدب العاملي وخاصة من الشيخ علي الزين ومشايخ النبطية وشباب بنت جبيل المغتربين[٣].

---

(١) مقابلة مع الدكتور اسماعيل عباس بتاريخ ٢٠٠٢/٣/١٨.

(٢) تطور التعليم والثقافة في جبل عامل، ص ٣٤٧-٣٤٨، د. مصطفى بزي.

(٣) نفس المرجع السابق.

كان يدير هذه المكتبة ويعمل على تنظيمها حسين الشيخ علي شرارة ويساعده أنيس إيراني واسماعيل عباس والحاج علي بيضون بالإضافة إلى العديد من رفاقهم ولها سجل مُرقم بالمحتويات وسجل بأسماء المستعيرين... مما أهلها أن تلعب دوراً رائداً في ميدان المطالعة والتثقيف... لكن أحد أبناء الحاج محمد سعيد بزي قام باعتداء طائش غير مسؤول على مدير المكتبة، (حسين شرارة) - وكان ذلك تصرفاً فردياً دون علم والده الذي غضب واستنكر وأدان هذا العمل[1] - مما خلق جواً مشحوناً متوتراً تبعه تحطيم (آرمة) المكتبة ونتج عنه ردات فعل ومضايقات أدت بالنتيجة إلى إقفال المكتبة، وطي صفحة تجربة رائدة لم تعمِّرْ طويلاً وخلَّفَتْ في النفوس أسىً وإحباطاً

وقد امتدح في حينه الشيخ عبد الحسين جواد هذه التجربة قائلاً:

يا أُباةَ الضيم كلٌّ منكمُ	قد غدا للعز والعليا نصيرْ
حيثُ قد أسَّسْتُمُ مكتبةً	ملأت قلبَ المعالي بالسرورْ
إن فيها كُتُباً قيّمةً	فكرة الشبان منها تستنيرْ
جَمَعَتْ من كلِّ فنٍ نافعٍ	لتُرقّي ذلك الشعب الحقيرْ!!
نِعْمَ ما جاءت به أفكارُكم	فلعمري إنه رأيٌ خطيرْ
حبذا أهلُ الإبا من نهضةٍ	قام في أعبائها منكُم (أمير)
وكذا ربُّ المعالي (حسنٌ)(*)	و(حسينٌ)(**) قد غدا نعم المدير
و(عليٌّ)(***) الشأن ذو العز ومَنْ	خلفَهُ الطلاّبُ للعلم تسيرْ
في نوادي الشعب هبت نسمة	بعثت نفحتُها مَنْ في القبورْ
حبذا من فتيةٍ قد نهضوا	لترقي الشعب كالليث الهصورْ
شمّروا عن ساعد الجدِّ وقد	تَخِذوا الإقدام والصبر نصيرْ
وسرَوْا كي يرتقوا أوج العلى	ليس يُثْنيهمْ خمولٌ وفتورْ
.... فإلى العزِّ إلى العزِّ ولا	تخنعوا للذل في طرفٍ كسيرْ[2]

(١) مُقابلة مع الدكتور اسماعيل عباس ٢٠٠٢/٣/١٨.
(*) هو حسن فياض شرارة
(**) حسين علي شرارة.
(***) علي بزي.
(٢) نفس المرجع السابق.

كيف بدأ موسى الزين كتابة الشعر

يقول شاعرنا في محاضرته المشار إليها سابقاً: بعد المدرسة كان على من يحب الثقافة أن يتابع تحصيله بنفسه وأن يقصد مجالس رجال الدين حيث كان هؤلاء يتندرون بالشعر ويحفظونه ويرددونه، ويعنون بالأخبار ويمتحن بعضهم البعض الآخر بقواعد اللغة ويتراسلون بالأشعار، وقد جذبتني هذه المجالس إليها خصوصاً مجلس المرحوم الشيخ علي شرارة العالم والأديب والشاعر الذي كان يرعى نشأتي الأدبية وألقى لديه كل تشجيع.

وأذكر أن أول محاولة شعرية لي قد نظمتها في الرابعةَ عشرةَ من عمري (١٩١٦) وهي من نوع الزجل:

قلت:

يا ابنَ عاملْ يا رفيقي ... طولّت بهالنومي كْتيرْ
نشّفت قلبي وريقي ... إنت وتقلّي بكّيرْ
إنت وتقلّي إسْتنّى ... لا بد من يقظا
الفرصة رح تفلت منا ... والعمر بكرة بيمضى!!

كما أذكر أني كتبتها بقلم رصاص على خزانة خشبية كانت عندنا بالبيت، وقد نُهبَتْ مع ما نهب سنة ١٩٢٠ وقد استهوتني العتابا والأغاني الشعبية، مثل دلعونا وأبو الزلف وغيرها وقد كانت أول قصيدة لي سنة ١٩٢٨ نشرتُها في مجلة العرفان وكان عنوانها العلم:

العلمُ نورٌ يُهتدى بسنائهِ ... لولاه تاه الكونُ في ظلمائهِ
فهو الذي اكتشفَ الحقيقةَ للورى ... وأماطَ غامضَ سرِّها بجلائهِ
وهو الذي شحَنَ البحور بواخراً ... وعلاَ الرياحَ فقادها كإمائهِ
ما اهتزَّ سلكُ الكهرباء برعشةٍ ... إلا بروعةِ عزّه وبهائهِ
هو أسُّ كلِّ فضيلةٍ أوَمَا ترَى ... كيف اصطفى العظماءَ من أبنائه؟
عجباً أرى أنوارَهُ قد أشرقتْ ... وهدى الأنامَ جميعَهُمْ بضيائهِ
وأهاب فيهمْ داعياً فتنبهوا ... ومشَوْا لذودِ الجهل تحت لوائه

إلا بـنـي وطـنـي إذا أغــشــاهُـمُ ... فـي نـورهِ وثـبـوا إلـى إطـفـائـه!!
والـمـطـفـئـون لـه هُـمُ كـبـراؤنـا ... يا ويحَ هذا الشعب من كبـرائِـه
مـنـعـوه مـن وِرْدِ الـعـلـوم مـخـافـةً ... أن يَهْـتـدي للقصد بعد عـمـائـه
شُـبّـانـنـا الـبـسـلاءُ هـل مـن وثـبـة ... تـسـمـو بـمـوطـنـكم إلـى عليـائـه؟
وتـعـيـدُ مـاضـي عـزِّهِ وفـخـارهِ ... وتَـقـيـلُـهُ مـن بؤسـه وشـقـائـهِ
فإذا الشبابُ تقاعسَتْ عن نصرهِ ... فـمـن الذي يُرجى إلـى إحيائـه؟!
أتراه يرجـو الخيـر من زعـمـائـه ... والـشـرُّ كلُّ الـشـر فـي زعـمـائـه!
هـمْ أسلموهُ إلـى المذلةِ والشـقـا ... هـمْ عـيـنُ علّـتـهِ ورأسُ بـلائـهِ
وإذا الـشـبـيـبـة لـم تـحـطِّـمْ غـلَّـهُ ... هـذا ولـم تُـنْـقِـذْهُ مـن بـلـوائـهِ
أرأيـتَ أسـوأَ حـالـةٍ مـن مـوطـن ... أبـنـاؤه والـدهـرُ مـن أعـدائـه؟!!
والـعـلـمُ فـيـه مُـكـافَـحٌ ومُـطـارَدٌ ... - كالفقر أو كالداء - منْ زعمائه!!
هُـمْ أوصـدوا باب العلوم بوجهِـهِ ... ليظلَّ يخبطُ في ظلامِ عمائهِ...

يقول الشاعر:

"وبمقدار ما كان سروري عظيماً لنشر العرفان القصيدة التي رأيت بها اسمي لأولِ مرّةٍ في مجلة، غضبَ وجهاءُ بلدي الذين تداعوا فيما بينهم إلى اجتماع في النادي الحسيني لكي ينظروا في أمري بعد أن اعتبروا قصيدتي نوعاً من "الحكي على الأوادم"، الأمر الذي لا يجوز أن يمرّ بدون سؤال وجواب"(١).

إذاً يبدو أن المشوار الطويل لموسى الزين قد بدأ ، ها هو قد أصدر البيان رقم واحد وأعلن فيه بدء المعركة،... إنه لم يعلنْها محلية في بنت جبيل فلماذا كان لها هذا الصدى البلدي؟ وإذا كان قد تناول "الكبار" فإنما كان يعني الزعماء القابضين على زمام الأمور في كل أرجاء الوطن، الذين اتبعوا سياسة التجهيل ومنعوا الشباب من التعلّم وقيّدوه بأغلال الجهل بدل أن يأخذوا بيده إلى آفاق المعرفة ونور العلم ويعيدوا المجد التليد، هذه مظاهر العلم والتقدم تبدو واضحة للعيان في البر البحر والجو، حيث استطاع الإنسان أن يسبر الأغوار ويختصر المسافات ويرود الأجواء... نحن بحاجة إلى

(١) من دفتر الذكريات الجنوبية، محاضرة للشاعر، منشورات المجلس الثقافي، لبنان الجنوبي، ص٦٧.

هذا النور لنهتدي بسنائه وإلى مسؤولين وزعماء يأخذون هذا الشعب إلى معارج التقدم والرقي بدل أن يسلموه إلى ظلام الجهل والمذلة والشقاء ويكونوا سببَ تخلّفه وأساسَ بلائه...

وهكذا فموسى الزين لم يحصرْ معركته في بنت جبيل، ولم يقوقعْ نفسه في زواريبها وشوارعها ولم يتهجمْ على أوادمها، لقد وسّع دائرة الصراع وخرج إلى الساحة الكبيرة وتناول المتزعمين الكبار على مساحة الوطن، لأنه يعرف تماماً أين يصوِّب، وأيَّ غاية يقصد وأيَّ مشكلة يتصدى لها وسوف تثبت الوقائع اللاحقة المنحى والنهج اللذين تبعهما في مشواره الطويل.

البيان رقم ٢ كان قصيدة ثانية ضد الزعماء المتسلطين على الشعب، فيها عنف قاس غير معهود وتصعيدٌ ثوريٌّ صداميٌّ، وإيمانٌ لا يتزعزع لأنه قَدَرُهم المحتوم وأنه مُرْسَلٌ لإيقاظ الناس وتحريرهم كما كان موسى بتوراته وعصاه محرِّرَ شعبه من طغيان الفراعنة:

كونوا فراعنةً شداداً واحكموا ... وتحكّموا وتسلَّطوا كطغاة
لن تخنقوا صوتاً صريحاً ثائراً ... موسى أنا وقصائدي توارتي!
والثائرون على التخلف والشقا ... وزنودُ أهلي الكادحين عصاتي
ومدامعُ الأيتام في جوف الدجى ... والأمهاتُ الخائفاتُ دواتي
أنا مرسَلٌ: إيقاظُ أهلي بعثُهم ... تحريرُهم إنقاذُهم آياتي
وقفٌ عليهمْ أو على إيقاظهمْ ... شعري، وما مَلَكَتْ يدي وحياتي
سأظلُّ أصرُخُ ما حييتُ بسمعهمْ ... حتى تفتِّقَ سمعَهم صرْخاتي
وأمزِّقَ الجلباب عن إجرامكمْ ... وأزيحَ سُحْبَ الوهمِ والغيْماتِ

هذا النَفَس التصعيدي العنيف لا يعرفه إلا الثوار الصادقون الذين لا يهادنون ولا يتراجعون ومراعاة النظير بين النبي وتوراته وعصاه وبينه وبين قصائده وزنود أهله تضفي وضوحاً على الصورتيْن... هو صاحب رسالة للبعث والتحرير والإنقاذ لأنه من أجل ذلك يصرخ ويرفع باستمرار وتيرة هذا الصراخ، لتستفيق الناس وتسقطَ ورقةُ التوت وتتوارى سحب الوهم.. ألم ترتعد عروش الحكام يوماً بصوت شاعر ثائر، كالجواهري:

...يتبجّحونَ بأنَّ موجاً طاغياً سدُّوا عليه منافذاً ومساربا
كذبوا... فملءَ فمِ الزمان قصائدي أبداً تجوبُ مشارقاً ومغاربا
تستلّ من أظفارهمْ وتحطُّ من أقـ ـدارهِمْ وتَثُلُّ مجداً كاذبا
أنا حتْفُهُمْ!! ألجُ البيوتَ عليهمُ أُغري الوليدَ بشتْمِهِمْ والحاجبا(١)

يقول موسى الزين... هكذا وجدت نفسي في معركة مستمرة ومتواصلة باتجاهين الأول الدعوة إلى العلم والتنوير كوسيلة للنهوض والتقدم، والثانية لمحاربة القوى الاجتماعية والدينية الرجعية التي كانت ترى العلم كفراً وزندقة... وقد قادني المشوار الطويل على هذا الطريق إلى مجابهات عديدة كان أبرزها مع بعض رجال الدين الذين حكموا بكفري وسفك دمي بعد قصيدة بعنوان "لا تذكر الشرق". يقول إن هذه المعركة كانت مع بعض رجال الدين ولإيضاح ذلك نشير إلى أن تياراً أدبياً عاملياً في النجف الأشرف كان قد تَكوّنَ هناك حاملاً لواء التجديد في التدريس وفي الأدب وفي بعض النظرات إلى الحياة وكان أبرز أعضائه المرحوم الشيخ محسن شرارة الشيخ علي الزين، الشيخ حسين مروة، الشيخ محمد جواد مغنية السيد هاشم الأمين، الأستاذ محمد شرارة، الشيخ عبد الكريم مغنية، والسيد جعفر الأمين. وقد دعم هذه النهضة الشيخ أحمد عارف الزين بشخصه وعرفانه والشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر وسواهم، يقول الشاعر موسى الزين في قصيدته سنة ١٩٣٣:

لا تذكرِ الشرقَ لا تفخرْ بدولتهِ ما الشرقُ إلا خيالٌ في حقيقتهِ!!
لم يَكْفِهِ أنه ذو مَنْظَرٍ بهجٍ وأنَّ رُسْلَ الورَى ووروا بتربتهِ
أيُقْنِع الغربَ هذا بعدما وطِئت أقدامُهُ عُنْوةً من فوق هامتهِ
ففيمَ تفخُرُ إن رُمنَا مفاخرةً أفي معامله، أم في صناعتهِ؟!!
الشرق نضوٌ نيوب الداء تنهشُهُ ورأسُهُ من قديمٍ أُسُّ علتهِ
داءُ التعصّب قدماً كانَ آفتَهُ ولم يزلْ عثرةً في درب نهضتهِ
فكيف يبرأ هذا الشرق من سَقَمٍ ومُدْيَةُ الدينِ تفري في حشاشته؟!!...
الشيخ حول للتفريق جامِعَهُ والقسُّ يبذر حقداً في كنيستهِ

(١) من قصيدة في حفلة تكريم الدكتور هاشم الوتري عميد كلية الطب في بغداد.

لقد كفاكُم تغنٍ في أوائلكم ... كَأَقْرَعٍ فخرُهُ في شَعْرِ خالتهِ!!!
وكيف يطمحُ أن يقوى وقادتُهُ ... كمخلبٍ للعدى في جسم وحدته!
وكلُّ حكامه صوتٌ لسيده ... عبدٌ لراتبه، عبدٌ لرتبتهِ
جميعُهُم رغم أحسابٍ يتيهُ بها ... لجدِّهِ وأبيهِ أو لأسرتهِ
يبيع بالمال - إمّا لاحُ - موطنَهُ ... وكلَّ أمجادِ أهليه وأمتهِ
أين الطبيبُ الذي فينا يعالجه ... بمبضع العقل لا في دمع مقلته؟!
خلّوا البكاء على الأطلال واتّحدوا ... وجرّدوا العضب وامشوا في قضيته
لو كان يجدي بكا الباكينَ منفعةً ... ما كان للآن ميْتٌ وسط حفرته!!!
نستعطف الغرب إشفاقاً بحالتنا ... أيرفق الذئب يوماً في فريسته؟!
خلّوا الصلاح وهارونا وشأنهما ... دعوهما يرتعا كُلٌّ بجنته
شعبٌ يلوذ بأجداثٍ لتنصُرَهُ ... خيرٌ لهُ الدفْنُ حياً من معيشتهِ!!

فاعتُبِرَتْ بعض الأبيات كفراً وارتداداً عند البعض في جبل عامل واستوجبت في نظرهم هدر دم الشاعر للارتداد و"الكفر"[1] ، وأرسلت القصيدة إلى النجف الأشرف فخالفوا هذا الرأي ورأى المرجع الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء أنها ليست كذلك وكتب بخط يده: سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم، الدين عند الله أجلُّ وأسمى من أن يزول بهذه الأقوال الشعرية والخيالات الوهمية، وقال الإمام السيد أبو الحسن "لا أرى في هذا الشعر ما يُشْعِرُ بالكفر والارتداد" وقال العلامة الشيخ حسين مغنية الشاعر مؤمن بذات القصيدة لقوله:

خلّوا الصلاح وهاروناً وشأنهما ... دعوهما يرتعا كلٌّ بجنَّتهِ

أما العلامة السيد محسن الأمين الذي كان رائداً من رواد الإصلاح فقد قال بعد اطلاعه على الفتوى: "إني أرى الأفضل للذين يطلبون العلم ويكبّرون العمائم ليكفروا عباد الله أن يرقعوا المداس".

(١) بينكم شاعرٌ يتمتع بشاعرية جذابة وقلم لاذع... ولكنه يمزجُ السُم بالدسم... إنه خطرٌ عليكم... خطرٌ على أبنائكُم... خطرٌ على دينكم... قلّموا أظافرهُ... قبل أن تَطول... ألا مَنْ يَتَقَرَّبُ إلى الله بسفكِ دمَه!! (رويت عن أحد رجال الدين الكبار وتناقلها الناس شفوياً).

هذه التفاعلات في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية وسّعت دائرة الاختلاف، وساحة الخصومات فقد دخل النفوذ الديني المحافظ جنباً إلى جنب مع النفوذ السياسي الملتزم جانب السلطة... وجبل عامل يتميز عن سواه من الأصقاع أن المناسبات الدينية والاجتماعية والسياسية هي مناسبات تكاد تكون يوميّة...كل أسبوع يحتفل أناس أو بلدة أو فئة بذكرى عزيز أو عالم، أو وجيه، وفي الجوامع أو الحسينيات يقف الشعراء والأدباء والزجّالون ورجال الدين على المنابر يشاركون ويؤبنّون، وجبل عامل في مناسبات كهذه يشكل مجتمعاً واحداً وبيئة موحدة، من الأولي حتى حدود فلسطين - هذه المنابر شكّلت أدبيات المواسم والجرائد السيّارة والإذاعة المنتقلة... كان الناس ينتظرونها، يصغون إليها، يرددون ما أعجبهم وما علق بأذهانهم، يحفظونها وينشرونها ويتبادلونها ويروونها إذا لاقت هوىً في نفوسهم - وما زالت هذه المناسبات سمة جبل عامل وطريقاً متّبعاً في تكريم الراحلين؛ والأدب العاملي هو الأكثر غنى بين المناطق في هذا النوع الأدبي الشامل الذي كان له الفضل في حفظ التراث.

من هذا المنطلق نرى أن معركة تكفير موسى الزين .. أخذت حجماً أكبر من حجمها، فقد فتحت معركة بين تيارين، كما فتحت معركتُه السياسية عراكاً بين مدرستين سياسيتين، وتطورت المعركة واتسع نطاقها بين طلاب العلم في جبل عامل وصولاً إلى النجف. ففي هذه الفترة تأسست "عصبة الأدب العاملي" التي أشرنا إليها والتي ابتدأت حركة ثقافية إصلاحية داخل المدرسة الدينية ثم انعكست آثارها على الحياة السياسية في جبل عامل وعمّقت جذورها بدخولها ميدان التصدي للإنتداب والظلم الاجتماعي، وظلت مجلة العرفان - كما ظلَّ صاحبها الشيخ أحمد عارف الزين - منبراً لكل تجديد وتحرر ونشر موسى الزين فيها قصيدة يرد على التكفير:

قالوا: كفرتَ. فقلت: في أفعالكمْ	وسخِرْتُ من تضليل كلِّ مدجِّلِ
يُغري الأنامَ بعمَّةٍ نُسجت على	نَوْلِ الرّياء لصيد كلِّ مغفَّلِ
كَبُرَتْ قماشاً إنما صَغُرَتْ حجىً	فَبَدَتْ كبرجٍ فوقَ حبّةِ خردلِ
لا يَخْدَعَنَّكَ ما تراهُ تقشّفاً	منهمْ فهذي حرفة المتسول!!...
لو زُرْتَهُمْ لرأيتَ في أبياتهم	بَذْخَ الرشيد وعزَّة المتوكلِ
حملوا المسابح في أكفٍ طالما	وَقَفَتْ سلاحاً للقوي المبطلِ

قسماً بقدس ترابها لو أُنْطِقَت | لتألَّمَتْ من لمس تلك الأنمل
قد كنتُ أخشع إن رأيتُ عمامة | كخشوعِ راهبةٍ أمامَ الهيكلِ
والآن إن لاحت أفرّ أمامها | ذعراً فرار طريدة من أجدلِ

من الجدير بالملاحظة أن موسى الزين شرارة في معاركه مع أصحاب النفوذ السياسي أو الديني هو دائماً الشاعر الثائر العنيف الذي لا يهادن، هو حامل الرسالة التي تقضي بفتح العيون المغمضة المتعطشة لنور العلم، وفتح العقول المقفلة المتحجرة ومدّها بالمعرفة وبرهان الحقيقة ونقلها من ظلام الجهل إلى معارج الوعي، وتحريرها من عقدة الاستعباد لفوقيّة الزعيم... هذا الشاعر يدعو إلى التمسك بأخلاق الدين والاستقامة وعمل الخير ومساعدة الفقير والمحتاج وتجنب الرذائل ويحذّر ممّن يستغلون الدين ولا يتورعون عن ارتكاب المحرمات ويعتقدون أنهم المنزهون المعصومون... موسى الزين حذر من بعض رجال الدين ولم يعمم موقفه على الباقين الذين كان يقدّر ويحترم ويجلّ

عجباً لشيخي ما تحدَّثَ واعظاً | إلا استهلَّ بذمِّ كلِّ حريصِ
وتراه ذا نعمٍ ويشكو فَقْرَهُ | متململاً كتململ "المَمْغوصِ"
فلذا تراني إن رأيت معمَّماً | أحكمتُ خوفاً منه زرّ قميصي!!!...
أهلَ العمائم لا تلوموا شاعراً | منكمْ يعاني لوعَةَ المقروصِ
عفواً إذا ما ثُرْتُ أو أغضبتُكُمْ | بالشرحِ مما قلتُ والتمحيصِ
لا يحْسَبَنَّ الحرُّ منكمْ أنني | أعنيه حاشا...!! فالكلامُ خصوصي
أنا عقربٌ أما إذا أصلَحْتُمُ | وصلَحْتُمْ استَغْنَيْتُ عن عَقّوصي!!

وعندما نشرت مجلة العرفان هذه الأبيات وردتها رسالة من أحد القُراء يستنكر فيها أن تَنْشُر هذا الكلام في ذم أهل العمائم ورجال الدين، فأجابه الشيخ أحمد عارف الزين: "الكلام خاص وإن أوهم أنه عام، وعلى كُلٍ فاللعنة تعرف صاحبها"(١).

أتصدق أن هذا الشاعر المتمرد الثائر هو ابن عائلة دينية وبيئة متدينة!؟ هو مؤمن

(١) السفير تاريخ ٢٨/٩/٨٢، مقابلة أجراها عباس بيضون مع الشاعر.

في أعماقه يفهم الدين بوعي وإدراك، ويميّز بين العالم التقي الورع الزاهد وبين مَنْ لا يرى فيه هذه الصفات... ذلك الرجل الذي لا يتورع عن أكل مال اليتيم، ويعمد إلى إخفاء معالم جريمته، فيتسوّك ليُزيل أيَّ أثرٍ للطعام عن أسنانه:

قالوا رأينا الشيخَ يحملُ عودةً — وبها يمصُّ على الدوامِ ويعلكُ
لا سُكّرٌ فيها ولا عسلٌ إذاً — ما باله في حملِهَا مُتَلَبِّكُ؟!!
هذي سِواكٌ ما اقتناها عابثاً — شيخٌ عريقٌ في الخداعِ مُحنَّكُ
أكَلَ اليتيم وخَشيَةً من أن يُرَى — أثرٌ على أسنانِهِ يتسوَّكُ!!

المعركة بين الشاعر وبعض رجال الدين كانت تعنف وترخي بظلالها وأبعادها على الساحة العاملية، ويبدو أن انتصار الشاعر فيها وإسقاط فتوى التكفير زادت في اندفاع موسى الزين وتتابُع مُسلسل الصور الهزلية المُضحكة التي حاصرهم ضمن أُطُرِهَا ابتداءً من أعشاش الشياطين في ثقوب حبات المسابح أو إحكام أزرار القميص خشية السرقة، مروراً بأكل مال اليتيم واستعمال المسواك لإخفاء الأثر عن الأسنان، أو إطلاق العنان للساقين والهرب إذا ما لاحت عمامة من بعيد، تماماً كما تفر الطريدة من الصيّاد، أو انتهاءً باعتماد قياس بتكبير يتعدى مألوف العمائم، - لا فرق فيها بين الأبيض والأخضر -، والتي ينوء تحتها جسد صغير وعقل محدود لتبدو كبرجٍ فوق حبة خردل.

أمُكبِراً حجمَ العمامةِ لا تَخَلْ — أنَ العمامَةَ لم تَزَلْ تُغْرِيني!!
سِمَنُ العمامَةِ غيرُ مُجدٍ إن يكُنْ — قلبُ الفتى بالدين غيرَ سمينِ
إن كانَ في كِبَرِ العمامةِ دينُنَا — فلْنَسْجُدَنَّ لعِزَةِ (اليقطينِ)!!!
الدينُ صومٌ أو أداءُ فريضةٍ — للّهِ أو لسواهُ لا يعنيني
الدينُ - كُلُّ الدينِ -لا أوذيكَ في — سِرّي ولا تؤذيني
عُدْ للهُدى أو عُدْ لدينِكَ مُخلصاً — إن شِئْتَ - منك بموطني - تُدنيني
ما بالشتائمِ والعداوةِ والعَصَا — للحُبِّ أو لطريقِهِ تَهْديني
دينٌ يُفَرِّقُنا ويبذُرُ بيننا الـ — شحناءَ والبغضاءَ ما هو ديني!!!...

الدين بنظر الشاعر هو المعاملة الحسنة وعدم إيذاء الناس، هو إغاثة الملهوف، ومساعدة الفقير، وإعانة المُحتاج، والثورة على الظُلم، وعدم السُكوت على الفاسدين... يُهِمُّهُ منه الوجه الاجتماعي، أما الشخصي فيه فيبقى علاقةً خاصةً بين الإنسان وربه كالصوم والصلاة والفرائض تنحصر نتائجها به وحده.

حُـمـاةَ الـديـن إن الـديـن عـدلٌ — يُـعـادِي كُـلَّ طـاغـيـةٍ وجـائـرْ

عـلامَ يَـثُـورُ ثـائِـرُكُـمْ إذا مَـا — عـلـى الـطُـغْـيـان مـنّـا ثـار ثـائـرْ؟!

لَـقَـدْ حَـسِـبَ الـسـوادُ وقـد رآكُـم — لأهـلِ الـجَـوْرِ داعـيـةً ونـاصِـرْ

بـأن ولاء أهـلِ الـجـورِ ديـنٌ — وأنّ قـتـالَـهُـمْ إحـدَى الـكَـبـائِـرْ!!

هذا الحلف غير المُقدس بين أصحاب النفوذ الظالمين، وبين هذه الفئة ممن يزعمون حماية الدين وسّع دائرة صراعهم مع الشاعر، وجعلهم هدفاً لفضح دوافع تحالفهم وترابط مصالحهم:

... إذا مـا الأَتَـهُـمْ ومـلأت مِـنْـهُـم — جـيـوبـاً أو بـطـونـاً كـالـمـقـابِـرْ

فـأنـتَ (مُـقـدَّسٌ) فَـكُـلِ الـيـتـامـى — وأمـوالَ الـرِبَـا واسْـرِق وقـامِـرْ!!

وإمّـا رُحـتَ تنقُضُ مـا يُـنـافي الـــ — شّـريـعَـةَ والـكِـتـابَ ومـا يُـغـايِـرْ

تَـنَـادوا لـلـوغـى مـن كـل صـوبٍ — وهـبّـوا كـالـجِـيـاع مـن الـكـواسِـرْ

وَسَـلّـوا الـديـنَ قِـرْضـابـاً وصـاحـوا — أمـا لـلـديـن مـن حـامٍ ونـاصِـرْ؟!

لِـرَبّ الـديـن أشـكُـوهُـمْ لُـصـوصـاً — مُـسُـوحُـهُـمُ الـكَـمَـائِـنُ والـمـغـاوِرْ!!!

وأشـكـو جِـبّـةً وارتْ وراهـا — وأخْـفَـت حـاذقـاً بـالـصَّـيْـدِ مـاهـرْ!

وَعـمّـات دكـاكـيـنـاً وسـوقـاً — يُـبـاعُ الـديـنُ فـيـهـا والـضـمـائـرْ!!

... أنا أسمح لك أن تسألني عن علاقتي مع الناس، وكيفية تعاملي معهم، عدم إيذائهم، أو التعدي عليهم أو على حقوقهم، أماعن علاقتي بخالقي من صلاة وصوم وعبادات فهذه أمورٌ شخصية يعود عليّ التقصير بممارستها كما ينحصر نفعها بي، وفي المُطلق أنت لست مسؤولاً عن ذنوبي وخطاياي... دعني وربي!!

أرضى إذا ما قيل إنيّ مُلحدٌ وأُساءُ إن قال الأنامُ مُدجّلُ
فالدين أمرٌ للسماءِ حسابُهُ دعني وربي علَّ عُذري يُقبَلُ
ما أنت مسؤولٌ بذنبيَ في غدٍ كلاّ ولا أنا عن ذنوبكَ أُسألُ
عجباً أراك على ذنوبي ساهراً وإذا تعرّض ذنبُ نفسِكَ تُغفلُ!!
تَعِباً، تَعُدُّ خطيئتي مُتحملاً وِزْري وظهرُكَ بالخطيئةِ مُثْقَلُ
إن كان ذا عطفاً عليَّ فإنني لولا حيائي مِنْكَ قُلتُ: تطفُّلُ
أنا كيف أُؤمِنُ في عِظاتِكَ طالما أبداً أراك بعكسِ قولِكَ تَفْعَلُ!؟
تنهى عن المالِ الحرامِ وأكْلِهِ وعلى الدوام لَكَ الحرامَ تُحَلّلُ

في الثلاثينات من القرن المنصرم فكر بعض علماء في جبل عامل أن يؤسسوا "كلية للعلماء" لبناء المدارس الدينية ونشر العلم وباشروا بجمع المال ثم دب الخلاف بينهم[١] فذهبت الجمعية والجامعة والكلية والمال، فنظم موسى قصيدة أسماها "شارع الأهواء":

هيِّئ بنيكَ فعنْ قريب تنتهي في عاملٍ كلّيةُ العلماءِ
لا تخشَ إلحاداً وكفراً إنها بُنِيَتْ لصونِ عقيدةِ الأبناءِ
شيدَتْ على التقوى وبات يُديرُها رهطٌ من الفُضَلاء والصُلَحاءِ
فليَقْفلَنْ (دارُ الفرير) وغيْرُهُ إنا سئمنا عيشةَ الغرباءِ
فإذا جهلتَ مكانها فتّشْ على بلدِ الخصام "بشارعِ الأهواءِ"
أو في مكانٍ - قُدِّسَت أسماؤه - يُدْعَى جيوبَ سعادة الزعماءِ
فهناك مدرسة تعلِّم أهلها كيف اختلاسُ دراهمِ الفقراءِ
يا أيها التاريخ سجلْ ساخراً وامْلأْ فراغَ الصفحةِ السوداء
سَجِّلْ ولا تَرْحَمْ وحَدِّثْ بعدنا أبناءنا بمآثرِ الآباءِ!!

ويُتابع موسى الزين حملته على الفئة المتزمتة من رجال الدين التي لم تتورع أن تحلل وتحرم باسم الدين مُخالفةً قواعد الشريعة، مُشايعةً أهل الجور حتى خُيّل لبعض الناس أن هذا الواقع قدرٌ مكتوب لا تجوز الثورة عليه...

---

(١) نفس المرجع السابق.

... فكاهنُهُ بالمال مغرًى ومُولع ... يُصلي ولَكنْ ربُّه الفردُ درهمُ
عجائبُهُ شتّى وأعجَبُ ما بِهِ ... عمائمُ باسمِ الدين، بالدين تهدمُ
سلِ الدِّينَ هل في الدِّينِ ختلٌ وهل فتىً ... يُشايعُ أهلَ الجَوْرِ والبغيِ مسلمُ؟!
سلِ الدين عن تلك المساجدِ كم بها ... على الغاصبِ المُحتل صلوا وسلموا!!؟

الدين ليس كذلك، ولا كما مارسوه وفهموه واجتهدوا في تطبيقه، هو براءٌ منهم ومن تصرفاتهم، التي أثخنوه بها جراحاً وحمّلوه آلاماً.

الدينُ يبرأُ والأخلاقُ من فئةٍ ... تسعى إلى الشر باسم الخُلق والدينِ
الدينُ لو كان جسماً ضجَّ من ألمٍ ... أو كان طوداً رماهُمْ بالبراكينِ

الدين ليس عمامةً كبيرةً وجبةً فضفاضةً ولا صلاةً ولا صوماً ولا تظاهراً بالزُهد والتقوى، ولا حملَ مسبحة، هذه كُلُّها مظاهر وممارسات، ممارساتٌ يجب أن تصدر عن قلب يَعْمُرُ بالإيمان، وعقلٍ يعتقد عن قناعة بسمو رسالات الأديان، ويعمل بالأركان، ويرتفع بطهارةٍ وعفةٍ وتقىً وورع عن كُل ماً يَعيب السلوك ويَحُط من قدر العالِم

ما الدينُ صومُك عن لحمٍ وفاكهةٍ ... بل زجْرُ نفسك عن مال المساكينِ
طَهِّر فؤادَك من حقدٍ ومن دَنَسٍ ... وابشِرْ -غداةَ غدٍ- بالحورِ والعينِ

الدين لا يُفرق بين الناس تبعاً لألوانهم وأجناسهم وغناهم وفقرهم، وطيب أَوْضَعَةِ محتدِهم..

زعموا بأن الدين فَرّق بينهم ... حاشاهُ بلْ هُو جهْلُهُمْ بالدينِ
... الدينُ كان ولا يزال منارةً ... تُهدي الورى للشاطئ المأمونِ
ماذا عليه إذا المَطَامِعُ حوّلت ... جناتِه لبلاقِعٍ وحزونِ
أو أَوْصَدَتْ كفُّ التعصبِ بابَه ... حتى غدا زنزانَة المسجونِ
قسماً به: لو كان شخصاً ناطقاً ... ما كان عن تقريعهم بضنينِ
ولَصَاح بالمتعصبين إلى متى ... وأنا البريءُ سهامكُم ترميني؟!
وبمعشرٍ بذروا الشِقاقَ وأتقنوا ... فن الرِّياء وحرفةَ التلوينِ

ومُتاجرين (مُدجِّلين) تحالفوا   معْ طامعٍ ببلادِهِم وخؤونِ
نبذوا المفيدَ تجاهلاً وتفنّنوا   بالغُسل والتحنيط والتكفينِ
وتستّروا بِردا المذاهب مثلما   يتستر الصيادُ خَلْفَ كمين
كفٌّ تُسبِح للرياء وأُخْتُها   تبتزُّ ما في جيبةِ المسكينِ
ما أنتُم مِني ولا أنا مِنْكُمُ   حاشا فأنْتُمْ وصَمَةٌ بجبيني

هؤلاء امتهنوا المُتاجرة بالدين واللعب على وتر الإثارة فقسموا الناس أحزاباً وشيعاً وطوائف، ومذاهب، وراحوا يحتكرون الجنة، ويبعدون عنها كل من لا يُواليهم أو لا ينتفعون منه والناس كلهم عيال الله لكنهم هم الذين فرّقوا بينهم وقسّموهم تنفيذاً لمآربَ ومصالحَ ترمي إلى احتوائهم واستغلالهم وقهرهم... والأمس مازال قريباً عندما علّق جمال باشا شبابنا على أعواد المشانق ولم يميز بين أديانهم ومعتقداتهم.

أتظل هذي الطائفية معولاً   بأكفّ أعدائي لهدمِ كياني
...لله خلوا الدين واتحدوا على   دين الوفا والحُب للأوطان
ما قال في أيار .. هذا مُسلمٌ   سفاح تُركيا وذا نصراني!!

وطالما أننا جميعنا نرث الدين عن أهلنا كما نرث الطول والقِصر والشكل ولون العينين فلمَ الاختلاف والتقاتل والتباعد؟!

أنا ما انتقيتُ الدينَ لكنّ والدي   وأنا صغيرٌ قال دينُك ديني
فتبعتُه وغدوتُ أُدعى مُسلماً   كالمُسلمين عقيدتي ويقيني
إن كان لا يُرضيكَ ما أنا تابعٌ   فأبي هو المسؤول لا يعنيني
يا من يُناصبني العِداء كأنني   وكأنه العربي والصهيوني
دينٌ يُفرقنا ويبذُر بيننا الـ   شحناءَ والبغضاءَ ما هو ديني!!

الدين أساساً لا يُفرقنا... الذي يُفرق بيننا هو تجارة الدين وعمى التعصب، حتى وصل الأمر بنا إلى أن نرى ازدهار سوق المذاهب والطوائف ضمن الدين الواحد، والاحتراب والاقتتال ضمن المذهب الواحد الذي أُريد له أن يحجزَنا بين جدرانه الضيّقة ويميِّزَنا عن الآخرين ويلازمَنا على هويتنا وفي العمل والوظيفة وتوزيع المناصب

وتقاسم المَنافع حتى بتنا نخجل مما نحن عليه.

هلاّ علِمْتَ وأنتَ مَهْدُ طُفولتي — وهواك مِلءُ جوارحي وجِناني
أنّي – وفيك من الجرائمَ ما أرى- — أصبحتُ أخجلُ أنني لبناني
أيُراقُ فيكَ دمي لأنيَ مُسلمٌ — لا ذنبَ لي ولأنّني نصراني
واخجلتي منّي كلبنانيّ! ويا — خجلي كإنسانٍ من الإنسانِ!

في سنة ١٩٣٤ تخرج السيد حسن الأمين محامياً من الجامعة السورية فأقيمت له حفلةٌ في بلدته شقراء ووقف موسى الزين شاعراً معظّماً العلم والتحرر حاملاً على الزعماء ورجال الدين المتزمتين:

... يا حُرُّ لا يُزْعِجْكَ نُصحي إنني — جرّبْتُ قبلكَ والمجربُ أخْبَرُ
إنحر ضميرك إننا في موطنٍ — من كل أبناء الضمائر يسخر
وَطَنٌ كما شاء الدخيلُ مقسم — اثنان: ذا لصٌّ وذا مستأجَر
صانعْ ومالئْ ما استطعتَ بريعهِ — إياكَ يوماً بالحقيقةِ تجهر
سبّح بحمد الأقوياء وإن عَتَوْا — وارقص إذا آلُ الزعامةِ زمَّروا
واخشعْ وطأطئْ للعمائم كلِّها — سيَّانِ منها أبيضٌ أو أخضر
واحبِسْ لِسَانك إنهم ساداتنا — ولَوَانَّهُمْ هدموا البلاد ودمّروا
واركع لمن ورث الزعامة إنهم — كالله -جلَّ جلاله-! أو أكبرُ!
فالناسُ كُل الناس صلصالٌ وهمْ — ذهبٌ مصفّى أو يتيمٌ جَوْهَرُ
أجدادُهُمْ بَشَرٌ ولكنْ نُخْبَةٌ — من غير آدمنا الحقير تحدَّروا
لولا تخلُّفنا ولولا جَهْلُنا — وغباؤنا ما استأسدوا وتنمّروا
من لحمنا هذا الذي بقصورهم — فوق الخوان ومن دمانا المُسكر!!!
إن قلتَ أصحابَ الزعامة فالعصا — أو قلتَ أصحابَ العمائم تكفر!!

موسى الزين شرارة في معاركه الطاحنة التي خاضها في تاريخ جبل عامل، القريب من الحرب الكونية الأولى إلى تخوم الاستقلال ضد الاقطاعيَن السياسي والديني، وضد

الانتداب الفرنسي على لبنان، والإنكليزي على فلسطين، أمسك بنصل لامعٍ وجذاب، هو القصيدة التي تحمل المفاجأة والسخرية معاً، كما تحمل الرنين العالي كقرع العصا... كُنا نُسمّيها القصيدة وكان هو يُسميها عصا موسى يهش بها على غنمه، وله فيها مآرب أُخرى... ومن مآربه مثلاً اصطياد المعنى في الصورة الطريفة المُلونة "(1).

في معاركه المحتدمة بقي موسى الزين شرارة مرتاحاً، نظراً لأنه ما خاض معركة شخصية ضد رجل معين، فهو وإن خاصم عالماً كبيراً، أو معمماً معيناً، فإنه لم ينحدر إلى الهجاء الشخصي، إنما كان من هذه الناحية مترفعاً عن صَغَار تصرف مماثل... كان خصماً شريفاً لكل من حمل لواء محاربته، كان عفَّ اللسان لهذه الجهة، فلم يتناولْ زعيماً أو خصماً في بلدته، وإنما كان يحمل قضيةً ويحارب خصومها، متمثلين بسلطة سياسية يعارضها، ونفوذ ديني يختلف معه هو يهاجم الفئة لا الشخص، يجاهر برأيه صراحةً ويرسم الصورة الساخرة التي تميّز فيها:

لا يخدعَنَّكَ منهم حملٌ مسبحة ... ففي الثقوب عشوشٌ للشياطينِ
يا من يصلي بإعلان ليخدعني ... ويُظْهِرُ الزُّهْدَ والتقوى ليُغريني
لو كانتِ الخلْدُ في كُثْرِ الصلاةِ إذاً ... ما فازَ فيها سوى رهطِ الحراذين

كانَ شاعِرُنا يَحْذَرُ ويُحذِّرُ منْ بعضِ رجالِ الدِّينِ الذينَ يعتمدونَ أساليبَ الخداعِ لإيقاع بسطاء الناس ضحايا لمكائدهِمْ، إذْ يتَظَاهرونَ بالفَقْرِ وهُمْ أصحابُ نِعَمٍ، لا يَتَورَّعُونَ عن أكْلِ مالِ الفقيرِ المُعْدَمِ، أو الأرملةِ المحتاجة، أو العجوزِ المريضِ... يُكبِّرونَ مقاسَ عمائمهمْ بحيثُ لا تَتَنَاسَبُ معَ القياسِ المُعْتاد، يُسَبِّحونَ وحبَّاتُ سُبُحَاتهمْ تتألَّمُ وتَشكو بينَ أصابعِهِمْ، يذهبونَ لأداءِ فريضةِ الحجِّ والتَّطَهُّرِ منْ أثقالِ الذُّنوب، فَتَضِجُّ منهمُ الأماكنُ المقدّسَةُ ويَعُودون – دون أن تُقْبَلَ فريضَتُهُمْ – وقد ازدادَتْ ذُنوبُهمْ بَدَلَ أن تُخَفَّفَ، يعودون ومعهم حُمولَةٌ إضافيةٌ:

حَجَجتَ فَلَيْتَ أنَّكَ لا تحجُّ ... فمنك الرُّكْنُ والحَرَمانِ ضَجَّوا
ذَهَبْتَ بألْفِ قافلةٍ ذُنوباً ... وَعُدْتَ وألْفُ قافلةٍ وخُرجُ

كانت هذه المعركة مع بعض رجال الدين ترمي إلى تنقية صفوفهم، وفضح التصرفات التي لا تليق بهم وتنعكس بالتالي سلباً على سمعتهم... رجل الدين – كما كان

(1) الشاعر محمد علي شمس الدين ، الكفاح العربي، ١٩٨٦/٩/١٥، ص٥

يراه - هو العالم المتبحر العفيف الزاهد الذي لا يعرف في الحق لومة لائم، لا يتملّق لزعيم، أو يتزلف لمسؤول، ولا تغريه الدُنيا بكل مفاتنها، هو المثل والمثال، والمرجع والملجأ، حامي الحق، وعدو الظالمين، وخصم الجبارين.

في حديثه إلى الشاعر والصحافي عباس بيضون يقول جواباً على سؤال عن نشأته وعن المدارس في تلك الفترة " في ذلك الحين لم يكن هناك مدارس دينية، إذ إن مدرسة العلامة الشيخ موسى شرارة كانت قد أُغلقت منذ زمن، هذه المدرسة التي بدأ فيها أمثال السيد مُحسن الأمين، والشيخ حسين مُغنية والشيخ عبد الكريم صادق... الشيخ موسى شرارة كان علامة فذاً، يُذكر أنه كان في زيارة لجويا فتقاضى عنده رجلان كانا تقاضيا من قبل عند شيخ البلدة وحكم لأحدهما... حضر المتقاضيان إلى مجلس الشيخ بحضور شيخ البلدة، وعرض كلٌّ منهما دعواه، واستمع الشيخُ موسى إلى الدعوى فحكم فيها للخاسر في الدعوى الأولى، فاحتج الخصم بأنه قد نال من شيخ البلدة حكماً لصالحه... سأل الشيخ موسى شيخَ البلدة عن جلية الأمر فأكد له ذلك... عندئذ طلب الشيخ موسى مِقصاً ولما أُحضِر له تقدَّم من شيخ البلدة و"فلَّ" عمامته وظل يفلّها إلى أن غَدت صغيرة، عندئذٍ قصَّ ما فلَّهُ قائلاً للشيخ: كِبَرُ هذه العمامة سيدخلك إلى جهنم!...

كتبت عن هذه العمامة في العِرفان وقلت: إننا كُنّا ولا نزال بحاجة إلى مِقص الشيخ موسى[1].

كان الشاعر يتنقل بين بلدته وحواضر جبل عامل، ولا يحسب حساباً لما قد يعرض له من مفاجآت وقد عرفته السجون في بلدته وفي تبنين وصور وصيدا وسجن الرمل، وكان بينه وبينها إلفة ومودة، تعرف إليها من خلال الكفاح، دخلها بطلاً مناضلاً، مُعْتَقَلاً سياسياً، عنيداً، رافعَ الرأس موفورَ الكرامة ولم يدخلْها عميلاً أو مرتشياً أو سمساراً.

... ما نحن يا سجنُ أشرارٌ ولا نفرٌ   داسوا المبادئَ والأخلاقَ والقيَما
ولا استباحوا قوانينَ السماء ولا   دكّوا الشرائع في لبنان والنُّظُما
بل نحنُ يا سجنُ رهطٌ ثار ثائرُهُ   لمّا رأى الحق مغصوباً ومهتَضَمَا

(١) مُقابلة مع الشاعر للصحافي عباس بيضون، جريدة السفير، ١٩٨٤/٩/٢٨.

يا سجن لو كنت تدري أن ضمَمْتَ بنا ... الإباءَ والعزَّ والأخلاقَ والشَّمما
أو كنتَ تعلمُ أن الحقَّ رائدُنا ... سَمَّيْتَ نفسك "بيتَ الله والحَرَما"
شَرُفتَ يا سِجْنُ يا بيتَ اللصوص لأن ... غَدَوْتَ بيت أباة الضيم والعُظما
ضمَمْتَ أُسْداً لغيرِ الحق ما بَسَطَتْ ... كَفاً ولا نَقَلَتْ إلا له قَدَما
وفِتْيةً نذرتْ للشعب راحتَها ... فطلَّقَتْ لَهْوَهَا والراحَ والنُّدَما

نحن يا سجن الفئة التي ثارت على المستعمر، وعلى السلطة المؤتمرة بأمره، نحن الفئة الشريفة الأبيّة التي رفضتِ الاستكانةَ والهوان... لو كنتَ تدري مَنْ نحن لأصبحتَ تدعى بيت الشرفاء، ومنزلَ الصالحين... بدخولنا إليك لم تَعُدْ بيتَ اللصوص... وإنما غَدَوْت ملتقى الأباةِ العظماء، الذين ما انحنوا إلا لربهم، والذين أنفوا حياة اللهو والطَرَبِ والسُّكرِ ونذروا أنفسهم للقضيّة المقدسة، قضيةِ الشعب المظلوم المغلوبِ على أمره.

وفي قصيدة ثانية:

اسجنونا وضايقونا وشدّوا ... ما استطعتمْ وِثاقنا والقيودا
واملأوا الجو فوقنا طائراتٍ ... واملأوا الأرض عُدةً وعديدا
لا نبالي ولا نقرُّ لضيمٍ ... لا ولن نرتضي الحياة عبيدا

ويقول في قصيدة ثالثة:

يا سجن ما أنت العذاب وإنما ... عَيْشُ المذلّةِ والهوانِ عذابُ
اسجنْ وشرّدْ ما عليكَ غضاضةٌ ... أنّى يكونُ الليثُ فهو الغابُ!!
ليس العقاب سلاسلاً أو ظلمةً ... يا سجنُ بَلْ وَخْزُ الضميرِ عِقابُ!!!

يلفتني هذا العنفوان، وأنحني بتقدير أمام هذا التصميم العنيد أمام بطولة الموقف، وثبات الصمود، الغاب مرتع الأسد " لا يخلق أسداً"، الغاب قد يحوي الذئاب والضباع والكلاب وهو لا يكون عريناً إلاإذا كان فيه أسد... وجود الأسد يفترض وجود العرين، هو يخلقه وحيثما يكون الأسد تهرب أو تختبئ الوحوش ليصبح الغاب الحمى والعرين.

ويقول في مكان آخر:

أحنّ لسجن الرمل شوقاً ومَنْ رأى طليقاً وفي لبنانَ حنّ إلى السجن!!
نزلتُ به رَدْحاً بعهدِ فرنسةٍ كجانٍ أثيمٍ عاثَ بالشرعِ والأمْنِ
ولا ذنبَ إلا أنني متمردٌ على الظلم، خصمٌ للهوان وللوهنِ

وقد وصفه الصحافي كمال فضل الله بقوله:

لم تقتصر صيحات الشاعر موسى الزين شرارة الإصلاحية على الجانب السياسي بل تجرأ ولأول مرة على رجال الدين، في وقت كان فيه هؤلاء مُحاطين بهالات من التقديس والتقدير والاحترام، ولم يَفُتّ في عضده أنهم كفّروه فمن خلال رؤيته المستقبلية، كان يُدرك أنه على حق من حيث التمسّكُ بالجوهر، ونَبْذُ العَرَض والمظهر وأن ما يُقال بحقه اليوم سيُقال ضده غداً، وهكذا تبيّنَتْ صوابيّةُ نظرتِهِ بعد انفتاح الشعب على الحياة والسير بهدي العلم والمعرفة وإدراك الحقائق البعيدة عن الزيف...

حسبُ موسى الزين شرارة أنه فتَحَ العُيون على الحقيقة في زمنٍ كانت الكلمة الجريئة عند البعض نوعاً من الكُفر، وسيظل رائداً ومُصلحاً نستجلي مواقفه ونرى كم كانت العيونَ مغمضةً وكم كان هو مبصراً"(١)

في هذه الفترة كان جبل عامل ملتهباً، في بنت جبيل والنبطية وصيدا وصور وكان الوطنيون في بيروت وطرابلس وسوريا يتحركون يطالبون بالوحدة السورية... وكان الفرنسيون ورجال السلطة التابعون لهم يحاربون هذا التوجه ويثيرون النعرات الطائفية ليحولوا دون وحدة المواقف والتوجهات، وجاءهم الردّ من الشاعر:

تشهد الأرض والسماء بأنّا عن هوى الشام لحظةً لن نحيدا
هي في القلب والحشاشة منّا فليقيموا حواجزاً وحدودا
وليقولوا "أميةٌ وحسينٌ" وليشقّوا من كربلاءَ اللحودا
في هواها وفي سبيل هناها نرتضي حاكماً علينا يزيدا!!

هذا الصفاء الوطني يتجلى بأبهى مظاهره في موقف لا يعرف المساومة والتردد...- كأني به يقول- نحن أمام الناس وأمام الله نشهد أننا مع الشام، لن نحيد لحظة واحدة

(١) جريدة اللواء، ٢٦/١٠/١٩٨٦، الصحافي كمال فضل الله.

عن هذا الهوى المختار هي في سواد العيون ومهج القلوب، في الخفقة والنبضة... أيها المغرضون دعوا التاريخَ وخلافاته وأحداثَه، لا تنبشوا مخازيَهُ وأخطاءه، نحن في سبيل الوحدة مع سوريا ننسى كل المآسي. ونترفع عن الأحقاد ونقبل حاكماً عربياً علينا حتى لو كان يزيد قاتل الإمام الحسين.

في سبيل الوطن كلُّ شيء يهون، حتى فواجعُ التاريخ تُطرح جانباً، نحاول أن ننساها... لنلتقي في إطار الوحدة التي نتمنى ونرجو أن تلفَّنا بنعماها.. وهي المتأصلة فينا، نتعشّقُها ونهواها ولن نحيدَ عنها للمحة في البال أو للحظة في الزمن.

في سنة ١٩٣٦ عقد مؤتمر في صيدا برئاسة الزعيم الوطني عبد الحميد كرامي واتخذ عدة مقررات حول الوحدة السورية وانضمام جبل عامل لها، ومحاربة الانتداب وكان لموسى الزين هذه الأبيات:

صيداءُ أنتِ من الجنوبِ الغابُ ... الظُّفْرُ أنت لعاملٍ والنابُ
فيكِ اللباةُ أوانسٌ وعقائلٌ ... وضياغمُ الهيجاءِ منك شبابُ
أيْقَظْتِ عاملَ من عميقِ سباتِهِ ... لمّا تعالى صوتُكِ الصخّابُ
وَأهَبْتِ فيه تهتفين بوحدةٍ ... يا طالما حنّتْ لها الأعرابُ
فتوحَّدَتْ بعدَ الشتاتِ صفوفُهُ ... فإذا الجميع أحبّةٌ وصحابُ
حطَّمْتِ غِلاً كان من حلقاته ... بشكوفُ والإقطاعُ والأربابُ

ويروي الشاعر أنه بعد الانتهاء من إلقاء القصيدة تقدم منه أحد أعضاء المؤتمر قائلاً: التلميح أفضل من التصريح فرد الشاعر أنا أشير لبتشكوف عمداً لأن الشعب أقوى من الاستعمار.. ويقول الشاعر لم تمضِ دقائق على إلقائي القصيدة حتى اعتقلتُ ودخلتُ السجن.

كَتَب الشيخ أحمد عارف الزين واصفاً بتشكوف: "بتشكوف!!... وما أدراك ما بتشكوف؟!... الذي كَمْ وكَمْ رأيتُ بعيني زعيماً يُقبِّلُ يَدَهُ وآخرَ يُنشّطُهُ على عمله لأنه ضد خصمه، وعالماً ينحني أمامه، وآخر يحتفل به، وغيره يعتبر زيارته تفرض الصيام، لآخر ما هُناك وما هُنالِك "(١).

(١) الشيخ أحمد عارف الزين، مجلة العرفان، م٣، ج٥، ص٤٨٢، راجع استاذ أيوب حميّد ص.٥٨

هذه المعارك السياسية المتواصلة في جبل عامل والمتنقلة بين صيدا وطرابلس ودمشق وباقي المدن السورية لم تكن مفصولةً عما يجري في فلسطين، كانت الساحات واحدة والمطالب واحدة لأن القضية المركزية كانت واحدة ففلسطين جارة جبل عامل والشريكة التاريخية في الملمّات والملجأُ الأمين أيامَ المِحَن والمصائب، هي القلبُ والرئةُ ومجرى النفَس.

عندما ضرب الانكليز فلسطين بالطائرات يوم ثورة القسّام قال موسى الزين مخاطباً الطيار:

أُسْدٌ بأرضِ القدسِ أم ثوارُ ... ماذا ترى يا أيها الطيّارُ؟!
هذي فلسطينٌ أمامك فاتعظْ ... هل راعها المستعمرُ الجبّار؟!
صَمَدَتْ له والحقُّ كلُّ سلاحها ... والغاز بعض سلاحه والنار
يتهافتون على المنون كأنها ... كأسٌ عليهم بالرحيق تُدارُ
اللهُ أكبرُ في الجهاد شعارُهُمْ ... وهتافُهُمْ حَمْدٌ أوِ استغفار
لشبيبةٍ كالأسْد بأساً ما بهم ... مستأجَرٌ وغدٌ ولا سمسار
شبانُهُمْ في الروع فتيةُ خيبرٍ ... وشيوخُهم في ساحها الكرَّار
الكلُّ باع لأرضه ولشعبه ... نفساً فلا طَمَعٌ ولا استئثار
أرضَ المعادِ ودارَ مريمَ وابْنِها ... ما أنتِ للمستعمرين ديارُ!!
ما العارُ إن متْنا كراماً في الوغى ... نهبَ السيوفِ، بل الحياة العارُ!!

المعركة السياسية

يقول شاعرنا ما حرفيته[1]: "المعركة السياسية التي كنت شاهداً فيها هي انتفاضة بنت جبيل عام ١٩٣٦ انتصاراً لقضية مزارعي التبغ... في عام ١٩٣٦ حضر إلى المنطقة المطران المعوشي الذي صار فيما بعد كاردينالاً واتفقنا معه على المطالبة برفع أسعار التبغ. وإعطاء مساحات أوسع للمزارعين وقد كُتِبَتْ مَضْبَطَةٌ بهذه المطالب واودعَتْ منزل المناضل المرحوم الحاج علي بيضون ولكن المستشار بتشكوف علم بأمرها فأوعز للدرك في بنت جبيل بمصادرة المضبطة واعتقال الحاج علي بيضون وكانت ليلة عاشوراء، والناس مجتمعة في الجامع الكبير... جاء من يقول لنا: اعتقلوا الحاج علي بيضون: فهرع الناس إلى السراي بتظاهرة هادرة تهتف ضد الانتداب فأخلى رئيس المخفر سراح الحاج بانتظار وصول تعزيزات عسكرية... وفعلاً وصل البلدة ليلاً ما يقارب المائتي جندي فطوّقوا العدد الكبير من البيوت واعتقلوا ما يقارب الثلاثين من شباب ووجهاء البلدة، وقد كان رد الفعل الشعبي عنيفاً فتجمهر الناس أمام السجن وكانوا من أهالي البلدة والقرى المجاورة خصوصاً من عيناثا التي لعبت دوراً رئيسياً وحاسماً، وقد أخذ بعض الشباب يثقب جدار السجن ليخرج السجناء منه وما زالت صورة المرحوم حسن بسام من عيناثا أمام ناظري وهو يكسر باب السجن ويدعونا للخروج تحت وابل الرصاص الذي كان يطلق من الجنود وعلى الجهور وقد استشهد في هذه الانتفاضة ثلاثة هم: مصطفى العشي من بنت جبيل ومحمد جمّال وعقيل دعبول من عيناثا، وعند المساء جرى نقل المساجين إلى صيدا فتجمهر الناس في صيدا تأييداً لانتفاضة بنت جبيل... وفي اليوم الثاني عمّ الإضراب جميع مدن وقرى الجنوب وكذلك مدينة طرابلس وقد بلغ تأييد المزارعين للحركة حداً جعل بعضهم يزحف على طريق بيروت حاملاً آلات الحرث والفلاحة وخوفاً من أن يُحاصَرَ سجن صيدا كما حوصر سجن بنت جبيل من قبل. ارتأتْ سلطات الانتداب نقل المساجين إلى سجن الرمل في بيروت بالقاووش رقم (٢) على ما أذكر فاستقبلنا في بيروت بنفس التأييد من قبل الشباب الوطني، وقد قلت في وصف سجن الرمل آنذاك:

سَمُّوك سجن الرمل ما أنصفوا   لو أنصفوا سَمُّوكَ "أوتيلا"

وقد أردت بهذا البيت أن أصور شعورنا أمام الفراش الوثير والسجاد الفاخر وأنواع السجاير والزهور التي وصلتنا إلى داخل السجن.

---

(١) نفس المرجع من دفتر الذكريات الجنوبية.

وفي اليوم الثاني جيء إلى سجن الرمل بالمرحوم الشيخ أحمد عارف الزين صاحب العرفان وبالأستاذ عادل عسيران والأستاذ ألفرد أبو سمرا صاحب جريدة القلم الصريح المرجعيونية - وقد أرسل لي من السجن أيضاً المرحوم سليم أبو جمرا بطاقة يخبرني فيها أنه سجين وأنه ترك صور مضربة والتظاهرات قائمة - وقد مكثنا في السجن مدة شهر تقريباً، وقد أُفرج عن المساجين لإيقاف انتفاضة كبيرة كانت قد أخذت تتفاعل على صعيد جبل عامل ولبنان، ولدى خروجنا ذهبنا إلى النبطية حيث جرى لنا استقبال حافل واحتفال وطني كبير وألقيتُ هناك قصيدة كتبتها في السجن:

لا السجنُ يثنينا ولا الإرهابُ ... ما شئْتَ فاصنعْ ما عليكَ عتابُ!!
أحَسِبْتَ أن السجن يُضعفُ أنفساً ... من دونها بمضائه القرضابُ
إسجنْ وشرِّدْ ما عليكَ غضاضةٌ ... أنّى يكونُ الليث فَهْوَ الغابُ
يا أيها العاتي رويدَكَ طالما ... مادتْ قديماً بالعتاة قبابُ
لا يُقْنِعَنّكَ بنا خُؤونٌ غَرَّهُ ... منّا السكوتُ ومنكمُ الألقابُ
نحنُ الليوثُ وهذه آثارنا ... إمّا جهلتَ وهذه الأحسابُ
يا سجن ما أنتَ العذاب وإنما ... عيشُ المذلّةِ والهوانِ عذابُ
إنْ يوصدِ السجانُ بابَكَ قلْ لهُ ... قلبي برغمكَ للسعادة بابُ
يخشاك من قَتَل البريء تعمُّداً ... ويهابُكَ الشريرُ والسّلاّبُ
ليس العقابُ سلاسلاً أو ظلمةً ... يا سجنُ بل وخْزُ الضمير عقابُ
قُل للذي يُطري الزعامة بيننا ... ما ترعوي يا أيها الكذّابُ؟!!...
أزعامةٌ هذي وذي أوطاننا ... فيها يعيثُ ويَعْبَثُ الأغرابُ
هذا الشباب يُجَرُّ في أغلاله ... فلْيَهْنَأنَّ السادةُ النوابُ
لا تعجبَنْ هي حالةُ الشعب الذي ... برؤوسه تتحكّم الأذنابُ
سمّوهُمُ خشباً فقلتُ هجوْ ... تُمُ الأخشابَ: همٌ لنا ومصابُ
قسماً ولست مغالياً لو أنها ... علمتْ بذاك احتجَّتِ الأخشابُ
لو كان فينا الثائرون حقيقةً ... أو كان فينا كالشباب شبابُ
أقسمتُ ما عاشوا ولا بقيَتْ على ... تلكَ الهياكل أرؤسٌ ورقابُ

لكننا الحَمَلُ الوديعُ وكُلُّهمْ ظفرٌ لذئب جائعٍ أو نابُ
يتناهشونَ لحومَنَا ودماءنا هذي طعامُهُمُ وتلك شرابُ!!!
ونظلُّ حجاباً على أبوابهم!! وهُمُ لكلّ مسيطرٍ حجابُ!!!
الأجنبيُّ لهم برَغْمِ أنوفنا ربٌّ يُطاعُ وَهُمْ لنا أربابُ
الأحمرُ القاني يُحرر موطني ما الاحتجاجُ وما هو الإضرابُ!!
حريةُ الأوطان حسناءٌ لها فيضُ الرقاب من الشباب خضابُ

موسى الزين الوطني الشاعر الثائر الصامد تراه في هذه القصيدة التي تمور بعنفوان الشباب وقبول التحدي، وهو في السجن أعنف مما هو خارجه، لا يرهب ولا يتعب ولا يكلّ... في هذه القصيدة وهّجٌ يلذّ لكَ أن تقترب من حرارته وتتزوّد، وفيها إيمان لا يتوافر إلا للقادة الروّاد حملةِ القضايا المقدّسة.

"كلمات موسى الزين شرارة – يقول مصطفى بزي في كتابه بنت جبيل حاضرة جبل عامل ص ١٠٧٣ – اقتحمت السياسة يوم كانت السياسة واجباً وطنياً، وكان واحداً من تلك الفئة التي تميزت بالحِس الوطني الصادق، المُعادي للانتداب، وكان في طليعة من خاضوا حركة الشعر الوطني المُعادي للاستعمار، وكان شعرُهُ الاجتماعيُّ والسياسيُّ تعبيراً صادقاً عن ضمير الأُمة وفكر الشعب.

ويتساءل الشاعر – تساؤل العارف – عن سبب "ثورة الزعماء" عليه علماً أن كُل ما قام به هو تصويرهم كما هُم، حُلفاء للمصائب والرزايا ضد وطنهم وأبنائه... ذنبه أنه أجاد التصوير وأبرز الواقع.

شعري يرى الزُّعما فَيَرْسُمُ ما يرى فتثورُ ضدَّ رسومِها الزعماءُ!!
فكأنَّ رَسْمَ صِفاتِها في عُرْفِهِمْ ذمٌّ وتقريعٌ لهُمْ وهِجاءُ
فإذَا هَجَوْتُ الجَهْلَ أو أبناءَهُ ثَارُوا عَلَيَّ كَأنّهُمْ جُهلاءُ
أَوْ قُمْتُ يوماً نادباً أو باكياً بلداً تَعيشُ بربعِهِ الأرزاءُ
غَضِبوا كأنَّهُمُ لِكُلِّ رزيَّةٍ – نَزَلَتْ بِنَا وبِأرْضِنا – حُلفاءُ

يريد الشاعر أن يقول: شعري هو المرآة العاكسة للواقع، تُظهره كما هو دون "رتوش"

أو مساحيق أو براقع... تبيِّن عيوبَهُ ومفاسدَهُ وأمراضَهُ كما هي... هو تماماً كعدسة المصوّر لا تُزوّر ولا تكذب... يرسم كما يرى... وطالما أنه كذلك فلماذا يثور الزعماء إذا ما رأوا فيه رسومهم؟! ولماذا ينتفضون ويغضبون إذا رُحْتُ أتكلم عن الجهل والتخلف؟! أو قمت أتحدث عما يُطاولنا من الأرزاء؟! حتى بات مُجرد الحديث عنها ذماً وتقريعاً وهجاءً لهم...! كأنّهم حُلفاءُ كُل المصائب والأوجاع التي حلّت بنا وبالوطن!!

"الذين لا يعرفون سيرة موسى - يقول عبد اللطيف شراره - في تفاصيلها الدقيقة يجدون أنه كان يؤلف وحده (جبهةً) تَقفُ بشعْرِهَا، ولاَ شَيْء غير الشعْر، في وَجه جبهة معادية هي المجتمع العاملي بكل ما فيه من رواسب الإقطاع والجمود والتخلف، ثم يعجبون لصمود موسى وحده كجبهةٍ في مشتجر النزاعات والاتجاهات والمصالح والأهواء التي كانت تتجاذب البلاد وتتدافع فيما بينها طوال فترة الحربين وخلال الفترة التي تلتها حتى الاجتياح الإسرائيلي الأخير[١]."

وبيانات موسى الزين شرارة أو قصائده كانت تحمل أوجاعهم وتصور معاناتهم وتتحدث بلسانهم ببساطة وعفوية تحفران عميقاً في ذاكرتهم لأنها مُشَافَهَةُ الواقع كما قال حسين مروة: مخاطباً الشاعر: "شعرُكَ البسيطُ العبارة، البسيطُ الخيال، كان أقوى على زرع النور في الناس الطيبين من أي شعر مُتعالٍ فوق البساطة وفوق الناس، والمسألة أن شعرك هو الفرحُ والحبُ والصدقُ، وأن شعرَكَ أحسنَ مُشافهةَ الواقعِ ومُشَافَهَةَ الحُلم دون وساطة بلاغيّةٍ أو زخرفيةٍ تنظيرية... الشعر والثورة التقيا فيك لتكون شاعراً من نوع مميز، ولتكونَ ثائراً من نوعٍ مميز... الشاعر الذي فيك ضاحكٌ أبداً حتى مع وجع الجرح وعضّة المأساة... والثائرُ فيك ممتشقٌ الضحكَ دائماً كسلاح صارم قاتل تواجه به أعداء وطنك وشعبك من كل نوع كانوا ومن أي موقع أتوا[٢].

(١) جريدة النداء ١٠ أيلول ١٩٨٦، ص ٦.
(٢) جريد النداء ١٤ أيلول ١٩٨٦.

معركة الانتخابات الفرعية في النبطية:

يقول الشيخ علي الزين: "عدت إلى جبشيت من النجف الأشرف سنة ١٩٢٨ وفي الفترة التي كنت فيها شبه منعزل كان يأتي بعض الزوار ومنهم بعض شبان بنت جبيل والحقيقة أن لقائي بهم أنعشني كثيراً نظراً للروح الأدبية الفيّاضة التي كانوا يتحلون بها.

(والعلاقة بين آل الزين وآل شرارة كانت بالإضافة إلى الدين والأدب علاقة مصاهرة فالشيخ محمد شرارة في ذلك الحين كان تزوج أخت الشيخ علي الزين).

يتابع الشيخ علي: كنت إذا ذهبت إلى بنت جبيل اشعر أنني لست فقط في النجف بل خاصة أدباء النجف... أينما وجدوا قصيدة أو كلمة أدبية كانوا يقرأونها في مجالسهم... وكانت الحواراتُ الأدبيةُ والسياسيةُ تدور على أنواعها في هذه المجالس... وبفضل هذه الأجواء نشأ عندي تطلّعٌ جديدٌ بعدما كنتُ شِبْهَ يائسٍ بعد عودتي.

أخذت أطالع وأكتب وأنظم القصائد في جو حركة أدبيةٍ وسياسيةٍ واجتماعية... كان أدبُ الأصدقاء زاخراً بالثورة، ولعلَّ شعر الصديق موسى الزين شرارة خيرُ مَنْ تتجمع فيه هذه الصفة لأنه تعرّض في شعره لكل الأوضاع سواء تجاه الزعماء أو العلماء أو الأدباء[1].

يلاحظ الشيخ علي الزين أن النبطية بفضل الشيخين سليمان ظاهر وأحمد رضا سبقت بنت جبيل في نظرتها الوحدوية، وإن كانت بنت جبيل سبقتها في الناحية الأدبية...

سنة ١٩٣٥ مات النائب فضل الفضل، واتجه المستشار الفرنسي في صيدا بتشكوف إلى ترشيح نجل الفقيد - هنا يتحرك زعماء جبل عامل الذين كانوا على خلافٍ معه إلى ترشيح المرحوم عبد اللطيف الأسعد شقيق كامل الأسعد ووالد أحمد الأسعد، ويدعم رياض الصلح هذا الترشيح... والحقيقة غير المعروفة أن السيد حسن الأمين هو وراء هذا الترشيح وصاحب المبادرة... يومئذ، وكان قد تخرج من كلية الحقوق في الجامعة السورية حضر إلى لبنان وألقى كلمةً تأبينيةً في ذكرى أسبوع النائب فضل الفضل، أَلْقَت الضوءَ على صفحات مشرقة من التاريخ العاملي خلال الفترة التي لعب فيها الزعيم ناصيف النصار دوراً رياديّاً مميزاً، وكان عبد اللطيف بك الأسعد - حفيد

(١) الشيخ علي الزين، دفتر الذكريات الجنوبية، ص ٣٠.

هذا الزعيم - بين الحضور و تأثر بهذه الالتفاتة الكريمة... وعندما طُرحت لاحقاً أسماء المُرشحين كانت جميعُها من الموالين للسلطة ولم يكن بينها أحدٌ من المُعارضة... والتقى السيد حسن بعبد اللطيف بك الأسعد في صيدا، قبل موعد لقائه مع المستشار بتشكوف وأقنعه بأن يكون المرشح المُعارِض فوافق أن يُعلم المُستشار الفرنسي بأنه قرّر أن يُرشح نفسه لهذا المنصب الشاغر وأنه جاء فقط ليبلغه هذا الأمر... وانتقل بعد ذلك برفقة السيد حسن الأمين إلى بيروت حيث قابل الزعيم الوطني رياض الصلح وأبلغه بما انتهى إليه قراره[1].

حضن هذا الترشيح أخصام المستشار وتحرك شباب بنت جبيل وعرفوا أن يستغلوا الفرصة.. واتفقوا مع الحاج محمد سعيد بزي وهو زعيم المنطقة والحليف التاريخي لآل الأسعد على أن يؤيّدوا عبد اللطيف الأسعد... وهكذا تحرك شباب بنت جبيل بكل قواهم وأخذوا ينظمون المهرجانات والاجتماعات حتى أصبح الرأي العام كله مع عبد اللطيف الأسعد... وقبل يومين من الانتخاب جاءت كلمة السر من بتشكوف ولولا الضغط والتزوير لما نجح مرشح السلطة... لكن شباب بنت جبيل ربحوا المعركة شعبياً واستطاعوا أن يوقفوا الجماهير ضد بتشكوف.

يذكر ذلك موسى الزين شرارة ويقول: "جرى الانتخاب بحماس بالغ من الجماهير لكل المناطق ولولا التلاعُب بالأصوات لنجح الأسعد؛ وقال قصيدتين في هذه المناسبة.

الأولى رائية:

بلادي يا جنانَ الخلد حسناً ... ويا أرض النبوغ والابتكار
... لعينكَ شِبْلَ نصّارِ المُفدى ... شبابٌ لا يروعُ ولا يُداري
شباباً لو يُقاد بألمعيٍّ ... عروبيِّ الشمائلِ والنّجارِ
فَما زَلّتْ بِهِ قدمٌ وبيعت ... كرامةُ شعبه من كل شاري

وألقى قصيدة ثانية داليَّة في دار الطيبة وقال فيها:

وقولوا لمن باعوا البلاد برتبة ... وشادوا صَغاراً بالدخيل ومجّدوا
لكمْ دينُكمْ فيما تَرونَ فإنني ... به وبكم دون البرية مُلحدُ

---

(١) مقابلة مع السيد حسن الأمين بتاريخ ٢٠٠٢/٤/١١

خـذيـنـي عـزيـزاً يـا مـنـونُ ولا أرى بلادي عـلـى ضـيـمٍ تـبـيـتُ وتـرقـدُ
يُـنـعَّـمُ فـيـهـا وَغْـدُهـا ودخـيـلـهـا وكُلُّ أبـيٍّ عـن حـمـاهـا مـشـرَّدُ

في أبيات القصيدتين التي أوردت بعضاً منها أقف لأتساءل هل إن الشاعر الثائر العنيف الذي أقضَّ مضاجع أصحاب النفوذ والمقربين من الانتداب هو نفسه الذي يجابههم في هاتين القصيدتين اللتين ألقاهما بنفسه في مهرجانين حاشدين تحملان سمة موسى الزين، ونَفَسه وأسلوبه؟ إنهما لا تحتويان على الطاقة الملتهبة من الثورة ولا على الوهج الصدامي اللذين كانا يهزّان الناس والمنبر- موسى الزين برأيي لم يخلق ليوالي ويؤيد... هو لا يعرف هذه الصناعة ولا يجيد أساليبها ولا يرتاح لها.. ولأنه خلق ليعارض ويتحدى كان في قصيدتَيه هاتين أقلَّ ثوريةً وأهدأ عراكاً... نظراً لأنه لم يعتدْ إلا صخبَ الهجوم ومقارعة الخصم واقتلاعه من الجذور وتركه جريحاً.

... ها موسى الزين يظهر كما هو هازئاً من الدهر والصعاب ويقف كالطود صامداً رافع الرأس وهو ينشد:

ولـمّـا أن رأيـتُ الـدهـرَ بـغـيـاً إلـى حـربـي بـلا سـبـب تـطـوَّعْ
لبـسـتُ لهُ مـتـيـنَ الـصـبـرِ درعـاً وقـلـتُ لـه: ألا مـا شِـئْـتَ فـاصـنـعْ
فـزِدْ يـا دهـرُ بـالـنـكَـبـات إنـي أقـابِـلُـهـا بـصـدرٍ مـنـك أوسـعْ
وجـرِّدْ مـا اسـتـطـعـت مـن الـرزايـا فـخـصـمُـك مـن عـريـن الـلـيـث أمـنـعْ
سـأبـلـغ مـا أريـدُ مـن الـمـعـالـي وأتـرُكُ عـيـنـكَ الـحـمـراءَ تـدمـعْ!

طلب الشيخ عبد الكريم شرارة (إمام بلدة مارون الراس) وكان زاهداً تقياً وَرِعاً موسى الزين في أحد الأيام ونصحه أن يهدأ ويرتاح ويرأف بنفسه، ويخفف بعض اندفاعاته، حفاظاً على حياته وأسرته، فهو مُستَهْدَفٌ من السلطة ومن المقربين منها، هو ملاحَقٌ يُترك يوماً ويُعتَقَلُ في اليوم الآخر.. ونصحه - إذا رأى ذلك مناسباً - أن يبتعد فترةً أو يسافرَ لانه يخاف عليه...(١)

ويقدر الشاعر هذا الموقف من رجلٍ دينٍ بهذا المستوى النادر من الاحترام والتقدير والمهابة، وبعينين دامعتين من التأثر يطلعه على مكنونات نفسه وبعضِ مشاعرِه وأنه رغم العَنَتِ والمصاعبِ سيُكْمِلُ طريقَه...

(١) حديث مع حسن علي شرارة نقلاً عن موسى الزين.

أبداً علـى كـفـّـي دمي فـكـأنَّنـي جـانٍ طـريـدُ الـعـدلِ أو سـلاّبُ
لـمْ يَـبْقَ لـي فـي الـنَّـاسِ إلاّ قِـلَّـةٌ وَهُـمُ الـكِرامُ أحـبـةٌ وصِـحـابُ

وقال كذلك:

.. فإني حسينُ العصرِ نَفْساً وَغَايَةً أُفتِّشُ مَا بينَ الخَلائِقَ عَنْ "شِمْرِ"

يقول في قصيدة توضح أنه يدرك أنه المُستَهْدَف لأنه عادى الطغاة ووقف مدافعاً عن حقوق الناس:

إن عـجَّلَ الجاني بقطف أزاهري بَـغْـيـاً وأخـمـد جَـوْرُهُ أنـفـاسـي
واغـتـالنـي ريْبُ المنونِ وأطفَـأَتْ ريحُ الـشـقـا بـهـبـوبـهـا نِبْـرَاسِـي
وعلـيَّ شـنَّ الـدهـرُ كـلَّ صـروفِـهِ لـؤمــاً وحـطَّـمَ دونَ ذنـبٍ كـاسـي
شيدوا ضريحي فوق هامةِ هضبةٍ مــا بـيـن زهـرٍ ورودِهـا والآسِ
ودعوا البكا -لا تزعجوني-واكتبوا هـذا ضـريح الـشـاعـر الـحسّـاسِ
هـذا صديقُ الشعبِ خَصْمُ عـدوِّهِ هـذا مـضـمِّـدُ جُـرحِـهِ والآسـي
هـذا الـذي عـادى الطُغاةَ وكلَّ مَنْ عـادى بِعَـامِـلَـةٍ ضِـعَـاف الـنـاسِ
هـذا الـذي قطع الحيـاة مناضـلاً مـا بـيـن سـجـنِ الرمل والـمـتـراسِ

إنه الألم يعتصر قلبه...تراه كان يبحث عن"الشِّمْرِ" الذي ألهمته نفسُهُ أنه سيغتاله في أحد الأيام.

... حاملُ القضية الشريفُ ينتظرُهُ دائماً "شِمْرُ" السلطةِ في ميدان الصراع، أو في ظلمة الليل - الذي يحفظ السرَّ ولا يكشف التفاصيل - هو حتى في الموت في سبيل القضية يمقت البكاء.. لأن في هذا الموت حياةً لا تنطفئ... إنه الموتُ الحبيبُ، المريحُ، في سبيل الناس، الذين طالما تغنّى بهم.. وحتى يبقى بوسعِهِ أن يراهم من هناك طلب أن يرقد على هضبة تغطّيهاالورود وتطلُّ على جموعهم ليأنَس برؤيتهم ويرتاح.

في ٨ آب سنة ١٩٣٧ عقد في بلودان المؤتمر القومي العربي الكبير، الذي ضم وفوداً

وشخصياتٍ معروفةً من الأقطار العربية منها الأمير شكيب إرسلان ورياض الصلح ومحمد علوبة (باشا) وإحسان الجابري وناجي السويدي ولطفي الحفار، وفخري البارودي ونبيه العظمة والمطران أغناطيوس حريكة ممثلاً البطريرك غريغوريوس حداد ومحمد عِزَّتْ دروزة وجبران التويني والدكتور فريد زين الدين ومعروف سعد والشيخان سليمان ظاهر وأحمد رضا وعلي بزي وموسى الزين شرارة وألفرد أبو سمرة، وكانت أهداف المؤتمر الدفاع عن فلسطين وتنفيذ التدابير الفعالة لمقاومة أخطار الصهيونية التي تهدد الوطن العربي باسره[1].

لم يتخلف موسى الزين يوماً عن المشاركة في أي مؤتمر وطني أو يتأخر عن حضور أية مناسبة اجتماعية تقتضي حضوره...

(١) احمد ابو ملحم، وجوه ثقافية من الجنوب متحدثاً عن الشيخ سليمان ضاهر، ص ٤٠ و٤٢

السفر إلى أفريقيا

في أواخر سنة ١٩٣٨ (تشرين الأول) هاجر موسى الزين إلى أفريقيا - عن طريق داكار-، واستقر في (فريتاون) سيراليون في ١٩٣٨/١٢/١٤.. هاجر وفي النفس حرقاتٌ وأوجاعٌ... ترك أسرته: زوجتَه وابنتَه وابنيه وقد كانوا يومذاك صغاراً. كما ترك بلدته وأصدقاءَه ورفاقه... ترك محيطَه وجبلَ عامل ولبنانَ وفلسطينَ والشام..

ترك الساحةَ وهو أحدُ فرسانها... تركها مكرهاً موجوع الفؤاد، دامع العينين، يحرقه شوقٌ لاهبٌ وأسىً يتوالد...

هو لن ينسى كيف ودّع الأسرة والرفاق... غامتِ الصورةُ وغطّتْها دموعٌ صعبةٌ أَبَتْ إلاّ أن تحجبَ بعضَ دقائق الوداع.

سافر وحمل معه كلَّ ذلك، حمل إرثاً طويلاً عريضا من الذكريات والمعاناة والتجارب، حمل ذكرياتِ الطفولة واليتمِ والعذاب، وحمل المشاهدَ العالقةَ في خاطره عن الشيخ المعلم، والرفاق، وذاك الشهيد الحي الذي عُذِّبَ وشُنق في سوق الخميس... وصورَ المرضى والأموات في سفريرلك، ونكبة عين إبل وهجرة بنت جبيل، وإحباط الناس، كلِّ الناس، بعدما سقَطَتْ دمشقُ وماتَ مع هذا السقوط حلمُهُم الموعود.

سافر وحمل معه نضالات بنت جبيل وجبل عامل والشهداء الأحياء الذين لم ينسَهُمْ عَبْرَ المسيرة المتعبة... ورفاق السجن، رفاق الدرب الطويل... أهكذا تتجمع الأحداث لتصبح ذكريات تتوالى... أهكذا يحملُ الإنسان معه - عندما يهاجر - ذكرياتِ هذه الأماكن والأحداثِ والناس...

ها هو في طريقه إلى المهجر... الباخرةُ تُطلق صفّارَتها مُعلنةً بدايةَ الرحلة، تنطلقُ متمهلةً متهاديةً وهي تُبارح الميناء، ثم تزيدُ من سُرعتها دون أن تدريَ أن على ظهرها عيوناً دامعةً وقلوباً حزينةً، ونفوساً ولهى، تذوب أسىً كُلما أَوْغَلَتْ في البُعد أو راحتْ بيروتُ والجبالُ تتوارى عن الأنظار... كان كُلُّ شيءٍ حوله ساكناً حتى في داخله، كان صمتٌ مُطبقٌ يرينُ على نفسه، يُحاولَ أن ينظر إلى زبدِ الماء تُشكِّلُهُ الباخرةُ خلفها، وهي تفري الصفحةَ الزرقاءَ وتُلاحقُها طُيورُ النّوْرَس... وأدرك أنّه ينظر ولا يَرى، يستجمعُ ذكرياته التي راحتْ تتزاحَمُ وتتوالد في خاطره، حتى لكأنّه خارجَ الزمان والمكان... لم يدْرِ كَمْ مضى عليه من الوقت وهو يشهدُ الأحداث ويتوقَفُ كسيراً متألماً في لحظات الوداع عندما ساد السُكون وغامت الرؤيةُ وضاقتِ الأنفاس... وهؤلاء الصغار ما ذنبُهُمْ

حتى يَتْرُكَهُمْ؟! هو يُحبُّهم حتى العبادة ويخشى عليهم من نفحةِ النسيم، يشتاقُ إليهم وهم بِجانبه ولا يستطيع عنهم ابتعاداً ويتساءل كيف سمح لنفسه أن تتَّخذ قرار السفر فقد كان عليه أن يتمهّل قليلاً... وتمنّى لو ينتقم من نفسه... أتُراه يستطيع أن يُكمل... لكنه استفاق من ذهوله على قطرتين من نار تحرقان خدّيْه... هو الآن في بداية رحلة العذاب يتعاركُ مع الندم المُضني وآلام الاغتراب!... وعلى ظهر الباخرة كتب قصيدته (لولا الصراحة).

حطَّمْتُ أقلامي وعِفْتُ محابِري ... ومسَحْتُ بالقرْطاس نَعْلَ حذائي!!
مالي وللأقْلام بين معاشرٍ ... سَخروا من الأقلام والأدباء
كم مرة أسمعتهم شِعري وما ... شِعري سوى الإلْهام والإيحاءِ
فتجاهلوه - كملحدين - وأعرضوا ... بِصلافةٍ عنهُ وباستعلاءِ
فكأنَّني مُتكسبٌ أو سائلٌ ... يتلو مدائحَهُ على البُخلاءِ
يا شِعْرُ حسبُك قد صحبتُك بُرْهةً ... أسْقيكَ ذَوبَ مدامعي ودمائي
ماذا جنَيْتُ سوى التعاسةِ والشقا ... وعداوة الأوغاد والسُّفهاء؟!
حَمَّلْتَني عَلَمَ الإباءِ بموطنٍ ... قاموسُهُ لَمْ يَحْوِ لفْظَ إباءِ
فجعلتَني هدفاً لِكُلِّ رزيةٍ ... ولِكُل نائبةٍ وكُلِّ بلاءِ
وطنٌ بِهِ راحَ الرِّياءُ فليتني ... بدّلْتُ ثوبَ صراحَتي برياءِ
لولا الصراحةُ ما رأيتُ أحبّتي ... وأقاربي ومعاشري أعدائي!!
ورأيْتُ من أبكي على "حِرْمَانِهِم" ... سيفاً لحربي في يد الجهلاء!
لولا الصّراحةُ لم يضِقْ بِي موطِني ... وَهْوَ الفَسيحُ الرّحْبُ للغُرباءِ
لَوْلا الصراحةُ ما أثرتُ هياكلاً ... - زَعَمَ الجدودُ - بأنهم زعمائي
ولما رأيت "عمائماً" مأجورةً ... تُفْتي بتكفيري وسفك دمائي!!

وإلى القارة السوداء في سنة ١٩٣٩، وصل أبو عدنان... لقد تغيَّر كل شيء عليه: اللغةُ والناسُ واللونُ والبيئةُ والمحيط... ها هو في المقام الجديد... غريبٌ، وحيدٌ... على مَن يتلو مزاميره، ويبثُّ لواعج نفسه؟ بالأمس كان يتلو القصيدة، فيتداولها الناس،

يحفظونها كما الأدعيةُ والتراتيلُ، ويردّدونها في مجالسهم وندوات "شايِهِم" وأُنْسِهِمْ – أما اليوم فلا الناس ناسُه ولاالبيئةُ بيئتُهُ، ولا المحيطُ محيطُهُ...

... هو اليوم غريب غربةً بعيدةً طويلةً لا أفقَ لها ولا قرار...

هو اليوم مهاجر تفصله عن بلده وأسرته ورفاقه مسافاتٌ تتوالى خلفها مسافات، وتحول بينه وبين وطنه أوطانٌ تُجاورها أوطان...

هو اليوم مُغترب في بلادٍ قصيَّةٍ، وبين أناس يختلفون لوناً وعِرْقاً ومِزاجاً وتفكيراً عن ناسه!

بالأمس كان بين أهله رائدَ انتفاضتهم، وحَاديَ موكبهم، وطليعةَ ركبهم... يُردّدون شعره، يُغنّون قصائده، يُجيبون دَعْوَتَهُ، ويحرسونه بالأفئدة وأهداب العيون.

أما اليوم فلا الناس ناسُهُ، ولا الديار ديارُه، هو حزينٌ حتى الموت، ضيِّقُ الصدر، تشتعلُ أشواقه وتلتهبُ ذكرياته، ويرينُ على نفسه سوادٌ قاتم لا يدري إذا كان لونَ العتمة الجاثمة على ذاته أم لونَ البَشَر الذين صبغتْهم به الشمس الحارقة...!

إنه في أول الطريق لم يكد يطأ أرض سيراليون ولمَّا يُعانِ بعدُ وجع البعاد وجحيم التشرد وهموم الغد المجهول.

الافـريـقـيـات

وطيء أبو عدنان أرض أفريقيا في سيراليون حاملاً أحزانَهُ وذكرياتِه، وله هناك أقارب وأصدقاء، أبناءُ بلدته، أقاربُ زوجته، وعددٌ كبيرٌ من المغتربين من صور والنبطية وجويا وحاريص وعين بعال والرمادية ومن كل جبل عامل – صحيح أن البعض استقبله ورحَّبَ به ودعاه إلى بيته... لكنه مع مرور الأيام أدرك صعوبة المعاناة بدءاً باللغة مروراً بالعمل وانتهاء بالإقامة... هو انقلاب كبير في نمط الحياة من الصعب التكيف معه في هذا السن.

...سميري بالنهار به فحيحٌ — وأمّا الليل "قعقعةُ" القرودِ
وألبَسَنِي لباساً مَنْ رآه — تَوَهَّم أنني بعضُ الجنود
وسلَّبني هواهُ المالَ حتى — غدوتُ أحبُّ -للمال- اليهودي!!!
أأُعذَلُ أو يعنّفني صديقٌ — إذا حطّمتُ قيثاري وعودي؟
وَصُنْتُ مدامعي وجعلتُ يو — م النوى والبعد عندي يومَ عيد!!

في تلك الأيام كانت الحياة في افريقيا غيرَ ما هي عليه اليوم... نحن في مطلع سنة ١٩٣٩ كانت البلاد مستعمرةً انكليزيةً وكانتِ الأريافُ فيها دونَ كهرباء ودون ماء، والطرقاتُ غيرَ معبّده وغيرَ آمنة، والمقيمون البيض ينظرون بفوقية إلى الزنوج سكّانِ البلاد ويستغلونهم في العمل والخدمة في المنازل ويستثمرون كلَّ شيء تطاله أيديهم...

ونحن هنا في بلادنا ننظر إلى المغتربات الافريقية كمجالات عمل ومصدر ثروة، يترك واحدنا بلاده ويذهب للعمل هناك، حتى إذا مرت سنواتٌ يبدأ الحديث عن غناه وكثرة ماله...

هذا الوضع لا يصح تعميمُهُ على كل المغتربين، فالغنى السريع هو أحياناً موضعُ شبهة ومحطُّ تساؤلٍ ومثارُ تعجّب... هناك عدد من هؤلاء المغتربين لا يوفَّقُ في عمله، أو في صحته، أو في مصدر رزقه، يعيش على حافة الحاجة، أو عند حد الاكتفاء... في الهجرة إلى أفريقيا أو سواها علينا أن نتطلع إلى الوجه الآخر المستور... نحن في بلادنا نتصور أن المغترب إنسان مليء، غني، يملك المبنى والسيارةَ والمالَ الوفير ولا

نعرف أن هنالك كذلك مغتربين ليس معهم ثمنُ تذكرة العودة...

المهم أن أبا عدنان عمل في ريف سيراليون (في البرّ كما يقولون) وفي التجارة مع صديق لبناني من جويا إسمه أسعد فواز... وهو أساساً لم يخلق تاجراً، وإن بدأ مطلع حياته تاجراً...[١]

والتجارة أساساً مهنةٌ لها أربابها وموهوبوها ومغامروها وملوكها وأصحاب الحظوظ، أما الذين - يفرض عليهم القدر تعاطيها- دون أن يتمتعوا بالحس التجاري شأن شاعرنا -- فيبقون على هامشها ولا يكادون يكسبون ما يكفيهم؛ تماماً كمن يمشي عكس السير:

خلِّ التجارة للتجار فالشعرا   لا يحفلون أَقَلَّ المالُ أم كَثُرَا!!

بيتٌ من الشعر لو "قارونُ" قايضَهُ   بنصفِ ما ملكتْ كفّاهُ ما ظفرا!!

هدف التاجر أن يطوِّرَ عملَهُ ويحقِّقَ الأرباح المادية ويصبحَ غنياً ورجلَ أعمال مرموقاً، ربما تؤهِّلُهُ نجاحاتُهُ لأن يلعب دوراً سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً، أما رجل الفكر - سواء أكان شاعراً أو عالماً أو أديباً - فيبدو طموحُهُ مختلفاً... هو لا يعتبر المال مقياساً للسعادة، ولا هدفاً سامياً، وإنما وسيلة ضرورية للعيش؛ فالغنى لا يعني وَفْرَةَ المال الجمِّ بل هو يتجلّى في تحقيق الذات وتفتح الموهبة ونبل العطاء ومجد الكلمة... "قارون" ذهب مع خزائن ماله، كما ذهب كُلُّ الأغنياء مع أموالهم، ولم يبقَ لهم أيُّ ذكر، وبقيَتْ مُشْرقةً على صفحات التاريخ أسماءُ العلماء والشعراء والأدباء... تعالوا نستذكرْ قصة "أبي دُلَف" عندما أجاز شاعراً مدحه وأجزل له العطاء، واعترضت زوجُهُ مُستهجنةً ضخامة المبلغ! ومرّ ليلةً في أحد شوارع بغداد برفقة امرأته، فسمعا غناءً شجياً ينبعث من أحد البيوت:

إنما الدُنيا أبو دُلَفٍ   بين باديهِ ومُحْتَضَرِهْ

فإذا ولّى أبو دلفٍ   ولَّتِ الدُنيا على أَثَرِهْ!!

التفتَ إليها وقال: تَعَجَّبْتِ بالأمس...! لقد ذهب ما أعطيناه وبقي ما أعطانا!!

موسى الزين كان يقول: إن مال "قارون" لا يعدل بيتاً من الشعر، هذا هو الغِنى الحقيقي الذي لا تقوى عليه الأيام ولا تطال خلودَهُ الأحداثُ... ألم يقُلْ بالأمس عبد الحسين عبد الله في ذكرى حسن كامل الصباح:

---

(١) مقابلة مع د. اسماعيل عباس ومع السيد شريف هاشم (مغتربين كانا في سيراليون).

كُوخٌ يَشِعُّ جبينُ العبقريِّ بـه | أسمى وأكرمُ من قصرٍ حوى صنما
أعمى المعرَّةِ يبقى ذكرُهُ أبداً | ويَطْمِسُ الدهرُ هاروناً ومُعْتَصِما
... سيذهبون ويبلى ذكرُهُمْ معهم! | وأنتَ تبقى على الأجيال محترما!!

وبقي موسى الزين في اغترابه مسكوناً بالحنين إلى وطنه وبلدِهِ وناسِهِ وأسرتِهِ، وأرسل لصديقه الحاج علي بيضون المهاجر إلى بقعة أُخرى من القارة السوداء (السنغال)، هذه الأبيات:

بـلادٌ كُـلُّ مـا فـيـهـا يُـنـادي | بأعلى الصوت بالقلم العريضِ
لكلِّ مهاجرٍ فيها غريبٍ: | "بلادُ السودِ لم تُخلق لبيضٍ"
جسومكُمُ النواعمُ ما برتْها | يدُ الباري مراتعَ للبَعوضِ
ولا خُلِقَتْ - لترمُقَها ذكاءً - | لعينِ الحاقدِ الخصم البغيضِ
دعوني وارحلوا أو بين ميتٍ | - مصيركُم المحتَّمُ - أو مريضِ

وقد مرّ حينذاك بصعوبات مادية كانت تزيد من مُعاناته وآلامه:

... عجباً جفاءَكَ للطِّلى والكاسِ | يا وارثَ الخيّام والنوّاسي
أيُ الشيوخِ عليكَ حرَّم شُربَهَا | ما للشيوخ وشاعرٍ حساسٍ؟!
فأجَبْتُهمْ: ما تُبْتُ من فتوى ولا | كان الشيوخ وناسُهم من ناسي
بل تُبْتُ عنها - رغم أنفي- عندما | جيبي شكا لسماحةِ الإفلاسِ
هذا الذي -وأنا الأبيُّ لحُكْمِهِ - | طأطأتُ كالولد المهذَّب راسي!!

وتعاتِبُهُ إحداهن على ترك موطنه ومجيئه إلى افريقيا ويتذكَّرُ ناسَ بلاده المقهورين من المعذَّبين المطبِّلين لزعمائهم والساكتين على هوانهم ويرى وحدة الحال بين ناس بلاده وناس أفريقيا:

... تعاتبني وقد فارقْتُ قومي | وأوطاني إلى البلدِ البعيدِ
تقول أراك ما أذْلَلْتَ دمعاً | على وَطَنِ الأبوَّةِ والجدودِ؟!
ولا أبرَزْتَ غانيةَ القوافي | غداةَ البينِ لاطِمَةَ الخدودِ

فقلت لها علامَ النَّوحُ إني رَحَلْتُ من العبيد إلى العبيدِ!!؟
أراني بينَ قومٍ مثلِ قومي تُديرُ أمورَهُمْ كَفُّ العميدِ
... هنا أَرْضَى الحياةَ فلا زعيمٌ تُساقُ له الغلالُ بكل عيدِ!
ولا ذو عِمَّةٍ يبكي حسيناً رياءً وهو أقْطَعُ من "يزيدَ"!
دعيني من عتابِكِ لا تثيري كمينَ الوجْدِ مني أو تزيدي...
أَيُبكَى موطنٌ يُشقي أديباً ويُسْعِدُ كلَّ غِرٍ أو بليدِ؟!
بَكَيْتُ عليه قِدماً فاستباحَتْ - ولم تَخْجَلْ - مشايخُهُ و ريدي
لحاهُ اللهُ كَمْ ناديتُ فيه لينزعَ عنْهُ أبرادَ الجُمودِ
فلمْ يَزْدَدْ سوى جهلٍ وذُلٍ كأنّي كُنْتُ أهتُفُ في جليدِ!!!
وَكَمْ - حُزناً عليه - أَذَلْتُ دمعي سَخيناً فالْتَقَاني بالصّدودِ
وَهَامَ بِحُبِّ قومٍ سلَّبُوهُ إلى أنْ بات مهزلَةَ الوُجودِ
وَكَمْ قاسيْتُ سِجناً واضطهاداً وَجَرَّرْتُ الثقيلَ من القُيودِ
فأولاني على الإخلاصِ غاباً أعيشُ بِهِ كَجانٍ أو شريدِ!!

في افريقيات أبي عدنان حنينٌ حزين، وشوقٌ كامنٌ، وأسىً دفين، وثورةٌ مكبوحةُ الجماح، تتلظّى وتظهر كعتاب المحبِّين المتأرجح بين الرضى والخصام... والمهاجرُ - اضطراراً أو اختياراً - مسكونٌ بهذا النوع من حبِّ الوطن، بهذا المرض الحميد، الذي يلازِمُنا كأنفسنا، ونرتاحُ لأعراضه وأوجاعِهِ وعذاباته، تماماً كحالِ العاشقين في معاناتهم مع كل لقاء أو فِراق...

أرسل لصديقه الشاعر الحوماني هذه القصيدة بمُناسبة إصداره ديواناً أسماهُ (فُلان) تعرَّض فيه لرجال الدولة فصودر وأُحرِق:

أخي إني كما تدري أديبٌ له في كلِّ مضمارٍ رهانُ
ومثلُكَ شاعرٌ إن قلتُ شعراً فما الْماسُ الثمينُ وما الجُمان؟!
ولكنِّي "كَأَنْتَ" أبيٌّ ضيمٍ وقومي قومُ من غشّوا ومانوا
لذا هُجِّرتُ أو غادَرْتُ أهلي وأرضاً دونَ متْعَتِها الجنان

وأطفالاً - على رغمي- صغاراً لبُعدي عنهُمُ ذلّوا وهانوا!!
كما لا قَيْتُ بُؤسَ العيشِ لاقوا ومِثلي لوعةَ الهجران عانوا
إذا المُستعمرونَ رأوا دموعي ودمعَهُمُ - غداةَ البَيْنِ- لانوا
لأرض السودِ مثلَ السودِ أشقى ومِثلَهُمُ أحَقَّرُ أو أُهانُ
كفاني من نوائبها بأني كأني أبْكَمٌ مالي لسانُ!!
دواماً بين أهليها وبيني إذا رُمْتُ التكلُّمَ تُرجُمانُ!!

وفي سنة ١٩٤٢ في ذكرى عاشوراء وقف أبو عدنان يخاطب الحسين.

شهيدَ الابا! ماتَ الإبا في نفوسِنا وها نحنُ في كفِّ المطامعِ مغْنَمُ
لنا موطنٌ "سبحانَ باريهِ" جَنَّةٌ يُضَامُ بنوهُ والغريبُ منعَّمُ!!
نكابِدُ فيه الهولَ والذلَّ والشقا ولا مُشْتَكٍ منّا ولا مُتَظَلِّمُ
فَمَنْ يشتكي عَسْفَ الطُغاةِ وجَوْرَهُمْ من العَيْشِ في جنّاتِهِ الخُضْرِ يُحرَمُ
وتحويهِ أعماقُ السجون كأنَّه شقيٌّ وجانٍ، قاتلُ النفْسِ مُجْرِمُ
فيا أيّها الشَعْبُ الحبيبُ إلى متى تضامُ ليَهْنا الشيخُ والمتزعِّمُ؟!
... يُذيبُ فؤادي أن أراكَ معذَّباً طعامُكَ زقُّومٌ شَرابُكَ عَلْقَمُ
رويدَكَ أصفادُ الحديدِ تحطَّمَتْ وقَيْدُكَ من وَهْمٍ ولا يَتَحَطَّمُ!!!
فَثُرْ ثورةً إما النعيمُ وراءها تعيش بها حراً وإما جهنّم

ويدعو شباب بلاده للتحرر من الانهزاميين

شبابَ بلادي عصرُكُمْ عصرُ قوةٍ وعصرُ علومٍ إعملوا وتعلموا
وخلّوا شيوخاً خانعينَ شعارُهُمْ - حيالَ صعابِ الحادثاتِ - تظلُّمُ
وعن زُعماءٍ لا تسلْني.. فَدَاؤهُ وكُلُّ الرزايا والمصائبِ فيهِمْ
ولولاهُمُ ما في ديارِكَ ثائرٌ ولولاهُمُ ما في ديارِكَ مُعْدَمُ
إذا ما دعا داعي الجديد تأخّروا وإمّا دعا داعي القديم تقدموا!!!
وإن قيل ضحّى ثائرٌ بدمائه لتحريرِ شعبٍ أو بلادٍ تَهَكَّموا!!

وإن قيل عارٌ والبلادُ بلادُكمْ ... يعيثُ بها وَغْدٌ دخيلٌ ويَحْكُمُ
يقولون عينٌ لا تقاوِمُ مَخْرَزاً ... فعيش الشقا والذل انجى وأسلم!!

***

وأرسل لابنته مجديّه من المهجر الافريقي أبياتاً فيها رقّةٌ ودعوةٌ للفرح والغناء والاطلالةِ الحلوةِ على ميادين العلم والأخلاق، وينبِّهُها أن تَبْعُدَ عن المظاهرِ الزائفةِ البراقةِ وتتحلّى بالعلم وقد عَنْوَنَها "أحلى من الحلى":

بُنَيَّةُ إنْ غنَتْ - على الغصن في الضحى ... لزهر الربى والروض - إبْنَةُ طائرِ
فغنّي، فبنتُ الطيرِ إبنةُ شاعرٍ ... تغنّي... وأنتِ مثْلُها بنتُ شاعرِ
وكوني - إذا كانتْ عروسَ خميلةٍ- ... عروسَ النوادي أو عروسَ المنابرِ
وإنْ هِيَ علاَّها الجناحُ فحلّقي ... بطهرٍ وخُلْقٍ فاضلٍ ومآثرِ
وبالعلم إن باهَتْ فتاةٌ بحُسْنِها ... وبالشعرِ والآدابِ باهي وفاخري
وخلّي لبنت العصر - زيّاً وزينةً - ... وبرَّاقَ عقدٍ زائفٍ وأساورِ
أرى العلمَ أحلى للفتاة من الحلى ... وأبهى لها من ماسِها والأساورِ
وأحسنَ للحسناء من حُسْنِ وجهها ... وأصْيَن من أبرادِها والمآزرِ

كما أرسل لها سنة ١٩٤١ هذه القصيدة التي بثّ فيها لواعج قلبه كمغترب، وأبٍ، وانسان، يتذكّرُ مدارج الصبا ويوم الوداع لدُنْ أغرقَتْ بالبُكاء مع أخويها وأمّهمْ وهو ذاهل أمامهم يتحرّقُ كَمَداً ويذوبُ وَجْداً ينظُرُ ولا يستوعُب، وينشُجُ في الأعماق، ولَكَمْ تمنّى الموت قبل هذا الموقف الصعب.

بُنَيَّةُ إن مرّ الرفاقُ عشيّةً ... بصفّ الهوا(١) بعدي فلا تَتَطَلَّعي
فيُشْجيكِ أني لست - يا روحُ - منهمُ ... وعدنانُ أو غسان(٢) في نزهةٍ معي
ولا تذكري يومَ الفراقِ وموقفاً ... دعانيَ كالمذهول أرنو ولا أعي!!

---

(١) منتزه في بنت جبيل.
(٢) ولدا الشاعر.

وانـت تـذيـلـيـنَ الـدمــوعَ وإنـهـــا   لَـنـارُ الـلَّـظـى تـلـكَ الـدمـوعُ بـأضـلـعـي
فـيـا لـيـتَ قَـبْـلَ الـبـيْـن أو قَـبْـل قـطـرةٍ   من الدمعِ من عينيْكِ لاقيْتُ مصرعي
ويـا لـيـت صـدري شَـفَّ عـمّـا وراءه   لشـاهدتِ قلباً كـالطريدِ الـمـرَوَّعِ!!!

***

بـنـيّــةُ لا أدري أَجَـفَّـتْ مـيـاهُـهُ   أم اخْضَرَّ من بعدي وأورقَ مـربـعـي؟!
فَلَوْ أنْصَفَ "القُنْدَوْلُ" مـا بَانَ زهْرُهُ   ولـو أنْصَفَ الـريْـحـانُ لـم يـتـضـوّعِ
ولو أنصفَتْ تلك السواجعُ في الضحى   -لِبُعْدي- على أفنانها لم تُسجِّعِ!!
... وهل نَسِيَتْ تلكَ المرابعُ شاعراً   أعـادَ لـهـا بـالـشـعـر أيامَ مـربـعٍ[1]؟!
وهل نسيت صوتاً علا في ربوعها   فدوّى كقصفِ الرعْدِ في كلِّ مسمعِ؟!
فـأيْقَظَ مَنْ نامـوا سنيناً على الأذى   فـهـبّـوا كـهـوجـاءٍ من الـريح زَعْـزَعِ
ودمَّـرَ طُـغـيـانـاً عـريقـاً بـربـعِـهِ   تَـنَـقَّـلَ مِـنْ طـاغٍ دَعِـيٍّ إلـى دعـي
بـشـعـرٍ - حـمـاه الـلـه - كلُّ بيـوتِهِ   زئـيـرُ هـصـورٍ أو قـذيـفـةُ مـدفـعِ
فـفـي كـلِّ بـيـتٍ هَدْمُ ظُلْمٍ وظـالـمٍ   وفي كلِّ بيت سَحْقُ وغدٍ ومـدّعي!!

***

بـنـيّـةُ لا يُحْزِنْكِ بُعْـدي فـإنـنـي   هـلالٌ فـأنّـى كُنْتُ أُفْقي ومَطْلَعي!!
ولا تـطـلـبـي مـنـي دمـوعـاً فـطـالـمـا   تَـمَنَّتْ صـروفُ الـدهـر رؤيـةَ أدمـعـي
أأبـكـي كـمـا يـبـكـي الـجـبـانُ تـولُّـهـاً   وفي جـانـبـي يـجـثـو جنانُ سُـمَـيْـدَعٍ؟
ولا تـعـذلـي الأيـامَ إن عَضَّ صَـرْفُـهـا   فـتـىً كـأبيك فـاضـلِ الـخـلـق أَلْـمَعي
بنو المجدِ أهدافُ النوائبِ فانظري   أفي الناس حُرٌّ غيرُ شـاكٍ ومـوجَعِ؟!
وقـولـي لـهـذا الدهـر إني - كـمـا ترى -   أَشَمُّ، فـمـا شـاءَتْ صـروفُكَ فـاصنعِ
فما اعْتَدْتُ صَفْوَ العيش يوماً ولا حلا   طعامي ولا كاسي ولا لانَ مَضْجعي!!!
فَمَنْ عَشِقَ الـعـلـيـاءَ يشقى ومن أبى   فـمـا هـو إلاّ زائـفُ الـحُـبِّ مـدعـي
فـإمـا عـلـوٌّ دونـه الـنـجـم رفـعـةً   وتـاج فـخــار دونَـهُ أُخْتُ يـوشـعِ[2]

---

(١) شاعر أموي.
(٢) الشمس.

وإمـــا جـــهـــادٌ لا يـهـــادِنُ راحـــة　　　فألقى - كما يلقى الأكارمُ - مصرعي

وعندما أعلن الحُلفاء الحرب على ألمانيا بسبب الاعتداء على بولونيا رأى أبو عدنان بثاقب نظره أنه لا فرقَ بين الدول الكبيرة... كلها أسيرة مصالحها؛ وضحاياها دائماً هم الصغار، وما التغنّي بالحرية والديموقراطية إلا عناوين للاستهلاك:

لا هـتـلَـرٌ بَـرٌ ولا الـحـلـفـــاءُ　　　الكلُّ في هـضم الضـعيف سواءُ
بولونـيـا... لا يخـدعنْك بُكاؤُهُمْ　　　لـولا الـمـصـالِحُ مـا هُناك بُكـاءُ
الـكُـلُّ ذئـبـانٌ. أُعـيـذُكِ مِـنْـهُـمُ　　　وأُعِـيـذُ قـومي والضـعـيفُ الشّـاءُ
هـذي فلسطينٌ تسيلُ دمـاؤها　　　وتَـئِـنُّ تحـتَ تُرابها الشـهـداءُ
مـا بـالُـهُمْ وَصُراخُـها بلغَ السـما　　　آذانُـهُـمْ عـن سَـمْـعِـهـا صـمَّـاءُ
مِـنْـهُـمْ بِـهـا فـي كُـلِّ حـيٍ نكبـةٌ　　　وبِـكُـلِّ بـيـتٍ مــأتَـمٌ وعـــزاءُ
غُـربـاءُ فـيـهـا أهْلُها وبـربيعـها　　　يـتـنـعـمُ الـشُـذّاذُ والـغُـربـاءُ!!
... ضعفاءَ هذا الكون لا يَغْرُرْكُمْ　　　دمعُ القـوي فـإنـمـا هو مـاء
أنتمْ غنيمـتُـهُ سواءٌ في الـوغى　　　والحربِ أو في السلمِ يا ضعفاء
لا تـلـمـسـوه وإن ألآنَ فـإنّـهُ　　　عـند الحـقـيـقـة حـيَّـةٌ رقطاء
لا تسألوا الدكتور عن داءِ الورى　　　فـالانْكـلـيـزُ هُـمُ البَـلا والـدّاء
منهم تعلَّمَتِ الـثـعـالب رَوْغَـهـا　　　وتـعـلّـمـتْ تلوينَـهـا الـحِـرْباءُ
باسم السلام يحاربون وباسمه　　　يـسـتـعـمـرون وهـمْ لـه أعـداء!!

أثناء وجوده في سيراليون ظلّ موسى الزين متابعاً للقضايا العالمية والشؤون الوطنية ويتجلى ذلك في مجموعة من قصائده التي كتبها هناك، كما عمل على توحيد الجالية وقام مع النائب رشيد بيضون والصحافي كامل مروّة بالتجوال على المغتربين اللبنانيين في افريقيا وجمعوا التبرعات للمؤسسة العاملية(١).

(١) (بنت جبيل الشاعرة). الدكتور رامز الحوراني، ص ٣٢٤.

العودة إلى الوطن

ومرت سنواتُ الحرب ثقيلةً طويلة ... وقرر شاعرنا أن يعود وكان لبنان قد استقل وأصبح عضواً مؤسساً في الجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة ووصل إلى الحكم كثيرٌ من رفاق أبي عدنان، وتبرعّت الجالية اللبنانية بمبالغ للسلطة اللبنانية، حملها معه وسلمها بموجب ايصالات في حينه... كانت بادرةً متواضعةً لاقَتِ الاستحسانَ والتقديرَ - عاد إلى الوطن سنة ١٩٤٦ بعد غياب قارب الثماني سنوات وقد كبِرَ الأولاد، البنتُ مجديّه في مقتبل الصبا، وعدنان في الثالثةَ عشْرةَ وغسان في الحادية عشرة... استقبلته بَلَدُهُ ومنطقته ورفاقه بفرح الابن والرفيق العائد بعد طول غياب... كنتُ ترباً لصغيره غسان... لا أزال أذكر تلك المناسبة، والبيتَ الذي لا تهدأ حركته، والقصائد التي تلقى ترحيباً، والفرح الغامر، وقدوم الكثيرين للمشاركة بالتهنئة، سياسيين وأدباء وشعراء...

ومرّت الأيام تترى، وهدأتْ موجةُ الترحيب والتهنئة بسلامة العودة، "راحتِ السكرةُ وجاءت الفكرة" وتطلع أبو عدنان فإذا الكثيرُ الكثيرُ على حاله إن لم نقل أكثر سوءاً... ففي العهد الجديد تعاظم دور النفوذ السياسي للزعماء الجدد... الناس ما زالوا قطيع الزعيم. الذي ازداد تكبراً وتجبراً والسلطة ما زالت أسيرة التوازنات والمصالح الخاصة، الفساد عشش وفرخ وأقام في مكاتبها، والمحسوبيات استشرت وتفاقمت، والطائفية تأصلت وتعمقت، وأصبح لها مناصروها وأحزابها، وظهرت طبقةٌ جديدة في المجتمعات متجانسة مع الواقع الجديد في استغلال المواقع واستثمار المصالح... وإذا كان المستشار قد ذهب مع نهاية الانتداب، فإن "مستشارين" جدداً راحوا يمارسون الأدوار ذاتها، بشكل أكثر بشاعة في العهد الجديد. وقديماً قال الشاعر:

رب يوم بكيتُ فيــه فلمّــا   صِرْتُ في غيرِه بكيْتُ عليه

هذه التساؤلات أخذت معها موسى الزين في دُوار عنيف وإحباطٍ موازٍ للآمال التي كانت معقودة

... كانت الصدمة كبيرةً، مضنيةً... هي صدمة المُثُل العليا مع هُزال نفعيّة الواقع أو صدمةُ أصحابِ القضية عندما يسرِقُها تجّارُ الهيكل... ثم يرتدّون عليهم ويغتالونهم مع القضية...

كان على أبي عدنان أن يبدأ من جديد...

سُقيتَ الغيثَ عهدَ المستشـــارِ على ما فيكَ من خزي وعارِ!!
فَعُدْ وامشِ على جثث الضحايا ودمِّرْ مـــا تَرَكْتَ بلا دمـــارِ
وشـــرِّدْ عن حمانـــا كلَّ حـــرٍ ووارِ في سجونِكَ من تواري!!

هذه الفترة من حياة الشاعر توزَّعتْ على جبهاتٍ عديدةٍ كان أبرزَها الصراعُ مع النفوذ السياسي في جبل عامل... وقد ارتفع صوته مع ضراوة المعارك الانتخابية وتعرض الشاعر فعلاً لمحاولة اغتيال نجا منها بالصدفة لأن ضيفاً نام تلك الليلة في سريره وحضر رقيب الدرك واعتذر منه قائلاً لو كان عندنا كلابٌ بوليسية لعثَرْنا على الجاني فوراً فأجابه الشاعر لو كان عندنا ما ذكرتم لعثرنا على الدولة أولاً!!.

الصدام مع النفوذ السياسي

في مهرجان انتخابي لا أزالُ أذكرُهُ - رغم طفولتي - وقَفَ موسى الزين بقامته المعهودة بكل حماسة وتحدٍّ يعنّف الزعيم السياسي ويذكره بمواقف مترجرجة ويحمل عليه وعلى تاريخ العائلة وسِجلِّها الحافل "بالمآثر".

حطّمْ حسامَكَ فاليراعُ تجردا أو دَعْهُ طيَّ الغمد يأكلُهُ الصدا!!
ما ريعَ يوماً في أناملِ شاعرٍ أو كاتبٍ قلمٌ وخافَ مهنّدا
يا صاحبَ السَّيْفِ المُدِلِّ بِبَأْسِهِ لِمْ كانَ في تشرينَ سيفُكَ مغمدا؟!
أتَخُيفُ شعباً باسلاً بعصابةٍ ضمّتْ طريداً، مجرماً، متشرِّدا
يا جاعلَ الأجدادِ كلَّ فخارِهِ هلْ أنجبوا عيسى لنا ومحمدا؟!
فيمنْ تفاخرُ من جدودك؟! هل بهم مَنْ شاد يوماً للمعارف معهدا؟!
أو بينهمْ مَنْ في سبيلِ بلادِهِ وسبيل أمته قضى مُسْتشهدا!؟
كنتمْ وما زلتمْ بكفِّ عداتنا سيفاً، فأنْتُمْ والعداةُ لنا عدى!!
لولاكمُ السفاحُ لمْ يفتكْ بنا قِدَماً، ولا عبدُ الكريمِ استُشْهدا!!
لا توقظ التاريخَ دعْهُ غافلاً عنكمْ وإلاّ آبَ وجهُكَ أسودا!!

عادت وتيرةُ التحدي ترتفعُ، وعادَ معها زخْمُ القصائد التي تعبِّرُ عن هذا الصراع

وعاد أبو عدنان مجدداً إلى وسط الحلبة يعارض بالموقف الصامد، والكلمة الصادقة تجري شعراً يسير على السنة الناس أهازيجَ وترانيم... يصف ذلك محمد علي شمس الدين قائلاً: "مثلُ هذا الشعر كان ينتشرُ على الأرض العاملية إنتشاراً سريعاً... فكان يغري الفتيانَ والشبابَ بخاصة لأنه يخاطب في نفوسهم مَلَكَةَ المشاكسةِ والاعتراضِ، لنَقُلْ إنه الرفض... فقد كان موسى الزين شرارة شاعر شعراء الضد، بمعنى أنه لم يجعل شعرَهُ تطريزاً على حاشية الزعيم أو تسويغاً لأحكام السلطان[1]".

بالأمس شَكَوْنا من التركي والفرنسي، شكونا من العَسْفِ والعَنَتِ والقَهر والاذلالِ والتحكّم والمحسوبيات والفسادِ والتجهيلِ والمحاباةِ والفتنِ والقتلِ والتدميرِ والتهجير... أنهكَتْنا هذه الممارساتُ الظالمةُ وألْقَتْ بنا في مجاهل الانحطاط والتخلف، أخَّرتْ تقدُّمَنا، وأضاعَتْ أعمارنا وأعمارَ أبنائنا، وجعلتْنا عالةً على الآخرين...

الغرباء إذا قاموا بذلك، قد نعذُرُهُمْ ونفهم أسبابَ تصرفاتهم لأنهم جاؤوا لأداء هذا الدَّوْر - احتلوا بلادنا لنهب خيراتها واستعباد أبنائها - هذا هو الاستعمار بشكله الواضح الجليّ وخُضْنا معاركنا معه طويلاً حتى أَزَحْنا هذا الكابوس..

وها نحن اليوم في العهد الجديد، فما الذي تغيّر؟ وماذا استجدّ؟

عندما رجع أبو عدنان بعد غيابه القسري تطلع حوله وراقب مسرح الأحداث على مساحة الوطن عامة وفي جبل عامل خاصة، فَبَان له أنه كان بالأمس في فترة الجهاد الأصغر وأنه الآن في معترك الجهاد الأكبر.

هذا جبلُ عامل أمام عينه ما زال بلا ماء ولا كهرباء ولا طرقات، لا سلطةَ فيه إلا سلطة الزعيم والازلام والمحاسيب، ولا سياسةَ إلا سياسة الناطور والمختار، والتجهيل وشراء الضمائر والتنكيل بالخصوم...

هل في سبيل ذلك كان الكفاح والسجن والتشريد ؟

أمن أجل هؤلاء كانتْ كلُّ عذابات النضال ومعاناة التصدي للدخيل؟

أترى جاهد الأبطالُ وسقط الشهداء لايصال هذه الفئة إلى سُدَّة الحكم؟

أين هي أحلام العرب بوحدتهم؟ ولِمَ استشهد يوسف العظمه ورفاقُه؟!

أمن أجل صراع على كياناتٍ مصطنعةٍ ودويلاتٍ على مقاس المتعاونين؟

---

(١) محمد علي شمس الدين، الكفاح العربي، ٨٦/٩/١٥، ص ٥٠.

والشيخ عز الدين القسام... الذي روّت دماؤه أرض فلسطين دفاعاً عن عروبتها... أتراه من عليائه كان يتوقع ما سوف تؤول إليه قضية فلسطين؟؟

كل ما على الساحة يصدمُ ويورثُ الاحباط والكثيرَ من اليأس...

يرى منذر جابر "أن جيل أبي عدنان والشيخ علي الزين ورفاقهما يفترض لنفسه أنه الجيل المصطفى المختار لِنَقْلِ المنطقة إلى رحاب القومية الرضية الهنية حيث لا اقطاعيةَ ولا رجعيةَ ولا استبداد... من هنا كان الشيخ وبعض الرعيل شعراء سيّارين أو ثائرين دعاة، لأن الأدب شعراً ونثراً أظهرُ على الحديث في الأحلام الكبرى: لكنَّ التاريخَ لم يرحمْ ما في صدور الجماعة، فالإنتدابُ الذي جُوبِهَ منذ اقرارِهِ بطلبِ الوحدةِ العربيةِ ما لبثَ أن تكرس... والمعاركُ التي احتسبها الوطنيون في خانَةِ انتصاراتهم لم تَصِرْ كذلك (حركة ١٩٣٦)، والاقطاعُ الذي تبدّى أنه راح إلى غير رجعة، عاد مع الانتخابات النيابية بعد الأربعين على رأس لائحة من أربعةَ عشَرَ مرشحاً أو حسبما كنّى رئيسُ اللائحة أعضاءها أَرْبَعَ عَشْرَةَ عصا راحت تلسَعُ مطلَب الديمقراطية - الكلمةُ التي أحبها الشيخُ وضمَّنها بيان العصبة - وقادة الإنتفاضة الوطنية في جبل عامل راحوا وقد أحسّوا طعم الزعامة تحت أضراسهم يفتشون عن مراقيَ لهم في محافل القيادات العروبية في بيروت التي كانت بدورها تفتش عن هويتها الجديدة في محافل السفير البريطاني الجنرال سبيرز؛ وهكذا فمن طالبِ وحدة سورية مقدّمةً لوحدة عربية شاملة ومن فَرْدٍ يحلَمُ بانتسابِهِ إلى عالمٍ من المحيطِ إلىً الخليج، من كلٍّ ذلكً يذوي الشيخُ عليِ الزينِ ومعه بالطبع كلُّ جيله في منطقة يتيمةٍ من جمهورية لبنان أعني جبل عامل لا يعترف الآخرون - مشاركوه في الجمهورية الجديدة - أن لهذا الجبل حصةً في تاريخهم من قبل، فهو دوماً كاليتيم القاصر له مجالس الصدقة[1]".

إذاً رفاق الأمس الثائرون على الانتداب وعلى المتعاملين معه والطامحون إلى وحدة سورية وعربية توزعوا بين من قنعوا بالمنصب ونعموا بالزعامة التي توصلوا إليها، والتي تتناسب مع طاقتهم ووصوليتهم، وبين قِلَّة بقِيَتْ منسجمةً مع طموحاتها وتطلعاتها ورَفَضَتْ أنصافَ الحلول وانتهازيةَ المواقف..

كما ترحّمَتْ على عهد المستشار عندما أصبحتْ في العهد الجديد وانْتَابَها إحباطٌ زادها تصميماً على متابعة نضالها وإكمال مسيرتها في سبيل المثل التي حملتها والْتَزَمَتْ بها ولم تسقطْ أمام الاغراءات والرشاوى وأنصاف الحلول.

---

(١) مُحاضراً عن: الشيخ علي الزين مؤرخاً، جريدة النهار، ص ٩، ٢١ تموز ٢٠٠١.

مع موسى الزين المنذور للمتاعب

أكثر ما يلفت في شخصية أبي عدنان ذلك القلب الكبير الذي يفيض حُباً، وتلك الروح الشفّافة التي تذوب رقةً، ولا تستطيع أن تشهد حدثاً مؤلماً أو قصة حزينة... والتي كانت تكتنز مخزوناً وافراً من التجارب والمعاناة... ومنها راح يغرف -وهو صاحب ذاكرة مميزة طيّعة - ويسكبُ فرحَهُ ووجعَهُ حروفاً وقصائد لم تكنْ سوى نفسه تسيل على الورق...

أبو عدنان كان ضعيفاً أمام الحُب، وديعاً مع المُتعبين، قريباً من الموجعين، رفيقاً للبُسطاء الطيّبين، يُريحهُ أن يقيمَ معهم، يُشاركُهم مباهجَهم وأشجانَهم، ويُسبغُ باستمرار على هذه العلاقة نداوةَ حنانٍ طالما افتقده صغيراً، حتى إذا اغتنى به كبيراً راح ينشرُ طيب ألَقِه حيثما حلَّ وأقام.

وأبو عدنان كان ثائراً على المُتجبرين، عنيفاً مع الظالمين، صلباً أمام المُستغلين... كان يُوجعه أن يرى الناس غارقينَ في الجهلِ والتخلف والاستسلام... وكان يؤذيه أن يرى إذلالَ الناس وإرهاقَهم واستعبادَهم، يُمارسُها عليهم اصحابُ النُفُوذ ولا تلقى استنكاراً ممن يتوجَّبُ عليهم إدانتها، حتى لكأن حلفاً غيرَ مُقدَّسٍ وغيرَ مكتوبٍ كان يُوحِّدُ بين هؤلاء!!

موسى الزين شرارة كان يعتقد أنه مؤهل ليحمل قضية المعذبين... وأن عليه أن يعمل على إيقاظهم لإنقاذهم، وعلى توعيتهم لتحريرهم، - كما عمل سميُّهُ النبي موسى على إنقاذ شعبه - وأن توراته هي القصائد المُلتهبة التي لا تدع أي فرعونٍ يرتاح!...

وفي غنائيّة منتزعة من الأعماق، جاء شعره صادقاً يُصوّر معاناةَ الناس المقهورين، وممارساتِ السُّلطة واصحابِ النفوذ والملاحقاتِ والصداماتِ والاعتقالاتِ والتشريدَ والنفي... جاءت أشعارُهُ في غنائيةٍ مُشابهةٍ لتلك التي تحدث عنها حلمي عبد المجيد وهو يعرض لشعر شوقي: "هي غنائية شعريةٌ شفافةٌ غيرُ كثيفة تُضيء المعنى ولا تَطمِسُهُ، وتجلوه ولا تُبهمُهُ، وتنقل المشاعر التي تتراءى على هامشِ الموقف في صُوَرٍ، وتتحرك في الواقع الذي يضطرب فيه... وتتوزع توزيعاً مُتقناً في ثنايا بناء الصورة اللفظية... مَثَلُهَا مَثَلُ النوافذ الموزَّعة توزيعاً مُحكماً بحيث تُطل على أجمل وأروع ما يُحيط بالبناء من عمقٍ وامتدادٍ ورحابةٍ وتستوعب أغزر ما يَصِلها من ضياء".[١]

(١) حلمي عبد المجيد، مدخل لدراسة أحمد شوقي (مقدمة صفوة المؤلفات الشعرية- منشورات المكتبة المصرية العالمية للنشر).

هذه العفوية الصادقة، والبساطةُ في الأداء، والسلاسةُ في التعبير، هي التي أعطت لقصائده - وهي تحمل جذوة القضية- أبعادها الاجتماعية والسياسية والثقافية، وجعلتها نوعاً من النشرات الحزبية يترقّبها الناس ويتداولونها ويحفظونها وينشرونها لأنها لسانُ حالهم وقضيتُهم المركزية...

موسى الزين شراره ذلك الطفل الذي عرف اليُتم باكراً في الأيام الصعبة كان منذوراً منذ صغره للمتاعب، ينام على حُداء حزين، ويستيقظ على نواح موجع، فيحمل في ذاكرته صُوَرَ (سفربرلك) والموت المنتشر على عجل وصراخ الوالدة العجوز المتشبثة بولدها أمام المشنقة وهم يلفون الحبل حول عنقه، أو صورة الدركي وهو يقتل عمداً أحد الشباب ويربط جُثته ليسْحَلَهُ وراءه وهو ممتطٍ ظهرَ جواده...

وهو عندما أصبح شاباً نَذَرَ نفسه للتحديات، وواجهتْهُ مآزقُ كان بوسعه أن يبتعد عنها لولا خيارُهُ الصعب... أحبُّ الناس وحمل همومهم وآثر أن يتصدى للسلطة ونفوذ الزعماء وتزمُّتْ بعض رجال الدين، فعرف ظلام السجن ومضايقات السياسيين وضغوطاتِ وفتاوى المتدينين...

هذا "التحدي المختار" أخذ من راحته واستقراره وهدأةِ عيشه وأعطاهُ مقابلَ ذلك طاقةً متنامية في المقارعة، وتصميماً عنيداً على المواجهة، وإيماناً ثابتاً أنه في المكان الصحيح على الدرب الطويل.

كان في قلب ساحة العراك يدافع عن المقهورين، يحرّكُ نضالهم، يحملُ قضيتَهم ويعيشُ أحلامَهم .

اعتبروه خارجاً على القانون فأدْخَلوهُ سجونَهم، واعتبرَهُ غيرُهُمْ متمرداً على إرث التاريخ فضايقوهُ وحاولوا قَتْلَهُ، وعدَّهُ آخرون خارجاً على ثوابتِ الدين فكفروهُ وأهدروا دمَهُ وخَرَجَ من كلِّ هذه التهم اكثرَ تصميماً وعناداً وإيماناً.

وبالكلمة الصادقة الرنّانة الموشّاة، المسكوبة نغماً وسلاسةً وجمالَ أداء صوَّر موسى الزين هذه الأحداثَ شعراً وأجراها على كل لسان شدواً يُترنّم به في سكينة الهدوء أو يُصدح به في مجالس الأنس والسمر.

شعر موسى الزين كما الشهدُ المذاب، - لأهالي جبل عامل كما لغيرهم - هو الصوت والصدى، والزهرةُ والعَبَق، والقصةُ والمسرح...

لهذا كله كان هذا الشعر قريباً كالنَفَس من كل الناس، حتى الذين استهدفَهُمْ كانوا

يردّدونه... شعر موسى الزين بسلاسته، ودعاباته، وسخريته، وما بين سطوره هو جَبَلُ عامل مسكوبٌ في قصيدة لأنه روايتُهُ الجاريةُ على كل لسان.

لم يكن موسى الزين شرارة شاعراً كأترابه - يقول حفيده عماد - يرشو الفكرةَ بل كان يُفاتحها بحبِّه وثورته وبإيحاءاته التغييريّة، فحينما كان يسير كان الجبلُ هو ظهره، والأثلام والإيقاعات خطواته، وكان الناسُ هُم كلّ قصائده...

لقد عرف الناس موسى الزين شاعراً وطنياً تغييرياً له قامة المنبر، وفيه ما فيه من أخلاقه وخصوصياته وتحدّيه وعنفوانه... إنه الذي حمل على كاهليْه عبءَ مقاومة ديمقراطية عزَّ نظيرها في زمنٍ كان الركون والخُنوع سِمةَ الحِقبة ووجهةَ نظر العصر[1].

شعر موسى الزين يتميّز بصفاء عفوي يَنِمُّ عن إيمانٍ ثابتٍ عميقٍ في نظرته للوطن... أمّا عروبته فانتماء تاريخيٌّ حضاريٌّ نظيفٌ لا يقبل المساومة أو المواربة...

تشهد الأرض والسماء بأنا ... عن هوى الشام لحظة لن نحيدا
هي في القلب والحشاشة منا ... فليقيموا حواجزاً وحدودا
وليقولوا أميةٌ وحسينٌ ... وليشقّوا من كربلاءَ اللحودا
في هواها، وفي سبيل هواها ... نرتضي حاكماً علينا يزيدا

وطنياتُ موسى الزين مدرسةٌ أخلاقيةٌ منفتحةٌ حضاريةٌ مترفعةٌ عن كل مثالب العصبيات والتفرقة... بقي طيلة حياته نظيفَ المعتقد رافضاً تجارةَ الأديان والمذاهب والاقتتال العبثي المجّاني المجنون؛ كما بقيتِ القضيةُ الفلسطينيةُ - رغم كل الممارسات - القضيةَ المقدسةَ المركزيةَ في حياته... كان إنساناً متألماً موجوعاً حتى لب العظم في فترة الحرب اللبنانية وحرب المخيمات - كان أفقُهُ واسعاً في تحليل ما حدث وكان يدين باستمرار أخطاء الجميع ويرى أن الوطن هو الباقي وأن العصبياتِ تماثل الالتهابات في الجسد وعندما تزولُ تعودُ إلى الجسد عافيتُهُ ويزولُ الاحتقان والوَرَم.

...يا مَنْ يناصبُني العداءَ كأنني ... وكأنــهُ العربيُّ والصهيوني
دينٌ يفرقنا ويبذر بيننا الـ ... شحناء والبغضاء... ما هو ديني!!

(١) راجع الوثائق المُرفقة في هذا الكتاب.

وقال بحرقة الموجوع مخاطباً وطنه.

هلاّ علمتَ وأنتَ مهدُ طفولتي ... وهواكَ ملءُ جوارحي وجناني؟!
أني - وفيكَ من الجرائم ما أرى - ... اصبحتُ أخجل أنني لبناني!!
أيراقُ فيكَ دمي لأنّيَ مسلم ... لا ذنبَ لي ولأنني نصراني؟
واخجلتي مني كلبناني!! ويا ... خَجَلي كإنسانٍ من الإنسان

مع هذا الرجل الكبير الحكيم كنا نحسّ - ونحن نجتمع إليه ونأنس بحديثه وشعره وجلسته- أنه يسبقُ جيلنا في نظراته التقدمية المتحررة... صدقوني أنه كان - رغم إيمانه بدينه - بعيداً عن التعصب والتفرقة والمذهبية والمناطقية وكلِّ موقفٍ يُقَوْقِعُ الانسانُ نَفْسَهُ فيه... كان يسبق عصره في صفاء تفكيره وبُعْدِ نَظَرِه... " لا أدري لماذا يتولاني الآن - يقول الأستاذ مُنح الصُلح - وأنا أتحدث عن موسى شرارة شعورٌ بأنني أتحدث عن شأنٍ من المستقبل لا شأنٍ من الماضي، لعل السبَبَ هو أننا لِفرطِ غَرَقنا بنتيجة الهزائم في موجة العودة إلى الماضي السحيقِ ومشاعرِهِ وتصوراته وقيَمه السياسيةِ والفكريةِ اصبحنا نرى في كلِّ سياسيٍ أو أديبٍ يحملُ فكراً نهضوياً وجهاً للمستقبل، وكأنَّ مواقفَ موسى وشعرَهُ سلاحٌ جديدٌ لم يُشْهَر بعد، ويجب أن يُشْهَرَ في معركةِ وطنه المُستمرة... هذه المُستقبليّةُ التي لازَمَتْ حياةَ فقيدنا وشعْرَهُ، لم تأتِ من نشأته البيتية وقد توفي والده وهو طفلٌ، ولا من تدريس نظاميٍ وهو لم يقضِ في المدرسةِ إلا سنوات قليلةً وإنما هو مدينٌ بها لطموحه الوطنيِّ الذي عاشَهُ منذُ صغرِهِ إذْ أسلمَتْهُ وطنيتُه بوصلَةَ التقدّمِ وألهَمتْ خيالَهُ وعلّمَتْهُ الجُرأةَ في الفكر وفي القَوْلِ على حدٍّ سواء فكان على الدوام ربيبَها النابهَ، ومُلتزمَها الأمين"(١).

كان موسى الزين شعبياً بامتياز مُلتصقاً بالناس، كُلِّ الناس، بُسطائهم وفُقرائهم، عُمالِهم وفلاحيهم، عجائزِهم وشبابهم... كان يُريحه أن يُشاركَهم جلساتهم، ويُقاسمَهُم أفراحَهم وأتراحَهم، ويُسعدَهُ أن يكونَ و احداً منهم لا يتحرجُ من فارق السن أو بُعْد الموقف الاجتماعي.. " كُنا صغاراً بعد - يقول الشاعر محمد علي شمس الدين - وكان موسى الزين شرارة وهو الجد... كان صاخباً، ودافئاً، لذلك كان قريباً منّا... لم نكنْ نشعر معه بتلك المسافةِ التي تفصلُ الشيوخَ عادةً عن الشبان... وكُنّا كُلما توغّلنا في

(١) جريدة النهار، الاثنين ٢٧/١٠/١٩٨٦.

السنّ، يَصْغُرُ هو في اتجاه الشباب فنلتقي... تراه دائماً مُختبئاً خَلْفَ عينيه الساخرتين، حتى كأنّهُ يقول لنا: انظروا... أو اعجبوا... فنُدرِكُ سِرَّ غَلَبَتِهِ للزمان... إنها السُخرية"(١).

كان يجد سعادةً في مجالسة البسطاء الطيبين من الناس، يشدُّه إليهم انجذابٌ حميم... ويأخذُه فرحٌ غامر... حتى لكأنَّهُ الرفيقُ والصديقُ لكل منهم... وهمْ بدورهم يبادلونه حباً وارتياحاً وانجذاباً... فلا تكلُّفَ ولا غُربةَ ولا تعقيدً أو رسميّات... كانوا قصَّابين يشتري جلودَ ذبائحهم، أو تُجّارَ حبوب يبتاعُ غلالهم، يجتمعون على "مصطبة" أمام بيت أحدهم... فإذا مرَّ من هناك - قاصداً شلَّة رفاقه - يُعرِّجُ عليهم ويُشارِكُهُم على المصطبة جلسَتَهم وأحاديثَهم ناسياً نفسه وموعده... والرفاق هُناك ينتظرون حتى إذا طال تأخره وسأل أحدهم عنه... يضحك علي بزي ويقول: "موسى على المصطبة نسي الموعد ونسينا معه..."(٢).

كان متواضعاً، اجتماعياً، حلو الحديث، حاضر البديهه، سريع الخاطر، قريباً من كل الناس، محباً لهم.

أيها الشعب يا حبيب فؤادي	أنتَ أنتَ المنى وأنت الرجــاءُ
أنا قيسٌ وأنت ليلى غرامــي	لك شِعري وصَبْوتي والغنـــاءُ
فلعينيـكَ للقـوافـي مديـحٌ	ولعينيكَ للقوافــي هـجـــاءُ
ولعينيك هدأتي وســكوني	ولعينيكَ ثورتي الحمـــراءُ!!

يقول عنه الشيخ علي مروه في كتابه روائع الأدب العاملي ص ٢٣٢

"هو شاعر مطبوع على قول الشعر لا ينتزِعُهُ انتزاعاً بل يتدفَّقُ على لسانه تدفّقاً، تشعرُ وأنتَ تقرأُهُ أنه يجري في رفق وهوادة غيرَ قلق أو مضطرب، أو متكلف فتراهُ في شعرِهِ يُمثِّلُ نَفْسَهُ وزَمَنَهُ وبيئَتَهُ ويتحرّقُ شوقاً إلى الحرية، وإلى رفع الظلم عن كواهل مواطنيه وإلى رفع مستواهم وهو في كل ذلك صادقُ الشعور يصف ما به على طبيعته فهو لا يسكت على التعبير وإلا عدّ منافقاً، وإذا كان الإنسان على ثقة من أمرِهِ ونَفْسُهُ حُرّةٌ وهو شجاع فعلامَ يُغضي على القذى أو لا يصارح الناسَ بعيوبهم علّهم يصلَحونها..؟! وله مع ذلك دعابات أدبية طريفة تدلّ على روحٍ مرحةٍ وبديهةٍ طيّعةٍ ونكتةٍ رائعة".

---

(١) الكفاح العربي، ص٥٠، ٨٦/٩/١٥

(٢) مقابلة مع الخال الأستاذ أحمد شرارة، ٢٠٠٢/٣/٢٣

السنّ، يَصغُرُ هو في اتجاهِ الشباب فنلتقي... تراه دائماً مُختبئاً خَلْفَ عينيه الساخرتين، حتى كأنّهُ يقول لنا: انظروا... أو اعجبوا... فندركُ سرَّ غَلَبَتِهِ للزمان... إنها السُخرية"[1].

كان يجد سعادةً في مجالسة البسطاء الطيبين من الناس، يشدُّه إليهم انجذابٌ حميم... ويأخذُه فرحٌ غامر... حتى لكأنَّهُ الرفيقُ والصديقُ لكل منهم... وهمْ بدورهم يبادلونه حباً وارتياحاً وانجذاباً... فلا تكلُّفَ ولا غُربةَ ولا تعقيدٌ أو رسميّات... كانوا قصَّابين يشتري جلودَ ذبائحهم، أو تُجّارَ حبوب يبتاعُ غلالهم، يجتمعون على "مصطبة" أمام بيت أحدهم... فإذا مرَّ من هناك - قاصداً شلَّة رفاقه - يُعرِّجُ عليهم ويُشاركُهُم على المصطبة جلسَتَهم وأحاديثَهم ناسياً نفسه وموعده... والرفاق هُناك ينتظرون حتى إذا طال تأخره وسأل أحدهم عنه... يضحك علي بزي ويقول: "موسى على المصطبة" نسي الموعد ونسينا معه..."[2].

كان متواضعاً، اجتماعياً، حلو الحديث، حاضر البديهه، سريع الخاطر، قريباً من كل الناس، محباً لهم.

أيها الشعب يا حبيب فؤادي	أنتَ أنتَ المنى وأنت الرجـاءُ
أنا قيسٌ وأنت ليلى غرامـي	لك شعري وصَبْوتي والغنـاءُ
فلعينيكَ للقوافـي مديـحٌ	ولعينيكَ للقوافـي هـجـاءُ
ولعينيك هدأتي وسكوني	ولعينيكَ ثورتي الحمـراءُ!!

يقول عنه الشيخ علي مروه في كتابه روائع الأدب العاملي ص ٢٣٢

"هو شاعر مطبوع على قول الشعر لا ينتزعُهُ انتزاعاً بل يتدفَّقُ على لسانه تدفّقاً، تشعرُ وأنتَ تقرأُهُ أنه يجري في رفق وهوادة غيرَ قلق أو مضطرب، أو متكلفٍ فتراهُ في شعرِه يُمثِّلُ نَفْسَهُ وزَمَنَهُ وبيئَتَهُ ويتحرّقُ شوقاً إلى الحرية، وإلى رفع الظلم عن كواهل مواطنيه وإلى رفع مستواهم وهو في كل ذلك صادقُ الشعور يصف ما به على طبيعته فهو لا يسكت على التعبير وإلا عدّ منافقاً، وإذا كان الإنسان على ثقة من أمرِهِ ونَفْسُهُ حُرَّةٌ وهو شجاع فعلامَ يُغضي على القذى أو لا يصارح الناسَ بعيوبهم علَّهم يصلحونها..!؟ وله مع ذلك دعابات أدبية طريفة تدلّ على روحٍ مرحةٍ وبديهةٍ طيّعةٍ ونكتةٍ رائعة".

(١) الكفاح العربي، ص٥٠، ١٥/٩/٨٦

(٢) مقابلة مع الخال الأستاذ أحمد شرارة، ٢٣/٣/٢٠٠٢

حياة موسى الزين هي حياة النضال والكفاح ضمن خط وطني سليم نظيف وقد وقف شعره على ذلك فلم يهادن أو يساير وهو القائل

ليس فـــي قولكَ معنىً | إن مضى من غيرِ ضَجَّةْ
إنَّ قولَ الحـقِ يبقـــى | في فمِ الأجيال حُجَّـــةْ
كنْ علـى الظالم ذئبـاً | ومَـــعَ المظلـومِ نَعْجةْ
واجعلِ الصـدقَ سـفيناً | إنْ رأيتَ الكـذبَ لُـجَّةْ

... والالتزام بهذه المواقف يستتبع تحمل المتاعب الناتجة عنها، والثبات وعدم التردد:

قُـل لقـومٍ يُهـددونـي بموتـــي | مُذ تعالـــى يُمجِّد الحَقَّ صوتـــي
ليسَ حُلمي في العيش هذا! ولكنْ | أنـا حُلمي: أعيـــشُ من بعدِ موتي!

هذا الحلم بالخلود بعد الممات، هو حلم العاشقين للأرض، حاملي لواء النضال، الأوفياء بطهارةٍ لمبادئهم وشعاراتهم، الشهداء الأحياء...

"وأكثر الناس مشاركةً للسماء في قرار الموت هم الشهداء -قالها الرئيس نبيه بري في ذكركاك يا أبا عدنان- كأني بالشهيد قَدَمٌ على الأرض ويدٌ تعبثُ في مزلاج الخلود...

يَرْفُضُ النسر رقدةَ الموت إلا بالأعالي الشُمّ من القمم، كما المقاومُ الحقّ يرفضُ الشهادةَ إلا في أقرب موقع التحام... وهو بين اثنتيْن: بندقيتهِ وأرضهِ، يرفعُ الأولى، وتحتضنُهُ الثانية...

موسى الزين شرارة عاش طويلاً لكنه مُقاوم لم يسقطْ في ساحة الوغى؛ لكنه بقي النّسرَ الذي رفضَ الموت إلا في بنت جبيل، موئل شعره المقاوم...

وإلى الأرض التي ناشدها وغنّاها وحنا عليها في العهد التركي والانتداب وعهد الاستقلال، صعد مُتحدياً وأصرَّ ألا يموت إلا في عصر المقاومة...

وبعد أن شاهد بندقيته تتعالى في الجبل الذي شكّل عروس أشعاره، عَلِمَ -وهو العاشق- أن عِشْقَ الشهادةِ لا يكونُ في الموت على بندقيةٍ وحسب بل على بيتٍ من شعرٍ مقاوم، وفي بيتٍ هُناك ينتظر التحرير...

موسى الزين شرارة تواصلٌ نفخر به بين قديمنا والجديد.

شاعراً عاش وشهيداً قضى[١]"

... ويوم جيءَ بجثمان المخترع اللبناني الكبير حسن كامل الصبّاح تمنّع بعض رجال الدين عن المشاركة في التشييع بحجة أنه تعلم في مدارس الغرب!! وثار الشاعر على هؤلاء مستنكراً هذا التخلف ومعنّفاً على هذا التفكير السخيف

وضَعَتْني الأقدارُ ما بينَ قومٍ ... لا يراعونَ ذمةً للضميرِ

يعبُدون القويَّ لا لخلالٍ ... ساميات ولا لعلمٍ وفيرِ

إن شعباً يرى التطوّرَ كفراً ... ويداوي عليلَه بالنذور!!

ويرى العلمَ والفنونَ فساداً ... لهْوَ أولى الورى بسُكنى القبور!!

انا أخشى أن لا يلبّي إذا ما ... نبّهُ اللّهُ خَلقَهُ للنشور!!!

"... يُمثّل الشعر الاجتماعي – يقول الأستاذ حسن علي شرارة – مساحةً كبيرةً في قصائد الشاعر شرارة لأنه لم يفصل يوماً عملية الحرية والتحرر والتحرير عن الوعي الاجتماعي ويعتمد في نقده الاجتماعي السخرية المهذبة خاصة وأن الانتداب الفرنسي كان يقف بقوة لدعم الاقطاع والتخلف والرجعية الدينية التي تعمل بعكس الدين نفسه وجوهره وحقيقته[٢] ... يروي موسى الزين أنه التقى يوماً بصديقٍ له هو سعيد جابر، أخبَرَهُ أنه صادف تلميذاً من أبناء أحد معارفه يبكي فسأله فيمَ يبكي، فقال له: "أتى الشيخ إلى بيتنا وصادف أن رأى كُتبي المدرسية وبينها ما هو بالفرنسية، فقال لأبي: "أتُدخل كُتُبَ الفساد إلى بيتك، لتعلّم أبناءك الكُفر؟! ثم عمد إلى كُتُبي فبدأ يُمزقها، وأبي يُمزق معه حتى أتيا عليها فقُلت:

حسِبْتُ (عاملَ) في بلواهُ منفرداً ... إذ حرّم الشيخُ فيه رؤيةَ الصُّحفِ

حتى سمعتُ وبعض الصحب أكّدَ لي!! ... بأن ذلكَ مأخوذٌ عن النجفِ

عجبْتُ من لجنةِ الآثار كيفَ سهَتْ ... عن عَرْضِ أشياخنا في مَعْرَض التُّحَفِ!!

موسى الزين لم يكن شاعراً عاملياً أو لبنانياً فحسب بل كان شاعراً عربي الانتماء

---

(١) الأنوار أيلول ١٩٨٦.

(٢) بحث غير منشور (رسالة دبلوم في الأدب العربي) الجامعة اللبنانية، الفرع الأول.

والعقيدة والالتزام... هو المكافح المناضل في سبيل هذا الهدف... فلسطين في مطلع شبابه أيقظت وعيَهُ وسوريا في صِباه شدّت كلَّ الطليعة إليها فقد كانت باستمرار قلعةَ الصمود والحلم المنشود والوعد المرصود... هي قبلتنا ومحط رجائنا وحُبُها يسري مع دمنا في العروق

تشهـــد الأرض والسماء بأنا   عن هوى الشام لحظة لن نحيدا

موسى الزين والمرأة:

يوم وعى موسى الزين الحياة كانت المرأة العاملية سجينةَ بيتها تديرُهُ وتُنجِبُ الأولاد وتربيهم وإن حالَفَها الحظ أمّن لها أبوها تعلّم القراءة والكتابة... كان محظوراً عليها ذلك لأسباب سخيفة أو تافهة، زار الدكتور جرجي باز المعروف بنصير المرأة جبل عامل سنة ١٩٣٤ فصدم وأسف لِما رآها عليه من جهل وتخلف وكتب مقالاً في جريدة العروبة البيروتية لصاحبها الأستاذ محمد علي الحوماني، يُندِّدُ بما رآه من أوضاع ويحثّ فيه على تعليم المرأة العاملية وتثقيفها أسوة بنساء بيروت وجبل لبنان؛ يومئذ أرسل موسى الزين له هذه الأبيات

لو أنَّ غيـرَكَ يا ابن الباز خاطَبَنا   بمثلِ ما قُلْتَ قُلْنا ويحَهُ كفرا!!
أتيْتُ تطلبُ تعليمَ الفتاة وأنْ   ترمي وتنزعَ حُجُبَ الجَهْلِ والأُزرا
وتنهلَ العِلْمَ أو تجني - كجارتها   في المَتْنِ والشوفِ - من جنّاتها الثمرا
وتقرضَ الشعرَ أو تشدو فَتُسْمِعَنا   منه الروائعَ والآياتِ والسُّوَرا
فتطردَ الجهلَ والحرمانَ عن مُدُنٍ   وعن ديارٍ - جفاها أهلها - وقرى
هوّنْ عليكَ فما لبنانُ عاملةٌ   فنحن أكبرُ من أن نُكْبِرَ الشعرا
ما للفتاةِ وما للعلمِ في بلدٍ   لو أمْكَنَ البعضُ فيه حَجَّبَ الذَّكَرا!!!

يكفي إيضاحاً لنصير المرأة أن التخلف والتزمت جعلا جبل عامل غارقاً في جهله، ولو استطاع بعض القيّمين عليه حجّبوا الذكَرَ وألزموه بيته ...؟

المرأةُ ليست سلعةً ثمينة يدّخرها الرجل ليسجُنها ويستأثر بها داخل الأسوار، ولا مُقتنىً غالياً يُضاف إلى جناح الحريم، ولا نكرةً يتحدث عنها بالكناية والتلميح، وإنما هي الأم والأُخت والحبيبة والمُربّية والموجّهة... علينا أن نُساعدها على القيام بدورها

لإعداد النشء وتعليمه وتهذيبه خاصةً وأن تربية الطفل تبدأ عشرين عاماً قبل ولادته... تبدأ بإعداد الأم المعلّمة المتنورة الواعية، الحسَنة السيرة، المُلتزمَة بالأخلاق السامية، ولن يُقدَّر لنا أن نتطور ونلحق بمن سبقنا إذا لم نُغَيِّرْ نظرتَنا إلى المَرأة ونوفِّرْ لها سُبُلَ الانطلاق في ميادين العمل التي تتلاءم مع كفاءاتها وإمكاناتها.

وحجابُ المرأة لم يكن يوماً وَحْدَهُ علامةَ الاستقامة والعفاف، ولم يكنْ تَركُهُ مبعثَ شُبهة واتهام!!... هو قضيةٌ جدَلَيّةٌ لا ترتبط بها سلباً أو إيجاباً أخلاقيّةُ السلوك في المُجتمع... وما دامت كذلك فلماذا هذه المواقف المُتشنجُة من الدعوة إلى ترك الحجاب.

موسى الزين شرارة دعاها إلى ترك الحجاب والخروج إلى ميادين الحياة الفسيحة لتُساهم في بناء المجتمع وتقدمه وتطويره لأنها الجناح الآخر الذي لا يسعنا أن نطير دونه، وبه ومعه نرتاد شواهق الذُرى، ونبلغ بعيد المُنى وغالي الأهداف...

وَثِقَ الفتى العربيُّ من أخواتِهِ ... فرَمَى الحجابَ ومزَّق الأستارَا
ومشى، وسِرْنَ إلى الحياةِ فلم يكُنْ ... غيرَ اليمينِ لها وكنّ يساراً
والشرقُ مُحتفِظٌ بِهِنَّ كأنّهُ ... وَرِعٌ تسلّم صبيةً قُصّارا
أو كالبخيل أصابَ يوماً درهماً ... فتراهُ - كيف يصونُه - محتارا
...يا شرقُ حسبُكَ من شقائك ما ترى ... دعْنا ودَعْ فتياتِنا أحرارا
عَبَثاً تُحاوِل صونَهُنَّ بِبِرقُعٍ ... أو تتّقي بحجابِهِنَّ العارا
علِّمْ وهذِّب إن أردتَ صيانةً ... وانسُج لهُنَّ من الرقيِّ خمارا
لا تأمَنَنَّ على العفافِ جهولةً ... ولَوانْ جَعَلْتَ لها الحديدَ إزارا
ميطي حجابَكِ لا يصدُّكِ معشرٌ: ... الجهلُ أبْقاهُم لنا تذكارا!!
إن لم يكُنْ لك من عفافِكِ وازعٌ ... عنكِ يذود الفَحَش والفُجّارا!!
ما انتِ لي أختٌ ولا بي حاجةٌ ... أن أبْتَني لأصُونَكِ الأسوارا!!

المرأة كما يراها الشاعر أساس رقي المجتمع وتقدمه، لم تخلق لتكون سجينة المنزل وخادمة الرجل، هي الحنان والفضيلة والنعومة والدلال والإلهام:

... حــوَّاءُ أنـت بـرغـم كـلِّ مـكـابـرٍ | لجـمـيع مـا حَـوَتِ الـسـعـادة مَصدر
أنتِ الـنـعـيـمُ فـرَوْضُ صـدرك روضـةٌ | ولمـاك - مـا أحلـى لمـاك - الكوثرُ!!
أنــتِ ويــا لِــلَّــهِ انـتِ فـكـلَّـمـا | ردَّدْتُ أنـت فـذا فـمـي يـتـعـطـر!!
أنـتِ الأمـومـة فـالـحـيـاةُ بـأسـرهـا | عَـرَضٌ لـعـمـركِ والأمـومـةُ جـوهـر
أنـت الـتـي غَـفَـرَتْ جـمـيـع ذنـوبـهـا | لـولا وجـودُك ذنـبُـهـا لا يُـغـفـر
كمْ من يـد أسْـدَيْـتِـهـا لـحـيـاتـنـا | بـيـضـاءَ رغْـمَ جـحـودِهـا لا تُـنْـكَـر
لـولاكِ مـا كُـتِـبَ الـخـلـودُ لـعُـروةٍ | كـلاّ ولا نَـظْـمَ الـقـريـضَ كُـثـيِّـر
لـولاكِ مـا كـان الـمـلـوّحُ شـاعـراً | يـومـاً ولا قَـهَـرَ الـفـوارسَ عـنـتـر
قـولـي لاشـيـاعِ الـضـريـرِ تـأمّـلـوا | يا قـومُ فـي رأي الـضـريـر[1] وفكّروا
مـا عـفَّ إلا عـاجـزٌ وبـمـذهـبـي | مـا فـي الـبـريـة مَنْ يعفُّ ويَقْـدِرُ!!
مـا كـان يـزهَـدُ بـالـحـسـانِ وإنـمـا | وصْلُ الـحـسـان لـمـثـلـه مُـتـعـذِّر
مـاذا بـه يُـغـري!؟ أحُـمْـرَةٌ خـدِّهِ | أمْ ذلـكَ الـطَّـرْفُ الـكـحـيـلُ الأحْـوَر!؟
أعـمـى ذمـيـمٌ بـائـسٌ وبـرَغْـمِ ذا | مـتـغـطـرسٌ فـي طـبْـعِـهِ مـتـكـبّـر!
مـتـبـرِّمٌ فـي صَـحْـبِـهِ وَلَـوَ انَّـهُ | مـتـأفـفٌ مـن عـيْـشِـهِ مـتـضـجِّـر!
والـغـيـدُ تـعـشقُ لـلـجـمـال وسـحـرِهِ | مـا الـعـبـقـريـةُ عـنـدهـنَّ وعـبـقـر![2]

هذه المرأةُ الحبيسة في بيتها المعزولة عن مجتمعها، الراسفةُ في أغلال الجهل، يجب أن نُطلق سراحها، ونفتح أمامها آفاق المعرفة لأن زينتها ليست ثياباً وأساور وعقوداً وإنما العلم والأدبُ والفضيلةُ.

أرى العلمَ أحلى للفتاةِ من الحلـى | وأبهى لها من ماسـها والأسـاور
وأحسنَ للحسناء من حُسْنِ وجهها | وأصيَنَ مـن أبرادهـا والمـآزر

(١) يقصد أبا علاء المعري الشاعر الأعمى.
(٢) ألقيت هذه القصيدة في تهنئة نسيبه حسين شرارة في مناسبة زواجه.

موسى الزين والبلدية:

حول رئاسة بلدية بنت جبيل يقول مصطفى بزي: "إن رئاسة بلدية بنت جبيل لم تخرجْ عن نطاق آل بزي ولم تتحوَّلْ إلى آل شرارة إلا بعد أن تسلم زعامة العائلة علي بزي الذي كانت تربطه علاقاتٌ وطيدةٌ بموسى الزين شرارة إضافة إلى أن هذه العلاقة تمثل خؤولته فوالدته هي بنت الشيخ موسى شراره، كما أنه هو شخصياً كان يعمل على خلق نوع من التوازن الجديد في البلدة والذي يعتمد على ارضاء كل العائلات"[1].

وسبق أن كان موسى الزين شراره في الثلاثينات عضواً في البلدية واستقال منها بعد اعتراضه على طريقة استقبال بتشكوف وقد تسلم موسى الزين رئاسة البلدية إثر انتخابات ١٩٥٢/١٢/١٧ وكانوا تسعة أعضاء هم: نمر عباس سعد (نائب رئيس)، علي الحاج محمد عبد الله بزي، محمد الحاج خليل بيضون، حسين سليم مصطفى، عبدالأمير شامي، علي احمد جمعه، محمد علي الزين فرج ونعمه أسعد بيضون.

وآخر مجلس بلدي انتخب في بنت جبيل في ١٩٦٣/٨/٤ كان مؤلفاً من ١٢ عضواً بمن فيهم الرئيس وهم: موسى الزين شراره (رئيس) نمر عباس سعد (نائب رئيس) عبدالأمير شامي، ابراهيم دباجه، عز الدين بيضون، علي السيد محمد، بهجت محمد بزي، يوسف محمد سليم بزي، ابراهيم بزي، عبدالنبي فرج، عباس بيضون، علي جمعه وبقي هؤلاء يمارسون أعمالهم إلى أن قدمت استقالة جماعية وصدر قرار عن المحافظ بقبولها حَمَلَ رقم ٣٦٣ تاريخ ١٩٦٧/١/٢٨[2].

لن أعرض لعمل المجلس البلدي ورئيسه فذلك أمرٌ متروكٌ لمن يريد أن يقيِّمَه؛ لكنني أود أن أذكر أن البلدية كانت تضمّ وجهاء العائلات أي أشخاصاً محترمين عملوا جهدهم واستطاعتهم على تأمين الخدمة العامة... والعمل العام هو دائماً عمل يلقى العقوق أكثرَ مما يلقى التقدير، ويبقى محكوماً بقرار الكبار... حتى إذا لم يعودوا مرتاحين أوحوا لمندوبيهم أو لمُمثليهم بالاستقالة وهذا ما حدث لبلدية بنت جبيل.

أود أن أورد هنا (طُرْفَةً) حدثت مع الشاعر في أول عهده بالبلدية، إذ أرسل أحد الصحافيين جريدته إلى (الوجيه الكبير) ظناً منه أنه غني فأرسل إليه هذه الابيات.

لقد وصلَتْ صحيفتُكم فشكراً ... إذا هي كالهدية "بالبلاشِ"
فإن تبغي لها بدلاً فإني ... زعيمُ المفلسين بلا نقاش
بُليتُ بظالم يدعى "ضميراً" ... يراقبُني ويرعاني كواشي!!
ووجدانٍ - أعيذ الله منه - ... برغم تجددي، رجعي انكماشي!!

(١) مصطفى بزي، بنت جبيل حاضرة جبل عامل، ص. ١١٢.
(٢) نفس المرجع، ص ١١٤و ١١٥.

يجنّ - برغم افلاسي - إذا ما | رأى وجهَ النقودِ بكفّ راش
وأدهى منهما أني أديبٌ | رقيق الشاعرية والحواشي
وأني شاعر لكنْ بأرضٍ | بها سوق القوافي غيرُ ماشي
"جرير" لا يباع بها بفلسٍ | ولا نظمُ ابن هاني والرقاشي
أيعقلُ أن يكونَ لديّ مالٌ | وداءُ الجيب في الأدباء ماشي؟!
ففي عهد الرخاء أخو القوافي | يبيت على الحصير بلا فراش!
فكيف ونحن في عهدٍ عصيبٍ | كزنجيٍ تجهّم أو نجاشي؟!!
يموتُ أديبُهُ جوعاً ويهنا | غبيٌّ باللحوم وبالمحاشي
ويرقدُ ذا على بؤسٍ بكوخ | وذاكَ بقصْرِهِ فوقَ الرياش

***

لذا إن شِئْتَ تبدلها بشعرٍ | يكونُ الغزلُ من نوع القماش!!
وإلاّ فاحبس الاعدادَ عني | ولا تخجَلْ أُخَيَّ ولا تحاشِ
لأن وظيفتي - واحرَّ قلبي - | كما عَرَفَ الجميعُ بلا معاشِ!

وقد نشر صاحب الجريدة هذه الأبيات... وأتبعها بكلمة (اتفقنا)

... وعندما كان المرحوم غابي المُرّ وزيراً للأشغال العامة، زار الجنوب ليطلع على أحواله، وسأل الشاعر موسى الزين عن أوضاعه فأجابه:

يا وزيرَ الأشغالِ هذا جنوبي | ما به أي مظهرٍ للحياةِ
كلُّ شيء كما ترى فيه زِفْتٌ | - نحمَدُ اللّهُ - ما عدا الطُرقاتِ

وإذا كانت رئاسة البلديةِ تكليفاً لا تشريفاً فإن موسى الزين شرارة -مع المجلس البلدي- حاولَ أن ينهض بإعمار بلدته والعمل على تأمين البُنى التحتية لها، لكن الأموال لم تكنْ متوفرةً إلا قليلاً، والمتوفرُ منها غيرَ كافٍ، وكُلُّ قرار مُهِم يُتخذ كانت تسبقه وراء الكواليس مُباحثات وجهودٌ لتأمين توازناتٍ في الخدمات بين الأحياء أو الزواريب... وبما أن البيروقراطية كانت مُتحكمة في إداراتِ الدولة، وبما أنه لم يكُنْ لدى البلدة إيراداتٌ كافيَة للقيام بمشاريعَ إعماريةٍ يقتضيها التطوُّرُ والتقدم، وبما أن مُراجعات المسؤولين

لم تكن توصلَ إلى نتائجَ ملموسة نظراً لأن بلدة بنت جبيل لم تكن يوماً من البلديات المحظيَّة، ولم يكنْ ممثلوها كذلك يحظون برضى المسؤولين... لهذا كُله لمس موسى الزين هذا الواقع المُحزِن وخاطب الرئيس كميل شمعون سنة ١٩٥٥، في إحدى مُراجعاته طالباً الاهتمام بحاجات البلدة ومُقارناً بينها وبين بلديات الشوف والمتن.

... لو زرْتَ عاملَ أشجاكَ الشقاءُ به — وما يُكابِدُ من بؤسٍ وحرمانِ
فلا ترى غيرَ جَوْعانٍ وجائعةٍ — وغيرَ ظمآنةٍ فيهِ وظمآنِ
وغيرَ دُورٍ نَبَتْ في أهلها وغدتْ — بلاقِعاً، دِمناً، من غيرِ سكّانِ
فلا يُصدِّقُ من فيه (هويّتَهُ) — بأنَّهُ - والذي في الشوف - لبناني!!

وفاء وتسامح موسى الزين شراره:

كان الشاعر يتحلى بخلق رفيع، وتهذيب لافت، دمثَ المعاشرة، خفيفَ الروح، محباً للناس جمَّ التواضع، نظيفَ العلاقة لا يستغلّ ولا يستثمرُ صداقتَه لمنفعة أو كسبٍ فإذا خاصَمَ سياسياً لا يسف ولا ينحو إلى التجريح الشخصي، كان يحافظُ على مستوًى لائق في العراك السياسي لأنه ينتقدُ ويعارضُ النهجَ والأسلوبَ ولا يتعرض للأشياء الحميمة في حياة خصمه... لم يَطْعَنْ أحداً في ظهرِهِ ولمْ يهادنْ في مواقفِهِ ولم يُحَابِ أحداً أو يجامِلْهُ فهو لا يعرف التزلّفَ ولا الرياء، ولا يطمع بمنصب أو وظيفة.

... فلو مالأتُ في وطني دخيلاً — لكنتُ اليومَ عضوَ البرلمان
... فكيف أخونُهمُ وهناك مبدا — غدا أو بات جزءاً من كياني
يُضافُ إليه -كالقاضي- ضميرٌ — به كالشِّعرِ خلاّقي ابْتلاني
وقاهُ اللهُ كمْ نُصِبَتْ شِراكٌ — لقَنْصِ مروءتي منها وقاني
ومالُ المستشار وكان جماً — به تُشرى الضمائر... ما شراني
وحقّكَ ما طلبت الجاه يوما — كوغدٍ في التزلفِ أو جبان
ولكني شجاعُ الرأي حرٌّ — فؤادي إن نَطَقْتُ على لساني
لي الرحمات... قلبي كمْ يقاسي — من الصحب الكرام وكمْ يعاني!!

موسى الزين في خصوماته السياسية لا يحقد ولا يكره ولا يعادي فالساحة المفتوحة

تتسع لكل الآراء وتستوعبُ الاختلاف ويبقى على الفرقاء أن يتركوا للزمن تعيين القرار الصائب فهو بالرغم من تكفيره واهدار دمه - ومع التمسك برأيه فيهم - قد سامحهم:

... وسُمّيتُ في أوساطهمْ متخلّفاً بليداً بلا حسٍ "كشيخي" بلا لُبٍّ
غفرتُ لهمْ ما تشتكي من خصامِهمْ بلادي، وما يشكو - ومِنْ جَهْلِهِمْ- شعبي
وبالرغم من رأيي بهمْ وتحرّري وثورة أشعاري فَتَحْتُ لهم قلبي
وسامحتهُمْ فيما عليَّ به افتَروا ونزّهتهم حتى عن اللومِ والعتْبِ

...وعرفان الجميل كان دائماً صورةً زاهيةً لفضيلة الوفاء، ينوء تحت أثقالها الإنسان النبيل، ويجهد أن يقوم ببعضٍ من واجب أو يُسدِّدَ دفعةً من دَيْن، هو فضيلةٌ لأنّه (النقد النادر)، والتسديدُ الواجبُ أخلاقياً، يختصُّ به الشُرفاء، القلةُ المُميّزةُ بين كثيرينَ ممّنْ ينسون أو يتناسون (سِلفةَ الخير) في وقت الضيق، فكيف إذا كان الدَّيْنُ رعايةً وحدباً وحناناً وحضانةً وتربية يتيمٍ لم يَشْعُر بسببها بفقد الوالد، هكذا كان عقيل شامي مع موسى الزين.

من غيرُ حُبِّك حينَ أيتمني القضا عنّي أزاح دُجى المُصابِ وبدّدا
وسِواكَ مَنْ آسى جراحاتِ الحشا - وأنا ابْنُ ستٍ - لا أزالُ وضمَّدا
وأعادني للسِّربِ بيْن صغارهِ أشدو لأزهار الحقول مغردا
سلِّم على الأبِّ الذي أوصاك بي فبسطتَ لي باعَ المحبةِ واليدا
وحضنتَني وكفلتَني ورعيتَني حتى بزغتُ بجوِّ حبِّك فرقدا
لولاك كُنتُ ولا أُبالغ منجماً لم يُكتَشَفْ أو كُنتُ نَصْلاً مُغمداً
أو زهرةً لولاكَ ماتَتْ بُرعُماً بالظلِّ لا شمسٌ هناك ولا ندى!!
يَجزيك ربُّكَ خير ما يَجزي به ما امتنَّ يوماً بالجميل وندّدا
عهدٌ عليّ لك الوفا ولِكُلِّ من أحْبَبْتَ ما فَسَحَ الزمانُ ليَ المدى!!!
كُنتَ الأمومةَ والأبُوَّةَ لي كما كُنتَ المعلِّمَ والدليلَ المُرشِدا

وها هو الشاعر يذوب أسىً أمام رحيل خِدْنِه وصديقِه ورفيقِ نضاله الحاج علي بيضون، هو حزينٌ حتى الموت، يرثي نفسه، يبكي بعضُهُ على بعضِه، يستلُّ كلماته وجعاً من مُهجة القلب، ويسكبها شعراً، ينضَحُ ألماً ويَفيضُ شَجَناً وقد لَفَّ سوادٌ قاتمٌ كُلَّ ما حولَهُ.

لا تُنادِ... فلن يُجابَ المُنادي | أقفلَ الموتُ كعبةَ القُصّادِ
...كُلُّ ما في الوجود بات أمامي | جُنحَ ليلٍ أو قطعةً من سوادِ!!
ها هو الحي لا الديارُ ديارٌ | أهِلاتٌ ولا النوادي نوادي
ها هو الروضُ لا الزهورُ زهورٌ | عاطِراتٌ ولا الشوادي شوادي
كُلُّ طيرٍ على الغُصون غُرابٌ | بعد شدوِ الهَزار والإنشادِ
يا أخا الروحِ يا أخي وحبيبي | يا رفيقَ الصِبا وصنوَ الجهادِ
يا صديقي الصدوقَ يا خيرَ خِلٍ | يا مِثال الوفا وحِفْظِ الوَدادِ
كلُّ باكٍ عليكَ غيري بوادٍ | وأنا الثاكلُ الوحيدُ بِوادي
يا أخاً لم تَلِدْهُ مِن قبلُ أمي | بعدَكَ اليَومَ يا أخي من أُنادي؟!
ساعَدَ اللّهُ مهجتي وعيوني | بعدَ هذا النّوى وهذا البعادِ
هذه للأسى مَشاعٌ وهذي | لدموعٍ مشبوبةٍ وسُهادِ
كُنتَ مني محلَّ قَلْبِيَ مني | كُنتَ مِنْ ناظريَّ كلّ السوادِ
كُنتَ نوراً للحبِّ تغمُرُ نفسي | ومناراً لشاطئ الخير هادي
كُنتَ سيفي وساعدي ومِجنّي | كُنتَ طِرْسي ومِرقَمي ومدادي
أينَ خلّيْتَني وحيداً فريداً؟! | لستُ أدري مَنْ اتقي... مَنْ أُعادي؟!
...أيها المَحْمَلُ المُقِلُّ سَرِيّاً | بين هتّانِ أدمُعٍ كالغوادِي
فيكَ حُرٌ مُحَرَّرٌ فيك نُورٌ | ومنارٌ من سؤددٍ وسَدادِ
فيكَ كُلُّ النِضال... فيكَ (عليٌّ) | فيك تاريخُ ثورةٍ وجِهادِ

هذه ليست قصيدةَ رثاء وإنما هي رسالةُ وفاء، يتدفَّقُ وجَعُهَا ويتعاظَمُ شَجَنُها، ويلُفُّ النفسَ سوادٌ قاتمٌ كليْلِ الحزانَى المفجوعين... هو الحُزْنُ يحفرُ عميقاً في النفس

فيحرقُ؛ وهي العينُ يجتاحُها سوادٌ كثيفٌ وينشُرُ حَوْلَها على مدى رؤيتها قَاتِمَ ظلاله، فتغيبُ البهجةُ وتتوارى الطمأنينةُ ويَرينُ قلقٌ مُقيم... قصيدة الرثاء الصادقة هي التي تصدُرُ من الأعماق وتصوِّرُ ببساطة الأحاسيسَ والمشاعرَ بِكُل أمانة كما تختلِجُ في نَفْسِ صاحبها لتبقى بُكاءَ الذاتِ على نفسها وقد رَحَلَ الرفاق وأخذوا معهم جميلَ الذكرياتِ...

تقييم موسى الزين لنفسه:

كان موسى الزين فخوراً بأنه شاعر... يعي تماماً قيمةَ نفسه وموقعه الاجتماعي، ويَفْقَهُ عبءَ الرسالة التي يحملُ، ويدركُ بالتالي ما تتطلَّبُ من إيمانٍ وصلابةٍ وصبرٍ وطول أناة. كما كان يُقدِّر ويُثمِّن كَوْنَ الإنسان شاعراً... والشعر - شرطَ نظافةِ الالتزام - ملكةٌ وموهبةٌ ونعمةٌ لا مثيلَ لها، والشعراءُ هُم سفراء الأمة في التاريخ، العظماءُ الخالدون عَبْرَ الزمان، الذين يحفرون عميقاً في التراث الباقي بينما تزول الممالك، وتنتقل الثروات وتضيع الأجيال ويتوالد الناس، و لا يبقى إلا المميَّزون من الأدباءِ والعظماء.

لكن قلّما تكتمل النعم، فرجال الفكر - والشعراء منهم - طالما اشتكوا الفاقةَ والحاجة... لأنهم ليسُوا تجاراً ولا سماسرةً، ولا رجال أعمال، لا خيلَ عندهم ولا مالَ ولكنهم حكايةُ الزمنِ المَرْوِيَّةِ.

وإذا كان الشاعر (طفرانا) فإن لِلَّه سراًفي ذلك

... الشاعرُ الحرُّ لا تُغريه مأدبةٌ ضمَّتْ عميلاً وجاسوساً ومُحْتَكِرا
حَسْبُ الهزارِ حُبيباتٌ يعيشُ بها إلى الغصون خفيفاً ينشر الغررا
والشاعرُ الفذُّ إن اسقَيْتَهُ قَدَحا سمِعْتَ من شعرِهِ ما يُطْرِب الحجرا!!
... صبراً أخا الشعر لا تَحْزَنْ وأنت ترى هذي المهازلَ فالعُقبى لمن صبرا
ولا تخلْ أن ربَ الناس شاء بنا شراً غداةَ حبانا هذه الدررا
لو شاء ربُكَ كانَ الشاعرون له ممثلين بهذا الكون أو سُفَرا!!
أو شاءَ أغناهُمُ من فضلهِ فغدَوْا أغنى وأوفرَ أبناء الوجود ثرا
لكنَّه وَهو أدرى في مطامعهمْ يخشى إذا شبعوا - أن يُصبحوا خطرا!
أما تراهمْ ونابُ الفقر ينهشُهم لا يرتضون إذا ناديتَهمْ "أُمَرَا"!!!؟

جميلٌ ورائعٌ أن يعرفَ الشاعرُ مُقامَ نفسه وقيمتَها ويحافظَ عليهما حتى ولو أخذَهُ غرورٌ جامح... واستبدَّ به كبرياءٌ وعنفوان... عظمةُ المتنبي فَرَضَتْ نفسها على سيف الدولة وكان الأميرُ نفّاذَ البصيرة، فقدَّرَهُ وميَّزَهُ واصطفاه.

الخيـلُ والليلُ والبيداءُ تعرفـــني ... والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ
سيعلم الجمعُ ممَّنْ ضم مجلسُـــنا ... بأنني خيرُ من تسعى به قَـــــدَمُ
أنا الذي نَظَـرَ الأعمى إلـى أدبـي ... وأسْـمَعَتْ كَلِمَاتـي مَنْ به صَمَـمُ
أنـامُ ملءَ جفونـي عن شـــوارِدِهــا ... ويسْهَرُ الخلقُ جرَّاهــا ويخْتَصِـمُ!

أنا لا أشبِّهُ شاعرَنا بالمتنبي لكنني أُشيرُ إلى أن المُتنبي عَمِل جاهداً ليحصَلَ على إمارة، أو تُقْتَطَعَ له ناحيةٌ يحكمها... كان مسكوناً بهذا الهاجس الذي أوصله أن يمدح كافوراً وهو في قرارة نفسه لا يحترمه ولم يحترمه يوماً... بينما بقي موسى الزين ملتزماً مُنسجماً مع نفسه وقناعاته فلم يتزلَّفْ لزعيمٍ ولم يهادِنْ متنفذاً أو يَسْعَ وراءَ منصبٍ، إنما أقول أنه عرف مقام نفسه وأنه صاحبُ رسالة.

... كونـوا فراعنـةً شـــداداً واحكمـــوا ... وتحكَّمـوا وتسـلطـــوا كطغـاةِ
لـــن تخنقوا صوتاً صريحــاً ثائـــراً ... موســـى أنا! وقصـائدي توراتـــي
... أنـــا مُرْسَلٌ.. إيقاظُ أهـلي، بعثهمْ ... تحريرُهُـــمْ إنقـاذُهـــم.. آيـــاتي
وقفٌ عليهـــــمْ أو علـى ايقـــاظهمْ ... شِـعري وما ملَكـتْ يدِي وحياتي
ســــأظلُّ أصرخ ما حييتُ بســـمعهم ... حتى تفتّقَ سَـــمعَهمْ صَرَخَـاتـــي

موسى الزين لم يُتاجر بشعْرِه، ولم يجعلْ منه سلعةً في سوق العرض والطلب، وإنما حصنَّهُ وقَيَّمَهُ، وجعله وقْفاً على القضية التي نَذَرَ نفسَه لها وهي إيقاظُ الناس لإنقاذِهمْ من الجهلِ والتبعيَّةِ والتخلّف:

يا أيها الشـــعر الذي غـذيتُـهُ ... روحي وذوْبَ القلب، والأحشـاءَ
ومنعتُهُ مـن أن يُباع ويشـــترى ... ورفعتُـــهُ لذوي الإباءِ لـــــواءَ

وها هو بعد فترة غياب يقف على المنبر - يعرّف عن نفسه - يسألُهُ، يخاطبُهُ، ويعنّفهُ... مثْلُهُ لا يُنْسى - ومن غيرِ المسموح أن يُنْسى - يجبُ أن يظلَّ حضوراً لافتاً في الذاكرةِ وفي البال.

هـذا أنـا ... أنـسـيـتَ أم تـتـذَكَّـرُ | عـهـدَ الـنـضـال، وعـهـدَنا يا منـبـرُ
أنـسـيـتَ ام مـا زلـتَ تـذكـرُ ثـائـراً | في بـقـعـةٍ فـيـهـا الـتـحـرر مُنكر!!
أنـسـيـتَ أم مـا زلـتَ تـذكـر شـاعـراً | عـنـه الـتـمـرُّدُ والـتـحـررُ يُؤثَـرُ
وقـصـائـداً مـحـمـومـةً مـشـبـوبـةً | كـقـذائـف منهـا الـلّـظـى يـتـفـجّـرُ
دَكَّتْ ولـم تَرْهَبْ قـصـوراً، أهلُـهـا | الرَّجعيُ والجاسوسُ والمُستَأْجَرُ
هـذا أنـا ...! والـكـلُّ يـعـرف مَنْ أنـا | إن ريـعـتِ الأوطـانُ لـيـثٌ يَـزْأرُ
فـجّـرتُ من هـذا الـقـريـضِ قـذائـفـاً | حـمـمـاً تَدُكُّ فـسـادَهـمْ وتـدمّـرُ
أنـا مَنْ تـمـرَدَ حـيـنَ لا مُـتَـمَـرِّدٌ | أنـا مـن تـحـرّرَ حـيـن لا مُـتَـحَـرِّرُ
أنـا مـن شـكـا عِلَلَ الـبـلاد وبـؤسَـهـا | أيـامَ لا شَـاكٍ ولا مـتـذمّـرُ
أنـا شـاعـرُ الـثـوراتِ والـصـوتُ الـذي | كَمْ ذاق منـهُ وكـابَدَ الـمُـسـتـعـمِـرُ
أيـامَ جُـلُّ الـشـاعـريـن مـطـبِّـلٌ | - لـلأقـويـاء تـزلـفـاً - ومُـزَمِّـرُ

ومن قصيدة أرسلها لصديقه الشيخ علي الزين جواباً على قصيدةٍ -كان أرسلها إليه- مُعَنْوَنَةٍ (صلّح قلوعك يا ريس) يصفُ فيها شعره.

شـعـرِي إذا كـان الـقـريـضُ مُـدامـةً كـان الـحُـبـابْ
غـيـرِي لـه الـشـاطـي ولـي مـن زاخـر الـشـعـرِ الـعُـبـابْ
لِمْ لا، وذا قـلـبـي طـعـامُ قـصـائـدي، ودمـي شـرابْ
عُـودي ومـزمـاري هـمـا مـلـكـي ونـايـي والـربـابْ
فـإذا مُـنِـيـتُ بـمـعـشـرٍ خُـلـقـوا وعـاشـوا لـلـسـبـابْ
أو نـال مـنـي جـاهـلٌ، فـالـشـهـدُ مـأدبـة الـذبـابْ
لـو غـيـرُ عـاملَ موطني لأرَيْتُكَ الـعَـجَـبَ الـعُـجـابْ
ولـكـان تـمـثـالـي يـتـوِّجُ مـنـه هـامـاتِ الـهـضـابْ
أنّـى يـحـلـق لـلـعـلـى طـيـر وجـانـحـه مـصـابْ!!
أو كـيـف يـبـدو الـنـورُ في أفـقٍ يـجـلـلـه الـضـبـابْ
وطـنٌ بـوجـه أديـبـه سـدَّ الـمـسـالـكَ والـشِّـعـابْ

يُسقى السلافةَ وَغَدُهُ ويَعُبُّ فيه الحُرّ صابْ!!

***

... نشرت مجلة العرفان في العدد رقم ٤ نيسان ١٩٨٢ المجلد ٧٠ هذه الحادثة:

زار الشاعر المعروف موسى الزين شرارة سنة ١٩٦٤ صديقه الشاعر والصحافي الأستاذ عبد الغني الخطيب في مكتبه في دار جريدة "الكفاح" الذي هو أحد محرريها وأثناء "شرب القهوة" أخذ الاستاذ الخطيب القلم وكتب الأبيات الزجلية التالية "ارتجالاً" وقدمها للشاعر شرارة الذي أُعجب بها وشكره.

بْتُكَبَرْ بِتْشِيبْ وبِتْشيخْ — وبِتْظَلَّكْ "زَيْنْ" وزيني
حتى يخلِّدْني التاريخْ — برحمة بَيَّكْ تَهْجيني

وقد أجابه فيما بعد الشاعر شرارة بالأبيات التالية:

فيا شعراً غدا للناس شغلاً — وبات حديثُهُ في كلِّ قُطْرِ
واصبح منبراً ونشيدَ عزٍ — لكلِّ مناضلٍ ولكلِّ حرٍّ
فحَطَّمَ "للمدجِّل" كلَّ نابٍ — وقلّمَ "للمنافقِ" كلَّ ظُفْرِ
وأعلى - صانه الباري - مَقامي — على رَغْم الحسود ورغمَ دهري
وقلَّدَني "قلادةَ" كلِّ مجدٍ — وبَوّأني شواهِقَ كلِّ فخرِ
وصُلْتُ به على أعداءِ شعبي — فقادَ خطايَ من نصرٍ لنصرِ
ودمَّر للطغاةِ قصورَ جَوْرٍ — بنوها فوقَ حرمانٍ وفَقْرِ

***

كفاكَ الفخرُ أنكَ صرتَ ذكرا — وآياتٍ على شفةٍ وثَغْرِ
تغنِّيكَ الحُداةُ بكلِّ سهلٍ — بدنيانا وبلقعةٍ وَوَعْرِ
وإني صرت لا أخشى عذولاً — إذا ما قُلتُ في سرٍ وجَهْرِ
بكل محلةٍ وبكل حفلٍ — هنيئاً للذي يَهْجُوهُ شعري
فسوفَ يظلُّ معْ هذي القوافي — ويبقى ذكْرُهُ ما ظلَّ ذكري(١)

---

(١) العرفان، العدد ٤، المجلد ٧٠، نيسان ١٩٨٢.

يبقى أن أشير إلى أن الشاعر لا يتصدى إلا لخصوم لهم مواقعهم الاجتماعية والسياسية والدينية، هو يربأ بنفسه أن يقارع أُناساً عاديين، يثور على الزعيم وعلى المسؤول وعلى رجل الدين ذي المقام المنظور... خلال فترة الانتداب لم يهدأ... كان يفتح المعارك على مختلف الجبهات، إلا أنه آثر الصمت فترات في عهد الاستقلال وظَنَّ بعضُهم أن سكوته جبنٌ أو مسايرةٌ أو بسبب وَعْدٍ بمنفعة أو إغْراء معيَّن... وينتفضُ غاضباً ساخراً، فالأيام غيرُ الأيام، والناسُ غيرُ الناسِ والمناصبُ غَدَتْ سلعةً رخيصةً في سوق الانتهازية تُشترى وتباع، وها هو لا يجد نِداً ليخاصِمَهُ أو يراه جديراً بأن يخاصِمَه.

... قالت عرفتكَ شاعراً متحرراً	وعرفتُ شعرَك ثورةً حمراءَ
ما هادَنَ الاقطاعَ خَشيةَ بَطْشِهِ	يوماً، ولا الأذنابَ والعملاءَ
عجباً سكُوتُكَ هل جَبُنتَ لأنهم	حشدوا الوعود عليك والإغراءَ!؟
فَأَجَبْتُها: مَنْ ذا أنازِلُ! هاتِ لي الـ	أنداد - للهيجاء - والأكفاءَ
لم يَبْقَ في الميدان إلا تافِهٌ	يأبى القَريضُ هِجاءَهُ استِحْياءَ
ومعاشراً - هَزَلَ الزمانُ - فأصبحوا	نوّابَ هذا الشعبِ والوزراءَ
قسماً.. لولا الذي ابتاعوا به الـ	كُرْسيّ.. لمْ نعرفْ لهم أسماءَ!!

موسى الزين والتجديد في الأسلوب والمواضيع:

يقول الأستاذ عباس بيضون[1] "دخل موسى الزين شرارة الحياةَ السياسيةَ شاعراً، دخَلَها بشعرِهِ وبفعْلِهِ ولم يكنْ الشعرُ السياسيُّ في تلك الآونة سوى فعل سياسي مباشرةً... لم يكن شاعرُنا في حينه منتسباً إلى حزب ليسوِّق شعاراتِهِ ولا كان شاعرَ بلاطٍ يؤرخُ أحداثَهُ... فقد كان بنفسه الشعارَ والموقفَ، الشاعرَ والمناضلَ... رأى بوضوحٍ مشاكلَ مجتمعِهِ السياسيةَ والاجتماعيةَ والثقافيةَ والدينيةَ وتصوَّر الحلولَ وما تتطلّبُهُ من صبرٍ ونضالٍ وجرأة، وكانت قصائدُهُ "على كل فم في جبل عامل"، تحظى بسَخْطِ قومٍ وتحيةِ آخرين، وتدورُ حولها أحاديثُ المجالس الأدبيةِ التي كانتْ تعقد يوم ذاك في دُورِ الأدباء أو العلماء... هذا الشعر الذي يتلقفه الناس ويحفظونه ويرددونه ويتداولونه هو لسان حالهم وقصة حياتهم وقضيتهم..."

(١) جريدة السفير ٢٨/٩/٨٤ (رواد من جبل عامل).

"كان الشعر يأتيك – يقول له وفيه حسين مروة– في حياتك اليومية طوعاً كما يأتيكَ الكلامُ في مجلسك وأحاديثك... شعرُك كان يقبضُ بعفوية ردودَ الفعل البدَهيّة حيال الحَدَث اليومي، حين يكونُ للحدث اليومي ملامسةٌ ما لقضيةِ الوطن... وَحْدَها قضيةُ الوطن كانتْ ردةَ الفعل اليومي الذي يجد عندك فوراً رَدَّه الشعري... لقد تجاوَزَتْ حدودُ الشعب والوطن عندك كلَّ التفاصيل الهرطقية، الطائفية والمذهبية والفئوية والإقليمية والظلامية، كم أوجعَتْكَ في العُمق هذه الهرطقةُ الكافرةُ بحق الشعب وحق الوطن؟، كم أثخنَتْكَ جراحاً هذه الحرابُ المُفترسةُ جسَدَ الشعب وجسَدَ الوطن؟ وكم قلتَ وجعكَ وجراحَكَ شعراً موجعاً وجارحاً"[1]

كان الناس يحفظون شعره لسلاسة كلماته، وحلاوة صُوَرِه، ووضوحِ معانيه، والْتِصَاقه بحياتهم ويردّدونه لأنه يعبّر عن مشكلة عامة يعيشونها في كل قرية وزاوية من بلادهم، ويتداولونَهُ لأنه القضيةُ المشتركةُ التي تصوِّرُ وجعَ مجتمعاتهم، وألَمَ معاناتهم... كان يريحُهُمْ هذا القربُ منهم، وتسرّهُمْ تلك السخريةُ المهذَّبةُ، التي تُضْحكُ ولا تُشنِّعُ، تُؤلمُ ولا تَنْتَقِمُ، تُدْمي ولا تَذْبَحُ... الصورةُ الهزليةُ هذه يتقبلُها المستهدَفُ لخفّةِ روحها، ولِلَمْحِ أدائها، ... الجديدُ فيها أنَّها تُوصلُ الرسالةَ وتوحي بالمُراد، وتُتْرُكُكَ مع الصورة حتى لكانها عبّرَتْ عمّا تريدُهُ أنت.

عجباً لشيخي ما تحدث واعظـــاً إلا اســـتهل بذم كـــلِّ حريـــصِ
فـــتراهُ ذا نِعَـــمٍ، ويشـــكو فقـــرَهُ متململاً كَتَمَلْمُـــلِ المَمْغُـــوصِ!
فلـــذا تراني إنْ رأيـــتُ معمَّمـــاً أحْكَمْتُ – خوفاً منه – زِرَّ قميصي!!

أمامنا صورةُ شيخٍ يَعِظُ الناس ويذمُّ الحرصَ والبخل، هو صاحبُ نعمةٍ ويتظاهرُ بالفقر وضيقه منه حتى أنه لا يستطيع الاستقرار لدقائق، يتقلّبُ ويتململُ لتنفيذ خطّته التي أحكم إِخْراجَها بُغية سَلْبٍ أو نَشْلِ المستمع... المستمع الذي وعى الخطة وراح يعمل على افسادها بإحكام "تزرير" قميصه حمايةً لنفسه.

موهبةُ النكتةِ إذا كان صاحبُها خفيفَ الروح، تُدنيه من أفئدَة الناس وتجعلُهُ مقرّباً منهم لأنس مجالسه، وطرافة مواضيعه، وحلاوةِ سَرْدِه، وغرابَةِ صُوَرِه وايقاعِ ضحكاته..

قالوا كفرتَ.. فقلت: في أفعالـكم وسَخِرتُ من تضليل كلِّ مدجِّـلِ

---

(١) النهار ٢٧/١٠/١٩٨٦.

يغري الأنام بعمةٍ نُسِجتْ على | نَول الرياء لصيد كل مغفلِ
كبرتْ قماشاً.. إنما صَغُرَتْ حجىً | فَبدتْ كبرج فوق حبة خردل!!!
لا يخدعَنَّك ما تراه تنسكاً | منهم... فهذي حرفة المتسولِ
قد كنتُ أخشعُ إنْ رأيتُ عمامةً | كخشوع راهبةٍ أمام الهيكل
والآن: - إنْ لاحَتْ - أفرُّ أمامَها | ذُعراً... فرارَ طريدةٍ من أجْدَلِ!!!

... وها هو في تعليلٍ غريب (ومهضوم) يحاولُ أن يقنعنا أن الله اعطى المال لبعض خلقه وحرم منه الشعراء والأدباء لأنه أدرى بهم وبطموحاتهم ويخشى إذا شبعوا أن يتغيروا ويشكّلوا خطراً !!

... صبراً أخا الشعر لا تحزنْ وأنت ترى | هذي المهازلَ فالعُقبى لمن صبرا
ولا تَخَلْ أن ربَّ الناس شاء بنا | شراً غداةَ حبانا هذهِ الدررا
لو شاءَ ربُّكَ كان الشاعرون له | ممثّلين بهذا الكون أو سُفَرا!!
أو شاء أغناهمُ من فضله فغدَوْا | أغنى وأوفرَ أبناءِ الوجودِ ثرا
لكنه - وهو أدرى في مطامعهم - | يخشى إذا شبعوا - أن يصبحوا خطرا!
أما تَراهمْ ونابُ الفقر ينهشُهم | لا يرتضون إذا ناديتَهمْ "أُمَرا"!!!؟

... وعندما زار الدكتور جرجي باز جبل عامل ورأى التخلف المتحكم في حياة الناس وخاصة النساء.. دعا إلى تحرير المرأة وتعليمها وتثقيفها أسوة بشقيقتها في بيروت والشوف فأرسل له أبياتاً صورت له المشكلة وأوحت بالحل بطريقة هزليةٍ ساخرةٍ معبِّرة.

...هوِّنْ عليكَ فما لبنانُ عاملة | فنحن أكبرُ من أن نُكبر الشعرا
ما للفتاة وما للعلم في بلدٍ | لو أمكن البعضُ فيه حجبوا الذكرا!!

وهذه أبيات رثى فيها الشاعر المخترع حسن كامل الصباح مستنكراً تخلف البعض عن الحضور.

قال قومٌ ما بالُ شعبكَ أمسى | لا يبالي بقاصمات الظهور!!
راضياً بالهوان والذل عيشاً | لا شقاءً يشكو ولا ذلَّ نير!!

جامدَ الدمعِ إن يمتْ كلَّ يــومٍ　　　أَلْــفُ فذٍ منـــه وألــفُ كبيـــــر
قلت: ماتَ الشعورُ منه فمــاذا　　　يَرْتجي الناسُ من عديمِ الشعـور!!
أنا أخشـــى أن لا يلبّي إذا مــا　　　نَبَّـــهَ اللـهُ خَلْقَـــهُ للنشــــور!!!

ثم إن شاعرنا كان يُدرك أن للشعر رسالة يجب أن يؤديها، فهو يجب أن يحمل قضيةً ويعمل من أجلها أي أن يكون ملتزماً، وكل ما عدا ذلك يبقى وصفاً لمشاعر فردية ولأحاسيس خاصة ربما لا تجد لها الصدى في المجتمع، بهذا المعنى فهم الشاعر قدسية المهمة التي يحملها في سبيل بسطاء الناس.

يا أيها الشعر الذي هو عــلقمٌ　　　بفم اللئــام وللكرامِ شـــرابُ
عالجْ سقامَ القوم إنك مبضَـعٌ　　　بــك تبرأ الأدواءُ والاوصـــابُ
ما أنتَ شعرُ فتى خليعٍ ماجـنٍ　　　اقصـــى مُناهُ الغيدُ والأكــوابُ
بل أنتَ صرخةُ ثائرٍ في موطنٍ　　　عاشــت به الدخلاءُ والأذنــابُ

يصوّر الشاعر كذلك مسرحية الانتخابات كيف كانت تجري وكيف تُعطى كلمة السر وتتم عملية شراء الأصوات وكيف يقترع الاموات وتحدث التطبيقات والمساومات في (بازار التطبيقات) حتى لكأنها نفس المسرحية يتجدد عرضها كُلَّ أربعِ سنوات.

موعدُ الانتــخابِ ليلةُ قَــدْرٍ　　　فيه تبدو وتظهَرُ المعجـــزاتُ
وبه - دون أن تــراها عيــون　　　للصناديق - تَزْحَفُ الأصواتُ
وبســـرِّ الزعيم أو بصــلاةٍ　　　منــه للـه... تُبْعَـثُ الأمـواتُ
وتُدقُّ الابوابُ ليــلاً وتُعـطـي　　　للمـخاتيـر أمْرَهــا الليـراتُ
فالكراســي يبتاعها كمتــاعٍ　　　إحتكـــارُ النـظامِ والصفقاتُ
وبــأمــرِ مقنَّـــعٍ أو بِوَحــيٍ　　　يُشْتَرى الناخبون والناخبــاتُ
ويموتُ القانونُ بعد انتهــاكٍ　　　ويُوارى... وتُـدْفَنُ المأســاةُ

يقول ابراهيم بيضون[1] ربما لم يكن موسى الزين شرارة أشعرَ العامليين، ولكنه كان أكثرَ شعرائهم انتشاراً وأقربَهم إلى المزاج الشعبي فهو شاعرٌ له نسيجُهُ الخاص

(١) جريدة السفير ٦/٨/٩٦.

والسخريةُ المحبَّبَةُ تشقُّ طريقَها على مساحةِ القصيدة مختزلةً الفكرةَ بأسلوبٍ أخّاذ وموظَّفَةً ببراعة فائقةٍ لمصلحة الحدَث الذي يستحضرُهُ من الواقع ومن التاريخ... هذا التوظيف الحَدَثيّ في قصيدةِ الشاعر شرارة يبقى من خصوصياته البارزةِ وهو ما يميِّزُهُ أيضاً عن آخرينَ حاولوا اتخاذَ هذا الأسلوب، فلم يُفلحوا وظلّتْ سخريتُهم إما جافّةً أو جارحة... على عكس ذلك ربما استطاب هجاءَهُ بَعْضُ الذين أصابتْهم شظايا منه فأصابوا بدورهم الشهرةَ بعدما أصبحَ هجاؤهم على كل لسان وهو في هذا يقول:

كفاك الفخر إنك صرت ذكراً ... وآيــاتٍ عـلى شــفةٍ وثــغر
بكـل مـحلـةٍ وبكـل حقـلٍ ... هنيــئاً للذي "يهجوه شــعري"
فسوف يظلّ مَعْ هذي القوافي ... ويبقــى ذكرُهُ ما ظلَّ ذكْــرِي!

يتابع ابراهيم بيضون عاش موسى الزين شرارة في أوجاع مجتمعه وانتشر في جراحاته فلم يدّخرْ وسيلةً للحديث عن مشكلاته ومعاناته من التخلف إلى الاستعمار إلى مواكَبَةِ الحدَث السياسي سواء في لبنان أو على مساحة الأمة العربية... كان هاجسُهُ إنقاذَ هذا المجتمع من سيطرةِ الإقطاعِ وجمودِ العلماءِ فتحقَّقَ بفضلِ نضالهِ وآخرينَ الكثيرُ من حريته... وكان همُّهُ السَّيْرَ في مضمارِ التقدم وأن تأخذَ المرأةُ موقعَها في المجتمع فَتَحَدَّثَ بجرأة لا متناهية في هذا المجال.

أما الأستاذ منح الصلح فرأى أن شعر موسى الزين شرارة هو من غير شك أحد أبرز الشواهد على كَمْ يمكن أن يكون النقاء الوطني جناحاً قوياً للشعر وكم يمكن أن يكون الشعر سلاحاً لأي معركة من معارك التنوير والتحرير... ولعلَّ شاعرية موسى الزين شرارة ساهَمَتْ في تنقية سلوكه الوطني والسياسي من الشوائب لأن غناه الشعري مَحَضَهُ نوعاً من الاستغناء السياسي فأشبَعَهُ أن يكون شاعراً عن أن يَضْعُفَ أمام منصب أو يساومَ لقاءَ مغنمٍ على الرغم من أن مدينته لم تبخلْ لا على المجاهد علي بزي ولاً عليه بالمناصب التي يستحقان(١).

وقال فيه نقيب الصحافة الأستاذ زهير عسيران:

"... لم يقتصرْ تأثير موسى الزين شرارة على استنهاض الهمم ضد الانتداب الفرنسي بل تجاوز هذا الهدفَ إلى توعيةِ الجماهير وتنويرِها في مواجهة التخلف

(١) جريدة النهار ٨٦/٩/١٣، ص ١١.

السائد، ووجوهِهِ ورموزِهِ، فكانت تلك المواجهةُ الجريئةُ والشرسةُ مع الإقطاع السياسي والتحجّر الديني... كان الشاعران شرارة وعبد الله أي عبد الحسين عبد الله يَصْدُران في مواقفهما الشعريّةِ والسلوكيةِ هذه عن إيمانٍ راسخ بدورِ رجالِ الدين في صدِّ الهجمة الاستعمارية التي فعل من قبل رجالُ الدين في العراق إبّان ثورة العشرينات الشهيرة... وكانتِ الصحافةُ نفسُها تتسابق إلى نشر قصائدهِ النارية غيرَ آبهةٍ بالمصادَرةِ ولا بألوانِ القمعِ الأخرى، وكان الصحافيون يتولون الدفاع عنه وعن رفاقه كلّما واجهتْهم محنةُ السجن والاعتقال".[1]

الصحافي الأستاذ محمد باقر شري تحدث عن موسى الزين الهادىء اللاذع، والمحبّ المُناضل: "لا أستطيع أن أتمثل موسى الزين شرارة إلا ضاحكاً أو ساخراً حتى بعد الموت... إنه السخرية اللاذعة المستملحة والمقبولة من الخصم أو الضحية حتى ولو كانت مرّةً وعميقة... التجديد الأساسي عند موسى الزين كان الالتزامَ الصادقَ بقضيةِ الناس، والتعبيرَ الصارخَ عن أوجاعهم والتصدّي العنيفَ لمستغليهم وقاهريهم... معه أصبح الشعرُ حاملَ رسالة...

وحتى في المناسبات التي كان يُقيمها العامليون في ذكرى أسبوع فقيد عزيز، أو عالم ديني أو وجيه كان يقف الشاعر ويتخذ من المناسبة فرصةً يعرض فيها مواطنَ الوجع، ويُمرّر تطلعاتهِ وأفكارَهُ... قال شاعرنا في رِثاء الشيخ عبد الكريم مُغنية العالم المُجدد:

حَنَانَكَ يا زَمانُ أكُلَّ يومٍ تَصُبُّ على مناكبِنا مُصابا
رُوَيْدَكَ ما تَرَكْتَ لنا غيوراً إذا ناداهُ واجبُهُ أجابا
رأيْتُكَ تَسْلِبُ الصَمْصام مِنا وتُبقي في سواعِدِنا القِرابا

عند هذا البيت كما يروي الشاعر قال نجيب بك عسيران أحسنت! فعلّق عبد الحسين عبد الله: "مش فاهم عليك"، وتابعت:

وترمي النَسْرَ وهو يَكادُ يدنو من الجوزا ولا ترمي الذّبابا
فَهَادِنّا بما نرجو وإلاّ فخُذْ معْ كُلِّ صدّاحٍ غُرابا[2]

---

(١) مجلة الشراع ص٥٨/٥٩ - ٦١/٦٢.
(٢) جريدة السفير ٢٨/٩/١٩٨٤.

... كان موسى الزين شرارة ملتزماً بقضية التحرير وإيقاظ الناس، يُرسل شعْرَهُ على سجيّته عَفْوَ الخاطر، واضحَ التعابير، مُشرقَ الأداء، تُلوِّنهُ نكتةٌ ساخرةٌ لا تتعمَّدُ التجريح - يرتاح لها المُتلقّي ولا ينفرُ منها المُستهدَف - ... شعرُهُ كان قريباً من الناس، لسانَ حالِهم وصورةَ واقعهم وحكايةَ معاناتهم والأملَ المرصودَ بالغد الموعود... لذلك جاء خطاب الشاعر لعامة الناس بسيطاً دون تكلف أو تعقيد، حدّثهم بلغة جديدة قريبة من إدراكهم وعقولهم، وعبّر عن أحاسيسهم بصدقٍ لا يعرف دَجَلَ المبالغةً وأكاذيبَ الغُلُوّ... يكفي أن نُعبّر بصدق أننا حزانى أو موجعون ونترك ما ورثناهُ من عصور الانحطاط، أو ما سمعناهُ من نفاقِ التزلُّف والرياء، فلا البحر يغيض ولا الشمسُ تنكسف ولا الدمع يجرف ولا الجبال تميد:

أنا لا أقولُ: البحرُ غُيِّضَ ماؤُه — وانهار شَهْلانٌ ومَادَ يَلَمْلَمُ
والشمسُ من هول المُصيبة كوِّرتْ — وعرا - مُحيا الكائنات - تجهُّمُ
والحُزْنُ عمَّ فما هُناكَ مدينةٌ — أو قريةٌ إلا وفيها مأتمُ
والآهُ في كل الأضالعِ جذوةٌ — والدمعُ في كل المحاجر عندمُ
والجودُ ينعي المكرماتِ وأهْلَها — إذْ ماتَ من هُوَ حاتمٌ أو أكرمُ
شأن الأُلى قد شوّهوا بقريضهم — وجْهَ القريضِ كأنَّما هو مُجرمُ
... الشعرُ وحيٌ والفؤادُ نبيُّهُ — يُملي عليه، واللسانُ يُترجمُ
قَدْ آنَ أن نَدَعَ العواطفَ حُرَّةً — تُصغي إلى همْسِ الضميرِ فَتَرْسُمُ
خلّوا الغلوَّ بنظمكُمْ وبنثركُمْ — أوَلَيْسَ للتاريخ ما نتكلَّمُ؟

هذا الكذب على التاريخ وعلى الناس هو النفاق بعينه، فلندعْهُ ولنقُلْ ببساطةٍ وعفويةٍ وصدقِ ما نحّس به وعندئذ قد نرثي لأنفسنا ونأسف على الدقائق والساعاتِ التي أضعناها ونحنُ نستمع إلىً مُسلسل الكذب والنفاق والتزلُّف في احتفالات التأبين والرثاء أو في حفلات التكريم والمديح:

أشياخُنا، زُعماؤُنا لا درّكُم — حيّرتُمُ الأدباء والشعراءَ
لا تعملون فتتركون مآثراً — وإذا قضيْتُم تطلبون رثاءَ!!
ماذا عساهُ بكمْ يقولُ مُؤبّن — إنْ رام مدحاً أو أراد ثناءَ؟

إن قال غيرَ الصدقِ خانَ ضميرَهُ … أو قال صِدْقاً أسخط السفهاء!!
أَيَقولُ: كان الشيخُ يلبَسُ عِمّةً … بيضاءَ يحملُ سُبحةً سوداءَ!!
أو كان يهرع للصلاة مُبكِّراً … خَتْلاً يخاطِبُ رَبَّهُ ورِياءَ
يعظُ الأنامَ وكفُّهُ بجيوبِهم … تتناولُ البيضاءَ والصفراء!!!
أَوْ ما يقولُ عن الذين دعاهُمُ … - جهلُ الجدودِ وجهلُنا- زعماء؟
هل بينهم من كان يُدعى غازياً … في الحرب يُعطي طَعنةً نجلاء؟
أو فيهِمُ مَنْ تَيَّمَتْهُ بلادَهُ … حُباً فجاهَدَ دونَها الدُخَلاء؟
أو بينهُمْ من شادَ يوماً معهداً … ضمَّ البناتِ إليه والأبناءَ؟
أَيَقولُ كان زعيمُنا لا دَرّهُ … في شاربيه يُضارِعُ الفلحاء؟
أو كان يلبَسُ كل يومٍ حِلّةً … وبكلِّ يومٍ يستجدُّ حذاءَ؟
وله غرامٌ في الطبيخِ فطالما … ملأ القُدُورَ فأَتْخَمَ النُزلاء!!؟!
موتوا إذاً موتَ البهائمِ خِلْسةً … فأجلُّكُم لا يستحِق رثاءَ

علينا أن نكون صادقين مع أنفسنا ومع الناس، ولا نلجأ إلى لغة الكذب والنفاق في المناسبات الاجتماعية، حيث يصبح السكوت أبلغ خطاب.

عييتُ من البلاغةِ في ثناءٍ … على رجلٍ يُولّي أو يموتُ
إذا كان النفاقُ عليك فرضاً … فأبلغُ ما تقول: هو السكوتُ

كانت القوةُ في شعر موسى الزين – كما ذكر الكاتب السياسي مُنح الصلح في ذكرى أربعين الشاعر – تأتي لا من العبارة الجميلة الخالية من الحشو، ولا من اللمعةِ الذهنية والفنية في المعنى، المتميزِ عندَهُ والمعروفةِ في مجالس الأدباء الجنوبيين الجريئين على الأعراف والأشخاص والأسماء، بل من تلك البراءة الإنسانيةِ والمصداقيةِ الوطنية التي تنطوي عليها أيضاً... وكانتِ القصيدةُ التي يُنشدُها الشاعرُ الوطنيُ تلعبُ دوراً مشابهاً لدور البيان السياسي الذي يصدره حزبٌ من الأحزاب تعليقاً على حَدَثٍ سياسيٍ أو اجتماعي، فهي حين كانت تُذاع تعبّر لا عن رأي صاحبها بل عن رأي اتجاهٍ شعبي بأسره".[1]

(١) مجلة الشراع، عدد آب، ص ٥٩، سنة ١٩٩٢ في ذكرى أربعين الشاعر.

وتجديد موسى الزين كان حتى في المواضيع المتداولة بين الناس، كان تجديدُهُ في الأسلوب وفي التعاطي مع القضية... فعاشوراء الموغلة في التاريخ كانت تُمارَسُ بكاء ولطماً وتفجعاً على مأساة آل البيت بينما يراها آخرون قمةَ التضحية والاستشهاد، والدرسَ الناطقَ عَبْرَ الأجيال المعبِّرَ عن موقف بطولي يُثبت للناس أن الدم يمكن أن ينتصر على السيف، وأن الشهيدَ يستطيع أن يزلزلَ عروشاً ويقوِّضَ ممالكَ عندما يقدم نفسه قرباناً على مذبح الفداء في سبيل قضية عادلة ومحقة... وأنها كانت وستبقى منارة الثوار، ودرب البطولات، وقدوة الأحرار.. فهي لم تكنْ يوماً وقفاً على مذهب أو حكراً على دين وإنما كانت وستبقى ملك الإنسانية جمعاء والتراثَ الخالد في التاريخ، الذي يلهم المناضلين ويعلمهم كيف تكون التضحية، وكيف يكون الاستشهاد حياة وبعثاً وخلوداً..

في مثل هذا اليوم قام حسينُنا ... يُملي الخلودَ على الحياة فتَرْسُمُ
ناداهُ واجبهُ المقدَّسُ فانبرى ... كالّليث يزأر غاضباً ويدمدم
ليثٌ له إرثُ النبوةِ غايةٌ ... عنها يذودُ ودونَها يتجشّم
ما ثارَ للدنيا كما ثاروا ولا ... لحطامها، إذ ليس فيها مغنم
... يا مَنْ ينوحُ وكلَّ عامٍ دارُهُ ... فيها لمقتولِ المروءة مأتم
أعَلِمْتَ مَنْ تبكي أمَ انْت مقلِّدٌ ... تبكي كما يبكي أبوك ويلطم
لولا دمُ الشهداء لولا نورهُ ... دنيا الورى سجنٌ وليلٌ مظلم
والعدلُ لفظٌ جامدٌ أو ميّتٌ ... طبقاً لما يهوى القويّ ويرسم
... أنا إن بكيتُ على الحسين فشاعر ... أو ثائر للثائرين يعظّم!!!
لا خانعٌ يبكي ليُعطى جَنَةً ... ثمنَ البكاءِ كما يقولُ مُعَمَّمُ
يبكي الحسينُ على الذي يبكي إذا ... ذُكرتْ بطولةُ كربلاءَ ويلطمُ
كفكفْ دموعَكَ: فَابْنُ حيدَر قُدْوَةٌ ... للثائرين ورائدٌ ومعلِّمُ

يقول خليل أحمد خليل: "موسى الزين هو أمير الكلمة النارية في أعالي جبل عامل... ورحلته الإبداعية تبقى في حياتنا وتاريخها بنكهتها المُميزة وبجذورها الطيبة الضاربة في أعماقنا وكأنها من أشجار هذا الكون الجميل التي تنبت في غير مكان،

والتي تُعطي لزمان الناس معنى وسبيلاً وحضوراً"[1].

... وأنت عندما تحاول أن تواكب موسى الزين أو تسيرَ معه زمنياً في رحلة شعرِهِ تتعجبُ من هذا البركان الذي لا يهدأ، هو في صباه يتدفق حماساً وعنفاً وثورة ضد المتسلطين من الزعماء السياسيين والمتزمتين من رجال الدين، لا يترك فرصة او مناسبةً إلا ويحاول أن يستفيد منها ويرسل أشعاره حمماً يتداولها الناس ويحفظونها كما الأدعية والأوراد.

رفقاً بشعبكَ، إن شَعْبَكَ قانعٌ ... في الذّل لا يشكو ولا يتذمرُ
مُتَواكِلٌ في العيشِ لا مُتوكّلٌ ... في التّرَّهات مُنَوَّمٌ ومخدَّرٌ
قد أقنعَتْهُ شيوخُهُ أن الذي ... يلقاه، مكتوبٌ له ومقدَّرٌ
... إنحرْ ضميركَ إننا في موطنٍ ... من كل أصحاب الضمائر يسخرُ
وطنٌ كما شاء الدخيل مقسّمٌ ... إثنان.. ذا لصٌ وذا مستأجَرُ
صانعْ ومالئْ ما استطعْتَ بريعهِ ... إيّاكَ يوماً بالحقيقة تجهَرُ
سبّحْ بحمد الأقوياء وإن عَتَوْا ... وارقصْ إذا آلُ الزعامةِ زمّروا
واركعْ لمَنْ ورثوا الزعامةَ إنهمْ ... كاللّهِ - جلّ جلالهُ - أو أكبرُ!!
واحبسْ لسانَكَ إنهم ساداتُنا ... ولَوَانّهمْ هدموا البلادَ ودمّروا
اخشعْ وطأطئْ للعمائمِ كلِّها ... سيّانِ منها أبيضٌ أو أخضرُ
إنْ قلت أصحابَ الزّعامَةِ فالعصا ... أو قُلتَ أصحابَ العمائمِ كفّروا!!
صدّقْ برغمكَ أو فإنَكَ مُلحدٌ ... أو كافرٌ أو فوضويٌ أحمرُ!!
يا حرُّ صبراً، فالكريم على الأذى ... وعلى المكارِهِ والشدائدِ يصْبرُ
يا حرُّ لا يُزْعِجْكَ نُصْحي إنني ... جرّبْتُ قبلكَ والمجرب أخبرُ

ها هو سنة ١٩٤٦ في جباع وقد عاد من المهجر بعد سنوات من الغياب في حفلة الكشّاف العاملي هو يعلم أن المنبر اشتاق له كما اشتاق هو إليه... لقد كبر، عاد إلى عرينه أبيض الشعر وما زال على العهد حرباً على المتحكّمين الطائفيين أعداءِ الشعب وقد سمّى قصيدته "صفارة الإنذار" التي تنبه إلى أمرٍ غيرِ اعتيادي.

---

(١) جريدة اللواء ١٩٨٦/٩/٩، د. خليل أحمد خليل.

أبناءَ قومي: غِبْتُ عنكمْ بُرْهَةً | وكذاكَ غابتْ عنْكُمُ أشعاري
واليومَ جئتُ وقد تحوّل مفرقي | من جنح ليلٍ حالكٍ لنهارِ
لكنّ بحمد الله ما اسْطاعَ النوى | تغييرَ آرائي ولا أفكاري
ما زالَ حبُ الكادحين عقيدتي | ونضالُهم ضدَّ الطغاة شعاري
والشعرُ شعري لا يزال كعهده | كالرعد، كالزلزال، كالإعصار
ولعاملٍ ما زال قلبي مفعماً | بالحب بالإجلال بالإكبار
هو موطني أهواهُ رغم شقائه | وتحكّمِ الإقطاعِ والأشرار
وبرغمِ أني عشتُ فيه مطارداً | - من شيخِهِ المأجور- كالكفار!!
... فليعلمنَّ اليوم مَنْ كانوا وما | برحوا حماةَ الشرِّ والأشرار
الوارثونَ نعوتَ أجدادٍ بها | حريتي بِيعت وبِيعت داري
المتخمون خزائناً مِنْ فاقتي | اللابسون الخزَّ من أطماري
الراكعون بباب كل مسيطرٍ | السائرون بركبِ الإسْتعمار
الحاملون الطائفيةَ معولاً | للهدم في أمني وفي استقراري
الهادمونَ بناءَ وحدةِ موطنٍ | بسياسة الناطور والمختار
وليعلمِ الوغدُ الذي شالتْ به | ألقابُهُ وبلاهَةُ الأقدار
وعلى وصوليٍّ: على أخلاقه | وعلى الضميرِ يصيح: أين الشاري؟
... أني رَجَعْتُ إلى العرينِ وهذه | مني لهم "صفارة الإنذار"
قولوا لهمْ ولكلِّ وغدٍ خلفهمْ | ولكلِّ طبّالٍ لهم زمّار
لا تغفُ بعد اليوم أعينُكُمْ فقد | آبَ الزئيرُ إلى الحمى والضاري
أنا حتفُهُمْ سيظل شعري مُصْلَتاً | بوجوهِهِمْ كالصارم البتار
أعداء شعبي منهمُ ما يشتكي | من فاقةٍ ومذلةٍ وصَغَار
باعوه بَيْع الرقِّ رغم إبائه | بِفَرَنْك الاسْتِعْمار والدولار
وبراتبِ الكرسيّ الذي هو سُبَّةٌ | - لو يعلمون - لهمْ ووصْمَةُ عار!!

الغزل والخمريات في شعر موسى الزين

لا أتصور أن إنساناً وعى على اليتم صغيراً، ونام وصحا في طفولة على نواح أمه في وحشة الليالي تندب حظها وشاهد مآسي سفر برلك ومجاعة وأمراض الحرب وظلم الأتراك وتعسف الانتداب وتهجير بلده وحرقها. ينحو بشعره نحو الغزل، حتى ولو قدر له أن ينعم أحياناً بغمزة طرفٍ أو حركة غنج أو لفتةِ غوًى أو نظرة دلال... لقد أخذته كل هذه الأوجاع وأعدته ليحاربَ هذه الأمراض ويتصدى لها لهذا كان غزله قليلاً يطل لماماً في قصائده لينمّ عن روح تحب الحياة وتعشق الفرح.. قال عندما طلب منه شيخ أن يمدح البن.

يكلفني امتـــداح البـن شـيخ ... لهـا وهب الحشـــاشـــة والفؤادا
حثثْتُ الشعرَ فاستعْصى كأني ... لشـــيعيٍ أقـــول امْـدَحْ زيادا
تعالى الشعــــرُ إن الشعـر فنٌ ... لغيـر الحسن لم يُسـلـسْ قيادا
بحثتُ فلم أجدْ في البن حسناً ... إذا غنّى القريـــضُ به أجـــادا

وفي مكان آخر راح يدعو إلى خلع الحجاب وإبراز الجمال لأنه نِعمة من الخالق وإحدى مرايا إبداعه:

جَـحَـدَ الـجَـمَـالَ وعَـقَّـــهُ ... مَنْ في حـجـابٍ ضَـيَّـعـهْ
إنْ كـــان إثـمـاً عَـــرْضُـــهُ ... فَـلِـمَـنْ إلـهُـكَ أبْـدعَـــهْ؟!

وفي تهنئة لنسيبه وصديقه حسين شراره - بمناسبة زواجه - يقول مخاطباً أبا العلاء الذي رفض أن يتزوج وهاجم المرأة ودعا إلى الحذر منها:

... آمنت فيكَ وفي عظاتِكَ كلِّهــا ... لكنْ بهجر الغيـــد دعْني أكفـــرُ
أأعـافُ لذاتي مَخافَة معشَـــــرٍ ... يشقى بها!! لا عاشَ ذاك المعشرُ
فلِمَنْ زهتْ هذي الخدودُ بوردهـــا ... ولمن بهذا الثغر ذاب السّـــكَّـرُ
حـــواءُ أنتِ برغـــم كـل مكابـــرٍ ... لجميع ما حوت السـعادةُ مصدر
أنتِ النعيم فروض صدرك روضة ... ولَمَاكِ... ما أحلـى لماك الكوثـر
أنتِ... ويــا للّــهِ أنْــتِ فكلــمـا ... ردَّدتُ "أنـتِ"... فذا فمي يتعطـر

غزل موسى الزين شرارة فيه من الجديد حلاوة اللغة وعذوبة الألفاظ وفيه من القديم الطرف الأحور والقامة الهيفاء ولفتة المهاة وهيام العاشق ولظى المهجة ووجع الهجران... هذا النمط يشكل برزخاً بين عصرين، ومحاولةً لم تستطع أن تأخذ موقعاً لها بين الشعراء الغزلين في النصف الثاني من القرن العشرين... نحن عندما نقرآها نشعر أنها خطاب حب وحديث غرام بينما رأينا مؤخراً أحاسيس وتعابير ومعاني وأنماط كلمات أكثرَ دفئاً وأعمقَ آداءً تتناول مواضيع أشد التصاقاً بالحبيبة وابعد (حميمية) مثل قَصَّة الشعر ونوع العطر، وعقد الياسمين، وسلسال الصليب، ولون القميص، وحلبة الرقص، ودفء الهوى، واشتعال الأنفاس.

هذا النمط الجديد في الغزل كان نتيجةً لانعتاق المرأة من سجن البيت إلى ريادة جميع ميادين الحياة، لقد انطلقتْ وتحررتْ وغدتْ موازيةً للرجل، لم تَعُدْ محكومةً بعُقدةِ النقص... لم يعد هناك أيُّ تمييز بين الطفل وأخته... يبدآن على نفس المقاعد ويتلازمان ويترافقان حتى أعلى مراتب الدراسة، ويعملان في المجتمع جنباً إلى جنب... ويحوزان في مختلف مراحل الحياة ثقة الأهل والناس... هذا الانقلاب العميق خلق بدوره مفاهيمَ مُختلفةً وانماطاً من التعامل والمعاطاة واستَتْبَعَ لغةً جديدةً بعد أن صار اللقاء مباحاً والحديث مسموحاً، والزيارة غيرُ مستهجنة والتخاطبُ عَبْر الهاتف أو الانترنت طَوْعَ الخاطر...

صحيح أن الشعور والأحاسيس والعواطف تبقى ملتصقة بالإنسان فلا يتغير فيه جوهر الحب أو الكراهية أو الحقد لكن لغةَ التعبير فقدَتْ هذه الايام وهْجَ البعاد والحرمان، وأصبحت أكثرَ صراحةً وأسهَل أداءً مع سرعة التطور ومدنية العيش... لهذا كانت تعابير غزل الحضر غيرَها عند البدو وموشحاتُ أشعار الأندلس مختلفةً عما سواها وكان بالتالي قمرُ الصحراء غيرَ قمر المدينة المتلألئة ضياءً ومصابيح كهرباء، يقول شوقي في "مجنون ليلى":

لست كالغيد لا ولا   قمر البيد كالقمرْ

... في ريعان شبابه نظم الشاعر قصيدة غزلية وأسماها غلطة الولد ذكر فيها حكايةَ قبلة ظفر بها من غادة حسناء بعد اعتذار طريفٍ عن غلطة وقع فيها... وتظهر جليةً فيها خًفة الروح وبراعةُ التخلّص في موقفيْ الشاعرِ والصبية.

أرضُ الكرامةِ عيناثا بها بلدي   شبابُها في الوغى صمصامتي ويدي

بمهجتي مرتعاً للشاردات بها من الظباء وفي قلبي وفي كبدي
على الغدير بها شاهدتُ فاتنةً ممشوقة القدِّ تحكي الغصنَ بالمَيَد
حَيَّيْتُ... فانفرجَ العنّابُ مُذ ضحكتْ عن لؤلؤٍ كالضحى في الثغر أو بَرَدِ
حورية آيةٌ في الحُسْنِ لو نَظَرَتْ حورُ الجنانِ لها، ذابتْ من الحسد
ناشَدْتُها الوصلَ فارتاعتْ فقلتُ لها عفواً وعذراً فهذي غلطةُ الولد!!
رقّتْ... فقبلتُ خداً ناعماً عَطِراً أشهى وأطيب من (بقلاوة الصمدي)!!

في قصيدة القاها من الإذاعة اللبنانية سنة ١٩٦٦ يقول:

كذب الوشاةُ فما سلوتُ هواكِ كيفَ السُّلوُّ وفي الحشا مأواكِ
كيف السُّلوُّ وفي أزاهيرِ الربى وبكلِّ حسنٍ في الوجود أراكِ
أقسمتُ بالحسنِ الذي أوتيتِهِ وبأحْوَرَ - يَسبي النهى - فتّاكِ
لو أن قدّيساً بتولاً طاهراً من كُوّة الديرِ الطَّهورِ رآكِ
خَلَعَ الوقارَ وصاحَ في أعماقه لله - درُّ أبيك - ما أحلاكِ
يا حلوتي رفقاً بصبٍ مدنفٍ ألقَتْهُ في - شَرَكِ الهوى - عيناك
جوري كما يهوى الهوى وتحكّمي فالصاب شهدٌ في سبيل رضاك
لولاك لم تَرْعَ النجومَ محاجري والقلبُ ما عرف الهوى لولاك

وفي قصيدة أخرى يقول:

يا ساحر العينيْنِ يا أسمرْ يُفدى بنفسي طَرْفُكَ الأحْوَرْ
والقامةُ الهيفا ورمّانةٌ في الصدرِ فوّاحٌ بها العنبرْ
والبسمةُ السكرى على مبسمٍ رضابُهُ الصهباءُ والسّكّرْ
ولفتةٌ اين التفات المها!؟ منها وأينَ الشاردُ الجؤذرْ
... رفقاً رعاك الله في مدنفٍ لا يعرف النومَ له محجرْ
أسلمتُ قلبي للهوى، والهوى طاغٍ شديدُ البأس لا يُقْهَرْ
كم مقلةٍ ذابتْ على ناره ومقلةٍ في ليلهِ تسهَرْ
في دربه قيسٌ أضاع الحجى وطأطأ الهامَ لها عنترْ

... موسى الزين شراره شاعر الثورة على الظلم والدعوة إلى التحرر ورفض الاستبداد والاستعباد... هو شاعر ثائر على الخنوع والتخلف والتزمت، وهو بامتياز الشاعر المعارض الذي لا يهادن ولا يساوم... وشعره الذي قاله في هذه المواقف كان صوت الذين لا صوتَ لهم... كان صوت الجماهير العفوي، والتعبيرَ الصادق عن معاناتها؛ ومن أجل ذلك انْتَشَرَ وحُفِظَ عن ظهر قلب ورُدِّدَ ورُوِيَ في المجتمعات... كان يمثّل روح العصر ونبْضَ الشارع... وهذا الشعر هو الذي ائتلفَ مع عنفوانِهِ وتمرّدِهِ وكان الشعرَ المميَّزَ فانتشر بين الناس كما الأطيابُ، بينما بقي غزلُه تقليدياً فيه من التجديد طلاوةُ اللغة وجمالُ الأداء ولم يتوصلْ ليكون الموضوع الذي يهم كلَّ الناس في عصر القهر والتخلف والجهاد ضد الحاكمين.

في خمرياته يشدنا الشاعر إلى أجواء الندامى والجلسات الأنيسة التي يسلو فيها الإنسانُ آلامه وينسى هومَهُ ومتاعبَهُ وأحزانَهُ ويعيشُ لفتراتٍ في عالمٍ ورديٍ لحظاتٍ ممتعةً نابضةً يُصوّرها في شعره لتَبقى ذكرى حُلْوَةً خالدةً، لهذا التحليقِ السعيد في عالم الضياع المُريح حيث كان كُل ما في تلك الليلة مُؤنساً، مُريحاً، مُغرياً.

وليلـةٍ فـذةٍ راقـتْ وراقَ بـهـا — طبعُ النديم وطَبْعُ الخَمْرِ والحاسي
ما شاهَدَتْها - ولا ضَمَّت كَفتَيْها - — قُصورُ بغدادَ في عهدِ ابْنِ عبّاسِ
سُمّارُها، ونداماها، وشاعرها، — رَقّوا وكُلُّهُم بـاللُّطْفِ نُوّاسي
تُسبي النهى بالتفاتِ الظبي نَفَّرَهُ — صَيْدٌ وتُسْفرُ في لطفٍ وايناس
وبسمةٍ جمّةِ الإغْراءِ ساحرةٍ — تفْتَرُّ عَن بَرَدٍ في الثَّغْرِ أو ماسِ
ما زالَ يَشْرَبُها صحبي وأشْرَبُها — والكاسُ يُقْرَعُ حتى الفجرِ بالكاسِ!!!
حتى سكرنا جميعاً واسْتَتبّ لها — سلْطانُها... واسْتقالَتْ دَوْلَةُ الرأسِ!!!

... أنا لا أدري إذا كان العقل قيداً يكبّل حركة الإنسان ويحاصرُهُ ويمنعُهُ من الشّطَطِ ليحفظَ له منزلتَهُ ومقامهُ بين الناس... أقولُ ذلك وأنا حائرٌ أو مأخوذٌ بما يحصل عندما "تستقيل دولة الرأس" وقد "سافر" الوعي إلى عالمِ سحري، ورديّ الشرفات، عطريّ الرؤى، مجنّح الأحلام، في ليلة أنيسة، هادئة، راقَ نديمُها، وهدأتْ طباعُها، ولذَّ شرابُها، ما عرفَتْ بغداد مثلها، ولا شَهد شَبيهاً لها أبو نواس... الشرابُ والندامى

والشاعرُ والساقيةُ في دُوار أخّاذ حبيب، لهم عالَمُهُمُ الأثيرُ حيثُ لا زَمَنَ يركضُ ولا سعادةَ تَهرُبُ... هي النشوةُ أخَذَتْهُمْ إلى دُنياها، أو الوَجْدُ جَذَبَهُمْ إليه، فباتوا لا يشعرون... لقد ضاعوا... طاروا وحلّقوا وفقدوا الإحساس بالزمن والناس والليل، حتى لكأنّهم ملوكٌ يسيِّرون هذا الكون...! وقد أقبل فجرٌ جديدٌ وهم لا يدرون... هي الخمرةُ استتبّ سُلطانُها، ومن آدابِ الشرابِ ألاّ تكون صاحياً وألاّ تتثاءب الأقداحُ كسلاً بأيدي الشاربين، كما أراد الأخطل الصغير:

أنا لَسْــتُ أرضى للندامى أن أرى   كَسَــلَ الهـوى وتَثــاؤُبَ الأقــداحِ
أَدَبُ الشرابِ - إذا المُدامةُ عَرْبَدَتْ   في كاسِها - أن لا تكونَ الصــاحي!!

مطلوب منك أن تهوِّمَ وتهيمَ في دُنيا "الضياع اللذيذ" وتنتشيَ روحُك، ويَفْرَحَ قلبُك شأن أبي نواس:

ما زلتُ أستلُّ روحَ الدنِّ في شَــغَفٍ   وأسْتَقي دمَهُ من جَوْفٍ مجــــروحِ
حتى انْثَنَيْتُ ولي روحانِ في جَسَدي   والدنُّ مُنْطَـــرِحٌ جســـماً بلا روحِ

ويقول في أبيات من أفريقياته متألماً بسبب "الطفر" لافتقاد هذه الأجواء.

عجباً جفاءَكَ للطِلــى والكــاسِ   يا وارثَ الخيّــامِ والنـوّاســـي
أيُّ الشيوخ عليكَ حرّم شُــرْبَها؟   .. ما للشيوخِ وشاعرٍ حسّـــــاس
فأجبتهم! ما تبت عن فتـــوى ولا   كانَ الشيوخُ وناسُهم من ناســـي
بل تبت عنها -رغم أنفيَ- عندما   جيبي شــكا لسماحــة الإفلاسِ
هذا الذي - وأنا الأبي لحــكمه -   طأطأتُ كالولدِ المهذّب راســـي

ويصف في بعض أبيات من قصيدة قدم الخمر وأثرها في النفس فهي التي تنسيه الهموم وتبعده عن الأوجاع وتنقله إلى عالم مسحور فيه كلُّ النشوة والسعادة.

دعِ السوداءَ واشربْ بنت كــرمٍ   معتقةً وَعَــتْ فـي الدنّ عـادا!!
تراني حين أشــربُها مليــكاً   أُسَيِّرُ كيفما شــئْتُ العبــادا!!
فأسلو المزعجاتِ وكلَّ خطــبٍ   بدنيانا.. وقد أســلو المعــادا!!
وأُمْعِــنُ فــي جنونـي لا أُبالـي   ولا أخْشَــــى ملاماً وانتقـــادا!!

هذا الضياع اللذيذ لمقاييس العقل، ينأى بك عن الهموم ويجعلُكَ في غيابك الحُلو سيِّدَ نَفْسِك، أميراً في عالمٍ مسحور، أو مليكاً يُسيِّر العباد ويُنظِّم الكائنات... تمشي وتتنقل وتقفز وتطير منتشياً، خفيف الوزن، متحللاً من أثقال قوانين الطبيعة ومتاعب البشر... الخمرة هذه هي التي تُنسيك المُزعجات فخادع زمانك بها، واتبع تعاليم الدير الذي حلّلها لك ما دام المحرابُ قد حرمها عليك:

خادعْ زمانَكَ بالسُّلاف فإنها ... كَـذّابَةٌ وزمانُـنا كَـذَّابُ
الديْر حلَّلَهـا فقلِّدْ رَأْيَـهُ ... حتى يُراجعَ رأيَهُ المحـرابُ!!

ولماذا لا تُباح وهي التي تُسكر بينما يُباح ويُحَلَّلُ الانتشاءُ بالصوتِ الشجيّ الذي يُطرب النفْس ويُرهفُ الروح؟، أو السُّكْرُ بسحر العيون وألَقِ الفتون تتعبد في جمالهما سِر التكوين ومعجزة إبداع الخالق:

فيـروزُ، أنـت البلبـل الصـدّاحُ ... غنّـي لتسـمَعَ هـذه الأرواحُ
غني فصَـوْتُك لو - عَرَفْـتِ - قلادةٌ ... - للأرز من خلاّقـه - ووشـاحُ
غني حنانَـكِ فالحيـاة دجنَّـةٌ ... وغناؤك المشـكاةُ والمصبـاحُ
ما قيمة الدُنيـا إذا هي أَقْفَـرَتْ ؟! ... لا مُطـربٌ، لا عـازفٌ، لا راحُ
ما للسُّـلافـةِ لا تُباحُ لأنـهـا ... سُكْرٌ وصوتُكِ مُسكِر ومُباحُ؟!
وعـلامَ تُفـاح الخـدود مُحجَّبٌ؟ ... وعلى الحدائق يُسبَلَ التفاحُ!؟!

ويتساءل -لا أدري إذا كان تساؤل العارف أو الحائر أو المُنكر - هل نُضحي بكل المفاتن والجمالات والمسرات والمِتع وجلسات السمر واللهو والشراب، وعبث الشباب، ومُجون الصبا في سبيل مكافآت العالم الآخر؟

قالوا لربِّـكَ جناتٌ أعَـدَّ بهـا ... للـصـالحيـنَ وراءَ العالم الفـاني
ما تشتهي النفْسُ من حُسنٍ ومن متعٍ ... ومـن ثمـارٍ ومـن حـورٍ وولـدانِ
فقلتُ: إن كـان للصُـلاَّحِ أنشـأها ... فسـوْفَ تبقى إذاً من غيـرِ سُكانِ!!!

إنه ليس أول من تساءل ولن يكون الأخير... طالما هُناك عقلٌ وشبابٌ ومجونٌ وشهوات وطمعٌ بعفوٍ وغفران من ربٍ كريم...

الإخوانيـــات

هي سمةٌ يختصّ بها جبل عامل، يتواصلُ عَبْرَها الأصدقاءُ وهُم يتراسلون أو يتعاتبون أو يُقرّرون قضية مُشتركةً أو يَدعون بعضهم بعضاً إلى لِقاء أو مُناسبة، لهذا كانت الإخوانيات حديثاً حميماً بين الشعراء ينقل دفء القُلوب وحرارة العتاب وحُمّى الشوق وَوَشْيَ الألوان ليصل بالتالي إلى الموضوع.

هي كالنقائض تأتي على نفس الوزن والقافية، لكنها بدلاً من أن تكون جواباً على إثارة أو تُهمة أو شتيمة تَرِدُ رداً على دعوةٍ أو مِزاحٍ أو عِتاب، الأولى مبعثها الخِصام والثانية مُنطلقُها الوِئام.

مع الشيخ محمد نجيب مروه

يروي موسى الزين: "جمعتني الصُدفة ليلاً في صيدا في دار الوجاهة والأريحية والجهاد والعلم والأدب دار علاّمَتِنا وأُستاذنا المرحوم الشيخ أحمد عارف الزين صاحب مجلة العِرفان الغرّاء بالأديب العاملي الفُكاهي الخفيف الظِل والروح المرحوم الشيخ محمد نجيب مروه[1]، فكانت ليلةً ليلاء لم أنَمْ بها بسبب (الشخير) المُزعِج الذي أسمعني إياه -رحمه الله- وقد أوحت لي الأبيات التالية التي عندما اطلع عليها المرحوم الشيخ عارف في الصباح أخذها من يدي ونشرها في العِرفان:

وشيخٍ بالنهارِ خفيفِ ظلٍ ... وَدِدْتُ لَوانَّهُ أبداً سميري
أديبٌ قارضٌ للشعرِ راوٍ ... أميرٌ بالنظيمِ وبالنثيرِ(*)
فإنْ يمدحْ يبُزَّ أبا تمامٍ ... وإنْ يهجو فأهْجَى من جريرِ(**)
طرائِفُهُ جواهِرُ مُنْتَقاةٌ ... لَهَا طَبعِ العَتيقُ من الخمورِ
يَشيعُ بِكُل حفلٍ حلَّ فيهِ ... وَنادٍ كُلَّ أنواع السرورِ

(١) هو شاعر الفِطرة بامتياز وُلِد في قرية الزرارية سنة ١٨٧٩، وعلمته أُمُه مبادئ القراءة والكتابة نظراً لأن والده كان كثير الأسفار، ورغم الظروف المادية الصعبة استطاع أن يُكوِّن نفسه بنفسه، وهو يتنقل ويُقيم بين عيثا الزط وتبنين وسلعا ومعروب. (قُرى في جبل عامل). كان يتنفس الشعر، ظريفاً خفيف الظِل، ناقداً اجتماعياً. يبعث المتعة والسرور أينما حلّ.

(*)(**)(***) هذه الأبيات نُظِمت فيما بعد عندما علمت أن الأبيات التي نُشرت في العِرفان، قد أغضبت الشيخ وهذا يُغضبني جداً لأنني أُحبه وأحترمه كثيراً، لذلك أرجو أن تكون الأبيات الجديدة (كفّارة).

ولـكِنْ فـي الـدُّجـى -إن نـامَ- طـودٌ على الأسـماع أثقل من ثبيرِ (***)
لَـهُ إن تـغـفـو أعـيـنُـهُ شـخـيـرٌ كَنَفخ الـصـورِ في يومِ الـنُشُـورِ
فَـسُـلطـان الـفَكَاهـةِ والـقـوافـي -إذا مـا نـامَ- سلطانُ الـشـخـيـرِ

وقد ردّ عليه الشيخ محمد نجيب مروة بهذه القصيدة:

أمـوسـى الزيـنِ أنـتَ أعـزُّ صحبي وأنت فتًى على الأعدا نصيري
وعـهـدي أن شـخـصَـكَ لـي مـحـبٌ يُـسَـرُّ بـرؤيـتـي كـلَّ الـسـرور
وأنـك مـخـلـصٌ تـهـوى لـقـائـي وقُـرْبِـيَ في الـعـشـيِّ وفي الـبـكـورِ
وتـهـوى أن تـرافـقَـنـي وأغـدو رفيقَكَ في الظهورِ وفي الـعـبـور
وإنـي مـوقـنٌ أنَّ الـلـيـالـي لَتَـصـفـو لـي وأنـت بـهـا سـمـيـري
فكيف كـرهـتـنـي وزعـمـتَ أنـي ظلمتكَ بالـشـخـيـر وبالنخير
وأنَّـكَ عِـفْـتَـنـي وأنِـفْـتَ مـنـي وكنتُ عـلـيـك أثـقَـلَ مـن ثـبـيـر
ألـم تـعـلـمْ بـأنّ الـنـوم فـيـه يصـيـر الـمـرءُ مـعـدومَ الـشـعـور
وأنَّ الـنـاسَ كـلَّـهُـمُ إذا مـا غَـفَـوْا أمـسُـوا كـسكّانِ الـقـبـور
وفي حـال الـكرى لا فـرق بين الـ أفـاضـل والأمـاثـلِ والـحـمـيـر
وكنتُ قـد الـتـقـيـتُ قُـبـيـل هـذا بفـلاحٍ بغـيـض مـن شـحـور(****)
فـجـادلـنـي بمـا لا خـيـرَ فـيـه وصـال عـلـيَّ كـالـكـلـبِ الـعَـقـور
كـذلك سـاءنـي إخـلافُ وعْـدِ الـ ـزعـيـم الـفـذِّ من آل الـصـغـيـر
وعُـدْتُ بليلـةٍ سـودا لـصـيـدا وذقـتُ هـنـاك طـعـم الـزمـهـريـر
ونـمـتُ ولـم ينـم كـسـرى بجـنـبـي ولا ربُّ الـخَـوَرْنَـقِ والـسـديـر!!
ولـكـنـي عـهـدتُ بـأن قـربـي بـذاك الـتـخـتِ درويـشـاً نـظـيـري
فـكـيـف هـجـوتـنـي ونـسـيـت أنـي إذا أوذيـتُ أهـجـى مـن جـريـر
وأن قـريـضـيَ الـمـشـهـورَ قـمـحٌ وشـعـرَكَ كُـلَّـه مـثـلُ الـشـعـيـر

(****) شحور قرية من قرى جبل عامل.

وأن جــمــيــع أ قــوالــي لُــبــابٌ تُـسَــرُّ بـه الإنـاثُ مـع الـذكــور
وأنـتَ إذا نـظـمـت الـشـعـر تـأتـي بـأقــوالٍ أقـلَّ مــن الـقُــشــور
وهـا أنـا قــد تـركـْتُـكَ عـن إخـاءٍ قــديـمٍ عـهــدُهُ لا عـن قُـصــور
ولا تـكُ خـائـفــاً مـنْ بـعـد هـذا فـقـد يـعـفـو الـكـبـيـرُ عـن الـصـغـيـر

مع الشيخ علي الزين

الشيخ علي الزين ابن جبشيت، الأديب والشاعر والمؤرخ والتقدمي الغني عن التعريف... هو أحد أُدباء العصبة العاملية في النجف وأحد رواد الحركة الوطنية والأدبية المُناهضة للفرنسيين وللمتعاونين معهم من أصحاب النفوذ السياسي والديني في جبل عامل... ترك بصماته واضحةً في تحقيقاته التاريخية وفي كتاباته الأدبية شعراً ونثراً، وفي علاقاته الحزبية التقدمية التي لم تقف عمامتُه وجِبَّتُهُ مانعاً دون الانخراط فيها...

كان (شيخ) التقدميين و"غاندي" الحزبيين ورفيقَ المُناضلين وهو والد الدكتور حسن الزين وجد الصحافي جهاد الزين.

أرسل الشيخ علي الزين صورتَهُ لصديقه موسى الزين، فَوَصَفَها بأبيات بعثَ بها إليه، ولسعةِ صدرِ الشيخ علي وأريحيته أرسل بدوره هذه الأبيات للعرفان لنشرها:

قلتُ لما رأيتُ هذا المُحيا طافحاً بالجمال مِثلَ البُدورِ
أيُّ رسمٍ هذا؟ أجابوا: علياً قُلتُ هذا ضربٌ من التزويرِ!!
قد عرفنا العليّ كالقرد شكلاً وعرفناهُ بالجمالِ كـ"نوري"!
كنتمُ تكذبون قِدْماً وباتَتْ تكذِبُ اليوم آلةُ التصويرِ

وقد علّق الشيخ علي الزين -بظرافته المعهودة- يحيا الفن.!!

وأرسل إليه قصيدة أخرى على سبيل المُداعبة:

أُحبُكَ لا لأن أباكَ شيخٌ ولا مِن حيثُ نائبُنا ابْنُ عمِّكَ
ولكن في جمالِكَ لي غرامٌ تعالى "الحَيَّكَ" في بطن أُمِّك
وَمَنَّ عليك في عقلٍ ضعيفٍ نحيفٍ أو خفيفٍ مثلِ دمِّك

فأغرى فيكَ أشعاري فباتَتْ مُتيمةً بنقدك أو بذمِّك[1]

أرسل الشيخ علي الزين قصيدةً إلى صديقه موسى الزين بمناسبة جوابه على إنذار بانتقاد شعره وقوله: (إن بعض أُدباء مصر كانوا إذا أفلسوا يتوجهون إلى شعر شوقي ينتقدونه طمعاً بما عوّد الناقدين عليه من الهدايا والهبات. وأنتَ أمهلْنا للبيدر نجمعْ لك ما فيه النصيب).

حتى مَ تعبثُ مستخفاً بالمودّةِ والصحابْ؟
وتَصُكُّ سَمْعَك عن صدى حبٍ تمادى أو دعابْ
هو من شجونيَ رقصةُ المذبوح أو قلبٌ مُذابْ
أرسلتُهُ وتراً يَرِنُّ بكل لحنٍ مُستطابْ
وسترتُ وجهيَ خَشيةً من قولهم: نَعَبَ الغرابْ
حسبي فقد نهشت قواي العادياتُ بكل نابْ
...أستَغْفِرُ الرحمن أنْ يكفيكَ غائلةَ الذئابْ
أو أن يتيحَ لك الهداية أو يُجيرَكَ في المآبْ
علِّي أراك محلّقاً في الخلد أمْنَعَ من عُقابْ
أنَّى اتجهتَ وحيث سرت فلا غُبارَ ولا ضَبابْ
جوٌّ كما شاءَ الهوى مِنِّي كما انْقَضَّ الشِّهابْ
متزاحمات حولَ عَرْشِكَ في دنوٍ واقترابْ
...ولكم تحفز معولي للهدم أو نبش الترابْ
مستأصلاً ما حاق بالآداب من هِنةٍ وعَابْ
مترفعاً عن كل ما يُزري ويُحفظُ من شوابْ
...فاجمع نُهاك ولا تقلْ: الشيخُ يطمعُ في الثوابِ
أنا من علمتَ فكيف اطمعُ من جنابكَ أو أهابْ
أو كيف أرضى النقد فنّاً بالتواء واضطراب

(١) الطف الطرائف المُعاصرة، دار عون ٢٠٠١، ص ٣٠، حسن علي شرارة.

فَـــ أَرِحْ ظـنـونَـك واتّــئِـــدْ واسْـدِلْ عـلـى الـوهـم الـحِـجـابْ
أو قـ ـل:"أمــــانــــاً هــــا أنــــا لـــلـــحـــق أوّلُ مـــن أنــــابْ
مــا ـي ومـا لـلـمـخـلـصـيـ ـن إذا لَـــووْا أُذُنِـي ارْتـقـــابْ
مــ لـي ومـا يُـغـنـي الأديــ ـب إذا تـنـكّــر أو تـغـــاب
ولــ نَـــرّ مـــن أخـطـائـه أن يـحْـسَـبَ الـفـنَّ اغـتـصـاب

وقد أجـ به الشاعر موسى الزين بهذه القصيدة:

يـا ، ـيـخُ قـلْ مـا شِـئْـتَ لا لـومٌ عـلـيـك ولا عـتـابْ
وايْـ أسْ ولا تـطـمـع فـــلا (قــمــحٌ) لـديَّ ولا تــرابْ
أنـا ـن عـلـمـتَ فـكـيـف اجـ ـزعُ مـن وعـيـدكَ أو أهـابْ
سـ فُ الـقـريـض بـسـاعـدي إن صـال غـيـري بـالـقِـرابْ
سـ ئَـلْ شـيـوخـي هـل تـركـ ـتُ عـلـى مـعـائـبـهـمْ حـجـابْ؟
نـاز ـتُـهـمْ فـإذا الـبـغـا ث عـلـيـه يـنـقَـضُّ الـعُـقـابْ
وإذا مـنـازلُ دَجْـلِـهِـمْ وريـائـهِـمْ قَـفْـرٌ خَـرابْ
وكـ ذا الـزعـامـةُ كـمْ عـلـى أوطـانـنـا جَـرّت مُـصـابْ
عـ ـنـا زمـانـاً بـيـنـهـا عـيـشَ الـقـطـيـع مـع الـذئـابْ
تـبـ ـتـزّ قـسـراً مـالـنـا وتـسـومُـنـا شـتّـى الـعـذابْ
وتـبـ ـيـعُ كـوخَ فـقـيـرنـا لـتـشـيـدَ عـالـيـةَ الـقـبـابْ
فـصـ ـرخـتُ فـيـهـا صـرخـة الـرئـ ـبـال ريـعَ حـيـالَ غـابْ
وغَـ وتُـهـا لا بـالـمـواضـي الـبـيـ ـضِ والـسُّـمْـرِ الـكِـعـابْ
كـلا ولا بـالـجـحـفـلِ الـجـرّا رِ والـجُـرْدِ الـعـرابْ
...شـ ـعـري إذا كـان الـقـريـ ـضُ سُـلافـةً كـان الـحُـبـابْ
أو كـ ان أزهـارَ الـحـقـول الـشـ ـعـرُ كـانَ هـو الـمـلابْ
غـ ـري لـه الـشـاطـي ولـي مـن زاخـرِ الـشِّـعـر الـعُـبـابْ

لمْ لا؟. وذا قلبي طعا ‏ ‏ ‏ مُ قصائدي ودمي شرابْ
لم أغْزُوَنّ غيري ولا ‏ ‏ ‏ قَلَّدتُ أحمدَ والصحابْ
بلْ سرتُ وحدي مستقـ ‏ ‏ ‏ ـلاً لا وصيَّ ولا انْتدابْ
عودي ومزماري هما ‏ ‏ ‏ مُلكي ونايي والربابْ
فإذا مُنيتُ بمعشرٍ.. ‏ ‏ ‏ خُلقوا وعاشوا للسِّبابْ
أو نالَ مني جاهلٌ ‏ ‏ ‏ "فالشهدُ مأدبةَ الذبابْ"
لو غيرُ عاملَ موطني ‏ ‏ ‏ لأرَيْتُكَ العَجَبَ العُجابْ
ولكان تمثالي يُتَوْ ‏ ‏ ‏ جُ منهُ هاماتِ الهضابْ
لكنْ قضاءُ الله كان ‏ ‏ ‏ فلا ملام ولا عتابْ
أنى يُحلّق للعلى ‏ ‏ ‏ طيرٌ وجانحُهُ مُصابْ؟
أو كيف يبدو النورُ في ‏ ‏ ‏ أفقٍ يجلّلُهُ الضبابْ
وطنٌ بوجه أديبه ‏ ‏ ‏ سدّ المسالك والشعابْ
يُسقى السلافةَ وَغْدهُ ‏ ‏ ‏ ويَعُبّ فيه الحرُّ صابْ
يدعوه ذا فيجيب دَعْـ ‏ ‏ ‏ ـوَتَهُ وهذا لا يُجابْ
أشهى وأعذب عنده ‏ ‏ ‏ - من نغمة الشادي - النُّعابْ
كم مرةٍ أسمعْتَهُ ‏ ‏ ‏ نغماتِ اشعاري العِذابْ
تلك التي من دونها ‏ ‏ ‏ - مهما حلا - خمرُ الرضابْ
مرّت مرور نواعم النـ ‏ ‏ ‏ ـسَمَاتِ بالصُّمِّ الصلابْ
ورجعت أنعي مهجةً ‏ ‏ ‏ ودَمَاً على الأوراق ذابْ
دعْهُ فلا تذكره لي ‏ ‏ ‏ فتزيدَ أحشائي التهابْ
وافتحْ أخَيَّ ولا تخفْ ‏ ‏ ‏ للنقد والتحليل بابْ
..فشغلتَ نفسك بالشيوخ ‏ ‏ ‏ ورحْتَ تبني في يَبابْ
ما ترتجي منهم وهل.. ‏ ‏ ‏ يُرجى من الموتى إيابٌ؟!
لا تخدَعَنْكَ قبابُها ‏ ‏ ‏ فعلى الهوى تلك القبابْ

اهـدمْ ولا تـأسـفْ فـمـا		فـي جـوفـهـا غـيـرُ الـتـرابْ
هـم آفـة الأدبِ الـصـحـيـحِ		بـأرضـنـا وهـم الـمُـصـابْ
كـم ذا نـخـادع بـعـضـنـا		ونـكـيـلُ الـقـابـاً كـذابْ
لـو كـان فـيـنـا نـاقـدٌ		حـرٌّ جـريءٌ لا يـهـابْ
مـا حـلَّـقـتْ بـغـرورهـا		تـلـك الـزعـانـفُ لـلـسـحـابْ
كـلاّ ولا ادَّعـتِ الـحـبـا		حـبُ أنـهـا ضـوء الـشـهـابْ
كـلا ولا مـثـلـي تـجـرأ أن		يـقـول ولـو دعـابْ
شـعـري إذا كـان الـقـريـ		ضُ سـلافـةً كـان الـحُـبـابْ

عتاب بين موسى الزين وصديقه حسن فياض شرارة (أبي تحسين)

كان موسى الزين والعم حسن فياض شرارة (أبو تحسين) تِربَيْن (نفس العمر)، رفيقَيْ طفولة، صديقين لا يكادان يفترقان لا يُذكر أحدهما حتى يُذكر الآخر، وبالإضافة إلى ذلك كانا شاعريْن، تربطهما ثقافةٌ أدبية وزمالةُ دراسةٍ وقرابةُ نسب... إلا أن تطلعاتهما اختلفت لاحقاً وكذلك نظرتهما السياسية إلى الأمورٍ... فقد عين أبو تحسين كاتباً للعدل في بنت جبيل، (وكانت المرة الأولى في تاريخ البلدة)، وعندما احتدم الصراع بين موسى الزين وأصحاب النفوذ السياسي والديني تخوف العم أبو تحسين من تعرض صديقه لأي مكروه أو اعتداء أو اعتقال أرسل إليه قصيدة لم أعثر عليها وإنما سمعتُ بيتاً منها يقول فيه:

... عجباً أن يقودَكَ الغِرُّ منهمْ		أوتُرى عـائماً على قطرتينِ!!

وأرسلها بدافع الحب والخوف ونَصَحَهُ فيها التخفيفَ من حدة الصراع أو الكفَّ عن مهاجمة الزعامات وبعض رجال الدين لأن المعركة غير متكافئة... وبقصيدة نقيضة - على نفس الوزن والقافية - رد موسى الزين وراح يذكره بأيام حلوة لا تُنسى، إلا أن الحسناء -بنت السرايا (الوظيفة) - أخذته إلى أحضانها وجعلته ينسى أخاه.. ويسترسل قائلاً له: وأنا كذلك قد اخترت طريقي وقدري ولن أُهادن هؤلاء... أنا "الحسين" أبحث عن يزيد ليكون دمي فداء القضية مشعلاً يُنير سبيل الثوار...

لا تَخَلْنِي نَسيتُ عهداً تَقَضَّى … لا وربِّ الحجون والرقمتيْن[1]
إن قلبي - كما عَرَفْتَ - نقيٌّ … لا تضاهيهِ ناصعاتُ اللُّجيْنِ
كيف أنسى وقد درجْنا صغاراً … ضمنَ حُسْنِ الوفاءِ كالطائريْنِ
صبيةً كالزهور كُنا، وكنا … فتيةً في الشباب كالنيِّريْنِ
قرَة العين كنتُ منك ومني … كنتَ روحي وكنتَ قرةَ عيني
كنتُ أهوى بأن أراك هلالاً … وتراني بجانب الفرقَديْنِ
غير أن الحسناءَ[2] بنت السرايا … لا لعوبٌ كحيلةُ المقلتيْنِ
تيمّت منك مهجةً وفؤاداً … حين لاحتْ مليئةَ الراحتيْنِ
خلتَها العزَّ، وهي لَوْ كنتَ تدري … غِلُّ ذلٍ لِعُنْقِنَا واليَديْنِ
فنسيتَ الرفاق أو كِدت تَنسى … بهواها أخاك للأبويْنِ!!
فافْترقْنا - لعينِها - ومشينا … - طبقَ رأيِ الدخيل - في دربيْن

***

يا شقيقَ الفؤاد يُدمي فؤادي … أن تُرى عائماً على نقطتيْن
.. كنتُ أهوى بأن أراك صريحاً … لا تُحابي رجال غش ومَيْنِ
... خلّني سائراً بهدي ضميري … خلّني ثائراً على السلطتيْنِ
لا تُرِدْني مُذَبْذَباً أو جباناً … أو ذليلاً معفَّرَ الخديْنِ
طالما الشعبُ عِدّتي وسلاحي … سوف أقوى واقهرُ القوّتَيْنِ
طالما الشعب مركبي وشراعي … سوف أنجو وأقطعُ اللجَّتَيْنِ
رُحْتَ باللّومِ مُسْرِفاً فَوَربّي … لاتَلُمْني إذا نظرتَ بعيني
زَحْزِحِ الوهمَ عن عيونكَ وانظرْ … لا يُريكَ الهصورَ عُجْبُ الحصيَنْ
ألفُ موت ولا يُقالُ محابٍ … أو مُراءِ يعيشُ في وجهين
أنا آليْتُ لا أهادنُ وَغْداً … في بلادي ولَوْ بذلكَ حيْني[3]

(١) اسم مكانين في الحجاز.
(٢) الوظيفة.
(٣) موتي.

إن يـكـونـوا يـزيـدَ جَـوراً فـإنـي حاملٌ في الضلوع نفسَ الحسينِ
لـبـلادي ديـنٌ عـلـيَّ فـدعـنـي كـكـرامِ الـرجـالِ أدفـع ديـنـي

خازن عبود يتذكر

"حمل موسى الزين شرارة - أحد كبار شُعراء جبل عامل في جنوب لبنان - على الإقطاع والإقطاعيين، وجسّد هموم الجنوب اللبناني، وواقعه المُرَّ وتطلعاتِ مواطنيه إلى مُستقبل أفضل، وأصبح شاعرنا من خلال شعره صوتَ المحرومين في الجنوب، وسيفاً مُسلطاً على رقاب تُجار الانتخابات والسماسرة... عرفتُ الشاعر موسى الزين شرارة من خلال تردّده على مجلة (الأحد) وجريدة (الكفاح) وأفسحتُ زاويتَين بعنوان (شرارات)... هاجسُهُ كان الجنوب حتى وفاته - رحمه الله- وقد تعرض كثيراً للمطاردات والمُلاحقات في أثناء الانتداب الفرنسي، الذي كان يرى في قصائده "شرارات" دعوةً إلى التحدي والتمرّد والثورة فاعتقلته السُلطاتُ الفرنسية أكثرَ من مرة وزجّت به في سجن الرمل.

في عدد الأنوار المؤرخ في ٨ تشرين الثاني ١٩٩٦ يتذكر الشاعر خازن عبود لقاءً مع موسى الزين سأله فيه هل تؤمن بتوارد الخواطر؟

- إن توارد الخواطر معروف بين الشُعراء، بعضهم يسمّيه سرقةً وأنا ضد هذا الوصف لأن الشعراء يتمتعون بالمشاعر والأحاسيس نفسها.

- يا أبا عدنان السبب الذي دعاني إلى توجيه السؤال عن توارد الخواطر هو قصيدتي: "جُرْ يا زَمَان" التي نشرتها في ديواني الأول وقلتُ فيها:

جُـرْ يا زمـان عليّـا والله لَـمْ أخـشَ شيَّا
جُرْ ما استَطَعْتَ فإني أبقـى كريـمـاً أبيَّـا
إذا الخُطوب ادْلَهَمَّتْ تَضَـاعَفَ العزمُ فيّـا

... إلى آخر القصيدة؛ وأنتَ قُلتَ في إحدى قصائدك المعنى نفسه:

- هذا صحيح فقد جاء في إحدى قصائدي:

ولمـا أنْ رأيـتُ الدهـرَ بغياً إلى حربي - بلا سـببٍ تَطَوّعْ
لبِسْـتُ له متينَ الصبـرِ درعـاً وقلـتُ له ألا ما شِـئتَ فاصـنـعْ

فزِدْ يــا دهــرُ بالنكَبَـاتِ إنــي	أقابلُهــا بصــدرٍ منك أوســعْ
وجرِّدْ ما استطعت من الرزايــا	فخصمُكَ من عرين الليْثِ أمْنَـعْ

وذات يوم التقيت شاعرنا في أروقة الإذاعة اللبنانية، ليُسجل كُل واحد منّا أُمسيةً شعرية، وبعد أن انتهينا من التسجيل قال لي:

- أعجبتني قصيدتك (حُبي لهم) هل تسمح لي بتشطيرها؟

- هذا شرف لي يا أبا عدنان

- استغفر الله، إنما أرجو أن أُجارِيَكَ في هذا المضمار الأدبي الذي لا تُجارى عليه.

وبعد أيام حضر كعادته إلى مكاتب مجلة (الأحد) وقدّم لي تشطير القصيدة مع مقدمةٍ قال فيها:

"دفعني الإعجاب بهذه العاطفة الرقيقة، عاطفة الصديق الحبيب خازن عبود، التي تجلّتْ بهذه الأبيات مع تشطيرها راجياً أن أكونَ جاريْتُهُ في هذا المضمار الأبويّ الذي لا يُجارى فيه". (كُل ما هو ضمن الأقواس هو الأصل، أي للشاعر المُلهم خازن عبود).

"حُـبـي لـهـم مـا مـثـلـه حبٌّ"	قـلـبـي لـهـمْ والـروح والـعـقـلُ
هُـمْ كُلُّ مـا فـي الـكـون من مِـتـعٍ	**"مـن أجلـهـم مُـر الـشـقـا يـحـلـو"**
"لـولاهُـمُ لَـيَـئِـسْـتُ مـن عـمـري"	هـم جـيـرتـي والـصـحـبُ والأهـلُ
صـابُ الـحـيـاة بـقـربـهـم عَـسَـلُ	**"وبـدونـهـم فـجـرُ الـمُـنـى لـيـلُ"**
"إن هـبّـشـوا وجـهـي ضـحـكـتُ لـهُـمْ"	فـجـراح وجـهـي الـعـطـرُ والـطـلُّ
وإذا دنَــوْا أو قـــربـــوا مـــنّـــي	**"وضـمـمْـتُـهـم، مـا الـطـيـبُ والـفـلُّ"**
يــا رب لا تـحـرمْ	**بيتاً من الأطفـالْ**
هُـمْ بهجةُ الدُنيا	**على مدى الأجيالْ**
حُـبـي لـهـم مـا مـثْـلُـهُ حُـبُّ	مـا لـي سـواهـم فـي الـورى خـلُّ
روحـي ومـا مـلـكَـتْ يـدايَ لـهُـم	**"فـفـداؤهـم يُـسـتـرخـصُ الـبـذلُ"**
كـم أقـفَـرَتْ لـولاهُـمُ دربـي	وإلـى وهـادٍ حُـوِّل الـسـهـلُ
وحـديـقـتـي لـولاهُـمُ يـبـسـتْ	**"وذوى بـهـا الـنـسـريـنُ والـفـلُّ"!**

كـم أنتــشـي إن تَـرْغَـلـوا مــامــا ما الـخـمـرُ ما النُّـدمان مـا النقلُ!
إن يضحكوا فالكون يضحك لـي "ويـغـصُّ قـلـبـي إن هُـمُ اعــتـلّـوا
سـيّــانِ عـنـدي رغـم وحـشـتــه قــبــرٌ وقــصــرٌ مــا بــه طـفـلُ
احرسـهُمُ يا ربُّ وارفـع لهُم شـانـا
واجعلهُمُ للخير والحُبِّ عنوانـا!

***

في العدد ٩٢٩٦ من جريدة السفير المؤرّخ ٩ أيلول ٢٠٠٢ كتب الأستاذ حسن محمد نور الدين تحت عنوان «شعراء العزلة» بمناسبة رحيل الشاعر الشيخ حسين زين الدين ونقلاً عنه:

«إنه من بلدة جبشيت قضاء النبطية، من مواليد ألف وتسعمئة واثنين وعشرين للميلاد، وفيها تلقى مبادىء القراءة، وانتظم في سلك الدرك، ثم ارتحل إلى الكويت، وعمل في الصِّحافة، ثم الى ليبيا ليعمل في التعليم وفي الإذاعة، وأخيراً سافر الى النجف سنة ألف وتسعمئة وخمس وستين للميلاد، ليحصّل علوم الفقه، ويعود إلى لبنان سنة ألف وتسعمئة وتسع وسبعين للميلاد، ليقيم في (صفد البطيخ) قضاء بنت جبيل.

واستطرد «في الزمن الغابر، كنت أساهر الليل مع ثلة من أصدقائي أمثال الشاعر موسى الزين شرارة وآخر يدعى «أبو كفاح»* وغيرهما، حتى كانت زوايا بيروت، ودساكر الجنوب لا تكاد تخلو من أثر لهمساتنا، وذات يوم انفرط عقدنا، ويممت شطر النجف الأشرف وعكفت على الدراسات الدينية، وما تناهى الى موسى الزين أنني في طريقي الى المشيخة حتى أودع البريد رسالة فيها أبيات موجهة إليّ ومنها:

أصْبَحْـتَ ذا عمّة أو هكـذا قالـوا لا يصلحُ الدينُ حتى تصلحَ الحالُ
خُلُوٌّ جيبـكَ لا تُجْديـهِ مشيخـةٌ وبســملاتٌ وتطويــلٌ وإرســـالُ
الفـقـرُ عنـدك مَـوْروثٌ ومكتسـبٌ ولن يعافيكَ - رغم الوفرة - المالُ
أخوك «موسى» وقد حلّتْ بساحته مصائبٌ ما لها في النــاس أمثـالُ

* هو الشاعر حسن الشيخ علي الزين شرارة

ينعالكَ وهو لهيفُ القلب من أسفٍ | عليكَ من سـكَراتِ الحـزن يختالُ
دعْ للورى دينَهُـمْ وارجـعْ فإنَّ لنـا | دينـا هو الحقُ والأديـانُ أقـوالُ

وعلى ما كان بيننا من ود وحب واحترام، فإن هذه الأبيات قد أثارت حفيظتي، وعزمت على تدبيج رد قاس وكانت قصيدة أقول منها:

لم يَحْدُ بي نَحْوَ هذا الموطن الطَفَرُ | ولا التذبذبُ فَلْيَخْسَ الألـى كفروا
لكنْ حدا بي إليه القلبُ مـذْ وَثَبَتْ | نحو السماء به الآياتُ والسُّـوَرُ
مجدُ العمـامةِ والتاريـخُ يذكـرُهُ | مجـدٌ تغنَّتْ بـه الأيـامُ والعُصُـرُ
لولاه لم تملأ الدنيـا حضـارتُنـا | ولا تـلألأ فـي آفاقنـا الظَّفَـرُ
«أبا كفاحٍ» وعصرُ الشيب عصرُ تقًى | عُدْ للحظيـرةِ إن العفـو مُنتَظَـرُ
أما رفيقُكَ «موسـى» فهو منغمـسٌ | في غيِّه.. ذنبُـهُ.. هيهـاتِ يُغْتَفَـرُ
أهكـذا تنقَضـي دنياه آثمـةً | ماذا إلى الله في الأخرى سـيعتذر؟

... وتبقى هذه المطارحات بعض سمات جبل عامل وسجلاً لذكريات طالما عاش الشعراء على فرادتها وحلاوة أيامها.

موسى الزين وإيقاظ المغفّلين:

أكثر ما كان يوجع الشاعر "عمى الناس السياسي" و"الخنوع" أمام الزعيم و"الخضوع" أمام رجل الدين و"الضعف" أمام السلطة.

كان يُوجِعُهُ التعصّبُ الأعمى - الموروث أو المكتسب - للزعيم، كما كان يوجعه هذا الالتزامُ العشائري الذي يَجْرِفُ في تيّارِهِ المتحزب البلدة أو العائلة إلى جانب الزعيم فتلتزمُ خَطَّهُ وتجعلُهُ نقطةَ الدائرة التي يدور الناس حول محورها وضمنها كالأسرى... وقد تعطلت حواسهم وفقدوا التفكير الصحيح وغدوا كمن جرى لهم "غسل دماغ".

الزعيم في نظرهم هو رأس العائلة أباً عن جد.. والزعيم هو صاحب البيت المفتوح، والخوان الممدود، والسلطة الفريدة.. هو المنزَّه عن الصغائر الذي أعدَّتْهُ العنايةُ لتدبير شؤون الرعية... وهو صاحب القصر المنيف، مالك الأراضي والأموال... وهو بالتالي من طينةٍ غيرِ طينةِ البشر يتباركُ الناس إن تَوَصَّلوا للسلام عليه أو تقبيل أنامله...

لأجله وسعياً وراءَ لفتة أو ابتسامةٍ منه، أو طمعاً في التقرب من الوصول إلى عتباته نبذُل الغالي والثمين و"ماءً الوجه"، ونفتخر ونطلق العنان لخيالاتنا وألسنتنا إذا حققّنا هذا الحلم، وحلّت علينا هذه النعمة... يكفينا أن يكون بخير، ونتمنى ونرجو أن نكون بعضَ "خَدَمِهِ أو زلِمِه" أو من المحظيين أو المحظيات في الدار المُنيف..يكفينا أن يكون بخير يجود علينا ببعض رضاه أو بمنحنا بركة القُرب منه... هذا الولاء الدونيّ المتخلف شكّل "مقتل الناس" وعطّل تفكيرهم، وشلَّ عقولهم وجعلهم أتباعاً كالقطعان.

هذا "العمى السياسي" في المجتمعات العاملية (أرَّقَ) فريقاً من الشباب الواعي، سلبهم راحتهم ودفع بهم إلى مَيدان العراك الفسيح يتصدون لهذه العصبية العمياء.

هؤلاء "المغفَّلون" البسطاء يجب علينا أن نأخذَ بيدهم ولو رفضونا، هم الضحيّة ونحن نحمل رسالة إنقاذهم، يجب أن نفتحَ عيونَهم، ونخَلّصَهُم من سواد الظلمة، ليروا نورَ الحياة وزاهيَ الألوان، يجب أن نقتلعَ التعصبَ من تفكيرهم، ونخلصَهم من المسلَّماتِ الجامدةِ التي ورثوها وعطّلت فيهم منطق الأحكام... علينا وبالرغم من رفضهم لنا أن نُفهمَهم أن الزعامةَ ليستْ وراثية شأن اسم العائلة أو لون البشرة أو العينين... فخُرافة الدم الأزرق أسقطتها الأيام... وأن القصر الوارف، والخوان الممدود والأملاك المترامية هي مسروقة أصلاً ومنتزعة من دم الناس وأرزاقهم ومن عرق جهدهم. لقد أرهقوهم واستغلوهم وامتصّوا حرارة النبض من عروقهم... كانوا ظل الأجنبي والمقربين منه. وكان فتاتُ السلطة وظلمَها وجورَها وسيلتَهم لإذلالهم وقهرهم وامتهان كرامتهم.

علينا أن نُفهمهم أن الأنامل التي يجهدون ويفتخرون بتقبيلها هي نفسها التي تتَشَبَّثُ ذليلةً بأيادي المستشار الظالم والحاكم الأجنبي المُتكبر طمعاً بلفتةٍ يخالونها رضىً... أو ابتسامة يعيشون عليها أياماً... وعلى هذا الشكل تتكون سلسلة الذُّل وتترابط بإحكام يمسك طرفها المستشار ويربط بها الزعيم الذي يربط بدوره المقرَّبين منه والأزلامَ وهؤلاء يربطون الناسَ حسب مواقعهم تسلسلاً حتى الحلقة الأخيرة في الرعية أو الرعاع.

بهذا المفهوم شكّلت حركة الشباب التي كان موسى الزين أحد روّادها نوعاً من التصدّي العنيف، محاولةً إيقاظ الوعي ورافضةً الاستكانة والخنوع... كانت بذلك صُراخاً مدوياً في مسامع النيام.

.. ثُرْ ضدَّ مَنْ نسبوا التعاسَةَ والشقا	والجهـلَ والحـرمـانَ للأقـدارِ
مَـنْ يلثُمـونَ بنَـانَ كـلِّ معمَّمٍ	ولوَ أنَّـه حـجـرٌ مـن الأحـجـار
ولكـلِّ طـاغٍ يَسْـجُدونَ كـأنـه	-اسـتغفر البـاري العظيم- البـاري
جعلوا الهوانَ شـعارَهُمْ واسـتأثروا	- دون الورى - بشـعارِهِ والـعـارِ
وبكـفِّهمْ وضعـوا علـى أعناقهـمْ	نيـرَ الشـقا والـذلَّ كالأبـقار
أنيـارُهُـمْ ملَّـتْ ومـا ملّوا وما	تَعِـبَتْ رقـابُهُم مـن الأنيـار...

وفي مكان آخر يصرخ متألماً

غيري على الموتى يشقُّ جيـوبَه	حـزناً ويذري دَمْعَهُ بسـخاءِ
أما أنا - وليَ الشذوذُ سـجيةٌ -	في عامـلٍ أبكـي على الأحيـاء!!
أبكي على مسـتعبَدين تطوّعـاً	لمطـامع الإقطـاع والأهـواء
ولكـل غرٍ كـلُّ عدَّةِ فخـرهِ	اسـطورةُ الأجـداد والآبـاء
ومـزارعٌ جدي وجدُّكَ باعهـا	مـن جدهـم بعبـاءةٍ وحـذاء
أو باعَهَا والسـوطُ يلهبُ ظهـرَه	بيـدِ اللصـوصِ بليـلةٍ ليـلاء
وموائـدٌ لحمـي ولحمك فوقـها	ودماك في أكوابهـا ودمائـي!!
عاشوا وعاش جدودهم من قبلهـا	عيـشَ القراد على دم الضعفـاء

وقد يحاول بعضهم تيئيسَ الشاعر الثائر وإفهامَهُ أنه "كمن يصرخ في واد عميق"، وأن لا حياةَ لمن يُنادي... فيجيبهم بأنه سيبقى حاملاً صليبه، مُناضلاً مُكافحاً، تماماً كما حمل موسى توراته وعصاه

قـالوا وقـد أرّقتـهُمْ بقـصائدٍ	مـشـبوبة الأبيـات والكلمـات
قلْ مـا تشاءُ فلنْ تحـركَ صخرةً	أو تُـرجِـعَ الأنـفـاسَ للأمـواتِ
سنظل نُدعى رغم كلِّ فسادنا	وصَغـارنا بالصيـد والسادات:
...كونوا فراعنةً شداداً وأحكموا	وتحـكّمـوا وتسلّطوا كطغـاة
... لن تخنقوا صوتاً غيوراً ثائراً	مـوسى أنا وقصائدي توراتي!!

مـــا أنــتـمُ بـشـــر إذا فـكَّـرْتـمُ ... بـل أنـتـمُ بَـقَـرٌ بـغـيـــر رعـاة
أنـتـمْ هـويّـاتٌ تـبـــاعُ وتُـشْـــتَـرى ... فـي سـوقِـنـا الـسـوداءِ لـلأصـواتِ
فـأجبتُ والشِّعْرُ المجنحُ صارمي ... لـلكرِّ في سـاح الـوغى وقناتـي
كـونـوا فـراعـنـة شـداداً إنـنـي ... موسى وأهلي الكادحون عصاتي
وقـفٌ عليـهـم أو على إيقـاظهـم ... ...شعري وما مَلَكت يدي وحياتي

وفي مكان آخر يظهر ألمه ووجعه من استكانة الشباب فلا يثورون على حُكّامهم ويتخلصون منهم:

لو كان فينـــا الثـائرون حقيقــةً ... أو كان فينا كالشـــباب شبــابُ
أقسمتُ ما عاشوا ولا بَقِيَتْ على ... تلــــك الهيــاكل أرؤسٌ ورقـــابُ
لكننـــا الحَمَـــلُ الوديعُ وكلُّهُـــمْ ... ظُفُـــرٌ لذئـب جائـعٍ أو نـــاب
يتناهبـــون لحومنـــا ودمـــاءنـــا ... هـــذي طعامُهُمُ وتلـك شـرابُ!!
ونظــــل حجابـــاً على أبوابـهـم ... وهُمُ لــــكل مسـيطرٍ حُجَّـــابُ
الأجنبيُّ لهـمْ - برغـم أنوفنـــا- ... ربٌّ يطـــاع... وهمْ لنـــا أربـــابُ

وعندما سمع النشيد الوطني الذي نظمه رشيد نخلة وفاخر فيه، لأن سهلنا وجبلنا منبتٌ للرجال، الفُرسان والأُدباء، حَمَلة السيوف والأقلام، خاطبه قائلاً:

لا لـــلعُــلـــى نحــــن ولا ... عنــــد الحقيقــــةِ للعلـــمْ
لا يخـــدعنّـــكَ نشيـدُنـــا ... فلـــنا غــــرامٌ بالنــغـــم
نحـــن إذا لـــخّـصتَنـــا ... جــدٌ بنـــى، وابنٌ هـــدمْ
قُـــل للمفاخــر بالجــــدو ... دِ وبـــالعـــراقـــةِ والقِـــدمْ
لا أكْتُمَنَّـــكَ فالـــجـــدو ... دُ ضيـــاغمٌ وَلَـــدَتْ غنــمْ
مـــن ذا تُـــنـــادي؟ مَـــنْ ... يُجيبُ وكُلُّنا يشكو الصممْ؟!
حطـم يراعـــك واســـترحْ ... وعلـــى الأذى والضيم نَـــمْ!!

هذا (النوم على الأذى)، والسكوت على الهوان والخضوع لشاربي دمائنا في مذلة واستكانة. كانت تحرِق أعصاب الشاعر وتُرهقه... كان يأنف أن يرى هذا الخُنوع أمام مُمثل السُلطة أو أمام (المُستشار)... قال في إحدى قصائده:

لا تصنعنَّ جميلاً بعـدُ فـي بلـد ابنـاؤهُ لَهُـمُ طَبْـعُ الجـديديْـنِ
مـاذا أتغمُـر بالأمـواه تُـربتَـهُ؟ فَتُنبِتُ الأرضُ مِـنْها كُـل زوجيْـنِ!
أم تبعـث العلـمَ حيّـاً في معـابده؟ بعـد المـوات فتأتـي بالحياتيْـنِ
جميعُ ذا كان صُنْعَ الزين كيف ترى(*)؟ هل قَدَّرَ القومُ هذا الصنعَ للزَّيْـنِ؟!
... أجل نسوا وتناسوا حين لاح لَهُـمْ مُكشِّـراً في السـرايا أزرقُ العيـنِ(**)

وها هو يصوِّر حياة الشعب الذي ينام على رنين قيوده:

لا تـعـجـبـوا إن قلـتُ إنَّ بعـامـلٍ شَـعْـبـاً ينـام على رنـين قـيـودِهِ
ألِـفَ الـمـذلّـةَ والـهـوانَ مـخـيَّـراً وبكفـه شـدَّ الـزناق(١) لجـيـدهِ
يَـبْـتـاعُ لقـمـةَ "بَـيْكِهِ" بـرغـيـفـه ويـؤوبُ مـفـتـونـاً بـوافـرِ جُـوده
مـسـتَـعْـبَـدٌ للبيك لا لـفـضـيلة فـي الـبـيـكُ بل لـخـوانـهِ وثـريده
ولَـوَ أنَّـهُ نـزع الـغِـشـا عن عـيـنـه يومـاً لـكان الـبيك بَعضَ عـبـيده
ولَـوَ أنَّـهُ يـدري بـأن شـقـاءَهُ مـنـهُ ومـن آبـائـه وجـدوده
وبـأنـه كـلُّ الـذي يـنـتـابُـهُ لـم يـرتـضِ إلا بـحـزّ وريـده
قل لـلـذي يدعـو إلـى تـحـريره مـهـلاً فـشـعـبُـكَ قـانـع بجـمـوده
عـبـثـاً تحـاول هل سـمعتَ بميّتٍ قـد آبَ يـومـاً من وراء لـحـوده
كم مـصلحٍ غـرس الجـهـود بربعـه فـقـضـى ولم يقطِفْ ثمار جـهـوده
فـالشـعـب إن مات الإباءُ بـصدره لا يـخـدعَـنْـكَ تـضـخـمٌ بـزنـوده
أقـرأ لـه أمَّ الـكـتـاب(٢) فـإنـه مَـيْـتٌ بـرغـم عـتـاده وعـديـده!!!

موسى الزين له نظرة واقعية وثورية في الشعب... الشعب ليس وحده القوة الكامنة المقدسة التي يتوقف عليها تغيير الواقع فهو بحاجة إلى القائد الذي يوقظه من غفوته، وإلى الحزب أو الأحزاب التي ترعى مسيرته وتوجهها وتحميه من المغامرات والمؤامرات... والتزاحم بين هذه الأحزاب على ضبط مسيرته هو مَعْلَمُ الحُرية وسبيلُ

* يوسف بك الزين.
** يعني المستشار بتشكوف.
(١) حبل من الشعر يشد به عنق الثور
(٢) الفاتحة

الديمقراطية لأن الساحةَ، تحتملُ تنوّعَ الأفكار واختلافَ المفاهيم... فالشعب طاقةٌ كامنةٌ يجب أن نعمل على إيقاظها وتوظيفها في خدمته وخدمة الوطن... وقد لا يعرف بعض الناس مصلحتهم ولا الطريق الصحيح ويبقى على الفئة الواعية وقادتها أن تأخذَ بيده وتفتحَ أعينهم وتسير بهم إلى معارج التقدم والتطوّر... إنك ترى في شعر موسى الزين هذه اللهفة ويظهر هذا الوجع من "السبات" الذي يلفّ الشعب. ولطالما تألم وتوجع من العمى السياسي الذي يمنع تحرره ومن الجهل المقيم الذي يبقيه غارقاً في العبودية.

يُسقى أخو الإقطاع رشْحَ جباهِهِمْ — بنتَ الكُروم - ويشربون وحولا
ربٌّ وإن باع اليهودَ ديارَهم — أو باتَ للمستعمرين عميلا
إن داس فوق الأرض خرّوا سجداً — كي يوسعوا أقدامَه تقبيلا
وإذا تكرَّم مرةً بزيارةٍ — تلقاهُ فوق رؤوسهم محمولا
تُنسيهمُ منه ابتسامةَ كاذبٍ — حرمانَهُمْ والجَوْرَ والتنكيلا

هذا الشعب النائم المُستكين آن له أن يستيقظَ ويثورَ ويصرخَ في وجه حاكميه... آن له أن يتحرَّكَ ويعرفَ طريق خلاصه ويتحررَ من جبروتهم:

يا أيها الشعبُ الذي أمسى كما — تهوى له الأخصامُ والأضدادُ
...لولا سكوتك عنهُمُ ما أمعنوا — أو أوغلوا بضلالهم وتمادوا
لولا سُكوتُك ما بَنَوا من فقرنا — هذي القصورَ الشاهِقات وشادوا!!
وبنوك إن جنَّ الدُّجى نهب القوى — ناموا وأعتابُ القصورِ وسادُ
وجَبَ الجهادُ فما الكلام بنافعٍ — ملَّ النديُّ وملَّت الأعوادُ

والمصيبة ليست دائماً محصورة في الزعيم الذي ألِفَ نمطاً مُعيناً في التعالي على الناس واعتاد أن ينظر إليهم بفوقية وتكبّر... فليس بمستغربٍ وهو - ابن بيئة العائلة الرفيعة أن يعاملهم باستعلاء طالما أنهم خانعون، مُرتاحون، إنْ لم نَقُل سُعداء... همُّهُم أن يحوزوا على رِضاه، ويكونوا مقربين منه، يدورون في فلكه... المُصيبةُ كلُّ المصيبة في هؤلاء وفي نفوسهم الميتة التي لا تَعرف كيف تتمرد لتتخلص من عبوديتها، ولا تعي كيف تنهض أو تثور لكرامتها، هذا الذُّل الموروث والاستكانة المُتمادية قد طبعا حياة

أولئك البُسطاء الجاهلين الذين يتصورون أنه ليس بوسعهم أن يعيشوا أو يستمرّوا دون زعيمٍ يسوسُهُم.

بُليت بمعشرٍ أو قُل بقومٍ أبيُّهُمُ يعيشُ بنفسِ عَبْدِ
إذا ما مرَّ ذو لقبٍ كبيرٍ أهابوا خُشّعاً منْ غيرِ قصدِ!!
وهبُّوا للتحيةِ بانتظامٍ فتحسبُ قائداً والكُلُّ جُنْدي
وإن عاتَبْتَ أوْفَرَهُمْ ذكاءً أجابكَ: لا نَعيشُ بلا أفنْدي!!
فَدَعْ عَنْكَ الذي يُدْعى إباءً فإني لا أُخالِف دربَ جدي
فلو أمسيتُ بينهُمُ طبيباً حقنْتُ عُروقَهُمْ بدِماءِ (غندي)[1]

وشاعرنا هُنا شأنه في معظم مواقفه يُبدي أَلَمَهُ ولهفتَه وحسرتَه على مِثل هؤلاء المرضى المستسلمين بملء إرادتهم للزعيم، المُقلدين جُدودَهُم بعفويةٍ بلهاء، قد لا تنفع معها دِماء غاندي ولا تعاليمه.

ورغم ذلك يرى شاعرنا في نفسه أنه صاحب الرسالة... هو موسى وتوراته قصائده، وهو الحسين الباحث عن يزيد، وهو حتف الحاكمين. وصاحب الصوت الصارخ المدوِّي لإيقاظ الناس... هو صاحب قضية يحملها ويحمل في نفس الوقت صليبه، كما حمل دعبل الخزاعي خشبته ولم يجد من يصلبه عليها.

سأظل أصرخ ما حييت بجمعهم حتى تفتّق سمعهم صَرَخاتي
وأمزّق الجلباب عن إجرامهم وأزيح سحب الوهم والغيمات..

لكنه رغم رسولية مهمته التي ندب نفسه لها، ورغم إيمانه بقدسيتها لا يستطيع أن يُخفي الوَجَع الذي عاناه، (وخسارته) لكثير من الأحباب والأقارب في مجتمع يقوم على الرياء والكذب.

يا شعرُ حسبُكَ قد صحبتُك برهةً أسقيكَ ذَوْبَ مدامِعي ودمائي
ماذا جَنَيْتُ سوى التعاسَةِ والشقا وعداوة الأوغاد والسفهاء
حمّلتَني عَلَمَ الإباءِ بموطنٍ قاموسُهُ لم يَحوِ لفظَ إباءِ

(١) هو الزعيم الهندي غاندي.

فـجـعلتني هـدفـاً لكُلِّ رزيـةٍ ولِـكُـلِّ نـائـبــةٍ وكُـلِّ بـلاءِ
...وطنٌ بـه راجَ الـرِّيـاءُ فـلـيـتـنـي بَـدّلْـتُ ثَوْبَ صـراحـتـي بـريـاءِ
لـولا الـصـراحـةُ مـا رأيتُ أحـبّتي وأقـاربـي ومـعـاشِـري أعـدائـي!!
ورأيتُ من أبـكـي على حـرمـانـهـم سـيـفـاً لـحـربـي فـي يـدِ الـجـهـلاءِ
لـولا الـصـراحـةُ لم يَضِقْ بي موطني وَهْـوَ الـفـسـيـحُ الـرَّحْـبُ للـغـربـاءِ!!
لـولا الـصـراحـةُ مـا أثرتُ هـيـاكـلاً -زَعمَ الـجُـدود- بـأنَّـهُم زعـمـائـي
ولـمـا رأيتُ عـمـائـمـاً مـأجـورةً تُفـتـي بتكفـيري وسـفـكِ دمـائي!!!

الإحباط والمُعاناة

يقول إبراهيم بيضون:

"بعد عودته وعلى الرغم من اختياره بعد سنوات رئيساً لبلدية بنت جبيل، إلا أن الشاعر لم يعد إلى مكانه، فالوقت تغيّر، والرفاق تبدلّتْ وجوه بعضهم، فإذا هو مُتكئٌ على الماضي ويكادُ لا يخرج منه... حتى الشعر الذي نظمه في تلك المرحلة لم يرتقِ إلى مستوى المرحلة السابقة بقضيتها المتوهجة، وآفاقها الرحبة ومعاركها الساخنة"[1].

وأسباب ذلك واضحة للعيان... هي مأساة المُناضلين الشرفاء عندما يصطدمون بالواقع أو يحاولون أن يطبقوا نظرياتهم لدى استلامهم المسؤولية فيرون أن روما من تحت هي غيرها من فوق... وأن المُمارسة الفعلية على أرض الواقع ليست بالضرورة مُطابقة للأفكار النظرية، فقد تعترض التطبيق مصاعب ليست بالحسبان، كما قد تفتُر اندفاعةُ المسؤول الجديد، "أو يسرِقُ وهجُ السُلطة بعضَ مثالياته"، وربما تأخُذُهُ بعيداً عن ماضيه وتصبح بالتالي المبادئ التي نادى بها وعمِلَ من أجلِها عبئاً ثقيلاً عليه... فيرى نفسه بعد ذلك حائراً بين إغراءات السُلطة وجاذبية الكُرسي، حتى إذا فضّل جنَّة الحُكم وآثر الحياة المُريحة وبهارِج النفوذ تأكد له أنّه خَسِر رِفاق النِّضال وأصحاب الأمس البُسطاء الطيِّبين الشُرفاء النظيفين الذين لم يتلوّثوا ولم يعرفوا أو يقبلوا أنصاف الحُلول... هكذا مع الوصوليين تبدأ المُعاناة من جديد، فبالأمس كانَ يُحارِبُ مُستشاراً أجنبياً غريباً يعمَلُ على تأمين مصلحة بلاده أما اليوم فهو يتصدى لابن بلده ورُبما لرفيق جهادِه الذي "أخذته السُلطة من بين الصفوف وقدمت لَهُ كُرسيّ الحُكم فاعتلاها سعيداً".

ظنَنْتُ فرنسا مصدرَ البؤسِ والشـقـا   ومصدر ما نشكو منَ الحيْـفِ والغُبْنِ

(١) موسى الزين شرارة شاعرالالتزام، السفير ٦ آب ١٩٩٦.

فـحــاريـتُـها حـتـى تَـقـلَّـص ظِلُّـهـا فجاءَ أُنـاسٌ بـعـدهــا... خيَّبوا ظنِّـي
فيــا ليتَ مــا جــاؤوا ولا كـان مــا أرى وليتَ الفرنســـيين ما أفرَجــوا عنّي
ويـالـيـتـه طــال الـــجِهـادُ ولـــم أزَل سجيناً ولم يضحَكْ زعيمٌ على ذَقْني!!

وهذا الشعب المسكين قد انتخب نوابه أملاً في أن يعملوا على إعمار مناطقهم وتحسين ظروف معيشتها، وفتح الطرق وإنشاء المدارس، ونشر العلم... هُمُ الذين وعدوا بذلك، وأول غيثِهِم سيكون ماءً وكهرباء.

قـالـوا سنجلب لـلـجنوب المـاءَ يُـروى ويُـصــبـحُ روضـةً غـنَّـاءَ
ولـسـوف نـفـرشُ سـهـلَهُ وجـبـالَهُ بـدلَ الـشَّـقــاءِ سـعــادةً ورخــاءَ
والـكـهـرباءُ غـداً سـيـهـزِمُ نُـورُها -عـنـه وعـن أجـوائِـه- الـظـلـمـاءَ
طوبـى لمن يـبقـى لـيـومٍ تـغـتـدي هـذي الربـوعُ حـدائقـاً خـضــراءَ
فـأجبتُ والنيـرانُ تُلهِبُ مُـهجـتي والـعـيـنُ تـذرِفُ دمـعـةً خـرسـاءَ
... خلُّوا المـياه وحـرِّروه من الألُـى وَرِثُوا النُّعوتَ الضَّخْمَةَ الجوفاءَ!!
... لا تـسقـه رُحـمـاكَ مـاءً واسـقـه حُـــريّــةً وكـــرامــــةً وإبــاءَ
دعـه يمُتْ عطشـاً ودعْهُ مخـيـراً حُــراً يـبـيـتُ كـمــا أراد وشَــاءَ

لقد تَعِبَ منهم الشعب وسئِم مهازلهم وتمثيلياتهم:

أريحـونـا مـللنَـاكُــمْ ومَـــلّتْ مهـازلكم بنـدوتِنَــا العُـيــونُ
يسارُ الشعبِ منْكُم ضاق ذرعــاً وملّ غـبــاءكُــمْ حـتى اليمينُ

وفي مكان آخر يتساءل عما إذا كانت السياسةُ المرسومةُ تقضي أن يبقى الجنوب مهملاً:

حتى متى هذا الهوانُ يــدومُ وبنــا يُحكَّـمُ حـاكـمٌ محكــومُ
أم أنَّ إذلالَ الجنوبِ سياسـةٌ مـرسـومـةٌ ومصيـرنا محتـومُ

ولمن نشكو من هذا الهوان؟

نشـــكو ونوابنا لا يســـمعون لنـــا   كـأنـمـا خُلقوا من غيـر آذانِ
شِعارُهُمْ - بعدَ كُرسيٍّ به شُغِفوا -   على ديارِ حَوَتْنَا ألفُ طُوفان!!

نوابنا سُعداء بكراسيهم، مشغوفون بالوجاهة، لا يسمعون شكاوانا، ولا يحسبون لنا حساباً، ومن حقهم أن يكونوا كذلك، طالما أنَّهم يسوسون أغناماً يتحكم بها المُسدس والعصا، ويتستَّر-على ممارسات الظلم اللاحق بالناس - العلماءُ الذين تفرض عليهم رسالتهم ألا يسكتوا على الظلم والجور والفساد:

ومشت -كما يهوى - المُسدس والعصا   صيدُ الرجالِ كأنها أغنـــامُ
وعَنَتْ لحكمِ الجاهلين بِرَغْمها   - خوفَ الأذى - علماؤنا الأعلامُ
وتعطّل المقياسُ سيّانِ الوفا   والغدرُ والإصلاحُ والإجـرامُ
وأبو (الحُصين) له يُقال تزلفاً   وتملقاً حُيّيت يا ضرغـامُ
فقُلِ العفاء على البلاد وأهلِها   وعلى الكرامة والإباء سلامُ

في انتخابات سنة ١٩٧٢ أرسلت جريدة النهار البيروتية مندوبيها إلى المناطق اللبنانية لاستطلاع رأي الناخبين حول المُرشحين وما هي تمنياتهم في انتقاء النواب، وقد أجاب الشاعر على هذا السؤال بهذه الأبيات(١):

يا شعبُ حسبُكَ طاعةً لمعاشرٍ   حَسِبوا الذي تُسدي إليهم واجبا
أتْخَمْتَهُمْ شَبَعاً وشِدْتَ قُصورَهُم   وقبَعْتَ عرياناً بكوخِك ساغبا
ولمن تألَّهَ حين أصبح نائباً   مِنْ عُرينا والجوع يقبض راتبا
إن جاءَهُ العاني الفقيرُ بحاجةٍ   ألوى له جيداً وهزَّ مناكِبا
واليوم جاءَ الانتخابُ وجاءنا   يُبدي ويصطَنِعُ ابتساماً كاذِبا

وبعد هذه الانتخابات ومن وحيها نظم قصيدة "ما عاد يخدعُنا" ومنها هذه الأبيات:

يا نائبي عفواً إذا ما شاعرٌ   مثلي تَجَرّأ أن يقولَ مُعاتِبا
مرّت علينا في غيابك أربعٌ   حملت خطوباً كالدُّجى ومصائبا

---

(١) روائع الأدب الفُكاهي العاملي، علي مروه، ص ٢٨٤.

دُكّـت منـازلنـا علـى سُكانهـا فـغـدَتْ يبـابـاً بلقـعـاً وخَـرائِبـا
...ماشاهدَ الوجهَ الكريم، مشاهدٌ يـأسـو جـراحــاً أو يُعـزّي نـادبـا
بل كُنتَ تدعو "للصمود" مزايداً وأراك قـبـلـي عـن ديارك هـاربـاً
مـا زُرْتُ قصـرَكَ مـرَّةً في حاجـةٍ إلاّوجـدْتك نـائـمـاً أو غـائِبـا...
...ما عاد يخدَعُنا... عرفناهُ على كـلّ الحِبـال بكلّ عـهـدٍ لاعِبـا

هي مسرحية الانتخابات تتكرر، وتتكرر معها الأساليب الملتوية، وألاعيب الدجل، ومحاولات شراء الضمائر، حيث تزدهر البازارات المشبوهة، وتنتفخ الجيوب، وتموت الكرامات في سوق النخاسة... وينبري المُطبّلون المُنتفعون يزعقون وينعبون مهللين لعودة فرسان الظلام:

غداً سـيـأتـون بـل تأتـي مواكبُهُمْ يقودُهـا الدجـلُ المـدروسُ والـكذبُ
ويخـرج المـالُ ليـلاً مـن خـزائـنـهمْ وتسـتـعـدُّ – إلـى استقباله – الجيَبُ
وتنبري الزلمُ بعد القبض هـاتـفـةً وكـالمـتـاعِ يُـبـاع الشـعـرُ والأدبُ
ويـرجـع الـقـوم نـوابـاً لـنـا وعـلـى ما قد مضى تُسدَلُ الأستارُ والحُجُبُ

ويسدل الستار لبضع سنوات، حتى إذا اقترب الموعد الجديد تتكرر المسرحية:

...وخزائنٌ سَمُنَتْ بفضل هُزالكمْ ومزارعٌ مسـلوبةٌ وقصـورُ
وبنادقٌ ومسـدّسـاتٌ، خلفهـا أبواقُـنـا والطَّبْـلُ والـزمّـورُ
ووعـودُنا بـالمـاء تجـري أنهراً والكـهـربـاء يعـمُّ منـهـا النـورُ
والكـوخ يـصبـح (يلدزاً) أو جنةً غـنـاءَ، روضٌ دارُهُ وزهـورُ
وقضـاءُ حـاجةِ كُلِّ مَنْ هو ماهرٌ بالقتـلِ أو هُـوَ مجـرمٌ مشـهورُ
وحمـاية (القبضاي) فليفتكْ بِـنا يـهـواه مِنـكُـم ذنْبُـهُ مغفـورُ

يقول في هذا السياق خليل أحمد خليل:

"لقد عاد من أفريقيا كما ذهب واختير على رأس المجلس البلدي رغم أنه لم يكُن سياسياً بالمعنى الحرفي أو الحزبي الضيِّق بل كان مُناضلاً سياسياً مُلتزماً بكل القضايا الوطنية... كان يرى نفسه في الكُل وكان الجميع يرون أنفسهم فيه؛ وهذا ما جعل شعره

يُضارع شخصه ويتلون بألوان طهارته ورفعته وبراءته حتى في أشد مراحل الإحباط والانكسار"[١]

يقـول رفاقـي مـا لصـوتِك خافتٌ ... وكـان بعـهـد الانتـداب يُلَعْلِـعُ
وأيـنَ قـوافيـك التـي هـي ثـورةٌ ... تَـدُكُّ الكراسـي تحتَـهُـمْ وتُزَعْـزِعُ
فقُلْـتُ: رِفاقـي داؤنا اليـومَ مُعضِـلٌ ... فـلا نَظْمُنـا يُجدي ولا النَّثْـرُ ينفـعُ
فحُكّام هذا العهد - بالإذن منهُـمْ - ... علـى عـدم الإصـغاء للقولِ أجمعُوا

وبنفس الحُرقة والوجع والإحباط يرد كذلك على سائليه المُتعجبين من سكوته، شاكياً الزمان الذي هزل وغيّر كُل المقاييس وبِتنا نرى في الميدان من يأنفُ الشعر أو يستحي أن يقول فيه حتى كلمة هجاء.

قالـت عرفتُـكَ شـاعِراً مُتحـرِراً ... وعـرفْـتُ شِـعْرَكَ ثورةً حمـراءَ
ما هـادن الإقطـاعَ خَشـية بطشِـهِ ... يـومـاً ولا الأذنـابَ والـعُـمـلاءَ
عَجَباً سُـكُوتُكَ هـل جَبُنْـتَ لأنَّـهُـم ... حشـدوا الوُعُـودَ عليـكَ والإغـراءَ؟
فأجبتُـها: مَـنْ ذا أنـازِلُ هاتِ لـي ... الأنْـدادَ للـهـيْـجاءِ والأكـفـاءَ
لـم يبقَ فـي الميـدان إلا تـافِـهٌ ... يـأبى القريـضُ هِـجاءَهُ اسـتحياءَ
ومعاشـرٌ - هـزل الزمان - فـأصبحـوا ... نـوّابَ هـذا الشـعبِ والـوُزراءَ
قسـماً بِهِمْ لولا الـذي ابتاعوا بِهِ الـ ... ـكُرْسِيَّ لم نعرِفْ لهُم أسـمـاءَ!!

"موسى الزين كان منذ بداية العشرينات واستمر يُمثل التيار المُعارض والمُحرض والثائر والناقم دائماً على الّذين يتلاعبون بمقدرات البلاد، يدعو الناس للحذر من الانخِداع والتطبيل والتزمير"[٢]، وعلينا أن لا نقع بالوهم والتصديق أن هُناك أبطالاً:

...مهـلاً عليـكُمْ إنّ مُلكـاً أُسُّهُ ... قهرُ الخصـومِ وكيـدُهُمْ سـيزولُ
سـادَتْ بِها الفوضى فلا قانوننا ... يحـمي الحقوقَ ولا القضاءُ عَدُولُ
كُنّـا قديمـاً فـي دخيـلٍ واحـدٍ ... واليَـوْمَ كُـل الحـاكميـنَ دَخيـلُ

(١) د. خليل أحمد خليل، مجلة العرفان، ١٩٨٨.
(٢) قيصر مصطفى، الشعر العاملي الحديث، ص. ١٥١

ولكم خاب أمله وتألّم وشعر بمرارةٍ في العهد الجديد:

لقد خدعونا والكريمُ بطبعِهِ – وإن كان أذكى النّاس- بالناس يُخدَعُ
...لكنهمْ لمّا دنا الحُكْمُ منْهُمُ وفوقَ الكراسي بالقصور تربعوا
فكُلُّهُمُ المندوب أمسى وكُلُّنا رياضٌ يعادى مِنْهُمُ ويُروَّعُ
سقى الله "مرتيلاً" ويا لَيْتَ عهدَهُ بِرَغْمِ مساوِيهِ يعود ويرجعُ!!
لئِن ضاع حُرُّ الرأيِ والقولِ عندَهُ فها هُوَ عِنْدَ الخُلَّصِ اليوم أضيَعُ
وإن رُفِعَت فيه الجواسيس للذرَى فها هي في عهدِ الكرامةِ أرفعُ

ويتألم من الفساد المُستَشري في دوائر الدولة، ومن كثرة المحاسيب والسماسرة حتى بات المواطن الشريف يخجل من أن ينتمي للعهد الجديد:

عِثْتُمْ بِنَا، وعبثتمْ في ضمائرِنا وخُلْقِنا وعبثْتُم في القوانينِ
هذي الإدارةُ فوضى في يديْ نفرٍ بِلا ضميرٍ، بِلا خُلُقٍ، بلا دينِ!!!
والعدلُ يشكو ولكنْ لا سَمِيعَ لَهُ فمن يُوَشْوِشُ صُمًّا في الطواحينِ؟!!
يا سادة العهدِ عفواً إذ يقول لكم مثلي سلامٌ على عهد الشياطينِ
هاتوا بلبنان حراً غيرَ مضطهَدٍ هاتوا شريفاً نزيهاً غَيْرَ مديونِ
بينا محاسيبُكم باتوا – ولا حسدٌ من احتكارات مازوتٍ وبنزينِ
ورشوةٍ وشفاعاتٍ وسمسمرةٍ – أهلَ القصور وأصحابَ الملايين
لو كان ينطق هذا العهد قال لَكُمْ لا تنسبوني إليكم ذاك يؤذيني!!

ويترحّم على عهد فرنسا رغم أوصابه وآلامه وممارساته:

سُقِيتَ الغَيْثَ عهْدَ المستشارِ على ما فيكَ من خِزْيٍ وعارِ
...أعادَ إليه عَهْدَ التُرْكِ جوراً وطُغياناً وعهدَ الانكشاري
ومَنْ كانوا غداةَ غزَتْ فرنسا بِلادي واستقرَّت في دياري
جواسيساً على الأحرار مِنّا وسيفاً في يمين المُستشارِ

وكـان ضـمـيـرُهُـمْ فـي كُلِّ سـوقٍ ... يُـبـاعُ كـسـلـعـةٍ مِـن كُـلِّ شـاري
فـرنـسـةُ كُنْتُ مِن أعـداكِ قِـدْماً ... وحـربُكِ كـانَ فـي وطـنـي شـعـاري
بعـهْـدِكِ كـان يُدمـي القـيْـدُ سـاقي ... وسِـجْـنُ الـرّمْـلِ كـاد يـكـونُ داري
فَـعُـودي كَـيْ أكـونَ لَـكِ عـمـيـلاً ... وجـاسـوسـاً عـلى أهْـلي وجـاري ـ!!
وأُعْـلِـنُ تـوبـتـي جـهـراً وأُبـدي ... -على رغمي- عن الماضي اعتذاري!!

ماذا يعني أن يصل بكَ الأمر لأن "تتحسّر" على أيام سلفت كُنْتَ ثائراً خلالها على كُلّ مظاهر الفساد وعلى ممارسات الانتداب وتجبُّر المُستشار، فلم تهدأ ولم تعرف الراحة وأنتَ تتوزع أيامُك بين المُلاحقة والمعتقلات والسجون، ثُم لتجد نفسك في العهد الجديد الذي طالما جاهَدْتَ وناضَلْتَ لِتصلَ إليه: عهدِ رفاقك في الجهاد وتترحم فيه على أيام المُستشار... إنها فجيعة الإحباط والمأساة التي يذبح أَلَمُها ويُميت!!..

وصمد موسى الزين شرارة - يقول السيد حسن الأمين - طوال عهد الانتداب الفرنسي حتى إذا جاء الاستقلال، وجد موسى نفسه غريباً بين المُتسابقين، فابتعد عن ميدانهم قانعاً بأنه أدّى ما يجب عليه تأديته لوطنه، مُكتفياً بأن يظل صوتَ الحق الذي لا يصمت"... وصوت الحق لا يمكن أن يصمت، فهو نداء الشرفاء وصراخ المُتعبين يُزلزل عُروش الظالمين ويسلبهم راحتهم ويحرمهم هدأة الاستقرار وهناءَة الغفوة.

موسى الزين شرارة وعبد الحسين عبد الله

في جبل عامل عندما تذكر اسم أحدهما لا يسعُكَ إلا أن تُتْبِعَهُ باسم الآخر، فقد غَدَوَا توأمين متلازمين لا ينفصلان ولا يتباعدان، لا تحلو مجالسةُ أحدِهِما دون حضور رفيقه، ولا يطيبُ حديثٌ عن واحدهما دونَ اسْتحضار الآخر...

ربما يكونان هما اللذان فرضا عليك ذلك وجعلاك تشعر أنهما متكاملان، وأنهما شريكان، يتقاسمان الحَدَث والمناسبة حيث يبدأ الأول ليكمل الثاني، ثم يتداوران الرواية والتعليق والنكتة والضحك والشعر، ويتركانك في مرحٍ أخّاذ. وفرح آسر، مشدوداً إليهما وقد اختلط عليك أيهما الشاعر والناظم والراوي... وهما عن قصد أو دون قصد يتبادلان نَسَبَ بعض الأبيات أو يعزوها أحدُهُما للآخر، ويدعانِكَ حائراً ومأخوذاً بهذا التماثل والتوافق في شفافيةِ المزاج وخفّةِ الروح وبراعةِ النكتة وسخْريةِ الدُعابة، حتى لكأنك وأنت معهما خارج الزمان والمكان، في حلقة من حلقات الوجد تترنح وتتمايل وتتهادى على تراتيل الشعر وفنون الأدب وصنوف المواضيع فلا يُتْعِبُك جدٌّ، ولا يسفِّ بك هزلٌ، ولا تسأم من مكرورٍ وإنما تَوَدُّ لو طال بك المقام وتوقفتْ دورة الزمن.

موسى الزين شرارة وعبد الحسين عبد الله شاعران وحَدّتْ بينهما كثير من الصفات، وشدّتْهُمَا إلى بعضهما أفكارٌ وتطلعات، فجاء شعرهما عفْوَ الخاطر، سلساً، مشرق الصورة، زاخر المعنى، تميزه دعابة أو نكتة تؤدي الغاية وتوصل الرسالة وتترك لك تتمة التعليق...

مصادفةً فريدةً كان لقاء هذا التوأم في المكان والزمان، وغنى رائعاً للأدب كان هذا التماهي في المواقف والتطابق في النظرات والتماثل في القدرة على الإضحاك، والتشابه في حب المرح وجلسات الأنس... لقد وجدا نفسيهما عندما التقيا، كَأَنَّ كلاً منهما عثر على صاحبه، وبعفوية وبساطة أصبحا صديقين ونديمين ورفيقي نضال، وزهَتْ بهما منابرُ جبل عامل، فردَّدَ الناس أشعارهما، وترنموا بها، وحفظوها كما التراتيل لأنها صورةُ الواقع، وتاريخُ الحدَث ونَفْثَةُ الموجوع وتمرُّدُ المقهور...

"لم تكن بداية عبد الحسين عبد الله في بنت جبيل يقول المؤرخ إبراهيم بيضون[1] ولكنه كان يؤثر أن تكون من هناك، حيث التحول الفعلي في خط سيره، من شاعر يلوذ بالتقليد، وينسج على نسق الأوائل وتبهره القافية الصعبة في ديوان النخبة، إلى شاعر

(١) كلمة في أربعين الشاعر في المجلس الثقافي، لبنان الجنوبي في ١١/٣/، ١٩٩٠

متمرد، يرفض الجمود والانصياع للواقع، ويأبى للكلمة أن تظل مغتربةً أو مرجومةً إن أشاحتْ عن وجهها الغطاء... لقد وجد في الحاضرة العاملية الناهضة مُناخاً آخر، واستمع إلى كلام جديد، فأغراه فيها المقام، وجذبته إليها صحبةٌ كانت في الموقع الأثير من القلب المضطرب بالآمال الكبيرة وقد صار حطاماً في عصر الأحزان...

"هكذا إذاً - يتابع المؤرخ بيضون - يعبر عبد الحسين عبد الله إلى وجدان الحاضرة العاملية واجداً محله وصفوته وهواه وأكثر من ذلك ما يلائم المزاج ويستوعب المؤثرات الأولى في حياته، وهو الذي أخذ اللغة سليمةً عن شيوخه الكبار... لقد قرأ ذاته في شخصية موسى الزين شرارة، إذ جَمَعَتْ بينهما سماتٌ عديدة منها الظرفُ والبساطةُ والواقعيةُ والتمردُ، وربما النسيج المتقارب في الأسلوب إلى درجة يصعب فصل أحدهما عن الآخر... وقد بلغ من أمر هذا التكامل بين الشاعرين أن بعض الأبيات نسب للاثنين معاً، وربما نَسَبَ أحدُهُما بعضاً آخر عن عمد لرفيقه، تحت تأثير ظروف صعبة لديه، أو أقل صعوبة لدى الثاني..."

وفي مقدمة ديوان أبيه يقول الأديب الراحل كامل العبد الله:

"ما ثار ليثور، ولا نقم لينقم تحدّياً وتعدّياً... إنما في معركة الحياة وَجَدَ، في الصميم من الأتون الملتهب، قلباً حياً وحساسية مرهفة، فصوّر ونقل عاكساً تأثرات الأعماق واختلاجات الخاطرة، فجاء شعره صورة الحياة ذاتها، كلّ حياة، في ثورتها وهدوئها، وفي صخبها وصحوها، وجاء صورة للعواطف الإنسانية في حبها وبغضها وعذوبتهاوقسوتها وإيمانها وكفرها"....

وكما أنه لم يقسُ ليحقد ويؤذي ويعتدي فهو لم يمدح ولم يَرْثِ ولم يلِنْ ليتقرَّبَ ويستجديَ ويَمُدَ يداً... كان يثور بحب، ويقسو بحب وعلى ثغره وفي شعره دعابةٌ هازئةٌ ساخرةٌ، محبةٌ مع هذا كله، حرفُهُ لا يحمل شتيمة ولا أحقادا... أحاسيسه كانت على الورق أمامه قطعةً من كبده وفلذةً من ذاته..."[١]

أترى كان المرحوم كامل العبدالله يعني كذلك توأم أبيه، ورفيقه الأثير موسى الزين شرارة وهو يغرف من قلبه ويسكُبُ أحاسيسه صوراً زاهيةً ومشاعرَ صادقةً وهو يتحدث عن الإنسان فيهما، الإنسان الثائر العنيف المُحب الهادئ المسامح الطيب القلب؟!

في كتابه "ألطف الطرائف المعاصرة" يورد حسن علي شرارة أبياتاً ينسبها لموسى

(١) مقدمة ديوان حصاد الأشواك، ص ٥، منشورات المكتبة العصرية.

الزين شرارة رغم أنها معروفة لعبد الحسين عبد الله ومنشورة في ديوانه:

يا مـــدير الاقتـــصـــاد الوطنـــي　　　قل لنا من أين أصبحت (غني)؟
لم تهاجر لم تُتاجِر لـــم تـــرث　　　عن أبيك الفذ غير الرسـنِ[1]

مشيراً إلى أن البيت الثالث هو بالتأكيد لموسى الزين وهو "القفلة" المعهودة في شعره.

لو قضى والدُكمْ فيما مضـــى　　　غُـــرِّمَـــتْ قَريتُكـم بالكفـنِ

كما أورد في كتابه المشار إليه أعلاه أبياتاً زعم أنها تعود لموسى الزين شرارة رغم أنها منشورة في ديوان حصاد الأشواك ومشهورة أنها لعبد الحسين عبد الله:

يا قائد العشـــرين ألـف مـجاهـد　　　نسـفوا مقرك يا جنـاب القـائـدِ
مـا للأشـاوس عندما نـادَيْتَهـم　　　للـذود عنهـا ما ظفـرت بـواحـدِ
ليستْ رجالُكَ للحـروب وللوغـى　　　فـهُـمُ رجـالُ ولائـم ٍ ومـوائـدِ
قـد فـرَّ جُنْـدُك والـيـهـودُ وراءهـم　　　"حَوَّطَتْ" جندك من عيون الحاسدِ[2]

بينما وردت على لسان موسى الزين شرارة نفس الأبيات مشفوعة ببيت خامس:

جحدوا ولاءك مُذ جَحَدْتَ نقودهمْ　　　وكـذا يُجازَى جاحـدٌ عـن جـاحِـدِ

وأتبعها موسى الزين بأبيات أخرى في المناسبة ذاتها:

نـسـفـوهـا نـسـفـوهـا نـسـفـوا...　　　طيِّروا الدارَ وطارَ المِنسـفُ
سـأل الحـاخـامُ لَمَـا نُسِـفَتْ　　　وَعَلَتْ فِي الجـو تلـك الأرغُف
ورأى الطبـخَ يُغَطِّـي أرضَـهـا　　　هـيَ دَارٌ يا تُـرى أم معلـف؟!

كما نسب للشاعر موسى الزين شرارة القصيدة الشهيرة "كفارة" على الرغم من ورودها في الصفحة ١٦٩ من ديوان حصاد الأشواك للشاعر العبد الله ونحن لا يمكن إلا أن نعتبرها لمن نسبها أولاً لنفسه.

---

(١) حسن شرارة، ألطف الطرائف المعاصرة، ص ٣٣، منشورات دار عون.
(٢) نفس المرجع.

ومناسبة القصيدة أن أحد العلماء امتدح الشاعر بعد أن سمع أنه يُصلي فنفى الشاعر وأنشد:

عَلاّمَةَ العصرِ مَنْ أنْباكَ قد كَذَبَا — أني أُصلي! فعقلي بعدُ ما ذهبا!!!
ولحيتي لم تَطُلْ يوماً كلحيَتِكُمْ — ولا "عَقَفْتُ" كإبنِ الأسعدِ الشنبا
ولا حملتُ كَذَيْل الهر مسبحةً — ولا تركتُ الهوى والشعرَ والأدبا
نُكِبْتُ بالشعر، يكفيني نوائبُه..!! — دعْني ومن بالصلا والصوم قد نُكبا!!
عِفتُ الصلاة لشيخٍ راحَ يمنعُني — شُرب المُدام، ودوماً يشربُ العنبا
يُعذِّب اللّهُ مَنْ خانَ البلادَ ومنْ — باعَ الضميرَ ومنْ مارى ومَنْ سلبا
أما أنا كي أزيد النارَ فَوْقَكُمُ — قدّمتُ جسمي إلى وُقّادِها حَطَبا!![1]

... ترامى في أحد الأيام إلى الشاعر موسى الزين شرارة أن صديقه عبد الحسين عبدالله قد أعلن التوبة أو الندم على ما فات ومضى من عمره... ونشرت مجلة العرفان له قصيدة بعنوان "رجعت إلى ربي"... فأوحت هذه القصيدة للشاعر موسى الزين شرارة قصيدةً ليسلك نفس الدرب.

إلهيَ سلْ عبد الحُسينِ الذي أتى — إليكَ مُنيباً باللسانِ وبالقلب
يُذيل دموعَ النادمين على الذي — تقضّى من الستينَ باللهوِ واللعبِ
ويندُبُ عمراً ضاعَ في مَهْمَهِ الشقا — وفي بلقعٍ قفرٍ من الخيرِ والحبِ
تصرّم بينَ العبثِ واللهو والهوى — وبين الندامى وابنةِ الكرمِ والشربِ
إذا صح أنْ قدْ تابَ للرشد واهتدى — بنوركَ منْ بعدِ المتاهةِ للدربِ
...وتُبتُ بصدقٍ فارتضى الله توبتي — وحوّل أثامي إلى "لجنةِ الشطبِ"!!
وَبَوّأني في جنة الخلد منزلاً — مع الصفوةِ الأبرارِ والآل والصحبِ
تمنيتُ لو أن ابن هاني[2] مجاوري — بها ورهينَ المحبسينَ[3] إلى جنبي

(١) نفس المرجع السابق.
(٢) الشاعر أبا نواس.
(٣) الشاعر أبا العلاء المعري.

وعبدَ الحسين الفذَّ لو كان مخلصاً   بتوبته هذي ليسكُن في قربي
فيصبح دَارُ الخُلد إذْ ذاك ندوةً   لأهل القوافي الشاردين عن الركبِ

وهكذا فإن صح أن عبد الحسين قد تاب وترك الهوى والعبث والندامى وحياةً حافلةً باللهو ليخلدَ إلى حياة هادئة فإن توأمه - إذا صدقت توبته- يتمنى السكن بجواره لأنهما لا يستطيعان أن يفترقا ففي دار الخلد هما معاً يشكلان نواة ندوةٍ من الشعراء الشاردين عن الركب.

... تناول الشاعران في الكثير من قصائدهما نفس المواقف السياسية والاجتماعية، وتصدّيا لتسلط الزعامات وضيق صدر وأُفق بعض رجال الدين واستكانة وخضوع الناس وحاولا أن يهزا بعنف أجسادهم ومشاعرهم يقول عبد الحسين عبد الله:

اللهَ عونَكَ يا جنوبُ فكلما   ودعتَ نائبةً لقيتَ نوائبا
ما إنْ أزحتَ الأجنبيَ ونَيْرَهُ   حتى رَأيْتَ سواهُ فوقَكَ راكبا
تقْتاتُ من دمكَ المراقِ عصابةٌ   سمُنَتْ ونِمْتَ على المذلَّةِ ساغبا
الآكلون من الفقير رغيفه   والمتخمون مغانماً ومكاسبا!!!

وها هو الشاعر العبد الله يعتلي المنبر ثائراً، مهاجماً وهو يؤبّن حسن كامل الصباح:

ما جئتُكُمْ لأُحيّي الجاهَ والزُّعَما   بل جئتكُمْ لأُحيي العلمَ والعلمَا
الشعرُ لم يُغْرِهِ بيتٌ ولا نسبٌ   ولا أجادَ على أوتاره النغما
كوخٌ يشعُّ جبينُ العبقريِ به   أسمى وأكرمُ من قصرٍ حوى صنما!!
كم أطْلَعَ الكُوخُ في آفاقه قمراً   أضاءَ في الكونِ حتى بدّدا الظُلما
أعمى المعرةِ يبقى ذكرُه أبداً   ويطمسُ الدهرُ هاروناً ومعتصما
...مالي أرى زعماء القوم ما هَرَعَتْ   إلى ضريحكَ تَستَسْقي له الدِّيَما
ما قلّدوكَ وساماً من مراتِبِهِمْ   لو كُنْتَ قُلِّدْتَهُ لم ترتَفِعْ عِظَما
سيذهبونَ ويبلى ذكرُهمْ معهمْ!!   وأنتَ تبقى على الأجيالِ محترما

ما يجمع موسى الزين شرارة وعبد الحسين عبد الله هو أكثر مما يُفرقهما في

المواقف والنظرات والأسلوب كِلاهما شاعر مُجيد، انطلق من وجع الناس ومعاناتهم وعاش الحاجة وعمل على تأمين قوته وقوت عياله...

صحيح أن عبد الحسين عبد الله كان موظفاً يتقاضى راتباً لكن موسى الزين لم تكن حاله أكثر كفاية ...

مأساة الموظف أنه مغبون يدفع كل شهر قسطاً من عمره مقابل راتب هزيل.

إذا ما أَهَلَّ الشهرُ أبغي زوالَه لكي أتقاضى راتبي آخرَ الشهرِ
كأني أبيعُ العمرَ فيما أنالُه فيا بئس عيشٍ بِعتُ من أجله عمري

ويقول موسى الزين مخاطباً صديقه:

...أنا ابن الشعب مثلك لا أميرٌ كبيرٌ حاكمٌ من "آل ثاني"
ولا أنا وارثٌ لقباً كبيرا ولا "كالْبيك" عندي شاربانِ
ولا عندي كَمَنْ سرقوا بلادي وأوطاني المزراعُ والمباني
ولا تاجرْتُ في شرفِ القوافي "كقوَّادٍ" يُتاجر بالقيانِ

هذان الشاعران عرفا بساطة الحياة في البيت المتواضع، والكوخ الصغير وأدركا بوعي أن القصر لم يُشَدّ إلا على عرق المتعبين وجُهد الكادحين واستغلال الفُقراء.

يقول عبد الحسين عبدالله:

وطوفتُ في دنيا الحياةِ مغامراً إذا ما انقضَى فقرٌ أتيتُ إلى فقر
ومن عجبٍ أنْ ذُقْتُ بؤساً وفاقةً وفي مركبي ما لا يُعدُّ من الدرِ!!

وفي موضع آخر

... فكم صارعْتُ أهوالاً وبؤساً وكم نازلْتُ جباراً عنيدا
طريقي امتدَّ ليس له انتهاءٌ إذا ما جِزْتُ بيداً جئتُ بيدا
أُفتشُ لا أرى في الأرض قصدي فقصْدي لم يزلْ عني بعيدا!!

هو كما صوَّره إبراهيم بيضون[1] "على انتظار دائم دون ثمة منتظر سواه، إذ غاب الرفاق عن صفحة المكان وظل وحده في الرحلة الملتبسة، وفي انتظاره الطويل؛ كان يحدثُ أن يخرج من أحزانه وينساب في الماضي مُستعيداً قراءة الأوراق الحميمة ومستغرقاً بعض الحين في التفاصيل.

...وعانيتُ ما عنيتُ بؤساً وفاقةً   عليَّ الليالي القاسياتُ تدورُ
ومثلي أبيُّ الضيم لا يشتكي الضنى   ولو أثْخَنَتْهُ بالجراحِ شرورُ!!

ويقول موسى الزين:

عُد يا جرادُ كما أتيتَ فعندنا   عَلَق يمصّ دماءنا وقرادُ
ماذا تؤمِّلُ أو تُريدُ فكلُّنا   حقلٌ وكلُّ الحاكمين جرادُ
... يشكو الذي يشكو إلى جلاده   فيُشيحُ عنه بوجههِ الجلاّدُ
ويئنُّ من أصفادهِ لمعاشرٍ   هم غِلُّهُ والنيرُ والأصفادُ
من كوخه مثلُ القلاع قصورُهُمْ   ومن الحصير الفَرْشُ والسجادُ!!
تُشجِيهِمُ أنّاتُه وشكاتُه   فكأنها في سمعه إنشادُ!
رجعُوا بنا (للبادشاهِ) فكُلهمْ   عبدُ الحميد - فظاعةً - ورشادُ
فكبيرُهم "خاقاننا"، وصغيرُ هُمْ سُلطانُنا ونسيبهمْ "دامادُ"
يا أيها الشعب الذي أمسى كما   "تهوى" له الأخصامُ والأضدادُ
لولا سكوتُك عنهمُ ما أمعنوا   أو أوغلوا بضلالهم وتمادوا!!

في شعر موسى الزين شرارة نجد شِحنة من العناد والتمرد وطاقة ثورية، وإيماناً رسولياً، قد لا نلقاه بهذا الزخم في شعر زميله وصديقه، وفي شعر عبد الحسين عبد الله طراز من الهجاء قد لا نجده في شعر موسى الزين شرارة... الشاعر عبد الحسين لم يتورع عن هجاء نفسه وهجاء أعز أصدقائه وهجاء أبنائه، وفي كل ذلك لم يفارقه نقدُ المُداعب (فالسوط في يده يلسع ويُثير ضحكةً مكبوتةً ويطلقُ قهقهةً تتفجر من الأعماق)[2].

(١) المرجع السابق في ذكرى أربعينه.
(٢) مقدمة الديوان بقلم ولده كامل العبد الله.

ويلفتك باستمرار وأنت تسمع أو تقرأ لهما ألمٌ موجعٌ يُلازمُك وعتبٌ متوالدٌ يُصاحبُكَ ولكنك لا يأخذك يأسٌ ولا يُقعِدُكَ قُنوط... هو تماماً كوجع الرُسُل، وعتب المُحبِّين عندما يحاولون هِداية الناس فلا يستجيبون، وإصلاح شأنهم فلا يتقبلون، والغريب العجيب أن الذين تجهدُ لتحريرهم يرفضونك ويقاتلونك بالتلازم مع جلاديهم وأنتَ "تستميت" من أجل تحريرهم. يقول شاعرنا موسى الزين:

يُسقى أخُو الإقطَاعِ رَشْحَ جباهِهِمْ — بنـــتَ الكروم ويشـــربون وحـولا
ربٌ وإنْ بـــاعَ الـيـهـودَ ديـارَهُـمْ — أوْ بـــاتَ للمُسْـــتَعْمِرين عميـلا
إن دَاسَ فَوْقَ الأرْضِ خَرُّوا سُـجّداً — كـي يُوسِـعُوا أقْـدامَـهُ تَقْبِيـلا
وإذا تَكَـرّم مــــرَّةً بِـــزيـــارةٍ — تَلْقـــاهُ فَوْقَ رؤوسِـهِمْ مَحْمـولا
تُنْسِـيهُمُ مِنْهُ ابتِسـامةُ كـاذبٍ — حِرْمـانَهُـم والجـورَ والتّنْـكيلا

وأَلَمُ موسى الزين هُنا هو وجع عبد الحسين عندما يقول:

لِمَنِ الخِرافُ تسـوقُها الحُـرَّاسُ — ولِـمَـنْ تُعَبَّـأُ هـذه الأكيَـاسُ
ولمَ الهُتـافُ وهـذه الـرايـاتُ لا — أمـلٌ يَـرِفُّ بِهَـا وَلاَ إحْسَـاسُ
لَمْ ألقَ شعباً مثلَ شـعبيَ غـافلاً — آلامُـهُ وشـقـاؤُهُ أعْـراسُ
... أتَظلُّ مكتُوفَ اليدَيْنِ مُكَبَّـلاً؟ — وبمال أهلِكَ تُشتَرَى الأمراسُ!!

لكن الشاعريْن كانا يعرفان قيمة نفسيهما، ويُدركان أنهما في الموقع الأثير من موهبة الشعر... موسى الزين يرى أنه مُرسل لإيقاظهم من سُباتهم العميق.

كونوا فراعنةً شداداً واحكمـوا — وتحكّـموا وتسـلّطوا كطغـاةِ
لن تَخْنُقوا صوتاً صريحاً ثائراً — موسى أنا، وقصائدي توراتِـي
أنا مُرْسَلٌ إيقاظُ أهلي، بعثُهـم، — تحريرُهـم، إنقـاذُهُـم آيـاتـي

وفي مكان آخر:

شـعري إذا كـان القريضُ مـدامـةً كـان الحُبـابُ
غيـري له الشـاطي ولـي من زاخر الشـعرِ العُبابُ

لِمْ لا وذا قلبـــي طعـــــامُ قـصـائدي ودمـي شـــرابْ
عودي ومزماري هما مُلكي ونـــــايـــــي والـــربـــــابْ
فـــإذا مُنيتُ بمعـــشـرٍ خُلقوا وعاشوا للســبــابْ
أو نال مني جــــاهـــــلٌ فالشـــهدُ مأدبــةُ الذبـابْ

وقال كذلك:

يُطـاردُنـي هـذا الـزمـان كـأنـنـي وإيـاهُ شـرطـيٌّ أمـيـنٌ ومـجـرمُ
خُـلـقـتُ كـريـمـاً والـزمـانُ بطبـعـه لـئـيـمٌ بـتـعـذيب الـكـريم مُـتـيَّمُ
فـقـلـتُ لـهُ مُـذْ راح يُـمـعِـنُ بـالأذى ويـعـبـثُ فـي بُـنـيـان صـبـري ويـهـدمُ
عَـرَفْتُكِ!!.. كُنْ ما شِئْتَ جَوْراً وقسوةً فـمـا أنـا شـاكٍ مـنـكَ أو مـتـظـلّـمُ
فـإنْ تَـكُ ذِئْـبـاً تَـرْهَـبُ الـشـاةُ غَـدْرَهُ وتـخـشـاهُ عن ضَـعْـفٍ، فـإنيَ ضيغمُ
فكُنْ طِبْقَ ما يَهْوَى الطُّغاةُ فإنّني بـأعـيُـنِـهِمْ طُرًّا وعَـيْـنِـكَ حـصـرمُ
"حُـسـيْـنٌ أنـا" والـنـائـبـاتُ أُمـيَّـةٌ وأيـامُ عُـمـري "كـربـلا ومـحـرَّمٌ"

وهذا عبد الحسين عبد الله يقول:

... أظل أقول الشـعر للناس هاجيـاً وتبقى الورى دوماً تهاوى على شعري
كأنّ الورى مَرْضـى وشـعري دواؤهم فلا تنفـرُ الأذواقُ مـن طعمِـهِ المُـرِّ

... أحب بعض أصدقائه يوماً أن يُقارن بين شعره وشعر وأدب ابنه كامل في كتاباته النثرية والشعرية منوهاً بجمال أسلوبه وإشراق عباراته وبموهبة مميزة واعدة وأدرك الأب ما يرمي إليه الصديق، فقال متباهياً مفاخراً مصوراً نفسه في الموقع العالي الذي لا يُدْرِكُهُ حتى النابغون.

إذا نبَـغَ الغُـــلامُ سَـــمَـا أبـــاه وحلّقَ في سمـا العليـا وجـــلّى!
لقـد نبـغ الـفتـى.. ولـدي ولكـــنْ أظـلّ فلم يجدْ فـوقي مـحـــــلاّ
فـحاوَلَ مَـسْكَ أذيالي فـأهـــوى طـــريٌّ عـودُهُ مـا زال طفـــــلا

ولمّا لم ينَلْ مجداً كمجدي أتى محرابَ أشعاري وصلى

الرحلة مع الشاعريْن مغرية يطيبُ في غمَراتها الإبحارُ ويلذُّ لك أن ترافقَهُما في الموانئ والأسفار، وتشاركَهُما ألَمَ المعاناة وتمرّدَ الذات وعذابَ القهر، وعنادَ الإيمان وصلابةَ الموقفِ وفرح الحياة، وقد سُكِبَتْ كُلُّها في قالبِ شعريٍ هو نشيد المُتعبين وحُداء القافلة ونبض الشارع. ... كان شعرهما سجلَّ التاريخِ الحقيقي دون تحوير أو تشويه أو تزوير.

كانا وسيبقيان حكاية بسطاء الناس وهم يجهدون لتأمين عيشهم الكريم وانتزاع حقوقهم المسلوبة وحريتهم المصادرة ممن اغتصبوها في مجتمع قام على الإفقار والقهر والاستغلال.

... ها نحنُ اليوم في حرمكما، ننعم بجلسة حميمة، نُنْصِت بخشوع المُصلّين، ونرنو بشوق العاشقين، عسانا نسترجع ألقاً طالما أشرق، وعبقاً يا طيبَ ما فوّح، عيونُنا ظمأى وقُلوبنا ولْهى... ونحنُ سُكارى مع الشاعر فؤاد الخشن وهو يُرنّم(١).

أنتَ يا مُوسَى الّذي شقَّتْ عصاهُ الخيّرَهْ
في مياهِ البحرللشعب مسارَهْ
مانعاً عنهُ سُيُوفَ المجزرَهْ
بلهيب كانَ عزماً في الشرايين يجوسْ
أنْتَ مَنْ كَشَّفْتَ أكْفَان الرماد
عن جوى الإمكان في صمت النفوس
حينما كان ظلام الأمس يزداد اشتدادْ

***

أيُّها الهادمُ بالحرفِ المُجمَّرْ
معْ أبي كاملَ(٢) ما شاء على البُطْل مؤمّرْ
الثُنائيَّ الّذي ألّفْتُما.... باجتماع النادريْن

(١) من قصيدة فؤاد الخشن في تأبين الشاعر شرارة، ٢٧/١٠/٨٦.
(٢) عبد الحسين عبدالله.

مِـنـجَــلاً كــانَ عـلـى الـجَـوْرِ وكــانَ الـمِـطْـرَقَــهْ!!!
ويــداً تــحــمــلُ حــبــل الــمــشــنــقــهْ!!!
لــرقــاب الــعــابــثــيــن... بــفــراديــس الــوطــن!!!
والــذيــن اتّــجــروا عَــبْــرَ الــعُــصُــورْ
بــالــبــقــايَــا مــن عــتــيــقــاتِ الــقُــبُــور
بــائِــعِــيــنَ الــحــيَّ مــمــا خــلّــف الــمَــيْــتُ كَــفَــنْ!!

***

راجِــعٌ أنــتَ إلَــيْــنَــا ...عــبــر دورات الــزمــنْ
أيُّــهــا الــغــالــي عَــلَــيْــنــا...
راجِعٌ في ومضةِ التكرارِ... والشوقِ إشتعالاً من حنينْ
في لظى أزهارِ نارٌ علّقَتْها كفُّ نيسانٍ بفعلِ الخصبِ
أجــراســاً صــغــارْ
.. فــوقَ رمّــان الــديــارْ
راجــعٌ أنــت إلــى صــخــرةِ عــامِــلْ
أيُّــهــا الــحــرفُ الــشــراريُ الــمــقــاتــلْ

علي بزي وموسى الزين شراره والحاج علي بيضون

... وكان علي بزي الأصغر سناً بين تلك المجموعة المتنورة التي كانت تلتقي في بيت المعلم الشيخ علي شرارة، في ذلك البيت الأدبي الذي كانت ترتاده "الشلة" باستمرار... تتحلّق فيه حول (سماور) الشاي وتتطارح مختلف القضايا الأدبية والسياسية والاجتماعية... كانت هذه الشلة تضمّ الأبناء محمد وحسين وجواد عبد اللطيف (مرتضى كان صغيرا) وابن خالتهم علي بزي، وحسين مروة، وحسن فياض شرارة والحاج علي بيضون والشيخ علي الزين. بالإضافة إلى من يزور البيت من الأصدقاء من آل فضل الله والأمين ومرتضى ومغنية ومروة وشمس الدين... وبنت جبيل في ذلك الحين - كمثيلاتها من قرى وقصبات جبل عامل - ليس فيها ناد ولا مكتبة ولا منتدى يتلاقى فيه الناس... ولم تكن الجرائد اليومية متوفرة ولا كانت الإذاعات وأجهزة الاستماع قد ظهرت بعد... ولهذا كان بيت الشيخ علي شرارة الحضنَ الأثيرَ والساحةَ الرحبةَ التي جمعت هؤلاء وتعهّدتْ مواهبهم وأغْنَتْ ثقافتَهم وغذَّتْ عقولَهم وفَتَحَتْ أمامهم واسعَ الآفاق.

كانوا متقاربين في أعمارهم، معظمهم ولدوا في أوائل العقد الأول من القرن... وكان علي بزي أصغرهم، حاد الذكاء سريع البديهة، قوي الشخصية، بهي الاطلالة...

يقول الشيخ علي الزين في قصيدة مخاطباً بنت جبيل ومشيراً إلى موسى الزين وعلي بزي:

... موسى ببابكِ في المكارمِ والعلى   و"عصاه" في سحر البيان عصاكِ
"وعلي" منكِ على حداثة سنه   بمحلّ قلبك أو محل نهاكِ
حذق السياسة في مجاجة قوله   وعلى الفعال سذاجة النساك
وإذا تسنّم صهوة أو منبراً   وقد ادْلهمَّ الأمرُ فابْنُ جلاكِ
أو فاجأتْكِ من الزمان ملمةٌ   كان الأبرَّ سجيَّةً بفداك[1]

وكان أبوه الحاج حسن بزي وجيهاً تقياً، ملاكاً كبيراً بمقياس ذلك الزمان، وعلى هذا الغنى سوف يتكئ الابن لاحقاً... وعائلته في تلك الفترة - وحتى هذه الأيام - أكبر العائلات عدداً في بنت جبيل، يتصدرها ويتزعمها الحاج محمد سعيد الرجل المقدر والمهاب.

---

(١) الشيخ علي الزين (دفتر الذكريات العاملية) ص ٣٥

في أواخر العشرينات بدأ يظهر على ساحة بنت جبيل دورٌ لحركة الشباب عبّر عنه موسى الزين شرارة في شعره، وردة الفعل التي أحدثها عندما نشر قصيدته الأولى في العرفان سنة ١٩٢٨ ومطلعها:

العلم نور يهتدى بسـنائه لولاه تاه الكون في ظلمائه

وتكرر هذا الصدام لاحقاً مع بعض المتزمتين من رجال الدين، حلفاء أصحاب النفوذ السياسي... وأخذت تتضح أهداف هذا التجمع عندما تصدى لسياسة السلطة وتبنى مطالب الفئات الشعبية المُعارضة لاحتكار زراعة التبغ، وتالياً عندما اصطدم مع المستشار بتشكوف، ووقف ضد المظاهر الاستعراضية التي كان المستشار الفرنسي يُحب أن يستقبل بها... "وغدت بنت جبيل بالفعل رائدة النضال ضد المستشار الفرنسي الذي ارتبط اسمه بالتسلط والتكبر، "إلا أن كل هذه الصعاب لم تكن لتفت في عضد الحركة الوطنية التي كان يقودها في بنت جبيل عدد كبير من الأشخاص على رأسهم علي بزي وموسى الزين شرارة والحاج علي بيضون الذي كان له دورٌ كبير وبارز في دعم الحركة مادياً وعملياً، وكان مخلصاً في تحركه إلى درجة أن هذا التحرك كان يأخذ منه كل وقته وكُل ماله فاستحق التقدير[١]".

"وكانت بنت جبيل قد قطعت شوطاً في التمهيد للمعركة السياسية التي ستقودها حتماً إلى المواجهة مع الانتداب... "لأن هذه المعركة لم تكن وليدة الأجواء الجديدة والأفكار التي حملتها حركة الشباب، بل إنها وفي جانب أساسي منها محصلة المواقف الجريئة المتصدية للإقطاع السياسي وحلفائه والتي كان في صدارتها الشاعر موسى الزين شرارة... على أن صوته وإن كان مجلياً، لما قُيّض له من موهبة فذة فإنه لم يكن وحيداً في المعركة التي تصدرها حينئذٍ مجموعة من المتنورين من أعمار متفاوتة؛ غير أن ثلاثة منهم كانوا عصبها وطليعتها ومشروعها الواحد، هؤلاء هم موسى الزين شرارة وعلي بزي والحاج علي بيضون".[٢]

وهكذا فإن ظاهرة الثلاثي العاملي لم تقتصر على النبطية فقط بل تعدتها إلى بنت جبيل، وإن على إيقاع آخر كان للسياسة شأن أوفر فيه، وأعضاء هذا الثلاثي لم يكونوا رفاق مدرسةٍ أو كُتّابٍ ولم تجمع بينهم ظروف اجتماعية متشابهة، ولكن الفكر المستنير

(١) مصطفى بزي، بنت جبيل حاضرة جبل عامل، ص ٥٠١.

(٢) إبراهيم بيضون، موسى الزين شرارة، شاعر الالتزام، محاضرة.

كان الرابط الأساسي الذي شدهم إلى بعضهم، كذلك التحسس الرهيف المشترك بالظلم فضلاً عن الملكة الأدبية البارزة مما شكل قاعدة الاتفاق والتلاحم بين الثلاثة فانحازوا معاً إلى قضية الشعب، آخذين على عاتقهم مقاومة الجور والتصدي للإقطاع السياسي وأعوانه[1].

"وكان شباب بنت جبيل الوحيدين الذين استطاعوا أن يعبئوا الجماهير ضد بتشكوف بينما لم يستطع غيرهم في بقية المناطق، كما كان لهم لاحقاً وزنهم في الانتخابات عندما رشحوا وأيدوا عبد اللطيف الأسعد، وكذلك دورهم مع المزارعين ضد الريجي، وأذكر أن الصديق علي بزي الذي كان من ألمع شباب بنت جبيل، قال لي بعد أن طيروا برقية إلى المفوض السامي مطالبين بالوحدة السورية: هذه فرصة ثمينةٌ، فقديماً ما كانوا ليتجرّؤا على المطالبة بالوحدة السورية لأن المنطقة تعتبر هذه المطالبة وكأنها دعوة أموية نظراً للجمود الذي كانت ترزح تحته بنت جبيل، والآن أصبح بإمكاننا أن نطالب بالوحدة السورية دون حرج"[2] ، ويستطرد الشيخ علي الزين في الصفحة ٣٢ من محاضرته المنشورة والمشار إليها "ذهبنا علي بزي وأنا إلى دار المرحوم أحمد الأسعد في الطيبة لكي نستطلع من الأسعد مدى استعداده لتأييد خطنا وخصوصاً فكرة الوحدة السورية واتفقنا على أن نُقْسِمَ اليمينَ على العمل لتحقيق هذه الوحدة فدخل المرحوم أحمد الأسعد، وأتى بالقرآن الكريم وكنت قد كتبت صيغة القسم وأقسمنا جميعاً على المبدأ نفسه، وعُدت مع علي بزي إلى بنت جبيل حيث أخذ الشباب يقسمون اليمين في منزل الشيخ محسن شرارة ومنازل أخرى".

وقد كان لبنت جبيل شرف المشاركة في كل المؤتمرات التي كان الهدف منها تحقيق الوحدة السورية والدفاع عن حقوق العرب القومية، ولم يأتِ شهر نيسان ١٩٣٦ إلا وكانت الأمور ناضجة لاندلاع الانتفاضة التي قادتها بنت جبيل والتي كانت شرارتها الأولى برقيات وعرائض ضد شركة الريجي... كانت بمضمونها وكأنها دعوة لتحقيق الوحدة السورية وهذا ما كان يُقلق السلطة ويُزعجها... وقد اعتبرت الصُحُف اللبنانية ومنها جريدة النهار (بتاريخ ١٧ آيار ١٩٣٦ ص ٤) أن انتفاضة بنت جبيل هي انتفاضة وحدوية مع سوريا، وأن الشهداء الذين سقطوا في بنت جبيل هم شهداء الوحدة السورية.

---

(١) محاضرة ابراهيم بيضون، "موسى الزين شرارة شاعر الالتزام" ص ١٠.

(٢) الشيخ علي الزين ، دفتر الذكريات الجنوبية، ص ٣٢-٣٣.

في هذا الظرف بالذات كان لبنت جبيل شرف المشاركة والمساهمة والتأييد للثورة الفلسطينية فموقعها على الحدود بالإضافة إلى اندفاع وحماسة شبابها، كل ذلك جعلها تلعب هذا الدور بامتياز، وكان في حينه بيت علي بزي - أشبه بخلية نحل- ميداناً لتحرك الثوار في عبورهم وجيئتهم وذهابهم إلى فلسطين... وقد استمر هذا التواصل والتفاعل مع الندوات والمؤتمرات في العاصمة أو سواها، ... عارض شباب بنت جبيل مؤتمر الساحل الذي عُقد في بيروت بتاريخ ١٠ آذار ١٩٣٦، بسبب اختلاف وجهة النظر حول الوحدة مع سوريا وشاركوا في مؤتمر صيدا في تموز ١٩٣٦، والمؤتمر الإسلامي في بيروت ١٩٣٦/١٠/٢٣ ومؤتمر بلودان في ٨ آب ,١٩٣٧

في أواخر ١٩٣٨ سافر موسى الزين إلى أفريقيا وتلبدت الأجواء السياسية في البلاد ووقعت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩، وكان لبنان مسرحاً لإعادة ترتيب الأوضاع.

ودخل الانكليز مع الفرنسيين الأحرار إلى لبنان سنة ١٩٤١ وحصلت توازنات جديدة وكان لبنت جبيل دور في معركة الاستقلال عَبّر الإضرابات والتظاهرات والصلات الخاصة التي كانت تربط شبابها بالزعيم رياض الصلح.

في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٩٤٣ اعتُقل رئيس الجمهورية بشارة الخوري ورئيس الوزراء رياض الصلح وبعض وزرائه، كما اعتُقِلَ كثير من الشباب الوطني المتحمس أمثال علي بزي ومعروف سعد، اللذين بقيا في الاعتقال وحتى بعد الإفراج عن حكومة الاستقلال.

بعد ثمانية عشر شهراً من الاعتقال عاد علي بزي إلى بنت جبيل ودخلها دخول الفاتحين في مهرجان شاركت فيه القرى والبلدات، قريبها وبعيدها من جبل عامل وفلسطين وسوريا ليكرس بعدها المجاهد المناضل والزعيم، يُضاف إلى ذلك أن كبير العائلة الحاج محمد سعيد بزي جمع قبل وفاته في نيسان ١٩٤٤ وجوه العائلة وأرسل يطلب الاستاذ علي بزي وأوصاهم به خيراً ليعتمدوه زعيماً للعائلة لأنه الوحيد المؤهل لهذه المهمة[1]؟

مع بزوغ عهد الاستقلال كانت بنت جبيل نقطة مركزية تُشد إليها الرحال، تتجاوب مع غضب صيدا ورفض بيروت وغليان طرابلس وثورة بعلبك، وصمود راشيا وتمرد حماه، وبطولات الغوطة، وحرائق دمشق، ولهيب حلب، وأسطورة جبل العرب، وكل

(١) حكمت بزي، من حقيبتي التاريخية، ص ,٧٣٥

تحديات القهر على مدى مساحة الوطن، وشدت العاصمة النوّارة بيروت كل القيادات الصاعدة إليها وانتقل علي بزي فارس بنت جبيل وسفيرها إلى بيروت ليدخل في نسيج حركاتها السياسية والاجتماعية والثقافية.

في انتخابات سنة ١٩٤٧ وكان رفيق نضاله موسى الزين شرارة قد عاد من المهجر (١٩٤٦)... ترشح علي بزي للانتخابات على لائحة الرئيس عادل عسيران، ولم يحالفه الحظ.

وكانت بنت جبيل خلال هذه الفترة الممر والمقر للثوار العرب والمجاهدين ولجيش الإنقاذ... وكانت النكبة والمؤامرات وسلسلة متواصلةٌ من النكسات والهزائم لاحت خلالها بوارق آمال لم تُعمِّرْ طويلاً ... وكان موسى الزين طيلة تلك الفترة سجلاً ناطقاً يصف ويصور هذه الأحداث كبيرَها وصغيرها.

ضاعتْ فلسطين فلنندبْ فلسطين	هاتي الدموعَ دماءً يا مآقينا
ضاعتْ فلا جيشُنا الجرّار ملَّ بها	من القتال ولا فُلّت مواضينا
ماذا يقول صلاح الدين إن سمعتْ	أذناه أنا أضعنا أرض حطينا

نكبة فلسطين هذه كانت الفاجعة التي زلزلت جمود الحياة الراكدة في دنيا العرب وهزت أعماق كياناتهم ليستفيقوا من ظلام تخلفهم وخدر نعاسهم، وعفن نومهم، يقف شاعرنا يُخاطب النقيب محمد زغيب شهيد الجيش اللبناني في معركة المالكية.

بلِّغ الراقدين في القبر عنا	كيف في الذل والشقا نتبارى
لم نَزَلْ نحمل الزعيم كأنّا	بقرُ الحرْث يحمل الأنيارا
أمس كُنا للمستشار عبيداً	فغدا اليوم (بيكنا) المستشارا
كان للذلِ دولةٌ وأديلتْ	وبقينا لعهدها تذكارا!!

... وجرف الزلزال دون تأخير أصحاب جلالةٍ وفخامةٍ وسيادةٍ وانتصبت من جديد أمام أعين الأجيال صورة تُعيد فاجعة مآذن إشبيلية وجوامع قُرطبة وباحات قصر الحمراء وجنّات العريف في غرناطة تدوسها الجيوش الزاحفة وهي تجتاح ملوك الطوائف وهم يتقاتلون ويتخاصمون فيما بينهم... وكلنا يردد مع أم آخر ملوك بني الأحمر في غرناطة تُعنّف ابنها الباكي على المجد الزائل.

ابكِ مثل النساء مُلكاً مُضَاعاً لم تحافظْ عليه مثل الرجالِ

... في انتخابات ١٩٥١ ترشح المناضل علي بزي على لائحة الرئيس الاسعد في مواجهة اللائحة التي شكلها الرئيس عادل عسيران، وفي مهرجان بنت جبيل الذي أقيم قرب عين البلدة، في مُحيط منزل علي الحاج محمد عبدالله بزي، بحضور جميع أعضاء اللائحة وفي طليعتهم الرئيس أحمد الأسعد والمرشح علي بزي، الذي افتقد موسى الزين وكان حينئذٍ في منزل صهره عند ابنته مجدية - قريباً من مكان الاحتفال - فأرسل بطلبه فحضر وسلم وصافح... ورحب به المُرشحون وبخاصة الرئيس أحمد الأسعد... وطُلب إليه أن يُلقي كلمة في هذا المهرجان الحاشد، وفي حالة نفسية ضاغطة من التأثر والرقة ورهافة الشعور، مأخوذاً بحماسة الناس وهتاف الشباب وارتجل كلمة نثرية مُتجاوزاً فيها مواقفه السابقة ومعارضةً تاريخيةً لزعامة رفضها وأدانها وحاربها... ثم ليعود فوراً ويُنهي كلمته بهذه الأبيات:

أيها الشعب يا حبيب فؤادي أنتَ أنتَ المنى وأنتَ الرجاءُ
أنا قيسٌ وأنت ليلى غرامي لكَ شعري وصبوتي والغناءُ
فلعينيكَ للقوافي مديحٌ ولعينيكَ للقوافي هجاءُ
ولعينيكَ هدأتي وسكوني ولعينيكَ ثورتي الحمراءُ

وفازت اللائحة ودخل علي بزي الندوة النيابية حاملاً آماله العريضة وأحلامه الكبيرة وإرثاً ثقيلاً من الرفض والمُعاناة... كان أول نائب عن بنت جبيل ولم يطل زمن وفاقه مع الزعيم الوائلي. ففي ١٦ تموز ١٩٥١ اغتيل الرئيس رياض الصلح على طريق مطار عمان ولملء المركز الشاغر الذي كان يشغله الرئيس الصلح، سمّى الزعيم الأسعد مرشحاً، رأى علي بزي أنه ليس الشخص الكُفء وأنه من غير المعقول أن يخلف زعيماً بحجم رياض الصلح..ودعم علي بزي المرشح كاظم الصُلح وأيده كل التقدميين والمتنورين.

وكانت النتيجة المتوقعة بجانب الرئيس الأسعد... وعاد علي بزي إلى موقعه الطبيعي معارضاً ... وعندما استقال رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري تحت ضغط الاضرابات والتظاهرات وقف علي بزي بجانب مرشح الرئاسة المحامي حميد فرنجية الذي ما لبث أن انسحب وانتخب الرئيس شمعون رئيساً ولم يمضِ وقتٌ طويل

حتى حلّ المجلس النيابي.

في ١٧ كانون الأول ١٩٥٢ جرت أول انتخابات بلدية لبنت جبيل في العهد الجديد بعد الاستقلال، ونجحت اللائحة التي يدعمها النائب علي بزي، برئاسة موسى الزين شرارة، وكان عدد أعضائها تسعة اشخاص وهم بالإضافة إلى الرئيس، نمر عباس سعد (نائب الرئيس)، وعلي الحاج محمد عبد الله بزي، ومحمد الحاج خليل بيضون، وحسين سليم مصطفى، وعبد الأمير شامي، وعلي أحمد جمعة، ومحمد علي الزين فرج، ونعمه أسعد بيضون، وكانت المرة الأولى التي خرجت فيها الرئاسة عن آل بزي، منذ مدة طويلة واستمر موسى الزين في الرئاسة حتى الانتخابات البلدية اللاحقة سنة ١٩٦٣، ليفوز مجدداً مع ١٢ عضواً هُم: موسى الزين شرارة (رئيس) الحاج نمر سعد (نائب الرئيس)، عبد الأمير شامي، إبراهيم دباجة، عز الدين بيضون، علي السيد محمد، بهجت محمد بزي، يوسف سليم بزي، إبراهيم بزي، عبد النبي فرج، عباس بيضون، علي أحمد جمعة.

واستمرت البلدية تقوم بعملها حتى سنة ١٩٦٧ عندما قدم جميع الأعضاء استقالتهم التي صدقت بقرار المحافظ رقم ٣٦٣ تاريخ ٢٨/كانون الثاني ١٩٦٧، وبقي القائمقام منذ ذلك الحين يُدير أعمالها حتى انتخابات ٢٠٠١ التي جرت بعد تحرير الجنوب من الاحتلال الإسرائيلي.

"اختير موسى الزين شرارة رئيساً لبلدية بنت جبيل - يقول الأديب الراحل عبد اللطيف شرارة - وهو الذي كان قد زُج به مراراً في سجن البلدة التي تولى رئاستها وكان قد عاش أيامه كُلها وهو يقارع مجتمعاً لا تُعجبه عاداته ولا تُرضيه تقاليده ولا يرتاح في شيء إلى زعامته الروحية والزمنية... سألني عن انطباعاتي حين تلقيت نبأ انتخابه، وكُنت غائباً فأجبته قائلاً: تُرى لو أصبح أبو الطيب رئيساً لبلدية الكوفة، والبحتري رئيساً لبلدية منبج، وشكسبير رئيساً لبلدية ستراتفورد أون أفون، ما الذي تتصور أن يقدمه هؤلاء الشعراء للكوفة أو لمنبج أو لستراتفورد، أكثر مما قدموه؟! هز رأسه متعجباً وهو يشعر بالتواضع ويتلمس الخروج من الحيرة التي رانت عليه:

- ولكنني لست ابا الطيب ولا البحتري ولا شكسبير، وبنت جبيل ليست الكوفة ولا منبج ولا ستراتفورد وكان ردي عليه:

- أنا لم أقل شيئاً من ذلك وسؤالي هو ما الذي يستطيع أن يقدمه الشاعر لبلده أكثر

من غيره؟ أجابني منتصراً - الشعر وما ذاك بقليل.

- إذن اتفقنا "[١].

يبقى لمن يطلع على قرارات بلدية بنت جبيل ويتأكد من الأعمال التي أنجزت أن يقيّم أعمال المجلس البلدي خلال المُدة التي شغلها موسى الزين رئيساً ويُصدر حكمه المناسب لكن اللافت أن البلدية - مدعومة من النائب علي بزي - واجهتها مصاعب إدارية ومالية وعقبات جمة حالت دون انطلاقتها ونجاحها نظراً لأن النائب علي بزي كان مُعارضاً وكانت أجهزة الدولة تُحاربه وتعمل على إفشاله، وقد بقيت فترة شوارع البلدة دون تزفيت - بعد أن اقتلعت حجارتها المرصوفة - وعندما زار الجنوب وزير الأشغال العامة في حينه المرحوم غبريال المُر، ليطلع على أحواله وسأل الشاعر موسى الزين عن الأوضاع أجابه:

يا وزيرَ الأشــغال هــذا جنوبِــي ... ما بـــه أيُّ مظــهـــرٍ للــحيــاةِ
كُلَّ شـــيءِ كما تـــرى فيهِ زفـــتٌ ... - نـحمَدُ الله - ما عدا الطُرقاتِ

وقال للرئيس شمعون:

لو زُرتَ (عاملَ) أشجاكَ الشقاءُ به ... ومـــا يُكابـدُ من بؤسٍ وحرمـــانِ
فلا ترى غيــر جوعـــانٍ وجائعـــةٍ ... وغيـــرَ ظمـــآنةٍ فــيه وظمـــآنِ

هذا الجنوب المحروم من نور الكهرباء ونعمة الماء والكثير من أسباب التقدم والتطور، بحاجة في المقام الأول إلى ان يتحرر من الاستعباد والاستبداد، بحاجة إلى أن يتحرر ويتخلص من الذين أذلوه وأفقروه والتحرر من الظلم السياسي يُمكن الشعب من أن يتحرر اجتماعياً[٢].

وانطلاقاً من ذلك فإن ثقل وطأة جور الإقطاع أكبر بكثير من حاجة العامليين إلى الماء والكهرباء.

قـالـوا سنجلب للجنوب المـاء ... لـيُـرى ويـصـبـحَ روضــةً غـنّـاءَ

(١) عبد اللطيف شرارة، جريدة النداء، الأربعاء ١٠ أيلول ١٩٨٦، شاعر يجابه مجتمعه.

(٢) حسن قاسم، السياسة في الشعر العاملي الحاضر، الجامعة اللبنانية، الفرع الأول، أطروحة دكتوراه في العلوم الاجتماعية ص ٥٠٧.

ولسوف نغرس سهله وجباله | بدل الشقاء سعادةً ورخاءَ
...فأجبتُ: والنيرانُ تُلهب مهجتي | والعين تذرفُ دمعةً خرساءَ
خلوا المياه وحرروه من الألى | ورثوا النعوت الضخمةَ الجوفاءَ
ومن الأُلى عرفتهُمُ أوطانُنا | أبداً لكل مسيطرٍ عملاءَ
ومن الأُلى شادوا على أكواخنا | هذي القصورَ الفخمةَ الشماءَ
قُلْ للذي يبكي على حرمانِهِ | ويُذيل دمعَ العاهراتِ رياءَ
يبكي على ظمأ الجنوب ويحتسي | دمه - إذا جَنَّ الدُجى- صهباءَ
لا تسقه رُحماك ماءً واسْقه | حريةً وكرامةً وإباءَ
دعهُ يمُتْ عطشاً ودعْهُ مخيَّراً | حُراً يعيشُ كما أرادَ وشاءَ

... استمرت السلطة الجديدة في ممُارسة الضغط على المعارضة وعملت على إسقاطها وإبعادها عن المشاركة في القرارت... ولم يحالف الحظ علي بزي في انتخابات ١٩٥٣، وبقي خارج الندوة حتى سنة ١٩٥٧، حيث عاد مُجدداً نائباً فوزيراً للداخلية في عهد الرئيس شهاب، وأصبح وجهاً بارزاً وعنصر توازن أساسياً ضمن الشيعة، وأحد الرجال النافذين المقربين من الرئيس شهاب...

في انتخابات ١٩٦٠ نقل ترشيحه من بنت جبيل إلى مرجعيون وفازت لائحته الموالية للسلطة بكامل أعضائها، وعُيّن وزيراً للصحة العامة...

نُشير هنا إلى أنها كانت المرة الأولى التي كان فيها علي بزي مُرشح السلطة إذ كان في السابق الرجل المعارض بامتياز، هذا إذا اعتبرنا أن تحالفه مع الرئيس أحمد الأسعد كان عابراً ولم يلبث إلا فترة محدودة.

في انتخابات ١٩٦٤ وفي عهد الرئيس شارل الحلو لم يحالفه الحظ مع الأستاذ سعيد فواز فعين سفيراً في الكويت من خارج الملاك، ونقل لاحقاً سفيراً إلى عمّان.

في عام ١٩٦٨ فاز عن المقعدين النيابيين في قضاء بنت جبيل مُرشحا علي بزي الدكتور ابراهيم شعيتو والأستاذ سعيد فواز، وترشح بالمقابل السيدان عبد اللطيف بيضون وعلي عباس خليل. كما ترشح كذلك الشاب غسان موسى الزين شرارة، وحسين مروه، وكانت المرة الأولى التي تُباعد فيها هذه المعركة الانتخابية بين رفيقي العُمر الصديقين المتلازمين الحليفين، طيلة نصف قرن.

وفي عهد الرئيس فرنجية استقال علي بزي من عمله كسفير ليتفرغ للعمل السياسي الهادئ قريباً من رفاق النهج وإن خالفهم أحياناً وبالتنسيق في فترات مع الإمام موسى الصدر عبر جبهة المحافظة على الجنوب ...

... يومئذ وبعد هزيمة ١٩٦٧ كان كُل شيء قد تغير، تمددت إسرائيل في قلب الوطن وغاب عبدالناصر، وفي الداخل كانت السلطة تتراجع والمؤسسات تترنح، والعصبية تنمو والإخوان يتمددون... كان علي بزي يراقب هذا الانحدار ويَشعُر بلفحات العاصفة القادمة، وطالما تنبأ وتوقع واستشرف وحذّر... ولازم بيته بقلبٍ موجع في السنوات الأخيرة وهو يرى مسلسل الانكسارات يرين على مساحة الوطن الكبير.

كان علي بزي رجل الدولة الواعي، الواسعَ الأفق العربيّ في لبنانيته، اللبنانيّ في عروبته، كان من مدرسة رجل الاستقلال الزعيم رياض الصلح، أبي الصيغة اللبنانية والمتفهم لدقة وحساسية التوازن بين شرائح هذا المجتمع... علي بزي المناضل العنيد البعيد النظرة اللمّاح الذكاء، الخفيف الروح، الغني بصداقاته، طالما لعب دور الجندي المجهول في المهمات الصعبة... "علي بزي في معاركه السياسية، إذا خاصم لا يُعادي، وإن عادى لا يُهادن، طالما داهمته الغوائل، وبالكلمة الجادة الساخرة نازل ظُلم الزمن، بشاعةَ التجهيل والإذلال... وبالبسمة الحُلوة المُرة اللاذعة باغَتَ ظُلم الأيام، وتفاهة الأيام خِفة الأيام، هكذا أجاد تصوير المُناضل علي بزي الأديبُ إبراهيم نعيم بزي، ورأى فيه المرآة الصافية لآلام بيئته ومتاعب قومه ومشاكل عصره، وما من صرخة تحررٍ دوّت في عاصمة عربية إلا وكان لها الصدى"(١)

كان لهذا الرجل المُجاهد مفهوم خاص في العمل السياسي والخدمات الاجتماعية... هو طراز مغاير لمعظم الزعامات في جبل عامل الذين كانوا يهتمون بسياسة الناطور والأجير والمختار، ويعملون جاهدين على تثبيت مواقع نفوذهم عبر هذه الخدمات. علي بزي كان يعتبر أن بناء المدرسة وتعليم الناشئة وتأمين الطبابة ورعاية المحتاجين هي سُبُلٌ للتخلص من استبداد الزعيم وتحكم العصبية وانتشار الجهالة، كان يعتقد ان الخدمة العامة تنعكس على الوطن والمواطنين وأن الخدمات الخاصة - رغم أهميتها - ليست هدف رجل السياسة ولا مجال أفقه الضيق لذلك لم يُحِط نفْسَهُ بالأزلام والمنتفعين والمحاسيب ولم يعمل على احتواء مطبلين ومزمّرين، بل عمل وفقاً لقناعاته

(١) بنت جبيل ، حاضرة جبل عامل ، مصطفى بزي، ص ٩٦٠.

على خدمة الوطن عبر النهج السياسي الذي ألزم نفسه به مع رفاق دربه في حزب النداء القومي والتزاماً بسياسة وطنية معتدلة منفتحة تتفهم بعمقٍ الصيغة اللبنانية والتوازنات الداخلية كما اختطها ملهم هذه المدرسة السياسية الزعيم رياض الصلح.

يبقى أن أشير إلى علاقته بالرفاق القدامى خلال إقامته كسفير وخاصة في الأردن، فكثيراً ما دعا الشاعر عبد الحسين عبد الله وأبقاه لديه أو احتفظ به ليبقى الرفيق والأنيس والجليس، وربما وفقاً لما أشاع بعضهم لينأى به عن الرفيق الآخر موسى الزين شرارة بعد افتراقهما القسري الموجع، أو خوفاً من شيطانيهما إذا اجتمعا، أو استذكرا بشجنٍ الأيام الأخيرة لصديق الجميع المشترك الحاج علي بيضون. والذي طالما تأسّف في أواخر حياته على الماضي والتاريخ والعمل الوطني الذي راح سُدىً دون أن يُعطي أية نتيجة تُذكر، حتى الصداقات التي كانت قائمة على أساس العمل المُشترك والنِضال لم تستمر بل اندثرت وذهبت كأنها لم تكن[١].

أتصور أن ابتعاد الصديقيْن القسري - الذي فرضته الأحداث - خلّفَ لدى كل منهما ألماً نفسياً لازمهما طيلة حياتهما، لقد كان علي بزي وموسى الزين شرارة رفيقي المعاناة في مطلع الشباب في أول عهديهما في النضال ومعاركتهما للنفوذ السياسي والتَّزَمُّتِ الديني، كما أنهما عاشا معاً مقارعة الأحداث والملاحقات والتوقيفات وزنزانات السجون... كان يجمعهما بالإضافة إلى ذلك صفاءُ الوطنية ووضوحُ الرؤية وصلابةُ المواقف ووحدةُ النظرة للقضية وإحساسٌ متبادلٌ طالما عبَّرَ عن نفسه أنهما يتكاملان وأن واحدَهُما متممٌ للآخر يفتقدُهُ في الجلسة الحلوة والاجتماعِ الحميم والموقفِ الأثير وأحاديثِ السمر. هذا الافتراق القسري بين الاصدقاء لا يعرف أَلَمَهُ إلا رفاقُ الدرب الذين يُباعد بينهم اختلافُ المواقف والانكساراتُ اللاحقة في النظرة إلى الأمور... يبدأون إخوةً متعاونين متحابّين لا يفترقون ويعيشون سويةً أياماً حلوةً هنيئةً لا تُنسى ثم يتباعدون ويختلفون دون أن يدركوا أن ماضياً زاهراً من الصعب نسيانُهُ يجمعهم، وأن ألماً صامتاً يُلازمهم كَنَفَسهم، لا يُبارحُهُم؛ وأن الحُب المُعَتّقَ يُطِلُّ من سواد عيونهم ويتحول كُلّ يومٍ إلى شعور غريبٍ ممزوج بالوجع والصدمة والإحباط يُعيد صاحبه إلى الماضي ويجعل حاضره دنياً من الشّوق والمُناجاة والانطواء.

هذا الحُب المعتق كثيراً ما يُعبّر عنه بصمت مُطبق أين منه فصيح الكلام!!

(١) مصطفى بزي، بنت جبيل حاضرة جبل عامل، ١٣٩٦.

وبإيماءاتٍ تظهر عبر لفتةٍ أو حركةٍ تعجز اللغة عن شرح مدلولاتها.

هكذا أتصور الوجع والصدمة والعتب المُتبادل بين كلٍ من رفيقي الدرب موسى الزين شرارة وعلي بزي، اللذين طالما أحبا بعضهما حتى التماهي، وتباعدا قسراً واضطراراً ولم يلتقيا بعد ذلك كما لم يَهِنْ أحدهما عند الآخر ولا عرَّضَ به أو جَرّح، وقد رحلا وفي قلب كُل منهما وجع لا يعدِله إلا الحُب الذي كان يُكِنُّه كل منهما لصديقه.

علي بزي وموسى الزين شرارة، رفيقا الصبا، وشريكا النضال، ونجما الجلسات الأثيرة... الصديقان الصدوقان المُتحابان، الخفيفا الظل، الحاضرا النُكتة طالما افتقد أحدهما الآخر في أيام البعاد ووجع الفِراق!؟؟؟

ربما كانت المُكابرة لدى كل منهما تخنق الاشتياق، أو كان العتب يحول دون اللقاء... أنا أزعم وأتصور أنّه لو قُدِّر لهُما أن يلتقيا في خريف الأيام الحزينة من عمريهما لما أخذا معهما وجع ما عانيا من التباعُد، وآلام ما أصابهما من الأشجان... لقد رحلا... بعد أن تعاليا بكبرياء فوق جراحهما، وحمل كل منهما لصديقه حُباً مُعتَّقاً، وشوقاً ندياً، ولكنه أخذ معه في الوقت نفسه مرارةَ وَجعِهِ وكثيرَ عَتَبِهِ وبليغَ صَمْتِهِ وكبرياءَ نَفْسِهِ.

ما كُتب على شواهد القبور

في جبل عامل تقليد موغل في القدم عزيزٌ على الناس، كاد يُصبح تُراثاً وميزةً منتشرة في كل أرجائه تتلخص في تأريخ ميلاد طفل أو رحيل شاب في ريعان الصبا، أو حبيبٍ أو زعيمٍ أو شاعر أو عالم وذلك باعتماد حساب الحروف الهجائية منظومة شعراً تحتَ صورة المولود أو محفورة على بلاطة فوق ضريح الفقيد، ويُحسب الحَدَث بعد كلمة (تاريخ) أو بعد فعل (أرخ) وفقاً لما يلي:

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي	ك	ل	م	ن
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠

س	ع	ف	ص	ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ
٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

وقد يكون هذا التاريخ وفقاً للحساب الهجري أو الميلادي، فيأتي مُصوّراً نبيل المشاعر، وصادق العواطف وجميلَ الصفات في أبياتٍ تختصر رحلة عمر الفقيد، أو بشارة المولد... وإذا كان هذا الباب يندرج ضمن الصِّناعة الشعرية فإنه يبقى فناً صعباً يُعبر عن المقدرة والتحكم في الأداء بحيث لا يسعُك - أمام إبداع الشاعر - إلا أن تُقدر وتُقيّم وتحترم هذه الموهبة التي تتجاوز (صعوبة الحساب) وترتفع به من جمود وأسرِ الرقم إلى رحاب العاطفة المُجنحة، المَسكوبة شعراً يتعالى على جفاف العدد والحِساب، حتى أنك ترى نفسك مأخوذاً ومُعجباً تردِّدُ التاريخَ وقد حفظتَهُ مرتاحاً دون جُهدٍ أو تعب.

"نحن محاصرون بالشعر وبالكلم المُقفى - يقول عماد حسن شرارة - نولد ونام على سمفونيته، فلا سُلطة أقوى من سُلطانه ولا مأوى لنا خارج ما بناه الخليلُ لنا من بيوت...

وإذا كان العرب ربحوا رهان الشعر وأبديته فإن أهل بلاد عامل اتخذوا من الشعر وطناً لهُم، سكنوه واستقروه، وشهروا بطاقات انتمائهم إلى جمهوريته، إنهم نزلوا بيوت القافية، فإذا هي لهُم دارٌ للبقاء والفناء في آن... فتحت الأرض حيث موتانا لا تطمئن نفس لهم أو تكون راضيةً مرضيةً إلا إذا رَقَدَتْ تحت بلاطة دُونَ فوقَها أبياتٌ من الشعر"[١].

---

(١) راجع الوثائق المُرفقة في هذا الكتاب.

على ضريح النائب والسفير والوزير السابق المرحوم علي بزي المُتوفى سنة ١٤٠٥هـ نقرأ من شعر السيد محمد نجيب فضل الله:

جدثٌ يضمك والجهادَ الأكبرا — يا من رأى جدثاً يضم غضنفرَا
قَذَفَتْ بوجه الانتداب يمينُهُ — حِمَمَ الإباءِ المحض موتاً أحمرا
وطنيةٌ لك لم تكن مأجورةً — يأبى يباع ضميرُهُ أو يُشْتَرى
ولقد دخلتَ وِزَارتيْن فضيلةً — وخرجْتَ، لَكِنْ بالعفافِ مُؤَزَّرا
كانت حياتُك يا عليُّ ثورةً — تحيا الشعوب بها إباً وتحرُّرا
وبمجدك البزيِ يفخر مُظهراً — عزاً وتاريخاً: بأنور مظهرا
٢٥٩ ١١٤٦ = ١٤٠٥هـ

وعلى ضريح شاعرنا موسى الزين شرارة المتوفى سنة ١٤٠٦ هـ نقرأ من شعر السيد محمد نجيب فضل الله كذلك:

جدثٌ به للشاعرين أميرُ — والثائرُ المعروف والمشهورُ
ولأنْتَ موسى الزين كُل شرارةٍ — هيهاتِ بعدكَ للظلام تُنيرُ
حملوا بنعشك شاعراً مُتحرراً — فإذا بنعشكَ منبرٌ وسريرُ
ما هابَ من مُستعمرٍ، متمردٌ — - رغم القيود - وهمُّه التحريرُ
ما مات حتى إنْ رأى في عينِه — عن أرضِ لبنانٍ تَرَحَّلَ (غورُو)
كَمْ ألقى في وجْهِ الطُغاةِ قصائداً — كعصاةِ موسى والطُغاةُ كثيرُ
ولسوفَ تبقى خالداً وطنيةً — ودُعاتُها تاريخُهُنَّ: غُرورُ
١٤٠٦ هـ

... وعلى ضريح الحاج علي بيضون نقرأ من شعر السيد عبد اللطيف فضل الله:

... لولا تَغَايُرُ ماضينا وحاضرنا — خِلْنا جهادَك في بدرٍ وفي أُحُدِ
... أعياه أن يقهر الروح التي كبُرت — فصبَّ نقمته الكبرى على الجسدِ
فاطلعْ على الخُلد عملاقاً يطول به — ولا يُطاوله في الخُلد من أحدِ
أرِّخْ: بمقعد صدقٍ حين يشمله — لُطفٌ من الله ممدودٌ على الأبدِ

موسى الزين والشعر الحديث

كان موسى الزين شرارة شاعراً تقليدياً بمفهوم الالتزام بأوزان العروض التي وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدي - وكان من الطبيعي أن يكون له موقف متحفظ ومعترض ضد من يحاول المساس بها... كان - ككثير من الشعراء - يرى أن هذه العمارة الشعرية الباسقة تمثل تراثاً تاريخياً تمتد جذوره عميقاً في حياتنا، وتشكل وجهاً مشرقاً من أدبنا، يربط بين أجياله، ويحمل في غنائيته أجمل العواطف الإنسانية... وقد سُكِبَ في أوزانٍ إيقاعية لها قواعدُها ونُظُمُها وموسيقاها التي ساعدت على حفظِهِ وإنشادِهِ وروايته، وأهّلَتْهُ لأن يبقى الأكثرَ ذيوعاً وانتشاراً على مختلف العصور...

عرّف العرب الشعر "بأنه الكلام الموزون المقفى الدال على معنى" وبات الأساس الجوهري، الذي آمن به السلف ولم ينكِره الخلف في التفرقة بين الشعر والنثر إنما هو استقامة التفعيلة، أو اللغة الموزونة، وعدا ذلك من أساسيات فن جمال القول إنما هو قاسم مشترك بين الشعر والنثر كليهما: من لفظ وتركيب، ومن معنى ومضمون، ومن خيال وصور، ومن عاطفة وفكر ينهلان من مجموعها، باعتبار أنهما وجه الحياة الأدبية وطريقٌ في القول بنسب تتفاوت مقاديرها بتفاوت طبيعة كل منهما، بل وتختلف تلك النسب في الوجه الواحد منهما باختلاف الموقف الداعي إلى التعبير والغرض الباعث على القول[1].

"وبحور الشعر نُظُم متنوعة الإيقاع، مختلفة الأوتار، متباينة الأصباغ، ولم تكن تلك الأوتار، وهاتيك الأوزان حَجْراً على التجديد والاجتهاد، أو حَجْباً عن الإضاءة والافتتان... هي إن تملَكْتكَ مكَّنْتكَ من أن تقولَ فتبدع، وأن تَفْتَنَّ فتُبْهِر، وإن أنت تملَّكْتَها مكَّنْتَها من أن تجدد دماءها بفتوة شبابك، وإحساس جيلك، وصبغة عصرك، ولك بعد ذلك أن تضيف إن استطعت، وقد حاول قبلك المبدعون والمتنافسون"[2].

هذه القوانين الشعرية لم تكن يوماً جامدةً بحيث يمتنع على الشعراء أن يلامسوها... هي ليست قرآناً ولا إنجيلاً.. وطبيعة التطور تقتضي أن تخضع هي بدورها لحركة الحياة، ويسري فيها نبض التجديد والتحديث... ثم إن محاولات التجديد لم تكن يوماً وقفاً على عصرٍ معيّن... فقد عرفها العباسيون في بداية عهدهم ثورةً على نمط الحياة

---

(١) الدكاترة محمد الكاشف، أحمد هويدي، محمد عامر، العروض بين النظرية والتطبيق، منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى، صفحة ٧.

(٢) نفس المرجع أعلاه، ص ١٦٦

في الوقوف على الأطلال الذي لازم الشعر العربي طويلاً، وعرفتها الأندلس مع الموشحات تطويراً في التفعيلة وتنويعاً في المواضيع... إلا أن هذه المحاولات بقيت محكومةً بالثوابت والنظم ولم تَكْسِرِ القواعدَ التي تحفظ موسيقى الوزن التي تَمَيَّزَ بها الشعر وعُرف... كان التجديد يجري داخل البناء الشعري، ولم يتناول الشكل الخارجي، بتبديل "هندسته" أو التعرض لأساساته... كان العمل التحديثي داخلياً ينحصر في تغيير "الديكور" لإعادة الترتيب وإدخال روح العصر إلى عمارة الشعر...

"وكان الشعر في أوائل القرن العشرين في جميع بلاد العرب يُظهر علامات البرم بالتجارب المتكررة، فقد كان عدد من الشعراء ذوي النزعات الريادية يحاولون إدخال تجديدات في الموضوع والشكل واللغة والاتجاهات العامة في الشعر، وليس المهم في هذا المجال أن أغلب تلك التجارب قد باءت بالفشل، فالحقيقة المهمة هي وجود روح التجريب والوقوف بوجه الركود مما هيّأ المجال لازدهار التجارب الشعرية في حقبة الخمسينات والستينات"(١).

"المهم أن لغة الشعر اكتسبت حداثةً وطلاوةً وغنًى، وظهرت تنوعاتٌ في الموقف الشعري، ظهرت أولاً مع شعراء الرابطة القلمية ثم تبع تجربتهم الناجحة تغيّر مماثل في موقف بعض الشعراء الذين كانوا يكتبون في الوطن العربي من أصحاب الرومانسية والرمزية... ومع التغيّر في الموقف حدث تغيّر في اللهجة، وهذا بدوره جاء في بواكير القرن على أيدي شعراء المهجر أمثال فوزي المعلوف ونعيْمة وعريضة، وفي الوطن العربي على أيدي شعراء مثل إبراهيم ناجي والشابّي وأبي شبكة من شعراء الرومانسية ويوسف غصوب وسعيد عقل من شعراء الرمزية، إلى جانب تجارب متفرقة كتجربة أحمد الصافي النجفي التي وصلت بنبرة الشعر إلى مستوى لهجة المحادثة"(٢).

هذه الحركات التجديدية طاول بعضها النظم والقواعد التي كانت من الثوابت، وكانت أولى المحاولات الواعية تتركز على القافية والتي كان من نتيجتها تنويع منتظم للنهايات المقفّاة، ثم ظهور الشعر المرسل الذي تخلّى عن القافية تماماً، لكن التجارب أثبتت خطأ الاعتقاد أن القافية هي عائقٌ أول في وجه التغيير لأن "لها وظيفة مزدوجة فهي أولاً تؤكد صفة الاكتفاء الذاتي في البيت ذي الشطرين إذ تمثل التقنية الوحيدة بين

---

(١) سلمى الخضراء الجيوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، منشورات دار الوحدة العربية، أيار سنة ٢٠٠١. ترجمة د. عبد الواحد لؤلؤة، صفحة ٣٣٤.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٥٦٩.

الوحدات المستقلة بنائياً، وثانياً تكمل النمط المتشابه المتكرر الذي يستقيم به التماثل والتوازن... لم يحدث أي تغيّر مهم في شكل القصيدة حتى اكتشف الشعراء العرب طريقةً يكسرون بها القاعدة الأساسية في هذا التماثل والتوازن ويزيلون صفة الاكتفاء الذاتي في البيت التقليدي ذي الشطريْن... وكانت حركة الشعر الحر نتيجة هذا البحث المستمر... إن سر الحرية في شكل الشعر الحر الجديد لا يكمن فقط في التحرر من الالتزام بعدد ثابتٍ من التفعيلات في البيت الواحد بل أيضاً في التحرر من الوقفتيْن ومن قانون التّماثلٍ والتوازن في شكل الشطرين القديم"(١) ... وثمة مغامرة أخرى في التجريب لم يُكتب لها النجاح، ترمي إلى مزج عدد من البحور في القصيدة الواحدة اعتباطياً من دون قاعدة مما نتج عنه غياب بناء إيقاعي أصيل في القصائد (تبنى هذه الطريقة الشاعر اليمني علي أحمد باكثير في ترجمة روميو وجولييت سنة ١٩٤٦).

"وكان ظهور حركة الشعر الحر رفضاً لعبودية الشاعر الحديث للأشكال الشعرية القديمة... وكان ديوان نازك الملائكة (شظايا ورماد سنة ١٩٤٩) هو الذي بدأ حركة الشعر الحر رسمياً والمنبر الذي أعلن منه هذه التجربة، وقد كسبت الحركة دعماً عندما نشر بدر شاكر(*) السيّاب ديوانه الثاني (أساطير سنة ١٩٥٠)(٢). وفي سنة ١٩٥٤ أصدر عبد الوهاب البيّاتي ديوانه (أباريق مهشمة)... في هذه الفترة انتقل مركز الشعر إلى العراق الذي كان لقرون عديدة معقل الشعر الذي بقيت تقاليده حيّةً في مراكز الشيعة والسنّة في البلاد... وكان العراق قد أنجب شاعراً كبيراً هو الجواهري الذي عبّر بشعره اللاهب عن ثورة الإنسان وغليانه الداخلي... ثم إن العراقيين وهم أكبر الشعراء في الوطن العربي، كانوا يفيدون على مهل من التجريب، والتنظير الذي كان يجري في مجالات شعرية أخرى في الوطن العربي وبخاصة في مصر من دون أن يتورطوا في متاهات الجدل النقدي الذي كان يمكن أن يُضَبِّبَ رؤيتَهم الشعريةَ ويبني لهم معاييرَ نقديةً مغلوطة..

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ,٥٨١

* في عدد جريدة السفير٩٢٦٠ تاريخ ٢٩ تموز ٢٠٠٢ ورد ما يأتي:

"تعتزم وزارة الثقافة العراقية ترميم وصيانة بيت الشاعر العراقي الكبير بدر شاكر السياب "تكريماً وإجلالاً لما قدمه هذا الشاعر من خدمات من أجل الشعر الحديث والذي كان رائده في الوطن العربي"، كما ذكرت الصحف العراقية.

تشمل خطة الترميم منزل السياب "ارجدي" أي الدار الأصلي للشاعر، و"منزل الأقنان" الدار الملحق به في منطقة بكيج في قرية جيكور في محافظة البصرة. وسيجري، في المرحلة الأولى، رفع الأنقاض من باب الدار وصيانة الجدران وترميمها وتجديد البناء في جميع غرف وملحقات الدار الواقعة في قضاء أبو الخصيب بالقرب من البصرة، على أن يتم في المرحلة الثانية بناء بيت على شكل متحف خاص يضم ما كتب عن السياب في الصحف والمجلات والدوريات العراقية والعربية، بالإضافة إلى صوَرِه خلال فترة حياته ومقتنياته الشخصية الخاصة.

(٢) يدّعي كل منهما أبوةّ الشعر الحديث، كما ينسبها البعض إلى بلند الحيدري والبياتي وفؤاد الخشن.

وهكذا فقد بزغت الحركة الجديدة من الشعر الحر استجابة لحاجة حقيقية نبعت من طبيعة الفن نفسه وهي الحاجة إلى التجديد والتغيير في فترة كان الشعر العربي في نهاية الأربعينات ينتظر لمسةً من موهبةٍ شعريةٍ أصيلة لتخرجه إلى الوجود[1].

يقول بدر شاكر السياب: "الشعر الحر ليس ظاهرة عروضية وحسب بل هو بناء فني جديد يجسّد موقفاً واقعياً جديداً.. جاء ليحطم الميوعة الرومانسية والصرامة الكلاسيكية، والشعر الخطابي وأدب الأبراج العاجيّة" (ص ٦٠٨).

وراحت تجربة الشعر الحر تتطور وتشكل تياراً أو مدرسةً جديدة للتغيير... وصدرت في بيروت سنة ١٩٥٧ مجلة شعر "ليوسف الخال" وأطلق اسم الشعر الحديث على الشعر الحر... وكان أول ما قام به أن هاجم ما كتب من شعر الخمسينات، لأن هؤلاء الشعراء - في نظره كما يقول - استمروا في كتابة قصيدة تقوم على وحدة البيت من دون وحدة القصيدة كلها، تماماً، كما كان الأمر في الشعر القديم، وما زالوا محافظين كذلك على الأغراض والمواضيع نفسها عند الشعراء القدامى، وما زالت نظرتهم إلى الأمور وتجربتهم في الحياة تنبع من عقلية اجترارية عتيقة". إن الحياة بالنسبة لهؤلاء لم تتجدد إلا في الظاهر".

هذا الهجوم المدفوع إلى أقصاه كان يدعو إلى مفهوم جديد ونظرة متطرفة وتهديم للتراث، فقد كتب يوسف الخال: "إن الحضارةَ الغربيَّةَ هي حضارتُنا، بقدر ما هي حضارةُ الفرنسي والألماني والروسي الخ... ونحن لا قيمة لنا ولا مستقبلَ لنا في العالم العربي إنْ بقينا خارجَها، ولم نَتَبنَّها من جديد، ونتفاعل معها ونفعل فيها... إنها لنا وهي نحن بكلّ مآثرها وعيوبها، بكل قوتها وضعفها، بكل ما تضنّ أو تعطيه للإنسان.. في جيلنا وفي الأجيال الآتية[2].

في كتابه قضايا الشعر الحديث ردّ جهاد فاضل على هذه الدعوة الخطيرة قائلا:

"يجب التمييز أولاً بين حركة الشعر الحديث وحركة أخرى يلتبس على الناس أمرها فتحسب على الشعر الحديث وهي منه براء.. الحركة الأولى أي حركة الشعر العربي الحديث، حركة تاريخية، أصيلة، مستمرة منذ بدايات القرن، تنمو حيناً وتتعثر حيناً آخر، ولكنها حركة حيّة بمقتضاها يتطور الشعر العربي ويتفاعل مع العصر... ومن

(١) نفس المرجع، ص ٦٠٦.

(٢) جهاد فاضل، الأدب الحديث في لبنان، ص ٨٨.

الطبيعي أن تجد هذه الحركة أنصاراً لها وخصوماً ككل حركةِ يَقْظَةٍ وإحياء، سواء في مجال الفنون والآداب أو في مجال آخر، ولكنها من وجهة نظرنا على الأقل تمثّل نزعة التجديد الأصيلة في وجدان الأمة وهي نزعة موجودة في كل جيل كما في كل عصر...

أما الحركة الثانية فتضم تلك الأعشاب والطحالب التي تنمو على هامش كل حركة أصيلة، ولكنها تصوّر نفسها على أنها الألفُ والياءُ، والأصلُ والجوهرُ، بينما في واقع الأمر لا تمتّ إلى ظاهر الشعر والفن بِصِلَة... إنها تضم شعراء يشبهون السلم الذي تحدث عنه ميخائل نعيمة يوماً، يصعد عليه الصاعدون وينزل النازلون، أما هو فلا يصعد ولا ينزل... هؤلاء الشعراء لديهم رغبة بالشعر، وشهوة لركوب موجته، ولكنهم لسبب يقصّرون... حالهم تشبه حال صاحب المطحنة القديمة التي كانت تدور على الماء وعندما فاجأتها المطاحن الكهربائية الجديدة فتركها الناس إلى الجديدة... أقفل صاحبها العجوز أبوابه بعد أن هجرها الزبائن وجعلها تدور على الفراغ ليلاً نهاراً كي يوحي وهو في حالة قهرٍ لا توصف بأن مطحنته مستمرة في أداء عملها على أحسن ما يكون!!...[1]

"كان جيل الخمسينات الذي نهضت به الحركة الشعرية العربية نهضتها الكبرى قد دعا إلى قصيدة متحررة إلى أقصى حدود التحرر وإلى شعر "طبيعي" لا ترهقه القافية أو النمطية الخارجية... ولكن هذا الجيل نفسه تنبّه إلى أن الحرية في هذا المجال مسألة خطرة لأنها قد تفسح في المجال أمام تسرّب غير الجديرين إلى نادي الشعر... فالحرية قيمة فنية كما هي قيمة إنسانية، ولكن من الغبن أن توهب لمن لا يريد أن يتقن عمله، والفن والشعر بخاصة هو اتقان قبل كل شيء...

التجديد حق وواجب للفنان.. ولكن التجديد ليس فوضى، وليس أي كلام تجديداً، هذا مع الملاحظة أن التجديد الصادر حتى من العظماء، قد يعطي أحياناً نتائج عكسية، فكيف بتجديد ليس له مع التجديد الأصيل أي رابطة"؟!![2]

"شعراء الموجة الأولى من جماعة الشعر الحديث (الملائكة، السيّاب، البياتي، الحيدري، الخشن) كتبوا شعراً حديثاً، كما كتبوا شعراً كلاسيكياً (نظام الشطرين) وقد نجحوا لأن عدّتهم الشعرية أو أدواتهم الشعرية ومنها اللغة كانت جيدة...

(١) جهاد فاضل، قضايا الشعر الحديث، دار الشروق، ص ١٤٦.

(٢) نفس المرجع أعلاه ص ١٤٩.

يقول جهاد فاضل: "أن ظاهرة الشعر الحديث يجب تزكيتها، والدفاع عنها لأنها ظاهرة إيجابية في حياتنا العربية الحديثة، وإذا كانت مشاكل الديموقراطية لا تحل بنظر الديموقراطيين إلا بمزيد من الديموقراطية، فإن مشاكل الشعر الحديث مهما كانت لا تحل إلا بالمزيد من الشعر الحديث... وإذا كانت الغالبية العظمى من الشعراء المحدثين أو الجدد كارثةً بحق الحداثة وبحق الشعر فلا يجوز أن يدفعنا ذلك إلى هدر قيمة الشعر الحديث وتزكية الشعر القديم[1]"..

أنصار مجلة "شعر" انطلقوا بعيداً، وأوغلوا في تقليد النمط الغربي، فأهملوا التراث، وضعوه جانباً، كسروا كل الثوابت والقواعد والنُظُم، ودعوا إلى نمط جديد، أو هجين، وأثاروا ضدهم عاصفةً حتى من دعاة التجديد الذين انطلقوا من قوانين الشعر العربي وعملوا على تطويرها وتحديثها لا على نسفها وإلغائها...

يقول جهاد فاضل متحدثاً عن الحداثة والجذور: "طُرحت الحداثة مراراً وكأنها موقف صدامي مع التراث، لا موقف الظاهرة الطبيعية التي عاشها، حتى التراث نفسه، فقد كان في زمانه حديثاً أيضاً... طرحت الحداثة كأنها ليست من التراث، ولن تصبح تراثاً، فهي عندهم نفي له وتخلص منه... الحداثة عند بعضهم هي التنكّر بالزي الغريب، وبالمعنى الذي لا يعني، وبالصورة التي لا يفك مغاليقها أحد، إنها في الواقع تعطيل لمقاييس الأدب وتقاليده منذ كان الأدب، واغتيالٌ للتجويد، وهزيمةٌ للغة والبيان وحيرةٌ للعقل...

الحداثة ثورةٌ وليست تمرداً، فهي أولاً أصولٌ ومعاييرُ وتجديدٌ ونضالٌ ومشقّةٌ، وليست استقالةً من كل القيم ولا حتى من بعضها... المتمرد حاقد يهدم القديم بلا رحمة ولا هوادة، لأن عمارة القديم الفخمة، ذات الجهد والجودة، فضيحةٌ للشارع الشعبي الذي نَصَبَ فيه حجارته...!! الثائر يرى أن الدليل الأقوى على عظمة حبنا للقديم وعمق تقديرنا له هو مدى قبولناللجديد وترحيبنا به... فالحداثة عند الثائر هي الوسيلة الحديثة للاحتفاظ بالقديم، حباً نابضاً مؤثراً أشد التأثير في العقول والأرواح، والثائر لا يزدري القديم، ويرى أن أول الحداثة ليس فقط فهم القديم بل الاتقان التام لأصوله والمقدرة الفائقة على ممارسته".

"يبقى من الأكيد أن الحداثة العربية لن تؤسس فضاءها في الأفق الفرنسي ولا في

(١) نفس المرجع السابق.

الأفق الأمريكي ولا في الأفق السوفييتي، فلا حداثة بلا أصول، ولا حداثة بلا أصالة، ولا حداثة مجلوبة بترجمة أو سرقة أو تقليد أو اقتباس ولا حداثة بلا روح ولا هوية... الحداثة الحقيقية، حداثة الإبداع والابتكار والخلق، من صنع نخبةٍ قليلةٍ ولكن مبدعة وتسكنها إرادة التاريخ".

... في كتابها قضايا الشعر المعاصر ذهبت الشاعرة العراقية نازك الملائكة إلى أن "هناك دعوة عربية، قامت في الجو الأدبي في لبنان، وناصرها بعض الأدباء، وتبعتها أخيراً مجلة "شعر" وراحت تدعو إليها ملحّةً... وتأتي غرابة هذه الدعوة من أنها تخرج على القواعد المتعارف عليها والمتفق عليها في الشعر العربي فأساسها قانون غريب مُخالف هو: "أن الوزن ليس مشروطاً في الشعر" وإنما يمكن أن يسمى النثر شعراً لمجرد أنه يوجد بمضون معيّن. وترفض الشاعرة نازك الملائكة هذا القانون وترى أن ما يكتبه أنصار هذه الدعوة، نثراً طبيعياً مثل أي نثر آخر وهو نثر اعتيادي كالذي يقرأ في كتب النثر، في كل زمان ومكان فلا أثر فيه للوزن أو القافية وهي تتعجب من أنهم يأتون به مقطّعاً على أسطر ويكتبون على غُلُف كتبهم كلمة "شعر"... إن هؤلاء الكتاب لا يحترمون النثر ويزدرون ما يملكون من موهبة لأنهم يعتبرون إبداعهم في مرتبة أقل من إبداع الشعراء... هم يتطلعون إلى ما لا يملكون، مما جعلهم يطلقون كلمة شعر على ما يكتبون من نثر تعبيراً عن ازدرائهم لموهبتهم، وتطلعهم لما لدى الشعراء من فضيلة... ليس هذا وحسب بل إنهم أرادوا أن يَقْصُروا الإبداع والتجديد على فنهم فاحتقروا الشعر وسموه بالتقليدية[1].

ومن الملاحظ أن نازك الملائكة تعاملت مع أنصار قصيدة النثر على أنهم "مرضى نفسيّون"، مصابون بما يسمى "مركب النقص"... قصيدة النثر بنظرها ليست أكثر من ظاهرة مرضية نتجت عن النقص الذي أحس به كتّاب النثر... ورأت ضرورةَ أن يمتلكَ هؤلاء الثقةَ بالنثر... فالنثر ليس وضيعاً، هو يمنح قائله صفة الإبداع كالشعر تماماً، فلماذا يحسب هؤلاء أن نثرهم لا يثير الإعجاب، إلا إذا مسخ ذاته وسمى نفسه شعراً؟!وانتهت إلى أن "النثر له كالشعر قيمة ومكانة" ثم طرحت هذا التساؤل:

ترى إذا استطاع ناثر وشاعر أن يعبّرا كلٌّ بأسلوبه الشخصي عن عين الكمية من الصور والعواطف والأخيلة، فأيهما سيهزّ السامعين هزاً أشد؟! أيهما سيبعث فيهم

(١) نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، ص ٢١٧/ ٢١٨.

مقداراً من النشوة أكبر؟ وأيهما سيستجيب له الذوق الإنساني في استجابة أرهفَ وأمرَّ؟ إن الجواب واضح وبديهي: فالشعر يهزّنا ويثيرنا أكثر من النثر بسبب العنصر الجمالي الذي أضيف إليه وهو الموسيقى والإيقاع!! والحقيقة التي لا مفرّ لنا من مواجهتها أن الناثر مهما جهد في خلق نثر تحتشد فيه الصور والمعاني يبقى قاصراً في اللحاق بشاعر مبدعٍ ذلك الجمال نفسه ولكن بكلام موزون[1]".

يقول جهاد فاضل في كتاب قصيدة الشعر الحديث:

"إذاً مهما تعددت مدارس الشعر وطرقُهُ ومذاهبُهُ ففي النهاية هناك شعر أو لا شعر... ومهما تساهل بعضنا في الشروط الشكلية للشعر فطرحوا جانباً - من أجل أن ينعموا بالشعر - قيودَ التقليدية المعروفة من وزن وقافية، وهي قيود مرهقة للشعراء الجدد فلا أعتقد - أن أحداً يتساهل في كون الشعر قيمةً فنيةً جماليةً من طبيعتها التفرُّدُ والاختلافُ والأصالة.

الشعر لا يكون شعراً بدون تجربة روحية وبدون رؤيا. وبدون ثقافة، وبدون فكر، وبدون التزام بالمعنى الناصع للكلمة.. كما أنه لا يرقى إلى مرتبة الشعر إن لم يكن فيه الكثير من العرب ولغتهم وروحهم الشعرية... فلا شعر عربياً إلا في إطار شاعر اللغة العربية، ولا حداثة إلا في إطار الواقع المحلي والموضوعي للشاعر وعلاقته السويَّةِ بتراثه وتاريخه وترابه...

ويتابع في الصفحة ٩٩ وما يليها "إن من حق الشاعر أن يحلق في سماء المعاني الخفية ما شاء تلافياً للوقوع في أثر الابتذال والرتابة و"العاديّة" فالشعر يتطلب الرؤيا وهو نافذة تطل على المطلق، وحالة لا يمكن اخضاعها للعقل البارد... لكن ليس من حق الشاعر أن يسرف في التعقيد وتداعي الصور المبهمة المستعصية تماماً على الفهم إلى الحد الذي تصبح فيه القصيدة فاقدة وحدتها العضوية أو خالية من كل معنى...

إن هاجس البحث عن الطريق الجديد هاجسٌ طبيعي عند الشاعر وعند الفنان، وكذلك الابتعاد عن المعنى المتداول، ولكن الإيصال يصبح مشكلةً معقدةً ومضنيةً عندما يجد القارئ نفسه لا أمام الغموض الفني الذي يشفّ ولا يحجب، بل أمام الإبهام الأبكم الذي يسمح بالظن بأن الشاعر ليس مالكاً تماماً عنان عواطفه وأخيلته، إنه ليس في "صحو" الغيبوبة الشعرية بل في "ضلال" الطريق وقلة الزاد...

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٥.

فعندما ينقطع الاتصال بين القارئ والشاعر انقطاعاً كاملاً ويتكرر ذلك مراراً من حق القارئ عندها أن يشتبه بأنه أمام عجز فني وضعف في ملكة الشعر... إذما هذا الغلوّ في التعقيد والإبهام غير المبرّر إلا بالخوف من "العادية"؟؟!!.. ومن حق القارئ أمام إسراف الشاعر في رحلاته الغامضة غموضاً مطلقاً وإمعانه في الإبهام الكلي، أن يتجاوز مرحلة الشبهة بالعجز إلى حد اتهام الشاعر بالتزوير والزيف والشعوذة!!

الغموض وتجديد المعاني كانا دوماً صفتين متلازمتين لعملية خلق الشعر... لأن كل شاعر يحس برغبة حادة في أن يخلق لغةً جديدة تماماً، لغةً تملك القدرة على التعبير المباشر، أو يحس بالرغبة في العودة إلى المنبع، إلى أعماق لغة قديمة لم يُبْلِها الاستعمالَ ولها قوةٌ سحرية.

الغموض من مستلزمات الشعر ومن أشيائه الجوهرية... هل هناك شعر وليس في ثنايا الكلمات ما يغوي ويوحي ويَدُلّ؟! هل هناك شعرٌ والخيال مقيّد؟ إن الغموض الذي يلوِّنُ الشعر ويُغنيه بالرؤى والأطياف، والذي يتلاعب بعملية الخطوط والألوان، أو يؤلف بُعداً معيناً لَهُوَ من طبيعة الشعر ومن طبيعة الفن نفسه.

الشاعر الأصيل هو الذي يقيم في بستان الشعر مُواجَهٌ باستمرار بمثل هذه الأسئلة: كم أهَبُ وكم أمنع؟ كم أحجُبُ وكم أبيّن؟ كم أسكُت وكم أتكلم؟... ليس فناً ما تستطيع أن تلتهمه بلحظة واحدة... وليس شعراً ما يمكن الاحاطة به بومضات؟!... بل ليس من الجمال في شيء من يَهَبُكَ سريعاً ما لديه من جمال!!... الشعر كالحب هو فَن الهبة؛ ومن طبيعة الهبةِ أن تكونَ مغلّفةً بالأسرار!!.

لكن الغموض شيء والتعمية شيء آخر... الغموض من الشعر ولكن التعمية مُفْسِدَةٌ له ومعطّلةٌ لمعادلات كيميائه... التعمية هي أن يُسدِل الشاعر الظلام بقصد التضليل...هي أن تضبِطَهُ بجرم التدليس الشعري المشهود.. إنه يريد أن يوهم القارئ بحرارة مزوَّرة بينما هو في "صحو" الشعر لافي "سُكْره"!!... التعمية هي بناء الشعر بأية ألفاظ وصور وكلمات تزيد القارىء شكاً بعقله أو بهذا الذي يقرأه .. التعمية مأخذ فني وعيب ينتقص القيمة الجمالية للشعر، أما الغموض الشفّاف الجميل فهو لعبةُ الشعر كلّه... لا شعر بلا غموض ولكنْ قد يوجد الغموض ولا يوجد الشعر!!(١).

هذا الفهم الرائع للشعر أحببت أن أنقله حرفياً عن الناقد الأديب جهاد فاضل الذي يرى في تجربة الشعر الحديث السليمة محاولة تطويرٍ وتجديدٍ شَرْطَ أن تنطلق من التراث، وتحفظ للشعر ميزات التعبير الواضح، والاداء الجميل، والصور الحلوة، ورقة

(١) نفس المرجع السابق، ص ٦٠.

المعاني، وفُرادة الانتقاء وموسيقى الإيقاع، وميزة الوزن وشيئاً من الغموض الذي يُدرَكُ فيُعطي ويُوحي ويُوصل المراد...

لقد تنبّه جودت فخر الدين، وهو أحد الشعراء الشباب إلى المشكلة التي تعانيها الحركة الشعرية الحديثة فقال: "إن حركة الشعر العربي الحديث تعاني من فوضى أشبه بالتخبط، وهذه الفوضى لا تعني فقدان المقاييس أو التوسع الأفقي بقدر ما تعني الارتباك واختلاط الأمور على صعيد الكتابة الشعرية".

.. كل هذه التساؤلات تفيد أن حركة الشعر الحديث ما زالت في مرحلة البحث والتجريب... لقد جرى التشكيك بقدرة القصيدة الكلاسيكية على تمثّل هذا الشعر وتمثيله... وهذا التشكيك في محله، وفي محله أيضاً نزوع العربي إلى أن تكون له قصيدته الحديثة كما كان للعربي القديم قصيدته الخاصة.. ولكن كيف؟! إن طريق التجديد السوي يجب أن يتتابع، ولكن بالمزيد من الشعر، وبالشعر الحديث الذي لا يفقد أصل التواصل بين الناس.

والملاحظ أن هناك أناساً لا يرتاحون ولا يتفهمون، ولا يستوعبون تجارب هذه المدرسة... ويخاصمونها ويرون أنها تُشكل حركة ضد التراث، وشاعرنا موسى الزين شرارة كان في طليعة هؤلاء!!

... "والهموم الاجتماعية -يقول عبد اللطيف شرارة- التي غَمَرَت أيام شاعرنا موسى الزين شرارة هي التي كانت في الواقع وراء العذاب الذي عاناه، وتمثل في السجن حيناً وفي الهجرة حيناً والتذمُّر من الأوضاع العامة في معظم الأحيان وليست شاعريته في منطلقاتها الحقيقية، سوى إحساسه بالضيق المُفجِع حِيال تلك الأوضاع ومحاولة تغييرها ولكن بوسائل أدبية خالصة، ليس لها أن تُثمر على المدى القريب، غير أن اندفاعه ذاك في التوجه نحو الشعر والأدب أفضى به إلى هموم جديدة لم تَخطُر بباله، إذ تبين له أن الحياة الأدبية لا تنفصل بشيء عن حياة المجتمع فكان يتبرّمُ بالغموض لدى الشُعراء:

يحدِّثُني فلمْ أفهم عليه   كأنَّ كلامَهُ الشعرُ الحديث!!

يُتابع الأستاذ عبد اللطيف لقد حاولت في بعض مُسامراتِنا ومُطارحاتنا إقناعه بأن الشعر الحديث شيء والغموض شيء آخر، وأن الحديث من الشعر لا يعني الغامض، لكنه ظل في ريبٍ من ذلك[(١)]".

---

(١) جريدة النداء، ١٠/٩/١٩٨٦، عبد اللطيف شرارة.

بنت جبيل من الداخل

ربما كانت القيمة المعنوية التي تتمتع بها بنت جبيل تتجاوز كثيراً الواقع المادي الذي تشغله وبعبارة أخرى أكثرَ وضوحاً إن "شهرةَ" بنت جبيل ورصيدَها الوطني عَبْرَ التاريخ أكثرُ فعلاً وواقعاً مما يجب أن تكون عليه... لا أدري إذا كان السبب يعود لأنها إحدى حواضر جبل عامل أو لموقعها في الطرف الجنوبي المتوسط منه، بحيث إنها أحد ثغوره ولما يلعبه هذا الموقع اقتصادياً بعد أن غدت سوق خميسها مكاناً مهماً للتبادل الاقتصادي يجذب إليه الناس من مسافات بعيدة... قد تتعجب وأنت تسمع أن روّاده طالما ترددوا عليه من أقصى جنوب فلسطين أو الأردن أو سوريا... أو للدور السياسي المركزي الذي لعبته تاريخياً وهي مركز تجاذب بين عكا ودمشق، أو بين مراكز القرار في فلسطين وصيدا وبيروت... أو للدور الديني الذي أهلّها لتكون إحدى منارات جبل عامل يوم أنشأ الشيخ موسى شرارة مدرسته، وربما أخيراً لا آخراً للدور السياسي المركزي الذي شكلته مع الحاج محمد سعيد بزي ثم مع علي بزي ورفاقه يوم غدت إحدى مراكز القرار في الحركة المناهضة للانتداب وعندما حضنت الثورة الفلسطينية ضد الإنكليز وأمدّتها بمختلف أنواع المساعدات، أو عندما استمرت نقطة مضيئة في الوعي القومي العربي، وعارضت الأحلاف المشبوهة وخرّجت أفواجاً من الشباب المتنورين الحزبيين البعثيين والقوميين العرب والشيوعيين والقوميين الاجتماعيين أو عندما قاومت غزوات جحافل اليهود بدم شهدائها وقاومت بصمودها وصبرها وعنفوانها محاولات التطبيع والإذلال والاحتواء وانتفضت مع "الشريط" كطائر الفينيق ونفضت رمادها على هدير مواكب المقاومة الإسلامية والوطنية وهي تدخلها فاتحة وتعيد بهاءَ عفَّرَهُ ظلمُ الغاصبين...

قَدَرُ هذه البلدة أن تحمل على الدوام قضيةً مقدسةً أكبرَ منها، وأن تكون نقطةً مركزيةً تجذب إليها الشرفاء... تاريخها عوَّدَها ألا تكونَ على الهامش بل أهلَّها أن تبقى في الصدارة، وفي مركز القيادة، وأن تحضن وتحتضن المناضلين وتقدمهم بالعشرات قرابين على مذابح الفداء، وتدفع من صبرها وعنفوانها ثمنَ مواقفها إهمالاً وحرماناً ونسياناً لأنها لا تعرف المساومة ونفاق السياسة والاستزلام... أتصور أن هذا التراث وتلك التربية، وذلك التمرد، كوّن لأبنائها هذه "العقلية" "أو النوعية" وجعل منها محطةً متقدمةً في الريادة، وأعطاها هذا الاسم الكبير والشهرة الفريدة، وهي بدورها تعرف كيف تصونهما وتحافظ عليهما بالعرق والدم والكرامة لتستمر جديرة أن تحمل الرسالة على مرّ الأيام.

بنت جبيل الرائدة هي الحاضرة الأكبر في وسط المنطقة الجنوبية الغربية من جبل عامل، وهي منذ أوائل الخمسينات من القرن المنصرم مركزُ القضاء، ومؤخراً عاصمة "الشريط الحدودي"... جارة فلسطين، وحاملة صليب هذا الجوار...

كانت بحكم موقعها المتاخم لفلسطين باباً شمالياً لها، وحملت عبر الزمن خيراتِ ومتاعبِ هذا الجوار، ازدهرتَ اقتصادياً وعمرانياً يومَ كانت الحدود مفتوحةً وعمل أبناؤها في حيفا ويافا وصفد وعكا وسواها من الحواضر الفلسطينية، ازدهرت كما تزدهر مناطق الحدود المفتوحة بين الدول، وكانت الليرةُ الفلسطينية وسيلةَ التبادل الاقتصادي بدلاً من الليرة اللبنانية كما كان في الداخل الفلسطيني جالياتٌ من شباب معظم المنطقة الحدودية، وأُسَرٌ تقيم وتتعلّم حيث تعمل..

وعندما اغتصبَتْ فلسطين وأُقفل الباب الجنوبي على طول الحدود، بدأتْ تظهر واقعاً وفعلاً بوادرُ هجرةٍ معاكسةٍ نحو الشمال... وأدرك سكان المناطق الحدودية أنهم "لبنانيون"، أي عرفوا العملةَ اللبنانية، والعاصمة والمدن والمدارس والمؤسسات، وبدأ الجيل الجديد رحلةَ الانفتاح الواعي على "الشمال"، وهاجر الجيلُ القديمُ المخضرم نحو العاصمة ليعمل فيها ويسكنَ ضمنها أو حولها مشكلاً حزاماً راح يتكوّنُ ويؤسسُ لحزامِ البؤس الذي زنَّرها وكانَ بمعظمه من أبناء الجنوب أو من فلسطينيي المخيمات...

وبدأت تجارة بنت جبيل في هذه الفترة تتجه نحو الركود والانكماش، وراحت فُرَصُ العمل تتناقص، وغدت الساحة تضيق أمام طموحات الشباب فشدَّتْهم إغراءاتُ العاصمة وميادينُ عملها، فاستدار معظم الناس شمالاً نحوها لأن باقي الجهات كانت مقفلةً أمامهم... فاغتربوا في داخل الوطن... هاجر أكثر من نصف البلدة إلى بيروت وضواحيها وتحديداً برج حمود التي سبق أن تلقفتْ هجرة الأرمن في مطلع القرن... ومن هذه "البنت جبيل الجديدة" حول العاصمة راحت تتشكل هجرةٌ جديدة إلى الخارج، واغترابٌ نحو كل الأصقاع عرفَتْهُ المستعمراتُ السابقةُ في أفريقيا والبلادُ العربية واستراليا، والأميركتان الشماليةُ والجنوبية... والهجرةُ عدوى تنتشر بين الناس، فكيف إذا توفَّرتْ مغرياتُها وأجواؤها وتجمعاتها... وكلها سماتٌ متجذرة في تكوين اللبنانيين.

وفي زمن الانكسارات والهزائم كان لجبل عامل لا سيما لجنوب جنوبه النصيب الأوفر من المعاناة... وأصبح الشريط الحدودي "غيتو" مقفلاً، تُفتَح معابرُهُ وتُغلَقُ

مزاجياً، صار له حدودُهُ ومؤسساتُهُ وسياستُه واقتصادُهُ، وكانت بنت جبيل تذوي وتذبل وتشيخ، وتعض على جراحاتها وعندما اجْتيِحَتْ في المرة الأولى (١٩٧٨) كان سكانها دون الخمسمائة إنسان معظمهم من العجائز والشيوخ والموظفين... هكذا نزفت بنت جبيل، وهكذا دفعت الثمن الغالي.. هي المدينة التي حوّلها الاحتلال والقهر والمعاناة إلى قرية... حتى إذا أشرق عليها فجر التحرير، لم يتجاوز سكانُها الثلاثة آلاف مواطن.

لذلك بات لزاماً علينا أن نتكلم عن "بنت جبيل الثانية" وعن كل أبنائها المهاجرين في الوطن وخارجه.

كان من نتائج الحرب الأهلية في لبنان أن هُجِّر التجمعُ الكبيرُ لأبناء بنت جبيل في برج حمود تاركاً بيوتَهُ ومخازنَهُ وأماكنَ عمله وكلَّ ما تحوي من مقتنياتٍ ليعود مؤقّتاً إلى بلده أو إلى أي ملجأ آمن ثم ليتسابق أو يتبارى في الاغتراب... وراحت المغتربات تجذب أبناءنا وعائلاتنا، "تسرقهم" منا مؤقتاً، وليصبح المؤقت دائماً وإذا بنت جبيل الثانية في ديترويت وديربورن ونيويورك يحملها أهلها ذكرياتٍ في مهج قلوبهم وسواد عيونهم... يحملونها حنيناً لاهباً، وأحاسيسَ رقيقة، وشوقاً لا ينطفئ...

وبنت جبيل الأولى هذه الأيام موزّعة في الوطن بين بقايا ساكنيها وبين العاصمة والضاحية وعلى امتداد السبل والمنعطفات التي تصل هاتين النقطتين... وبنت جبيل الثانية المغتربة خارج الوطن منتشرة بين الأميركتين وأستراليا وأوروبا وأفريقيا وبلاد العرب...

قدر أهلها أن يتحملوا الكثير من نتائج نكبتنا في فلسطين... قدرهم أن يُلازِمَهمْ خوفٌ كبيرٌ من "ضياع" أبنائهم بعد أن فقدوا الارتباط ببلدهم، فقد ولدوا ونشأوا بعيداً عنه وسرقتهم المهاجر ولم تعرف طفولتهم قدسية هذا الرباط..

بنت جبيل الصابرة مدينة الأمس هي اليوم قرية كبيرة عاد إليها مع التحرير نقاء هوائها وعذوبة مائها وطهر ترابها، وتلاشت الحواجز والمعوقات، وبتنا نحج إليها عندما نريد، ونتزود منها مع عليل النسيم عنفواناً وكبرياء..

أيها البعيدون داخل الوطن وخارجه... بنت جبيل تفتح قلبها قبل ذراعيها لتضمكم... هي كبيرة بكم... أيها المتعبون تعالوا إليها ولو بزيارة لترتاحوا في حضنها الدافئ، ولن تعرفوا بعد ذلك تعباً...

بنت جبيل وحساسية التوازنات:

غريب أمر هذه البلدة، التي تحمل اسماً كبيراً وتكتنز تراثاً مشرقاً من النضال أن ترهقها أحياناً توازنات دقيقة تتحكم في حركتها السياسية، وتنعكس على علاقات عائلاتها داخلياً... هي في موقعها الجغرافي أكبر تجمع سكاني في القضاء، والنقطة المركزية التي تتجمع فيها الإدارات العامة ويتحرك فيها النشاط الاقتصادي متمثلاً بسوق الخميس وبالمؤسسات العلمية والتجارية والحرفية والمصرفية التي من شأنها أن تجعلها مركز جذبٍ وتمركزٍ ومكانَ قرار.

وهي في تركيبتها السكانية تتوزع على عشرات العائلات المتوسطة والصغيرة والتي تتمحور بدورها حول عائلتين كبيرتين: بزي وبيضون بحيث تقاسمتا وما زالتا تتقاسمان ولاء هذه العائلات ولتشكل كل منهما مع حلفائها كتلةً حزبيةً - تتجاوز بنت جبيل - وتعمل على تأمين حضورها السياسي والاجتماعي والاداري ورعاية مصالحها وتطلعاتها.

هذا الولاء للعائلة ينطلق أساساً من عصبية محكومة بالإنتساب لنفس العشيرة، ومرتبطة بتشابك مصالحها مع العائلات الأخرى عبر القرابة والمصاهرة وتبادل المنافع، وهو ولاء لازم الإنسان بدءاً من أسرته واتسع نطاقه مع تكاثر الأقارب ونموّ العشيرة وتماسك القبيلة.

وعبر تاريخ بنت جبيل استمر آل بزي - بأفخادهم السته - العائلة الكبيرة المحورية التي كانت وما زالت مركزَ القرار والقطبَ الجاذبَ لعدد كبير من العائلات الحليفة بحيث تمكنت عبر الأيام من تأمين الكفّة الراجحة والنتيجة المريحة كما استمر هذا التحالف بمنافعه متيناً ومتماسكاً نظراً للمصاهرة والتشابك والتداخل بينهم وبين هذه الأسر، وبات من النادر أن نرى له استثناءً قد يؤدي في حال حدوثه إلى إلحاق الخارج عن عائلته بالعائلة الخصم تعبيراً عن الاستهجان أو الإدانة "كأنْ يُطلق إسم البزي مثلاً على أحد آل بيضون إذا بدل ولاءه السياسي... (الحاج علي بزي مثلاً).

لهذا كله كان آل بزي يُديرون سياسة بنت جبيل ويربحون ديمقراطياً معاركها الداخلية يحالفهم عادةً آل شرارة وسعد وجمعة وبوصي وفرج ومروّه والصغير وجوني ورضا والعشي...الخ. وفي الناحية الثانية كان يقابلهم في الجانب الآخر العائلة المحورية آل بيضون، القطب المركزي المواجه، ويتحالف معهم آل شامي وحمود

وحمقة وصعب وداغر وحراجلي ودباجة ودخل الله وطرفة (مكة) والحوراني وهيدوس والصباغ وآل أبو عليوي...الخ.

وكان المختار تاريخياً مرآة هذا الصراع ثم أصبحت البلدية وبعدها النيابة مظهر الاختلاف وصورة العراك...أول مختارٍ عيِّنَ أو انتخب في بنت جبيل كان الحاج ديب بيضون يوم كان تعداد سكان البلدة ألفي نسمة، ونظراً للصراع العائلي بين آل بزي وآل بيضون فإن زعماء العائلة الأولى عادوا واختاروا مرشحاً من آل بزي ليكون مختاراً وتمّ اختيار حسين خليل بزي ثم تعاقب على هذا المركز أكثر من مختار منهم سليم مرعي ثم الحاج علي حمود ثم محمد علي بزي[1]... "أما بلدية بنت جبيل فكانت محصورة تقريباً بآل بزي وكان الحاج محمد سعيد قبل الحرب العالمية الأولى أول رئيس بلدية واستمر في عهد الفرنسيين، بعد أحداث سنة ١٩٢٠ مباشرةً تولى رئاسة البلدية نايف الحاج محمد سعيد بزي الذي بقي في بنت جبيل ولم يُهاجرْ مع من هاجر من البلدة، واستمر عدة أشهر يشغل هذا المنصب، وبعد العفو الذي أصدرته فرنسا عن والده وأعمامه وعودتهم إلى البلدة من فلسطين تسلم رئاسة البلدية خلفاً لنايف بزي عمه الحاج عبد الحسين بزي ممثلاً لأخيه الحاج محمد سعيد صاحب النفوذ الأول في البلدة والمنطقة (مصطفى بزي، بنت جبيل حاضرة جبل عامل، ص١١١). ولم تخرج عن نطاق آل بزي ولم تتحول لآل شرارة إلاّ بعد أن تسلم زعامة العائلة علي بزي الذي كانت تربطه علاقات وطيدة بموسى الزين شرارة، إضافة إلى أن هذه العائلة تمثل خؤولته، فوالدته هي بنت الشيخ موسى شرارة، كما أنه شخصياً كان يعمل على خلق نوع من التوازن الجديد في البلدة والذي يعتمد على إرضاء كل العائلات"[2].

وإذا كانت عائلتا بزي وبيضون تتقاسمان وَلاَءَ عائلات بنت جبيل في السياسة ضمن نطاق البلدة فلا يعني ذلك أن هاتين العائلتين لا تتفقان بالضرورة أو أن كل فريق يؤلف مع حلفائه معسكراً معادياً للآخر... إنهم جميعاً أهلٌ وإخوان وأقارب وأصحاب يلتقون ويتزاورون ويتشاركون في الأفراح والأحزان لكنهم إذا تباعدوا سياسياً فليس من شأن هذا الاختلاف أن ينعكس سلباً على علاقاتهم الاجتماعية أو على المصالح المشتركة لبلدتهم، هذا التباين في المواقف من السياسة الداخلية لم ينسحب يوماً على وحدتهما في المواقف الوطنية والقومية والتي كانت تجعل من بنت جبيل وحدة متراصةً متجانسةً

(١) مصطفى بزي، بنت جبيل، حاضرة جبل عامل، ص ٥٣.

(٢) نفس المرجع أعلاه، ص ١١٢.

لا تعرف فرقة ولا اختلافاً... كان عبداللطيف بيضون وعلي بزي - كما كان من سبقهما - يتقدمان المسيرات ويحملان نفس القضية ويلتزمان بالمواقف القومية.

لكن بنت جبيل لا تزال حتى اليوم محكومة - نسبياً وبقدر - بتوازناتها العائلية التي يصعب القفز فوقها؛ وإذا رأينا اليوم تداخلاً في الولاءات واختراقاً للعائلات من التنظيمات والأحزاب فليس معنى ذلك أن العائلية قد توارت وحلّ مكانها مفهوم جديد... صحيح أن حدّة العصبية قد خفت لكن الصحيح أيضاً أنها ما زالت كامنة وقادرة على الظهور عند أي إهتزاز أو استهداف... أو عند أي محاولة لتغييب دور إحدى العائلتين أو الإقدام على المسّ بحساسية التوازن الدقيق داخل البلدة... والانتخابات البلدية الأخيرة والاختراقات التي رافقتها كانت الرد الطبيعي على محاولة الاحتواء أو فرض معايير من شأنها أن تمسّ دقة هذه التوازنات الداخلية... يضاف إلى ذلك أن أي إطلالة كبيرة سياسية في بنت جبيل وفي المنطقة المجاورة تبقى مرهونة بالدرجة الأولى بمدى التأييد الذي توفّرُهُ إحدى هاتين العائلتين واللتين يصعب تجاوزهما في أي ظرف لأنهما الركيزة الكبيرة والأساس الثابت للانطلاق داخل البلدة وخارجها نظراً لما يمكن أن تحشد كلٌ منهما من قوى وإمكانات، وقد يظهر ذلك بوضوح أكثر إذا اعتمدت الدائرة المصغرة وأصبح التمثيل أقرب إلى الواقعية.

أودّ أن أشير أن كثيرين استطاعوا أن يخرجوا من حصار العائلة الموروث وأسر الالتزام المفروض وأحدثوا بمواقعهم المضيئة وجعاً لأهلهم وأقاربهم وربحوا بالمقابل وكسبوا مزيداً من التقدير العام الشامل والإحترام الواسع لدى كل الفئات لكنهم لم يتمكنوا ولم يصلوا إلى إحداث انقسامٍ في عائلاتهم -لأنهم أصلاً لا يهدفون إلى ذلك- ولأن ردة فعل العائلة والمحافظة على تماسكها والإدراك الواعي لمصالحها يبقى العامل الفاعل في استمرار وحدتها وإبراز قوتها وتصغر وتتلاشى وتُحجبُ أمامه الخلافات الصغيرة بين أفرادها.

بنت جبيل والسيد محسن الأمين.

حضر في سنة ١٢٩٨هـ من العراق الشيخ موسى شرارة إلى بنت جبيل، فذهب والدي لزيارته، و عاد وأخبرني عنه وقال: إن الناس تتوافد لزيارته، وذهب شيخنا أيضاً لزيارته.. رجعتُ مرَّة فوجدت الشيخ موسى قد جاء يردّ الزيارة لشيخنا المذكور وهو جالس أمام الدار على مصطبة فأخبروه عني... كان الشيخ موسى قد جاء من العراق بدون أبهة ولا فخفخة ولا دعاية إلى الاستقبال وتهيئة الأسباب لإظهار الجلالة والنبالة... وسعى سعياً حثيثاً في الإصلاحات الدينية... وشرعنا في بنت جبيل في القراءة على السيد نجيب فضل الله الحسني العيناثي وبقيتُ في بنت جبيل إلى سنة ١٣٠٤هـ... وفي شعبان توفي الشيخ موسى شرارة بمرض السلّ الذي كان متمكناً فيه من العراق... ورثيته بقصيدة... وتفرقت الطلبةُ أيدي سبا، وذهب كلٌّ منهم إلى بلدة على العادة المتّبعة في جبل عامل "أن عمر المدرسة ينتهي بعمر صاحبها وربما ماتت في حياته".

هكذا تحدث السيد محسن الأمين عن دراسته الأولى في بنت جبيل، ويكمل مراحل سيرته وسفره إلى سوريا والعراق وصولاً إلى النجف التي أقام فيها عشر سنين ونصف السنة... ليعود بعدها إلى دمشق عالماً مجتهداً، مصلحاً سنة ١٣١٩هـ[١].

"وعزم الفرنسيون على إحداث منصب (رئيس علماء) للشيعة في سوريا ولبنان، وقرروا تعييني لهذا المنصب وأصدروا به مرسوماً اعتقاداً منهم بأنني أقبله بكل إمتنان. فالناس تتوسط للحصول عليه فكيف بمن يأتيه! فقلت للرسول الذي جاء بالكتاب: "قلْ لصاحبه إن هذا الأمر لا أسير إليه بقدم ولا أخط فيه بقلم، ولا أنطق فيه بفم..."

وأصبحت "محلة الخراب" حيث كان يقيم السيد محسن "محلة الأمين" فأنشأ المدارس للبنين والبنات وتهافت عليها الطلاب من جميع الأحياء، لِمَا رأى أولياؤهم من تهذيب أخلاق أولادهم ونجاحهم حتى صار يضطر الحال أحياناً إلى رد طلبهم لضيق المكان... "وزاد أوقافها"[٢] بغية تأمين إيرادات ثابتة لها.

السيد الكبير الذي أطلّ من دمشق هذه الإطلالة المميزة، لم ينقطع عن وطنه ولا عن جبل عامل ولا عن بلدته شقراء... كان زعماء جبل عامل وناسه يزحفون إلى داره

(١) هيثم الأمين وصابرينا ميرفان، سيرة السيد محسن الأمين، دار رياض نجيب الريس.
(٢) نفس المرجع أعلاه، ص ١٨٩.

بنت جبيل والسيد محسن الأمين.

حضر في سنة ١٢٩٨هـ من العراق الشيخ موسى شرارة إلى بنت جبيل، فذهب والدي لزيارته، و عاد وأخبرني عنه وقال: إن الناس تتوافد لزيارته، وذهب شيخنا أيضاً لزيارته.. رجعتُ مرَّة فوجدت الشيخ موسى قد جاء يردّ الزيارة لشيخنا المذكور وهو جالس أمام الدار على مصطبة فأخبروه عني... كان الشيخ موسى قد جاء من العراق بدون أبهة ولا فخفخة ولا دعاية إلى الاستقبال وتهيئة الأسباب لإظهار الجلالة والنبالة... وسعى سعياً حثيثاً في الإصلاحات الدينية... وشرعنا في بنت جبيل في القراءة على السيد نجيب فضل الله الحسني العيناثي وبقيتُ في بنت جبيل إلى سنة ١٣٠٤هـ... وفي شعبان توفي الشيخ موسى شرارة بمرض السلّ الذي كان متمكناً فيه من العراق... ورثيته بقصيدة... وتفرقت الطلبةُ أيدي سبا، وذهب كلٌّ منهم إلى بلدة على العادة المتّبعة في جبل عامل "أن عمر المدرسة ينتهي بعمر صاحبها وربما ماتت في حياته".

هكذا تحدث السيد محسن الأمين عن دراسته الأولى في بنت جبيل، ويكمل مراحل سيرته وسفره إلى سوريا والعراق وصولاً إلى النجف التي أقام فيها عشر سنين ونصف السنة... ليعود بعدها إلى دمشق عالماً مجتهداً، مصلحاً سنة ١٣١٩هـ(١).

"وعزم الفرنسيون على إحداث منصب (رئيس علماء) للشيعة في سوريا ولبنان، وقرروا تعييني لهذا المنصب وأصدروا به مرسوماً اعتقاداً منهم بأنني أقبله بكل إمتنان. فالناس تتوسط للحصول عليه فكيف بمن يأتيه! فقلت للرسول الذي جاء بالكتاب: "قلْ لصاحبه إن هذا الأمر لا أسير إليه بقدم ولا أخط فيه بقلم، ولا أنطق فيه بفم..."

وأصبحت "محلة الخراب" حيث كان يقيم السيد محسن "محلة الأمين" فأنشأ المدارس للبنين والبنات وتهافت عليها الطلاب من جميع الأحياء، لِمَا رأى أولياؤهم من تهذيب أخلاق أولادهم ونجاحهم حتى صار يضطر الحال أحياناً إلى رد طلبهم لضيق المكان... "وزاد أوقافها"(٢) بغية تأمين إيرادات ثابتة لها.

السيد الكبير الذي أطلّ من دمشق هذه الإطلالة المميزة، لم ينقطع عن وطنه ولا عن جبل عامل ولا عن بلدته شقراء... كان زعماء جبل عامل وناسه يزحفون إلى داره

(١) هيثم الأمين وصابرينا ميرفان، سيرة السيد محسن الأمين، دار رياض نجيب الريس.

(٢) نفس المرجع أعلاه، ص ١٨٩.

أبيك كانت تزدحم الأمكنة داخل الجامع وفي باحاته... حتى الشباب الذين يتخلفون عادة أو لا يتعبدون... كان يطيب لهم ويرتاحون ويسعدون أن يصلّوا وراء أبيك!!...(*).

كان حضوره إلى بنت جبيل حَدَثاً... ولم يكن يوماً هو، وأبناؤه بالنسبة لها - شيوخاً وشباباً - إلا في مهجة القلب وسواد العين، وتكاد تحسّ أن في توهّج بنت جبيل شيئاً من روح التجديد التي اختص بها السيد الكبير... وكانت شقراء على الدوام بالنسبة لجبل عامل إحدى المنارات السامقة التي تهب النور والضياء...

هي كما صوّرها إبن بنت جبيل الشاعر ابراهيم شرارة:

... لي وقفةٌ في ذرى "شقراء" مُشْرِفةٌ   على النعيمِ الذي تُوفى له النُّذُرُ
مهدِ المروءات مهدِ الساهرين على   صحائفِ العُرْبِ والتاريخُ مزدهرُ
...شقراءُ شمسُ الألى دارتْ شموسُهُمُ   ونالَ مجدَ سناها البدْوُ والحَضَرُ
شقراءُ، أيُّ نضارٍ ضنَّ مالكه   به، وقد قَلَّبَتْهُ كفٌّ من خَبروا!!
أنا اغتنيتُ بها، قَبَّلْتُ تربتَها   كما يُقَبِّلُ من زوّارِه الحَجَرُ!!!

* * * *

شقراءُ أيَّ القوافي أنتقي، ويدي   غَصَّتْ، وفاضَتْ بها الآثارُ والسِّيَرُ
لآلئاً تشتهي الأصدافُ لؤلؤةً   منها، وتَخْجَلُ من أصدافها الدُّرَرُ
هنا أفاقت بطونُ الكُتْبِ مُشْرَعةً   بها العمائمُ والأقلامُ والفكرُ
"كمحسنٍ" والمصابيحِ التي سَطَعَتْ   فنُوِّرَتْ من سناها الأنجمُ الزُّهَرُ
في كل يومٍ كعرسِ الشمس نقرأُها   رسائلاً، ثم يَذْوي في الدجى العُمُرُ
ونحنُ نمضي وتبقى الشمس عالقةً   على الضحى، والضحى يجري وينتشرُ!!

* * * *

(*) مقابلة مع السيد حسن الأمين بتاريخ ١١ نيسان ٢٠٠٢.

مقاربة داخلية في بنت جبيل

- الحاج محمد سعيد بزي -

أود هنا أن أقارب شخصية زعيم بنت جبيل منذ الرُّبع الأخير من القرن التاسع عشر وحتى أربعينات القرن العشرين، الحاج محمد سعيد بزي، الذي رافق الأحداث التي عصفت بجبل عامل عامة وفي بلدته ونطاقها خاصة خلال فترة جمال باشا وأيام سفربرلك ثم في أيام الملك فيصل في دمشق وطيلة عهد الانتداب.

في الصفحة ٧١٩ من كتابه (من حقيبتي التاريخية) يورد السيد حكمت بزي (حفيد الحاج محمد سعيد) المعلومات التالية "كان الحاج محمود قاسم بزي ملاكاً كبيراً ووجيهاً بارزاً في عائلته، وبالتالي في بنت جبيل وجوارها، وقد رزق بأحَدَ عَشَرَ ولداً خمسة ذكور، وست إناث، عمل على تنشئتهم على الأخلاق الفاضلة، والسيرة الحميدة ومخافة الله وترك لهم عند وفاته سنة ١٨٨٠م ملكيةً واسعةً وجاهاً عريضاً... وقد لحق به بعد خمس سنوات ابنه البكر أحمد... فانتقلت وراثة هذه المكانة الاجتماعية والسياسية إلى ولده محمد سعيد، وهو يومئذ في الخامسة والعشرين من عمره (مولود سنة ١٨٦٠).

وكان الحاج محمد سعيد منذ صغره ذكياً قوي الشخصية وصاحب إطلالة ومهابة وعقل راجح... وقد وفَّر له موقفُ كبيرِ العائلة الحاج سليمان بزي منه إجماعاً وتأييداً ساعداه على تثبيت زعامته، وأهلته كفاءتُه أن يصبح عضواً في محكمة مرجعيون ثم رئيساً لهذه المحكمة[١] واستمر بالإضافة إلى ذلك في رعاية شؤون إخوانه وأخواته وأملاك المرحوم والده، وإدارة شؤون البلدة وناسها والتعارف مع وجوه المنطقة وعائلاتها ومع علماء الدين الأعلام داخل بنت جبيل وخارجها فبنى علاقات معروفة وصداقة ومودة وتفاهم مع الجميع، ووطّد علاقاته مع آل العبدالله في الخيام وصاهر زعيمهم الحاج إبراهيم وكما وطد علاقاته مع كامل الأسعد ورياض الصلح والحاج اسماعيل الخليل وعبد الكريم الخليل وآل عسيران وآل الزين وآل صادق (صاهرهم لاحقاً) وآل فضل الله وآل فرحات وآل الأمين وآل فواز وآل برّي وآل خليفة وغيرهم من العائلات في المنطقة وخارجها[٢].

(١) حكمت بزي (من حقيبتي التاريخية) (جبل عامل في تاريخه وقصصه التاريخية) مشيغن ١٩٩٨، ص ٧٢١ و٧٢٢.
(٢) نفس المصدر المشار إليه أعلاه.

يورد د. مصطفى بزي في الصفحة ٤٩٠ من كتابه بنت جبيل حاضرة جبل عامل.

"في مطلع القرن كان نجم الحاج محمد سعيد الحاج قاسم بزي قد بدأ يسطع، وكان يرتبط بصداقة قوية ومتينة مع كامل بك الأسعد، ويعتبر الساعد الأيمن له في جبل عامل، وقد تبوأ عضوية محكمة مرجعيون ورئاسة محكمة صيدا وبعد أن استقال من الوظيفة وتفرغ للزعامة حيث كان من الشخصيات المهمة على صعيد جبل عامل وارتبط بعلاقات وثيقة مع وجهاء شمال فلسطين".

وقد برز نشاط الحاج محمد سعيد واضحاً في جمعية الاتحاد والترقي بعد أن أطيح بالسلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩، وكان من أوائل المنتسبين لها وعمل جاهداً مع كامل الأسعد حتى أقنعه بالانضمام إلى هذه الجمعية.

وفي الانتخابات التي جرت لأعضاء مجلس (المبعوثان) في العهد الجديد بعد إعلان الدستور قرر الوجهاء في جبل عامل وفي اجتماع عقد في بنت جبيل حضره بالإضافة للحاج محمد سعيد وأخويه الحاج عبد الحسين وعبد الحميد، كل من الحاج اسماعيل الخليل والحاج محمد حسن العبد الله وعبدالله يحيى الخليل، والحاج موسى بيضون وخليل فرحات، ومحمد حسين فرحات وغيرهم، قرر المجتمعون فيه تأييد رضا بك الصلح ضد منافسه سليم علي سلام، ولم يكن كامل بك الأسعد وقتها مطروحاً للترشيح، إلا أن اسمه طُرح بعد هذا الاجتماع، وعُقد اجتماع آخر في صور تقرر فيه ترشيح كامل الأسعد لهذا المنصب بتأييد من السُلطة، وعندما دعا جمال باشا أعيان جبل عامل للاستماع لآرائهم كان الحاج محمد سعيد في طليعتهم[1].

في هذه الفترة كان عبد الكريم الخليل ينشط لإيصال أفكاره وآرائه إلى حواضر جبل عامل، فزار عدة بلدان وقابل عدداً من الوجهاء، وكان جمال باشا قد أخذ يتوجس خيفةً منه، ويخامرُهُ الشك في تصرفاته... فأخبره بعض الوشاة بتنقلات واتصالات عبد الكريم الخليل، وأطلعوه على نشاطاته، فاعتقل كلاً من: الحاج محمد سعيد بزي، والحاج اسماعيل الخليل، والحاج عبد الله يحيى، والشيخ سليمان ظاهر، والشيخ أحمد رضا، ومحمد جابر آل صفا، وكبير عائلة الحاج علي، والشيخ أحمد عارف الزين والشيخ عبد الكريم الزين، وبالتحديد كُل من كان عبد الكريم الخليل زارهم...

وعندما أُلقي القبض على عبد الكريم الخليل وجرت التحقيقات اللازمة وكُشِفَت

(١) مصطفى بزي، "بنت جبيل حاضرة جبل عامل" ص. ٤٩١.

الحقائق، أطلق سراح المُعتقلين...ثم حكم عليه بالإعدام مع عدد من رفاقه عُلِّقوا في ساحة الشهداء في بيروت... وفي مرحلة ثانية في ساحة المرجة في دمشق... إلا أن المرحلة الثالثة من الأحكام لم تُنفّذ وكان من بين محكوميها فايز الخوري، وشكري القوتلي، وشكري الأيوبي، نظراً لأن قوات الشريف حسين كانت أسرت أعداداً كبيرة من الجنود الاتراك ومن كل الرُتب، فأرسل الشريف تحذيراً إلى الأتراك بواسطة السفير الأميركي بأنهم إذا استمروا في مطاردة ومحاكمة وإعدام أحرار العرب فإن قواته سوف تجد نفسها مضطرة لإعدام كل الأسرى الأتراك، وهكذا رأى السفاح جمال باشا نفسه مُكرهاً على وقف سلسلة إعداماته وإعادة النظر بقراراته[1].

خرج الحاج محمد سعيد من الاعتقال وقد تجذرت زعامته، وتكرس موقعه، وأصبح صاحب القرار في منطقته، وكثيراً ما عمل بالتنسيق والتحالف مع كامل الأسعد لا سيما في المواقف الكبيرة.

بعد دخول الأمير فيصل دمشق في ١٨ تشرين الأول سنة ١٩١٨(وكانت طلائع جيشه قد وصلت إلى دمشق في أول/١٠/١٩١٨) لم يتأخر العامليون عن مبايعته في اجتماع كبير عقد في الطيبة بتاريخ ٥ تشرين الأول ١٩١٨ بناءً على دعوة الزعيم الوائلي وتقرر فيه الاتفاق على الاستقلال العربي ومبايعة الشريف حسين والطاعة للملك فيصل.[2]

كان أهالي بنت جبيل متحمسين جداً لهذا الحدث الكبير، وجرت مظاهرةُ تأييدٍ كانوا يهتفون فيها:

بفيصل سيدِ العربِ بلغْنا غايةَ الأرَبِ
بلغنا الغايةَ القصوى معَ استقلالنا العربي

كانت الجيوش الفرنسية في هذه الفترة منتشرة على ساحل جبل عامل وفي جزين ومرجعيون، ولم تكن موجودة في العمق العاملي، الذي أصبح فعلاً وواقعاً بلا سلطة مركزية انتظاراً لما سوف تُسفر عنه الأحداث وتبعاً للخطط المرسومة السريِّ منها والمعلن.

في دمشق كان الأمير فيصل يعمل على تركيز سلطته بعد أن انضمت إليه طليعة

(١) مقابلة مع السيد حسن الأمين، بتاريخ ٢٠٠٢/٤/١١.
(٢) مصطفى بزي، بنت جبيل حاضرة جبل عامل، ص ٤٩٣.

الشباب العربي من مختلف الأصقاع، بينما راح الإنكليز والفرنسيون يعملون على إجهاض هذا الحلم العربي لتقسيم المنطقة بينهما خاصة وأن وزير خارجية بريطانيا كان أصدر وعداً سُمي باسمه (وعد بلفور في ١٩١٧/١١/٢) لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، كما عمل الفرنسيون على إعداد خطة لإحداث فتن داخلية تمهيداً لإسقاط حكم الملك فيصل في دمشق ولإعلان وتكريس دولة لبنان الكبير.

وهكذا فالعمل على قيام دولة لبنان الكبير وضم الأقضية الأربعة لم يُغير واقع ارتباط هذه الأقضية مع سوريا ولا الروابط الاقتصادية والتاريخية بفلسطين، وتمثلت ردة الفعل على ضم جبل عامل إلى الدولة اللبنانية بمعارضة سياسية ومعارضة عسكرية وبروز عصابات ومجموعات انتشرت في معظم مناطق هذا الجبل، قابلتها من جهة ثانية عصابات ومجموعات مسيحية عمل الفرنسيون على إنشائها وتشجيعها وتمويلها للاستعانة بها والاستفادة منها عند اللزوم... وكان مؤتمر الحجير في١٩٢٠/٥/٢٤، واجتماع بركة كونين في ١٩٢٠/٥/٥ ونكبة عين إبل وتهجير بنت جبيل وحملة نيجر محاولات - بشكل أو بآخر - لإخضاع جبل عامل وإجباره على التكيف مع الواقع الجديد.

تلك الفتنة الطائفية التي أُعدت بعناية كانت لها مقدماتها وأسبابها ونتائجها... العمق العاملي كان بدون سلطة، مسرحاً لعدد من العصابات، وميداناً لشتى أنواع التعديات كما أن النفوس كانت مهيأة للتناحر والتقاتل، نتيجة لممارسات طالت المقدسات، وإشاعات انتشرت كالنار في الهشيم، تتناول استعدادات لاقتلاع مجموعات معينة وتهجيرها والاقتصاص منها... هو المخطط ذاته في كل زمان ومكان لخلخلة التماسك الداخلي في المجتمع وإثارة العصبيات واستنفار عمى التعصب لإذكاء روح التنازع بين الناس تمهيداً للاقتتال والتذابح.

في تلك الأيام كان الزعماء المحليون يُدركون فواجع الخطر الداهم... حاول كامل بك الأسعد والحاج محمد سعيد بزي وسواهما أن يتلافوا ويتداركوا نُذُر العاصفة القادمة، لكن الأجواء المشحونة بعد مؤتمر الحجير واستثارة واستنفار المشاعر الدينية بالإضافة إلى الإشاعات المسمومة والدعايات الكاذبة والتصرفات المشبوهة ساهم في إذكاء حُمى التعصب، وهيأت مسرح الأحداث للاستفزازات المتبادلة، وسعّرت نيران الفتنة وأخرجت بالتالي مُعالجة القضية من أيدي العُقلاء والزعماء، فالتقطها

المُتحمسون المتهورون واندفعوا بوعي أو بدون وعي كالمجانين يُنفذون المؤامرة محكومين بعمى تعصبهم وعَنَتِ جهلهم.

يوم ٥ أيار سنة ١٩٢٠ وقبل ساعات من بدء الهجوم على عين إبل كان الحاج محمد سعيد قد أرسل أخويه عبد الحسين وعبد الحميد إلى بركة كونين ليثني المجتمعين عن أي عمل طائش وترك معالجة الأمر للعقلاء.... فلم يستجبْ أحدٌ لطلبه وأُطلقَتِ النارُ بين رجلي أخيه عبد الحميد وكان ما كان..!! كانت عين إبل الضحية الأولى وكانت بنت جبيل الضحية الثانية، وكان جبل عامل - كُل جبل - عامل الضحية الكبيرة.

هاجر أو أُكره أهالي بنت جبيل على الهجرة، ضربت البلدة بالطيران وأحرقت معظم بيوتها، وكان الحاج محمد سعيد ووجهاء بنت جبيل بين المهاجرين والمهجَّرين لا فرق في ذلك، ذهب إلى القنيطرة حاضرة الجولان واتصل من هناك بالسيد محسن الأمين في دمشق ووافاه إليها واستقر فيها لبعض الوقت... ثم انتقل بعد سقوط الحكم الفيصلي إلى فلسطين.. وصدرت أحكام بالإعدام على كثيرين وفي طليعتهم كامل الأسعد والحاج محمد سعيد وأخواه عبد الحسين وعبد الحميد وصهرهم الحاج فياض شرارة، ... وها هو الحاج محمد سعيد يُحمَّل نتائج وأوزار أعمالٍ مشبوهةٍ عارَضَها بعناد ووقَفَ ضدها وأدانَها وأسِفَ لحدوثها، وهو الذي سبق أن قال لوفدٍ من أهالي عين إبل بعد انفضاض مؤتمر الحجير في ٢٤/نيسان /١٩٢٠ "إذا حدث شيءٌ افتديناكم بالأرواح". علماً أن الغاية من عقد هذا المؤتمر كان لإراحة البلاد وليس لإثارة فتن طائفية.

وكانت حملة نيجر على أهالي جبل عامل محاولةً للانتقام منهم وتصميماً على إهانتهم وإذلالهم توصلاً إلى فرض الخوات والغرامات وسعياً إلى اعتماد سياسة التمييز والحرمان وبث سموم الحقد والكراهية والتسلط والظلم... كما كانت استباحةً للكرامات وحملةَ تأديبٍ وحقدٍ أسّسَتْ لحرمانٍ طويل لن تتأخر تداعياتُه التي سوف تطال الوطن بأكمله في زمنٍ لاحق. وهكذا أعطتْ الخطة المرسومة أُكُلَها واستبيح جبل عامل وأُعلن ضمه إلى الدولة الناشئة... إلى لبنان الكبير.

ورأت السلطة المنتدبة لتأمين جو من الهدوء والثقة أن تُصدر عفواً عن المحكومين وتسمح لهم بالعودة إلى البلاد...

وعاد الحاج محمد سعيد بزي - كما عاد رفاقه - ومارس من جديد دوره كزعيم

وكرئيس لبلدية بنت جبيل، ورجعت دورة الحياة من جديد، وراحت العلاقات تتحسن بين المسلمين والمسيحيين وتسير نحو التطبيع وتناسي ما حدث.

لكن بنت جبيل استمرت أسوة بجميع حواضر جبل عامل وقراه تطالب بالوحدة مع سوريا - فهي لم تنسَ تاريخها. وحاولت السلطة المنتدبة عبثاً خلق تيار فاعل في جبل عامل يأتلف مع الأمر الواقع والكيان الجديد.

... في أوائل العقد الثالث كانت بنت جبيل تشهد تكوّن تيّار ناشئ يدعو إلى استمرار العمل في سبيل الوحدة مع سوريا ورفض الانتداب يتصدره علي بزي وموسى الزين شرارة والحاج علي بيضون وحسن فياض شرارة وأنيس إيراني، بالإضافة إلى شباب متحمسين مندفعين يحملون تطلعات جديدةً وأفكاراً إصلاحيةً كمحاربة الانتداب والثورة على الظلم والتزمّت والتخلف وتحريرٍ المرأة وتعليمها والتصدي لكل معوقات التقدم.. هذا التيار الناشئ شكل بالواقع نهجاً جديداً في بنت جبيل وتأثر بالأفكار التنويرية التي كانت تتداول وتطرح وتناقش في بيت الشيخ علي شرارة، الذي كان بمثابة النادي الأدبي أو المقرّ السياسي لهؤلاء الشباب... كان أبناء الشيخ علي شرارة محمد وحسين وجواد وعبد اللطيف ورفاقهم موسى الزين شرارة وحسين مروة، وحسن فياض شرارة، والحاج علي بيضون، والشيخ مُحسن شرارة والشيخ علي الزين، ومجموعة من الرفاق المتنورين المتحمسين يلتقون باستمرار... يحلمون كثيراً ويحملون كثيراً من الطموحات الوطنية والسياسية والأفكار التجديدية، وقد كوّنوا واقعاً وفعلاً شلةً مميّزة تلتقي في هذا النادي السياسي الأدبي الاجتماعي، الذي استطاع هزّ ركود الحياة في بنت جبيل والجوار، وخلق جوٍ من التواصل مع محيطه وكذلك مع حركة التجديد الأدبي في النجف... كان له ما بعده... كان البشارة الواعدة بالصباح الآتي الذي سيُوقظ نياماً ويفتح عيوناً ويخلق وعياً.

وكان الحاج محمد سعيد بزي بثاقب نظره وحكمته يدرك أن هذه الحركة وإن كانت تمثّل نبض الشارع وتحمل مُثُلاً كثيرة وقضايا وهموماً كبيرة فإنها في نفس الوقت أضحت مع السلطة المنتدبة في وضع مختلف... بمعنى آخر أصبحت بعض مطالبها صعبة التحقيق (كالوحدة مع سوريا) وأصبح بعضها الآخر مرهوناً بتضحيات كبيرة ونضال سياسي طويل، وهذا العمل ليس مقصوراً على بنت جبيل وليس من شأنه أن يُشكل تحدياً داخلياً... إذاً فليس هناك ما يُقلق أو يحول دون وجود هذا التيار... إن

ساحة بنت جبيل يمكن أن تستوعب كل هذه الاتجاهات والأفكار وإن اختلاف الرأي لا ينتج بالضرورة خصاماً وانقساماً ولا يهدف إلى فتح معركة أو إلى تفتيت العائلات وخلق محاور تتقاتل فيما بينها.. هكذا فهم الحاج محمد سعيد تيار الشباب، ومن هذا المنطلق كان الشباب يعرفون أين يصوّبون... ما يطمحون إليه ليس محصوراً في بنت جبيل - وإن تكن تمثل إحدى محطاته - فالمُشكلة أكبر من ذلك، هي مشكلة عامة تُطاول جبل عامل وتتعداه على امتداد مساحة الوطن.

وكان الحاج محمد سعيد بزي يُدرك تماماً أهمية العلم وقد بذل جهداً كبيراً لتعليم أبنائه كما كان يُكنُّ تقديراً واحتراماً لطلائع شباب البلدة الذين راحوا يتابعون دراستهم خارج بنت جبيل، كان يزورهم ويتفقدهم عندما يعودون إلى بلدهم لقضاء إجازاتهم... يذكر الدكتور اسماعيل عباس[1] أنه كان يدرس في نهاية - العقد الثالث من القرن المنصرم - في صيدا مع رفاقه عبد اللطيف سعد وفايز بيضون، وعلي الشيخ عبد الكريم شرارة، ويتذكر أنه عندما كان يحضر إلى البلدة خلال فرصته المدرسية كان الحاج الزعيم يزوره وهو لا يزال يافعاً تعبيراً عن تقديره له ولطموحه وللعلم الذي يحصله ويستطرد الدكتور اسماعيل إن بعضهم جاء يوماً إلى الحاج يشكو الشباب - علي بزي وبعض رفاقه - وينسب لهم كلاماً يحمل تجريحاً بالحاج، وعندما استنكر أحد أخوته ذلك وعرّض بهم؛ غضب الحاج وثار وامتدح علي بزي ونوّه بأخلاقه وقال أنه يتوقع له مستقبلاً زاهراً.

كما ذكر الدكتور اسماعيل نقلاً عن موسى الزين شرارة الذي كان أحد أعضاء البلدية مع الحاج محمد سعيد، عندما كان رئيساً للبلدية أن بيتشكوف عندما زار بنت جبيل أقامت له البلدية حفلة غداء بهذه المناسبة، واشترت الصحون اللازمة وأدوات الطعام... وفي أول جلسة عُقدت بعدها رفض الحاج أن يُحمِّلَ البلدية النفقات ودفعها وحيداً من ماله الخاص علماً أن الحاج كان ملاكاً ولكنه لم يكن ميسوراً بمفهوم السيولة النقدية... كان يستدين من أخيه الحاج عبدالحسين وعندما لا يقدر على التسديد يتنازل له عن أملاك مُقابل الدين.

وإذا كان الحاج الزعيم بحُكم موقعه الاجتماعي المحترم غير بعيد عن السلطة السياسية ، وقريباً منها، فإنه لم يكن مقرَّباً منها ولا موالياً أو مؤيداً دون تحفظ ولم

---

(١) مقابلة بتاريخ ٢٠٠٢/٣/١٨.

يلوّث نفسه بأي تصرف خاطئ... كانت له قناعاته الثابتة ومواقفه الحكيمة وحساباته التي تتميز ببعد النظر.

وكان الحاج محمد سعيد زعيماً مُتسامحاً لا يعرف الحقد، ويترفع عن الانتقام... فقد حاول أحدهم اغتياله بمحدلة حجرية دحرجها عن السطح من فوق بوابة داره لتقع عليه وهو يدخل بيته، فأخطأهُ، وبسببٍ استنكار هذا العمل وما أحدثه من هياج واضطراب تحركت السلطة وعرضت على الحاج توقيف ومعاقبة الفاعل والمحرضين والمتدخلين، وتهديم منازلهم، فرفض الحاج ذلك بحزم، قائلاً: "إنهم جميعاً أولادي... ولا يُمكن أن أقبل إلحاق أي أذى وضرر بأحدهم، إنهم جَهَلَةٌ لا أكثر ولا بُدَّ لهم من العودة إلى الرُشْد"(١)

أما في الموقع السياسي العام خارج النطاق البلدي والمناطقي فقد كان الحاج محمد سعيد رجلاً وطنياً عربي الالتزام، واضح الأهداف، وهو من القلائل الذين رفضوا بيع ما يملكون في أراضي الحولة للوكالة اليهودية.... وقد كان على اتفاق مُسبق مع الحاج أمين الحُسيني وإميل الخوري، وأحمد حلمي باشا لبيعهم حصته وقد رفض لاحقاً قبض ثمن حصته التي زوروا صك بيعها عنه، وأقام دعوى إبطال لدى المحاكم المشتركة في حينه ولأسباب مشبوهة ومداخلات كبيرة – تعدّت نِطاق الوطن– لم يصدر حكم لمصلحته، وقد أشارت مجلة الحرية في عددها ٩٨١ تاريخ ٨ أيلول ١٩٨٠، إلى ذلك... وعندما زار الحاج محمد سعيد القُدس بدعوة من الهيئة العربية العُليا في فلسطين، وقّع سجل التشريفات وسجّل فيه تنازله عمّا يملك للأمة العربية.

قبل وفاته جمع وجوه العائلة وأرسل بطلب علي بزي (أبا هاني) وأوصاهم به خيراً ليعتمدوه زعيماً للعائلة، لأنه الوحيد المؤهل لهذه المهمة والمحافظة على مصالح البلدة والمنطقة ورعاية شؤون الناس بالحكمة والاهتمام اللازم. وقد سبق للوزير والسفير والنائب السابق أن قال: "الحاج محمد سعيد رجل عظيم يحب أن يُكْتَبَ تاريخه....".

في حفلة تأبين الحاج محمد سعيد وقف الدكتور اسماعيل عباس مقيِّماً صفاتِهِ ونُبْلَهُ، ومشيداً بعقله الراجح وبعد نظره وحكمته وهدوئه واستيعابه لاختلاف الآراء بين القديم والجديد، وعندما انتهى من إلقاء كلمته اعتلى علي بزي المنبر فأكد ما اورده الدكتور اسماعيل واسترسل مُنَوِّهاً بمواقف الحاج وأخلاقه وعظيم صفاته(٢) .

---

(١) مصطفى بزي، بنت جبيل حاضرة جبل عامل، ص ٥٧٩.

(٢) نفس المقابلة مع د. اسماعيل عباس في ٢٠٠٢/٣/١٨.

من الناحية الدينية كان الحاج مؤمناً وملتزماً دينياً يحترم العلماء ويجلهم، ويقدر المواقع التي يشغلونها ويطبق الأحكام التي يصدرونها على نفسه قبل غيره... وحدث مرة أن اشتكاه نفر من المزارعين يعملون في ممتلكاته لدى العلامة السيد محسن الأمين... فلم يغضب، ولم يحقد، ومثل أمام السيد كمدعى عليه وناقش طلباتهم ودافع عن نفسه وأظهر الحقيقة... - روى ذلك السيد حسن الأمين الذي نوّه بتواضع الحاج وعلوّ خُلُقه وتدينه - علماً أنه كان بوسعه أن يقمعهم أو يطردهم... ويستطرد السيد حسن إن الحاج كان رجلاً كبيراً يعرف كيف يحافظ على كرامته، جديراً بكل تقدير واحترام وكثيراً ما ظُلم في حياته من معظم الفرقاء وتحمل الإساءات بصبرٍ وكبرياء متجاوزاً آلامه النفسية ومتعالياً عن صغارات الحاقدين ودناءات الحاسدين والمنافقين ذوي النفوس المريضة.

يبقى أن أشير إلى أن العمل في الحقل العام - خدمة الناس وتأمين مصالحهم - هو عمل عاقّ قلما يلقى الصدى اللازم، أو التقدير المتناسب مع الجهد المبذول، أو التضحية المطلوبة، والنفس الإنسانية مفطورة على الجحود والنسيان والتنكر للخير.

إنها مأساة الشُرفاء تتكرر مع مرور الأيام، ويبقى علينا أن لا نبخس الناس أشياءهم.

لَنْ أقولَ وداعاً

ويا أبا عدنان

صَدِّقْني أنني أضعتُ مقياسَ الزمان وحدودَ المكان لدُنْ أخَذْتني معكَ في رحلة غَمَرَتني فيها فرحُ الأطفال، وألْهَبَني ظَمأُ العُطاشى، وراودَني نَهَمُ الطامحين، فما خبَّأتَ عني هناءً ولا حَجَبْتَ رياً أو بخُلْتَ بعطاء!!...

مَعَك كُنْتُ، مشدوداً إليكَ، مأخوذاً في دُوارٍ حميمٍ، فيه وَلَهُ العاشقين، وَوَجْدُ المحبّين، وانتشاءُ السُّكارى وقد ارتحلوا بعيداً واختاروا ضياعَهَمُ المنشودَ وتمنّوا لو أنهم لا يستفيقون ولا يصحون!!

كَمْ هو لذيذٌ ومريحٌ - وأنا أتبعكَ مَشُوقاً وألهثُ وراءك فرِحاً - وأنتَ تَتَنَقَّلُ حيثُ يطيبُ لك السفر، ويحلو المُقام، تنتقي سُمّاركَ، وتختارُ ندامَاك، وتنسى متاعب الناس، وصَخَبَ الحياة، ودورانَ الأرض، وأنت - في جنون غيابك - مليكٌ يُسَيِّر العباد.

دعِ السوداءَ واشربْ بنتَ كرمٍ	معتَّقةً وَعَتَّ في الدنّ عادا
تراني حين أشربُها مليكاً	أسيِّرُ كيفَما شئتُ - العبادا
فأسلو المزعجاتِ وكلَّ خطبٍ	بدنيانا، وقد أسلو المعادا!!
وأُمْعِنُ في جنوني، لا أُبالي	ولا أخشى ملاماً وانْتقادا

ذلك العالمُ الذي أخذْتَني إليه، أنساني نفْسي، فرأيتُني معك أُواكِبُكَ -ولمّا أولدْ بعد- وتستعيدُ وأستعيدُ وإيّاك مُعاناةَ يُتمك، وأياماً سوداءَ يتوالدُ شجنُها ويرينُ أساها وتنبعثُ آلامُها حتى الغثيان!!

مُعذَّبةً طفولتُكَ كانتْ، حزينةً أيامُها، مُوجعَةً ذكرياتُها... وقد حَفَرَتْ عميقاً في نفسك، لكنّكَ بَدَلَ أن تتشاءم "أخذَك فرحٌ غامرٌ - يقول صديقُكَ حسين مروه - رافَقَ خُبزَك اليومي... كان غذاءَ قلبك وطبعِك وجسدِك معاً حتى صِرْتَ أنتَ ذاتَكَ الفرَحَ...

جاءَكَ الفرحُ من وجهِ كونِكَ التوأمَ الطبيعيَّ لفرحِ الحياة أولاً، ومن وجهِ كونه شكلاً للعلاقة بينك وبين وطنك وشعبك ثانياً... وباتَ الشاعرُ الّذي فيك ضاحكاً أبداً حتى مع وجع الجُرح وعضةِ المأساة[1].

... ولمّا أنْ رأيْتُ الدَّهر بغياً ... إلى حربي بلا سبب تطوَّعْ
لَبِسْتُ له متينَ الصبر درعاً ... وقلتُ له: ألاَ ما شِئْتَ فاصنعْ
فزدْ يا دهرُ بالنَّكَبَاتِ إنّي ... أُقابلُها بصدرٍ منكَ أوسعْ
وجرِّدْ ما استطعتَ من الرزايا ... فخصمُكَ من عرينِ الليث أمنعْ
أأجْزَعُ يا زمانُ وذا شبابي ... بصهباءِ المُنى ما زالَ مُترَعْ
سأبلُغُ ما أُريدُ من المعالي ... وأترُكُ عينَكَ الحمراءَ تدمعْ!!!

... وذلك الدهر الذي تطوّع لحربك كان الصورةَ العاكسَةَ لما كُتِب عليك، هو قَدَرُكَ عندما فَقَدْتَ أباكَ ولمّا تزلْ طفلاً، وهو رَجْعُ نواح أُمِّك في ظُلمات الليل وقد أرهَقَها الوجعُ وقرَّح عينيْها رحيلُ أبيك... هي خائفةٌ عليكَ تُحاول أن تراكَ وتتلمَّسَكَ وتشُدَّك إليها، ولا تعرفُ كيف تدفع عنك غوائل الأيام... وأنت غيرُ بعيدٍ عنها، غفوتَ على حُدائها وتشبَّثْتَ بيدها... أتُراك منذ ذلك اليوم كُنتَ تتغذى على الآلام التي عِشْتَها وترقَّبْتَها وغنّيْتَ لها وشدَوْتَ:

الفقرُ والبؤسُ والآلامُ تَغْذِيَةٌ ... للشاعرين... فعذبْ واسْمعِ الغُررَا
لَوْ لم يُصب بالعمى والبؤسِ صاحِبُهُمْ ... أبو العلاءِ لَمَا جلَّى ولا ابتكرا
الشعرُ كالجَوْز لا يُعطيكَ مُهْجَتَهُ ... ولا ترى قلبَهُ إلا إذا انْكَسَرا

البيت الأخير كان يعني لك الكثير، كان عزيزاً على قلبك، قريباً إلى روحك... طالما ردّدْتَهُ وأحْبَبْتَ أن يَفْهَمَ المُستمع معناه... معنى الفرح اللذيذِ عندما يُولَدُ من وَجَعِ المُعاناة، ومعنى السعادةِ الغامرَةِ عندما تُولدُ من رحم الآلام!

يومَها قبِلْتَ تحدّي الأيام التي حاربتْك ظلماً، فصمَّمْتَ على المواجهة وتصديْتَ لها وقابلتَ مصاعبها وهزئْتَ من غضبها وأَبَيْتَ أن تخضَعَ لغيرِ ربِّك... ورافَقَكَ هذا العنفوانُ، ورُحْتَ تزدادُ توهّجاً كُلَّما حاول الانتدابُ أن يتعرضَ لوطنكَ وأهلكَ، أو حاول

---

(١) جريدة النداء ١٤/٩/١٩٨٦

أتباعهُ من الساسة إذلالَ النّاس أو هادنَتْ فئةٌ من رجال الدين جَوْرَ الظالمين حتى التبسَ أمرُ هذا السكوت على البسطاء فظنوا أن ذلك من صُلب الدين مكتوبٌ عليهم ومقدَّر.

... حُماةَ الدين إنّ الدين عدلٌ — يعادي كلَّ طاغيةٍ وجائرْ
عَلامَ يثورُ ثائرُكُمْ إذا ما — على الطغيانِ منّا ثار ثائرْ
لقدْ حسِبَ السَّوادُ وقدْ رآكُمْ — لأهلِ الجورِ داعيةً وناصرْ
بأنّ ولاءَ أهلِ الجورِ دِينٌ — وأن قتالَهُمْ إحدى الكبائرْ

يومئذ رَثَيْتَ لحال هؤلاء البسطاء الطيبين، أشْفَقْتَ عليهم وهم يتعبون ويعرقون ويكدحون، وهم راسفون في جهلهم وتَخَلُّفِهِمْ وسُباتِهِمْ.

يُسقى أخو الإقطاع رشْحَ جباهِهِمْ — بِنْتَ الكُرُومِ، ويشربونَ وُحولا
ربٌ وإن باعَ اليهودَ ديارَهم — أو باتَ للمستعمرينَ عميلا
إنْ داسَ فوقَ الأرضِ خرُّوا سُجَّداً — كيْ يوسِعوا أقدامَهُ تقبيلا
وإذا تكرَّم مرةً بزيارةٍ — تلقاهُ فوقَ رؤوسِهِمْ محمولا
تُنْسِيهُمُ مِنْهُ ابتسامةُ كاذبٍ — حِرْمانَهُمْ والجَوْرَ والتنكيلا

" كان شعرُك ولا شيءَ غيره – يقول عبد اللطيف شرارة – يؤلّفُ وَحْدَهُ جبهةً في وجه جبهة مُعادية... هي المجتمع العامليُّ بكل ما فيه من رواسب الإقطاع والجمود والتخلفً، وصَمدْتَ كجبهة في مُشتجر النزاعات والاتجاهات والمصالح والأهواء التي كانت تتجاذبُ البلادَ وتتدافعُ فيما بينها طوال فترة ما بين الحربين وخلال الفترة التي تَلَتْها حتى الاجتياح الإسرائيلي الأخير[1].

اتُرى كان اسمُك وشعرُكَ وعذابُ شعبِكَ دوافِع حمّلَتْكَ مهمةً رساليةً استَعَرْتَ بعضَ أدوارها من التاريخ حتى باتتْ قصائدُكَ "عصا موسى" تتلقّفُ ألاعيب السحرةِ وتفضحُ أكاذيبهم ويبقى لها بالإضافة إلى ذلك مآربُ أخرى.

كونوا فراعنةً شداداً واحكُموا — وتحكّموا وتسلطوا كطُغاةِ
لن تخنقوا صوتاً صريحاً ثائراً — موسى أنا!! وقصائدي توراتي

---

(١) جريدة النداء، ١٩٨٦/٩/١٠

أنا مُرسَلٌ، إيقاظُ شعبي، بَعْثُهم	تحريرُهُم إنقاذُهُم آياتي
وقفٌ عليهم أو على إيقاظِهم	شعري وما مَلَكَتْ يدي وحياتي
سأظلّ أصرخُ ما حييت بسمعهم	حتى تُفَتِّق سمعَهُم صرَخاتي
وأمزِّقَ الجلباب عن إجرامِكُم	وأُزيحَ سُحُبَ الوهمِ والغيمات!!

وكما تعقَّب فرعونُ موسى النبيَّ وطاردهُ... فإنَّ فراعنةَ السياسة وأحبارَها عندما طاردوكَ وتعقَّبوك وسجنوك... لم تَهُنْ ولم تَلِنْ ولم تَستَسْلِمْ... وإنما كُنتَ تزدادُ إيماناً وتتوهَّجُ اشتعالاً.

لا السجنُ يثنينا ولا الإرهابُ	ما شئتَ فاصنعْ ما عليكَ عتابُ
... اسجِنْ وشرِّد ما عليكَ غضاضةٌ	أنَّى يكونُ الليثُ فهو الغابُ
ليس العقابُ سلاسلاً أو ظلمةً	يا سجنُ بل وخزُ الضمير عقابُ

... ونحن عندما دخلناك وحللنا بك لم تعُدْ بيتَ اللصوص ومكانَ المجرمين وإنما غدوتَ منزل الشرفاء

ما نحنُ يا سجنُ اشرارٌ ولا نفرٌ	داسوا المبادئَ والأخلاقَ والقِيَمَا
ولا استباحوا قوانينَ السماءِ ولا	دكّوا الشرائعَ في لبنانَ والنُظُما
بل نحنُ يا سجنُ رَهْطٌ ثار ثائره	لمّا رأى الحقَّ مغصوباً ومهتضما
شرُفتَ يا سجنُ يا بيتَ اللصوص لأنْ	غدوتَ بيتَ أُباةِ الضيْمِ والعُظَما

هذه الرساليةُ الصادقةُ النظيفةُ لم تعرفْ مُهادنةً ولا مساومةً، كانتْ تحملُ قضية الوطن، وتفتح جبهةَ عراك سياسي مع السُلطة وأعوانها... كانت القصيدةُ بياناً سياسياً ونشرةَ توعية ونهجَ نضال... يتلقفُها النّاس.. يحفظونها، ويترنمونَ بها... وتتطاير أبياتها على ألسنتهمْ لتتردَّدَ في أجواء جبل عامل... "شعرُكَ البسيط العبارة - يُخاطبُهُ حسين مروه - كان أقوى على زرع النور في الناس الطيبين من أي شعرٍ متعالٍ فوق البساطة وفوق الناس... والمسألةُ أنّ شعرَكَ هو الفرحُ والحُبُّ والصدق، وأنّ شعرَكَ أحسنَ مُشافهةَ الواقعِ ومُشافهةَ الحُلُم، دون وساطةٍ بلاغيةٍ أو زُخرُفيةٍ أو تنظيرية."[1]

---

(١) النداء، ١٤/٩/١٩٨٦.

يا أبا عدنان أيُّها المنذورُ للمتاعبِ،

أتُراك بعنادكَ وعنفوانكَ وكبريائكَ وإيمانكَ، أتعبْتَ سَجّانَكَ وأرهقْتَ مُلاحقيك؟! أتُرى ملَّ منك السجنُ والسجّان وتمنّيا ألاّ يرياكَ؟! ألم تَقُل يوماً لصديقكَ حسن فياض شرارة عندما نصحك خوفاً عليكَ بالاعتدال والحيطة:

... خلِّني سائراً بهدي ضميري / خلِّني ثائراً على السُلطتَيْنِ
لا تُردْني مذبذباً وجباناً / أو ذليلاً مُعفَّرَ الخدّيْنِ
طالما الشعبُ عُدّتي وسلاحي / سوف أقوى وأقهرُ القوّتيْنِ
طالما الشعبُ مركبي وشراعي / سوفَ أنجو وأقطعُ اللُجتَيْنِ
أنا آليْتُ لا أُهادِنُ وغداً / في بلادي ولو بذلك حَيْني
إنْ يكونوا (يزيدَ) جوراً فإني / حاملٌ في الضلوعِ نفسَ الحُسَيْنِ
لبلادي ديْنٌ عليَّ فَدعْني / ككرامِ الرجالِ أدْفَعُ ديْني

وعندما سافرْتَ مضطراً إلى أفريقيا حملتَ معكَ وجعاً يتوالد وأسىً وشجنا... بَقِيَتْ أُسرتُكَ وأهلُكَ وبلادُك والرِّفاق هاجسَ حنينٍ ومثارَ ذكرياتٍ ومبعثَ آلام، حتى إذا انتهتِ الحربُ عُدْتَ إلى وطنك أكثرَ عُنفاً وقد ابيضَ شعرُك وبانَ عليك كرُّ الأيام، إلا أنَّهُ – يقول عنك الدكتور إبراهيم بيضون – "لم يَعُدْ إلى مكانه فالوقتُ تغيَّر والرِّفاقُ تبدَّلت وجوهُ بعضِهم وإذا هو متكئٌ على الماضي ويكادُ لا يخرج منه".

...هو لا يكادُ يخرجُ من الماضي نظراً للصدمة الموجعة التي رآها في الحاضر، فإذا كان الانتدابُ قد رحل ورحل معه المُستشار فإن مستشارين جُدُداً حلّوا مكانه، وإذا كُنّا نثور على الأجنبي ضد ممارسات العَسْفِ والجَوْر والإذلال فإنَّنا بِتْنا نترحَّمُ عليه عندما رُحْنا نشهَدُ ممارسات أبناء الوطن الذين أخذوا مواقعه...! الفسادُ استشرى وعشّش وفرّخ، والطائفيةُ ازدهرت تجارتُها، والمراكز باتت وقفاً على المحاسيب والأزلام؛ يكادُ ينعدمُ الفَرْقُ بين قديمهم وجديدهم:

إيّاكَ بعدُ بواحدٍ تُغريني / إنّي خلعتُ حماقتي وجنوني
لا تمدَحي "بيكاً" وتهجي آخراً / فالكلُّ في بلدي "شهاب الدينِ"!!

كما راح يقول

... يا عهدُ في لبنان ما لك والد — فإلى متى التزميرُ والتطبيلُ
لا يخدعَنْكَ المُدَّعونَ فكُلُّهُم — عند الحقيقةِ ما لديه دليلُ
... مَنْ منهُمُ البَطَلُ الذي بجيوشه — ضاقتْ جبالٌ عندنا وسهولُ
لا تَغْتَررْ بجماعةٍ مأجورةٍ — أنّى يميلُ الحاكمون تميلُ
... لا تخدعِ التاريخ ما في أرضِنا — "غاندي" ولا في أرضِنَا :زغلولُ"
كُنّا قديماً في دخيلٍ واحدٍ — واليومَ كُل الحاكمين دخيلُ!!

... هي فجيعةُ الإحباط عشْتَ مرارتها، ورأيتَ أيامها السوداء، فانْكَفَأْتَ لأنّ القضية خفّ وهجُها وضاق أُفُقُها وفَقَدَتِ الكثير من سخونتها[1]، فخلال هذا الزمن الرديء نشأت إسرائيل وتمدّدت في قلب الوطن وكثُرتِ الكيانات وتعدّدتِ الدويلات وتوالتِ الانكسارات... وأخَذَنَا جَزْرٌ أسودُ وخيّم ظلامٌ كثيف فاحْتَرَبْنا وتذابحنا وغدونا أُلعُوبةَ الأُمَمِ وأضحوكةَ الدول.

هلاّ علمتَ وأنتَ مهدُ طفولتي — وهواك ملءُ جوارحي وكياني
أنّي وفيكَ من الجرائمِ ما أرى — أصبحتُ أخجلُ أنَّني لُبناني!
أُيراقُ فيكَ دمي لأنّيَ مسلمٌ — لا ذنْبَ لي ولأنَّني نصراني؟
واخجلتي مني كلبناني!! ويا — خجلي كإنسان من الإنسان!

...وعندما رجع موسى الزين إلى بلده في رحلته الأخيرة كانت شريطاً حدودياً... أخذ معهُ كمّاً هائلاً من الآلام، والكثيرَ الكثيرَ من الإحباط والصدمات... لقد خالَطَ مَوْروثَ فَرَحِهِ وجعٌ مُقيم، وتداخلَ مع رنينِ ضحكاته أسىً دفين، وزحَفَتْ إلى سُوَيْداءِ قلبه أشجانٌ وأوصاب.. ورغم ذلك كان يُردِّدُ أنَّ الفجرَ لا بُدّ أن يبزُغَ وينْشُرَ أنواره مهما يَطُلْ ظلامُ الليْل...!

---

(١) الدكتور إبراهيم بيضون.

يا أبا عدنان

كانت رحلتي معك لا أبهى ولا أحلى ... ندمتُ كثيراً لأنني لم أكُنْ أكثرَ التصاقاً بك في حياتك، وفرِحْتُ وسعدتُ لأنني عرفتُكَ بعمق أكثرَ ووعيٍ أرحبَ، عندما رافقتُكَ أياماً شعرتُ فيها بحرارة أنفاسك تُدفئني، ونداوة جلساتك تؤنسني، وطهارة روحك تُحوِّمُ حولي.. أحبَبْتُ أن أبقى مَعَكَ، ألا أُبارِحَكَ أو أبتَعِد عنك... ويصعُبُ عليَّ كثيراً، أجَلْ يصعُبُ عليَّ كثيراً - وأنا دامع العينين- أن أقول لَكَ وداعاً... وها أنا أُرَدِّدُ مع تِرْبِي وصديقي ولدكَ غسان: "شخصيةُ والدي هي محبة الناس وقد ظلّ حتى آخر أيامه خزّانَ حُبٍ لا ينضُبْ، حب ملأ كُلَّ جوارحه حتى غدا نوعاً من الانجذاب الصوفي أوحى له بأنه مُكَلَّفٌ بدور أو رسالة عليه أن يقومَ بها، وهذا الإحساسُ ظلَّ يُرافقُهُ وأعطاهُ قوةً معنويةً وشجاعةً أدبيةً خارقةً، حصَّنَتْهُ ضدَّ الانحراف فظلَّ شاعراً سياسياً... كما أنَّه كان يتحدث عن الماضي لكنَّه كانَ يُقيم أبداً في الحاضرِ[1] .

(١) من كلمته في حفلة تأبين أبيه في ١٩٨٦/١٠/٢٦

المراجع

- د. خليل أرزوني، تاريخ شحور الاجتماعي، الدار الإنسانية، بيروت ٢٠٠١.
- محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، دار النهار للنشر، الطبعة الثالثة، شباط ١٩٩٨.
- السيد حسن الأمين، مُستدركات أعيان الشيعة، المجلد الأول ١٩٩٧، الطبعة الثانية.
- السيد حسن الأمين، من دفتر الذكريات العاملية.
- السيد حسن الأمين، عصر حمد المحمود والحياة الشعرية في جبل عامل، دار التراث الإسلامي١٩٧٤.
- السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، سيرة ذاتية، تحقيق الدكتور هيثم الأمين، والدكتورة صابرينا ميرفان.
- السيد محسن الأمين، خطط جبل عامل، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.
- د. محمد سعيد بسام، الاتجاهات السياسية في جبل عامل، أطروحة دكتوراة في التاريخ ١٩٢٦-١٩١٨.
- جواد بولس، لبنان والبلدان المجاورة، مؤسسة بدران وشركاه للطباعة والنشر، الطبعة الثانية ١٩٧٣
- إبراهيم بيضون، موسى الزين شرارة شاعر الالتزام، محاضر غير منشورة.
- د. إبراهيم بيضون، قرأت أصواتهم في الدوي، دار المؤرخ العربي
- د. أحمد بيضون، ما علمتم وذقتم، الطبعة الأولى ١٩٩٠.
- د. مصطفى بزي، بنت جبيل حاضرة جبل عامل، دار الأمير للثقافة والعلوم ١٩٩٨.
- د. مصطفى بزي، تطور المجتمع في بنت جبيل بين الحربين العالميتين، رسالة ماجستير في التاريخ، بيروت ١٩٧٨، الجامعة اللبنانية.

- د. مصطفى بزي، تطور التعليم والثقافة في جبل عامل، من نهاية القرن ١٩ حتى منتصف القرن ٢٠
- د. منذر جابر، الشريط اللبناني المحتل، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط١، ١٩٩٩، بيروت.
- د. سلمى الخضراء الجيّوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، مركز دراسات الوحدة العربية أيار سنة ٢٠٠١، ترجمة د. عبد الواحد لؤلؤة.
- د. عبد المجيد الحُر، معالم الأدب العاملي، منشورات دار الآفاق الجديدة الطبعة الأولى ١٩٨٢.
- أيوب حميد، الشيخ أحمد عارف الزين، منشورات مجلة العرفان، ط١، ١٩٨٦.
- منيف الخطيب، مزارع شبعا حقائق ووثائق، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠١.
- د. رامز الخوراني، بنت جبيل الشاعرة، الطبعة الأولى ٢٠٠١.
- علي عبد المنعم عبد الحميد، مدخل لدراسة احمد شوقي، (صفوة المؤلّفات الكاملة)، الشركة المصرية العالمية للنشر ١٩٩٣.
- الشيخ علي الزين، فصول من تاريخ الشيعة في لبنان، دار الكلمة للنشر - الطبعة الأولى ١٩٧٩.
- الشيخ علي الزين، مع التاريخ العاملي.
- الشيخ علي الزين، للبحث عن تاريخنا في لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٣
- كمال الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، الطبعة الثانية، منشورات كارافان، نيويورك ١٩٦٢.
- كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، الطبعة السابعة، ٢٠٠١.
- جهاد فاضل، قضايا الشعر الأدبي الحديث، دار الشروق، ط١، ١٩٨٤
- جهاد فاضل، الأدب الحديث في لبنان، دار الريّس للكتب والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٦.
- د. حسن قاسم، السياسة في الشعر العاملي المعاصر، أطروحة دكتوراه في العلوم الاجتماعية، الجامعة اللبنانية، الفرع الأول، ٢٠٠٠.

● د. حسن قبيسي، تطور مدينة صور ١٩٠٠ - ١٩٧٥.

● جون كارن، مباحث أجنبية في تاريخ لبنان، تعريب رئيف الخوري، منشورات دار المكشوف.

● د. محمد الكاشف، د. أحمد هريدي، د. محمد عامر — العروض بين التنظير والتطبيق، الناشر مكتبة الخانجي القاهرة، ١٩٨٥.

● علي مروه، روائع الأدب الفكاهي العاملي، الطبعة الأولى، ١٩٧٢.

● د. قيصر مصطفى، الشعر العاملي الحديث في جنوب لبنان ١٩٠٠- ١٩٧٨.

● المجلس الثقافي اللبناني الجنوبي، من دفتر الذكريات الجنوبية، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى ١٩٨١.

● المجلس الثقافي اللبناني الجنوبي، وجوه ثقافية من الجنوب، دار ابن خلدون ١٩٨١ ج١ ١٩٨٤ ج٢.

● مجلة عالم الفكر (الكويت) المجلد ٣٠، عدد اكتوبر وديسمبر ٢٠٠١.

● مجلة العرفان: الجزء التاسع ١٩٠٩

الجزء الرابع ١٩٠٩

الجزء السابع ١٩٠٩

الجزء الرابع ١٩٦٢

الجزء الرابع ١٩٨٢

الجزء الخامس ١٩٨٢

الجزء العاشر ١٩٤٨

الجزء العاشر حزيران ١٩٦٠

الجزء الأول كانون الثاني ١٩٨٢

● مجلة الباحث، العددان ٢و٣، (عدد خاص عن الجنوب تاريخاً وقضية).

● مجلة الكشكول، مؤسسة الانتشار العربي، العدد٣، نيسان ٢٠٠٠.

● مجلة الأمة العدد ٣.

● صور التاريخ الاجتماعي الاقتصادي في مختلف الحقب التاريخية، مُنتدى صور الثقافي، أيار ١٩٩٧، مجموعة من الباحثين (١٨ باحثاً).
● اللواء، عدد ١٩٨٦/٩/٩
● النداء ٨٦/٩/١٠ - ٨٦/٩/١٤
● الكفاح العربي ٨٦/٩/١٥
● الشراع ١٩٨٦/١٠/٢
● صباح الخير ١٩٨٦/١١/١
● اللواء ١٩٨٦/١٠/٢٦
● النهار ١٩٨٦/٩/٣ - ٢٠٠١/٧/٢١
● السفير ١٩٨٤/٩/٤ - ١٩٨٦/٩/٤ - ١٩٩٦/٨/٦
● مجلة National Geographic June 2000 In focus: Golan Heights: The key to peace Pages 102 - 107 Author: Don Author Belt
● برنامج موعد مع الشعراء (الإذاعة اللبنانية) ,١٩٦٦
● برنامج خاص بمناسبة ذكرى أسبوع على غياب الشاعر (الإذاعة اللبنانية) ,١٩٨٦
● مقابلات مع السيد حسن الأمين، شريف هاشم، د. اسماعيل عباس، غسان وعدنان شرارة، حسن علي شرارة، د. إبراهيم بيضون، د. أحمد بيضون، أحمد شرارة.

وثائق وصوَر

- اخراج قيد عائلي عن الشاعر.
- صورة في العشرينات.
- صورة في الخمسينات.
- صورة في الثمانينات
- أفكار رئيسة لمحاضرة عن حياته.
- زحزح الوهم. قصيدة بخط الشاعر (صورة)
- قصيدة إلى ابنته مجديّة. قصيدة بخط الشاعر (صورة)
- لو كان حراً. قصيدة بخط الشاعر (صورة)
- صفارة الإنذار. قصيدة بخط الشاعر (صورة)
- كنت الوفي (رثاء عمه عقيل شامي). قصيدة بخط الشاعر (صورة)
- رثاء مجاهد (رفيقه الحاج علي بيضون). قصيدة بخط الشاعر (صورة)
- برنامج احتفال تأبينه.
- بعض ما كتب أو نُظم فيه:
  - د. محمد علي شمس الدين (قصيدة)
  - د. أحمد بيضون (قصيدة)
  - تحسين شرارة (قصيدة)
  - إحسان شرارة
  - عماد شرارة
- صُوَر ومستندات
- حتى لا ننسى هذه التواريخ

الفهرست

الجمهورية اللبنانية
وزارة الداخلية
المديرية العامة للاحوال الشخصية

وزارة الداخلية والبلديات بيان قيد عائلي
عن سجلات المقيمين
لإحصاء ١٩٣٢

القضاء بنت جبيل
بنت جبيل حي عين الصغيرة / ١٨٥
محل ورقم القيد ١٦٧٦٢٥٢ / ٢٠٠

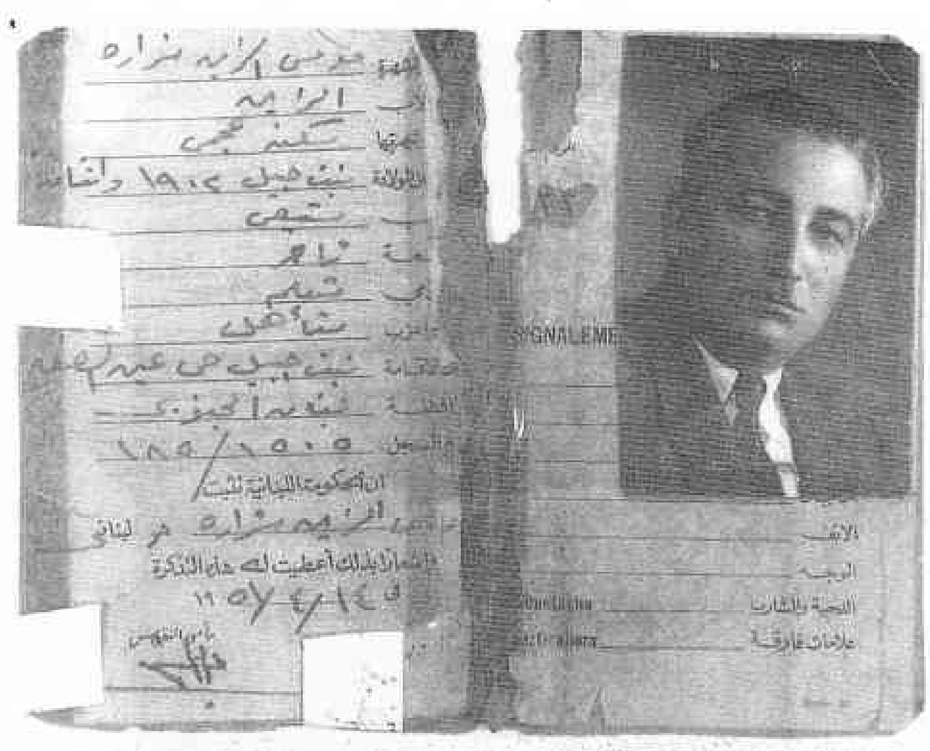
الاسم والشهرة	اسم الأب	اسم الأم وشهرتها	محل وتاريخ الولادة (بالأرقام والأحرف)	المذهب	مقيم أم مغترب	ذكر أنثى	تاريخ التسجيل وكيفيته	ملاحظات
موسى الزين شراره	الزين	سكنه حجي	بنت جبيل ٢ك ١٩ التسعمايه واثنان	مسلم شيعي	مقيم	ذكر	خلال الاحصاء	—
خديجه بزي	عقيل شامي	فاطمه بزي	بنت جبيل ١٩ التسعمايه واثنان	مسلمة شيعية	مقيمة	انثى	خلال الاحصاء	—
خيريه شراره	موسى الزين شراره	خديجه بزي	بنت جبيل ١٩٢٧ تسعمايه سبعة وعشرون	مسلمة شيعية	مغتربة	انثى	زواج ١٩٥١/٦/٢٦ نقلت لرقم ٢٠ في البركة زواج	
عدنان شراره	موسى الزين شراره	خديجه بزي	بنت جبيل الخامس كانون ثاني ١٩٣٤ الف وتسعماية واربعة وثلاثون	مسلم شيعي	مقيم	ذكر	ولادة ١٩٣٤	[illegible]
عثمان شراره	موسى الزين شراره	خديجه بزي	بنت جبيل العاشر كانون ثاني ١٩٣٥ الف وتسعماية خمسة وثلاثون	مسلم شيعي	مقيم	ذكر	ولادة ١٩٣٦	[illegible]

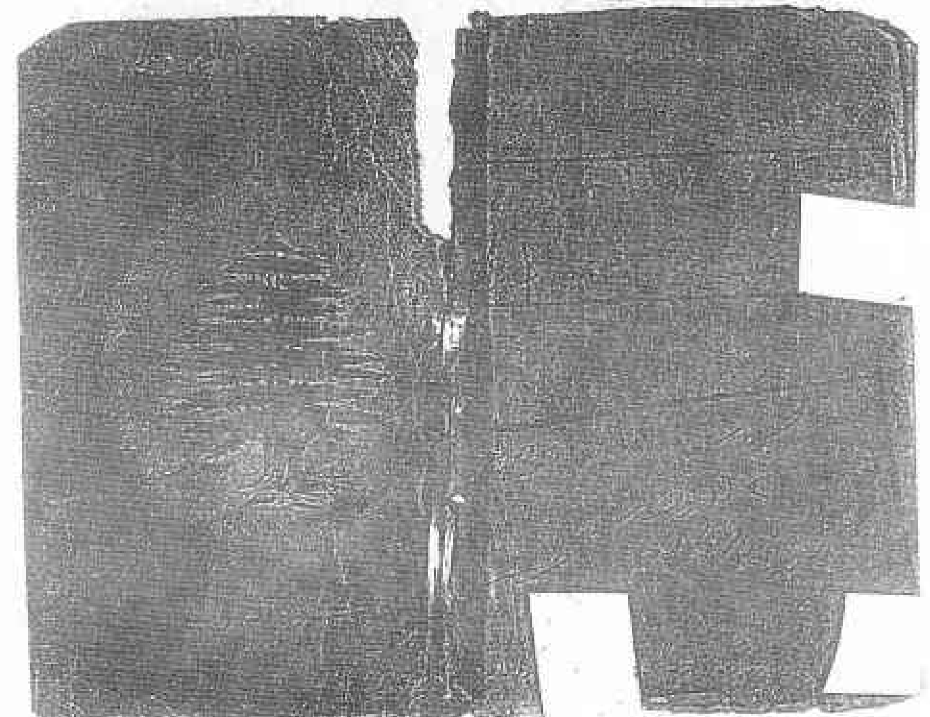
صورة طبق الاصل ٢٠٠١/١٢/٢١

مأمور نفوس بنت جبيل
شبلي ... الياس



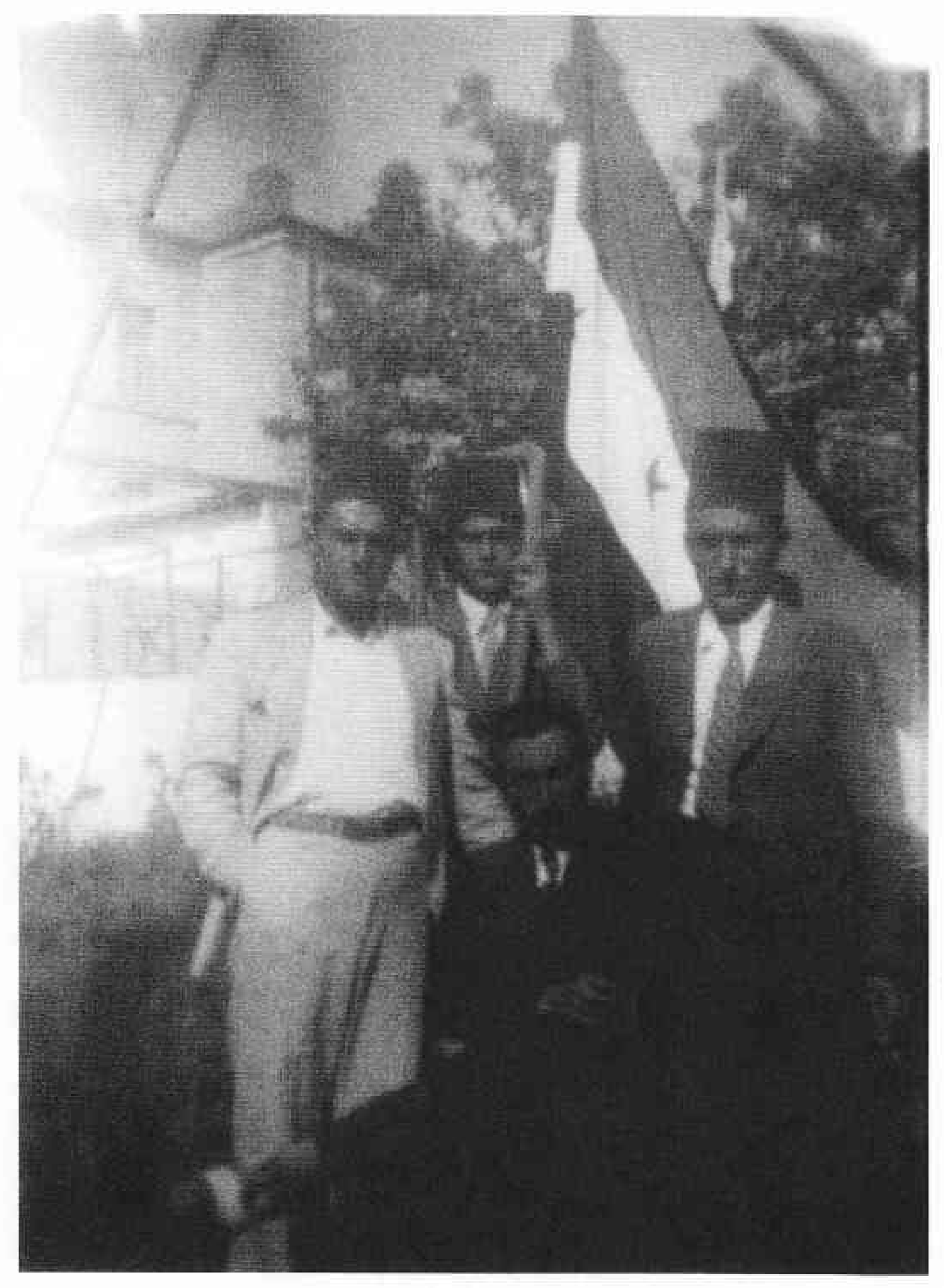
موسى الزين شرارة
أخذت في حيفا ١٩٢٣





تذكرة الهوية


الصديقان
من اليمين مسلم شلبي
من اليسار محي الدين شرارة
أحد ٩٤٤



دمشق ١٩٣٧

من اليسار: عبد اللطيف بيضون، علي بزي، محمد سليم بزي، موسى الزين شرارة (جالساً)



الصحافي ألفرد أبو سمره سليم ابو جمرة موسى الزين شرارة

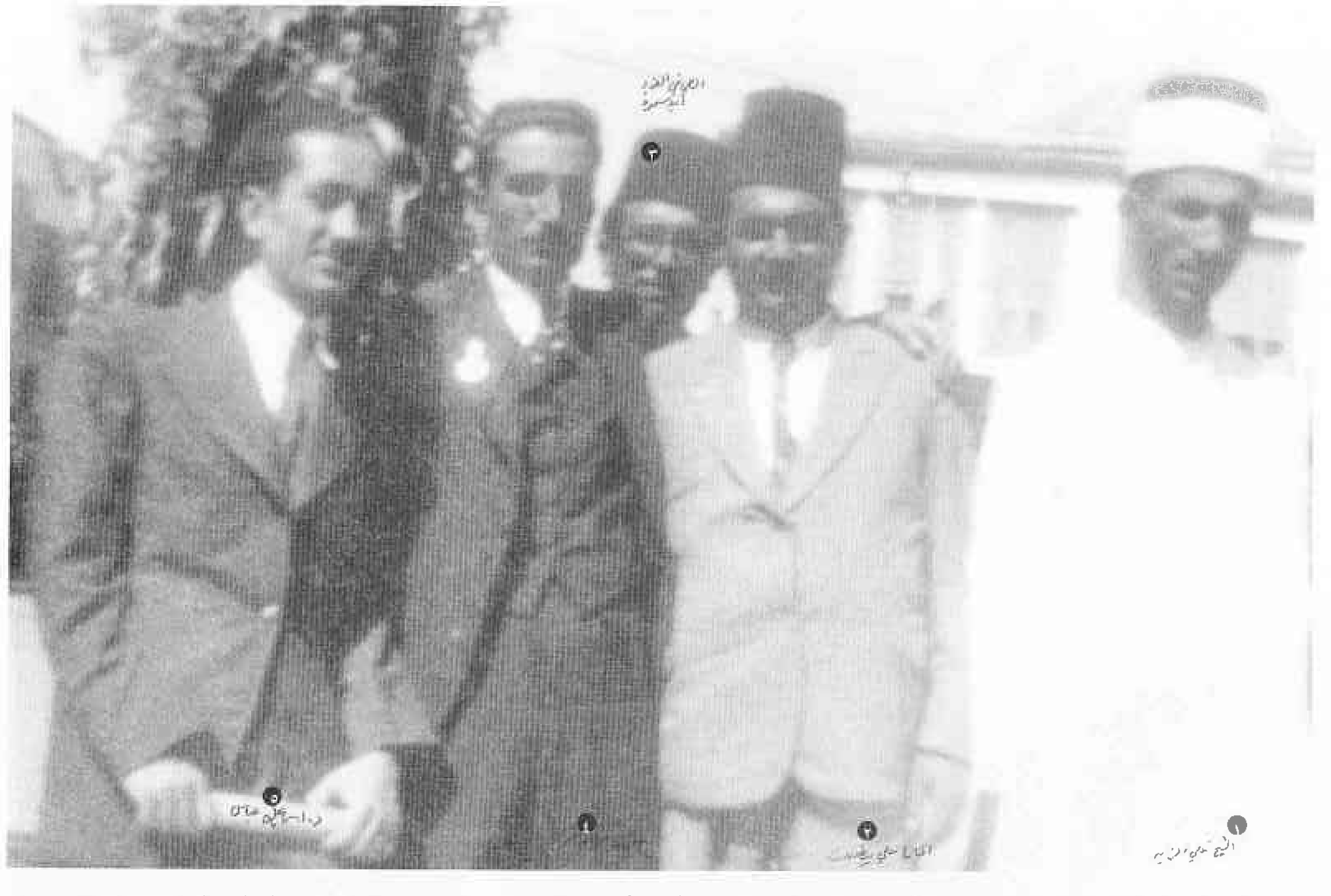
أخذت في دمشق بمناسبة حضور الوفد السوري من باريس ١٩٣٦


جواد شرارة
الحاج علي بيضون
موسى الزين شرارة
علي بزي
الشيخ
علي الزين

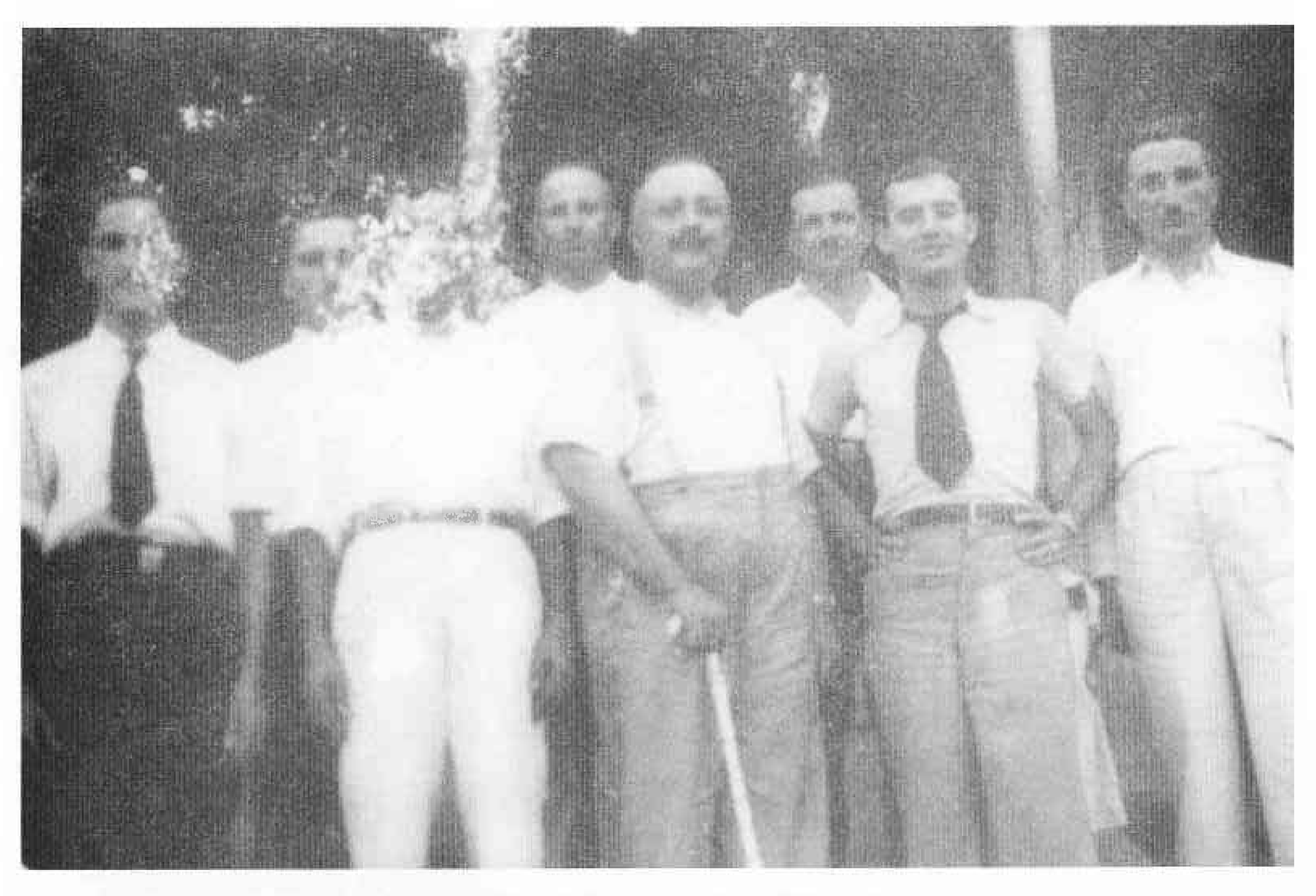


الشيخ علي الزين

(تقدمة حب واكبار للأخ موسى الزين شرارة ٢٥ آذار ١٩٣٦



١ - الشيخ علي الزين ٢- الحاج علي بيضون ٣- الصحافي ألفرد أبو سمرة ٤- موسى الزين شرارة ٥ - د. اسماعيل عباس



موسى الزين شرارة، كامل مروة، رشيد بيضون في أفريقيا سنة ١٩٣٩



محاولة استخارة ١٩٣٩



Registration Certificate No.

Serial No.

Issued at

Name (Surname first in Roman capitals)

Nationality

Born on 1902 at

Previous nationality (if any)

Profession or occupation Trader

Address of residence in Sierra Leone

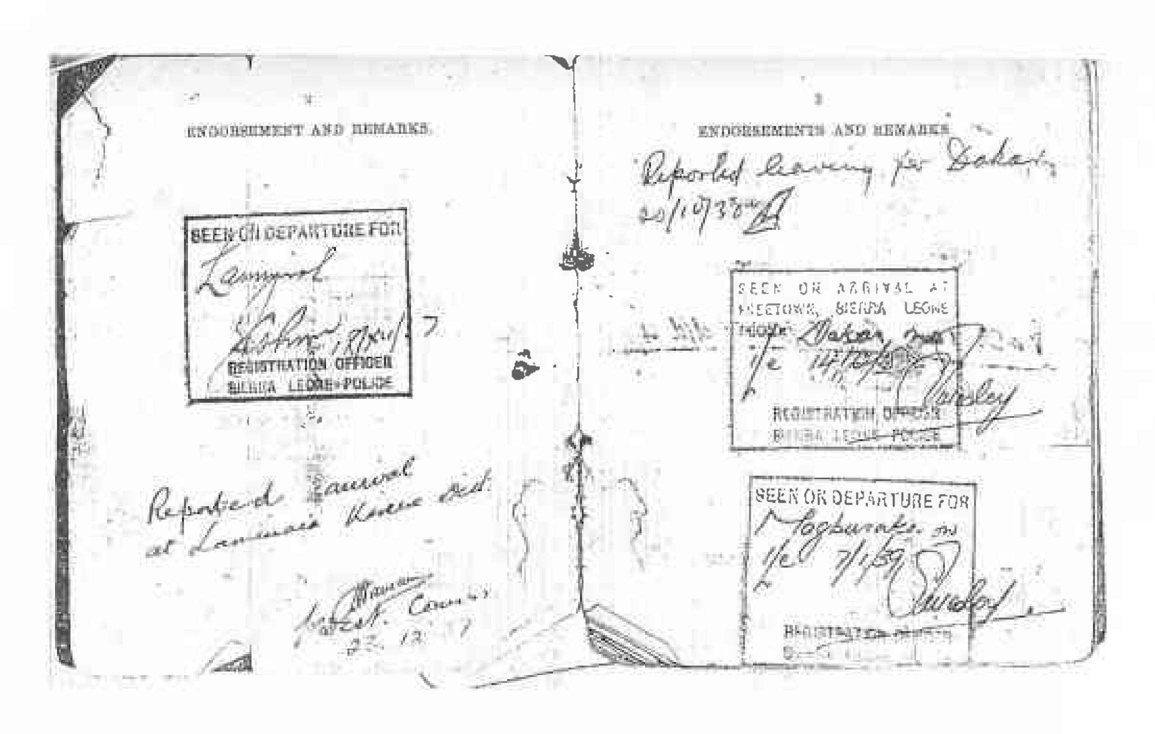
Arrived in Sierra Leone on Jan 1937

Mode of arrival in Sierra Leone By Sea

Address of last residence outside Sierra Leone

Passport or other document as to nationality and identity

بطاقة إقامته في سيراليون



ENDORSEMENT AND REMARKS.

SEEN ON DEPARTURE FOR

REGISTRATION OFFICER
SIERRA LEONE POLICE

ENDORSEMENTS AND REMARKS

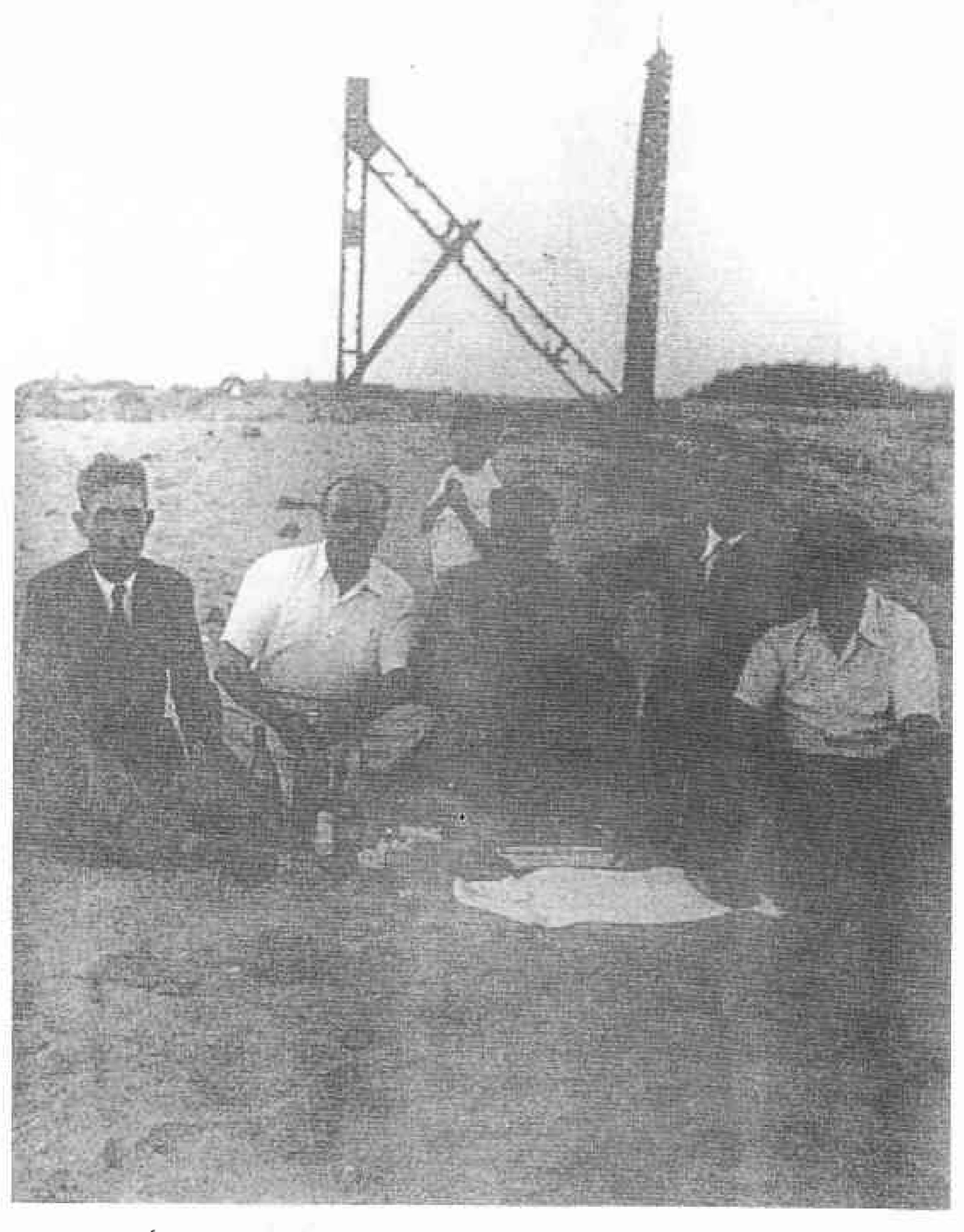
Reported leaving for Dakar

SEEN ON ARRIVAL AT FREETOWN, SIERRA LEONE FROM Dakar

REGISTRATION OFFICER
SIERRA LEONE POLICE

SEEN ON DEPARTURE FOR

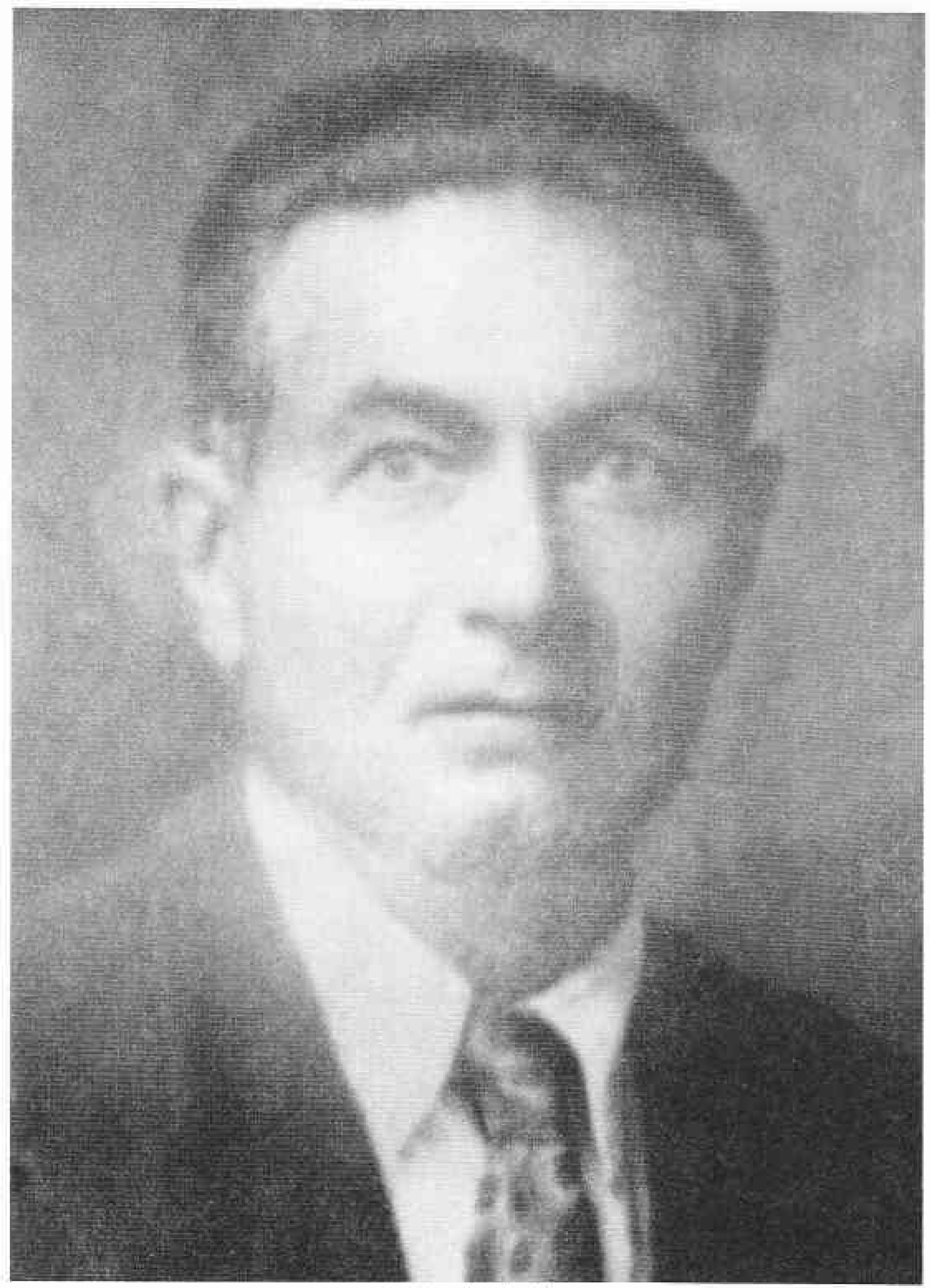
REGISTRATION OFFICER



من اليمين إلى اليسار السادة عبد الباسط بيضون، إبراهيم درويش، موسى الزين شرارة... الأخير أسعد سليم دخل الله...
أخذت في مدينة دكار- السنكال سنة ٩٤٥.



عبد الباسط بيضون، نجيب صعب، موسى الزين شرارة، لطفي هيدوس
أخذت في دكار/٢٤ أيار سنة ٩٤٦



الحاج علي بيضون



أخذت سنة ٩٤٦ في مقهى ابراهيم نعيم بزي في بنت جبيل وهي السنة التي عدنا بها من المهجر الافريقي بعد غياب تسع سنوات
(الرجل الذي يلبس الكوفية والعقال هو الوجيه عبد الرحمن جابر أبو نعيم)



الجالسان الشاعران من اليمين أحمد الصافي النجفي وعبد الحسين عبد الله والوقوف
موسى الزين شرارة أما الشرطي فإني لا أعرفه
اخذت في سراي صيدا سنة ٩٥٠



أخذت في يلدزلار بحمدون



الوزير علي بزي



الوزير علي بزي في زيارة إلى السنغال ١٩٦٠

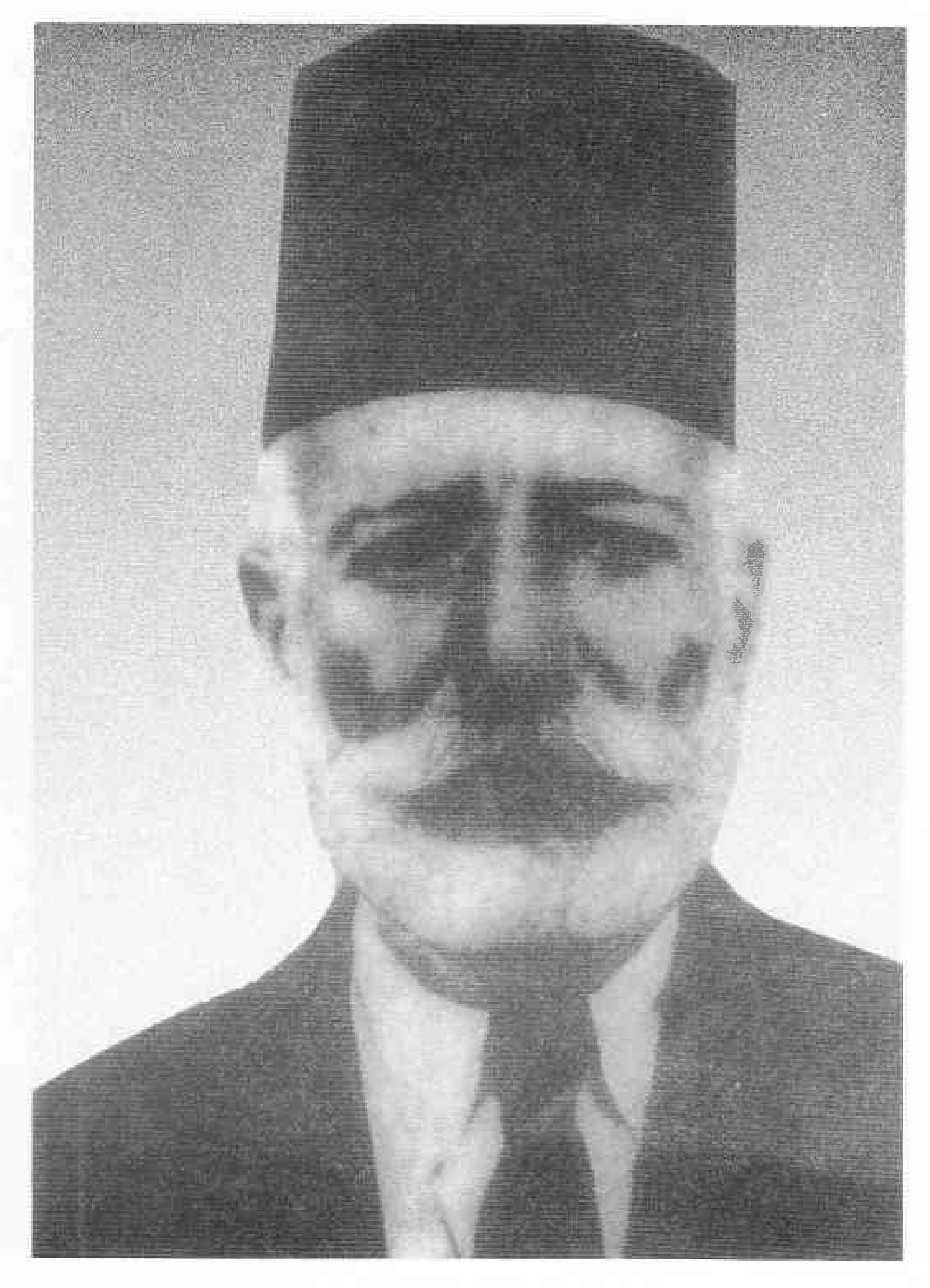
من اليمين الحاج أبو محمود شرارة - حسن الشيخ محمد حسين شرارة - سلمان شرارة - موسى شرارة - زوجة موسى شرارة - الوزير علي بزي - أحمد شرارة - خليل زينو داغر - نجل موسى شرارة - عدنان الشيخ محسن شرارة

الرئيس رشيد كرامي والوزير علي بزي في افتتاح مستشفى تبنين

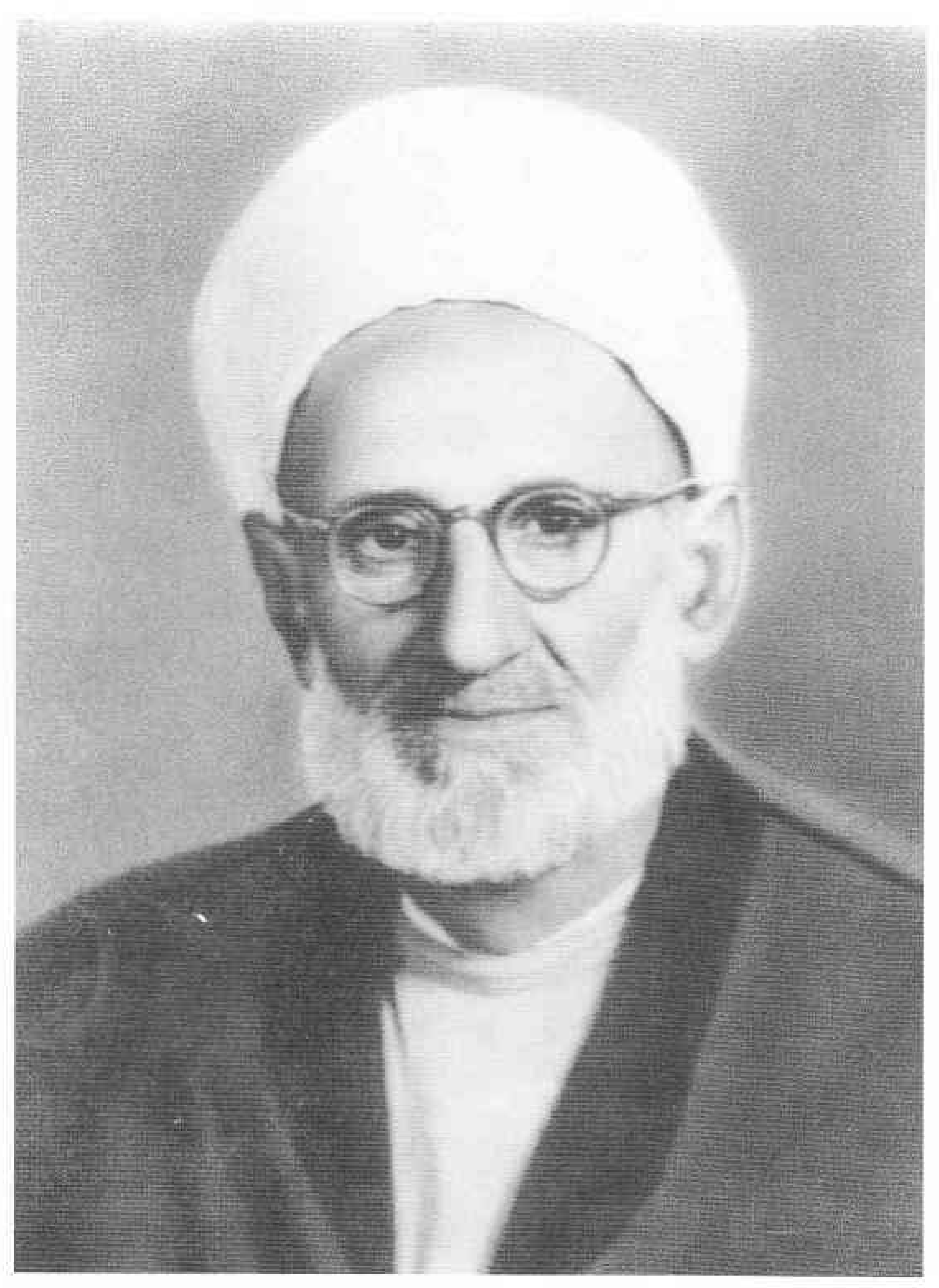


الحاج محمد سعيد بزّي

يوم كان رئيساً لمحكمة مرجعيون الاسلامية



الحاج محمد سعيد بزي



الشيخ علي شرارة



النائب عبد اللطيف بيضون في إحدى المناسبات الاجتماعية



النائب عبد اللطيف بيضون ونجله الدكتور أحمد في احدى المناسبات الاجتماعية

اتحاد الكتّاب اللبنانيين

المجلس الثقافي للبنان الجنوبي

يتشرفان بدعوتكم إلى حضور الاحتفال التأبيني

إحياءً لذكرى الشاعر المرحوم:

موسى الزين شرارة

الزمان: الأحد في ٢٦ تشرين الأول ١٩٨٦ الساعة العاشرة صباحاً

المكان: قاعة كلية الحقوق، الجامعة اللبنانية الصنائع

برنامج الاحتفال

- كلمة اتحاد الكتّاب اللبنانيين للأستاذ أحمد سويد
- كلمة للدكتور حسين مروة
- كلمة للأستاذ طلال سلمان
- كلمة للأستاذ منح الصلح
- قصيدة للشاعر فؤاد الخشن
- كلمة للأستاذ جوزف مغيزل
- قصيدة للشاعر محمد علي شمس الدين
- كلمة المجلس الثقافي للبنان الجنوبي للدكتور إبراهيم بيضون
- كلمة لنجل الفقيد الأستاذ غسان شرارة

يُقدّم البرنامج مع مختارات للشاعر الراحل:
أمين سر المجلس الأستاذ سمير فياض



الخطباء، من اليمين، السيدة فواز حاجبة المحامي مخيزل والسادة: منح الصلح الدكتور ابراهيم بيضون، المحامي أحمد سويد، الشاعر محمد علي شمس الدين، الشاعر فؤاد الخشن.



مقدم الحضور. الوزير السابق د. نجيب أبو حيدر - الوزير السابق السيد محمد صفي الدين - الدكتور أيوب حميد - الرئيس رشيد الصلح.

بعض ما قيل فيه

الجَدّ

(إلى الشاعر موسى الزين شرارة)

شعر محمد علي شمس الدين

١

كانَ لا بُدَّ مِنَ النّارِ الجميلَةْ

●

أشْعَلَ الجَدُّ وجاقَ النّارِ
واسْتَلْقى على أيّامِهِ
وهُوَ يَرْوي سيرةَ الخَلْقِ
وسِرَّ الكائناتْ
كانَ مَفْتوناً بأنّ يُلْقي على النّارِ فُتاتَ الكَلِماتْ
يَغْسِلُ النَّشْرَ الإلهيَّ بِزَيْتٍ مِنْ يَدَيْهِ
ثمَّ يُصْغي
للدَّمِ الجاري بأعْراقِ النَّباتْ
لِلْمحاريثِ الّتي تَنْطَحُ وَجْهَ الصَّخْرِ

لِلْبَحْرِ الَّذي يَنْشَقُّ نِصْفَيْنِ

بِسَيْفِ الكلِماتْ

كانَ لا بُدَّ مِنَ الشِّعْرِ

لكي تَبْقى على الأَرْضِ الحياةَ.

٢

حينَ أَلْقى في الأقاليم عَصاهْ

جَدُّنا العالي عُلُوَّ الحَورَتَيْنْ

لم نكُنْ غيرَ حصىً تَحْتَ المِياهْ

دارَتِ الشَّمْسُ عَلَيْنا دورَتَيْنْ

٣

هكذا أَخْبَرتْنا طوالِعُنا في السَّماءْ

حينَ قالَتْ:

سَيَأتي رَسولٌ إليكُمْ

وآيَتُهُ

صَوْتُهُ

قَدَماهُ تقولان «لا» حينَ يَمْشي

وَيَداهُ الدَّليلْ

فانْهَضوا

مِنْ فَمِ النَّهْرِ

حتّى سَماءِ الجَليلْ.

٤

آهِ ما أجْمَلَ أحْزانَ السَّماءْ

في الدَّمِ الأوَّلِ فَوْقَ الفَلَواتْ

قَرَوِيّون ودَمْعٌ في الإناءْ

وعلى السّوقِ تَدورُ السّاحِراتْ.

●

أذْكُرُ الآنَ قليلاً مِنْ زماني:

كانَ يَنْسابُ على خَيْطِ الهَواءْ

مِنْ سَوادِ العَيْنِ صَفٌّ من سُنونو

ونُغَنّي للسُّنونو:

«أيُّها الحَبْلُ الجُنوبيُّ الطَّويلْ

أيُّها الظِّلُّ العَليلْ

هَلْ تُرى يَلْمَعُ سِلْكُ الكَهْرَباءْ

ذاتَ يَوْم في شَرايينِ القَتيلْ؟

●

لم نَكُنْ غَيْرَ نَدامى مُسْرِفين

نشْرَبُ الصَّيْفَ بأكْوابِ الشِّتاءْ

ماؤنا ما زالَ مَقْطوعاً

ولكنَّ الدِّماءْ

لم تَزَلْ مَوْصولةً عَبْرِ السّنينْ.

●

آهِ ما أجْمَلَ أحْزانَ السَّماءْ.

●

هذهِ الأرضُ كمِنديلِ العليلْ

بُقْعةٌ زَرْقاءُ بَيْنَ الجَبَلَينْ

كلُّ وَرْدٍ يَتَغَطّى باسْمِهِ

وعلى الشَّوْكِ فَمُ الرّاوي يَسيلْ.

قال: مِنْ أيِّ المنافي جاءَنا

خَوْفُ هذا العامِ

مِنْ أيِّ الجِهاتْ؟

تَحْمِلُ الرّيحُ لنا أحْزانَها

تَعْبُرُ الرّيحُ

وتَبْقى الحَسَراتْ

قال: لا بُدَّ مِنَ الشِّعْرِ

لكيْ تَبْقى الحياةْ.

٥

هكذا فَجْأةً

جاءَ مَنْ أشْعَلَ النّارَ بَيْنَ الحُقولْ

رَجُلٌ شامِخٌ

وقامَتُهُ بينَ نَهْرَيْنِ تسْعى

وآيَتُهُ رَفْضُهُ

دائِراً في البِلادِ وَحيداً

يقولُ انْظروا

ليْسَ بَيْنَ الحياةِ وَعُشّاقِها

غَيْرُ هذا السَّبيلْ

أنْ تُعيدوا إلى الأرضِ أحْلامَها

وأنْ تَسْتَرِدّوا منَ الغاصبِينَ الفُصولْ.

٦

لِلْمزاميرِ على سَفْحِ الجَبَلْ

نَكْهَةُ الثَّوْرةِ

والنّاسُ نِيامْ

كلّما مرَّ على السَّطْحِ الحَمامْ

ذَبَحوهُ بالقُبَلْ.

٧

هكذا قالَ جَدّي مزاميرَهُ وارْتحَلْ

كأنَّ جِبالاً مُمَغْنطةً جَذَبَتْهُ إليها

مِثْلَ نَسْرِ الجَبَلْ

فَمَضى نَحْوَها

وساقاهُ خَطّانِ من كَهرَباءْ

هكذا دارَ في دَمِهِ دَوْرَةً فاكتمَلْ

فافْتَحوا البابَ...

كانَتْ بيادِرُ «صفِّ الهواءِ»

تَقولُ أتى

والحُقولُ أتى

والبُيوتُ الَّتي انْخَفَضَتْ تَحْتَ مِعْطَفِ

آحْزانِها

تَقولُ مُهَلَّلَةً قدْ أتى

وَالقَرَوِيّونَ في ساحَةٍ للخَميس يُقيمونَ أعْراسَهُمْ

وَيَنْتَدِبونَ لهُمْ سيّداً للكلامْ.

٨

أنْزَلوا هَودَجَهُ وانْتَظَروا

قَمَرَ الوَقْتِ

وَبَدْرَ المُنْشِدينْ

جاءَ لَمْ يَنْزِلْ

وَلَمْ يَنتَبِهوا

أنَّ ما مرَّ على أيّامِهِمْ

طائرُ الوَقْتِ

وَسِرْدابُ الحَنينْ.

●

رَفَعوا هَوْدَجَهُ وارْتَحَلوا

مِثْلما يَخْنُقُ زِرْيابَ الوَتَرُ.

٩

سَلامٌ على روحِهِ في الزَّمانْ

سَلامٌ على روحِهِ في المَكانْ

سَلامٌ على طائِرٍ مِنْ دُموعِ الدُّخانْ

ها أنا الآنَ أَلْمَحُهُ فَوْقَ أغْصانِهِ

تَسْتَفيقُ بهِ رَعشَةُ الضَّوْءِ

أَوْ لَوْعَةُ السِّنْدِيانْ

يَلُفُّ على نَوْلِهِ قَوْلَهُ

وَتَرْشَحُ من يدِهِ حِكْمتانْ:

أَنَّ ما تُبْصِرُ العَيْنُ في ظُلْمةِ الغَيْبِ أبْهى

وأنَّ الَّذي قالَهُ الصَّمْتُ

أجْمَلُ مِمّا يَقولُ اللِّسانْ.

١٠

أيُّها الجَدُّ الخُرافيُّ النَّبيلْ

أيُّها الطِّفْلُ الَّذي لَيْسَ يُسَمّى

كَمْ تُرى أعْطَيْتَ للثَّوْرَةِ اسْماً

ثُمَّ ضاعَتْ ساعَةُ الصِّفْرِ

وَضاعَ الفُقَراءْ

أنْبياءٌ أنْبياءٌ

ومُرابونَ مَعاً في الأرْضِ

حَفّارو قُبورٍ

ورُفاتْ

ومُلوكٌ وحُفاةْ

حُفْرَةٌ واحِدَةٌ تَضْحَكُ مِنْ أضْدادِها

حُفْرَةٌ واحِدةٌ هذي الحَياةْ.

١١

... وَأنْتَ الَّذي كُنْتَ أغْرَيْتَنا بالمُلوكِ

وَأغْرَيْتَ هذا الصَّبِيَّ بأضْدادِهِ

وأغْرَيْتَنا بالذِّي نِصْفُهُ حَتْفُهُ

والبَقايا كَلامْ.

سَيِّدي

لأنَّكَ أبْهى مَنَ المَوْتِ

تَضْحَكُ مِنْهُ

وَتَضْحَكُ لِلْيأْسِ حتّى يَنامْ

وَتَضْحَكُ عِنْدَ الْتِقاءِ النَّدامى

وتَضْحَكُ عِنْدَ احْتِدامِ الخِصامْ

وَتَرْفَعُ في حَضْرةِ المُصْطَفينَ إلى اللّهِ

كأْساً

مُشَعْشِعَةً من كُسورِ الظَّلامْ.

١٩٩٥/١٩٨٦

فيا تاجَ نادينا(*)

عكوفٌ عليك الشعر زاغتْ مَطالعُهْ   كأنْ لم يكن في الظنّ أنّك فاجعُهْ
وكان الذي يرضيه أنّك صائغٌ   قوافيه أو يكفيه أنّك سامعه
عكوفٌ عليك الشعر لا متكلّفاً   هواه ولا مستبهمات منابعه
فأنت حبيبي ما دهاهُمْ أحِبّتي   يعودون صمّاً والحبيبُ مُسامعه
تخاطبني أشباحهم وأُجيبها   فيذهب صوتي لا تُردُّ رواجعه
وأنت أخو أُمي وأُمّي وصاحبي   حنانيْك ما هذا الذي أنت صانعه
ولم يَبْلَ عزٌّ لَفَّ شعرَ فتوّتي   إذا قيل موسى خالُه مَنْ يقارعه
ولي أُذُنٌ مشدودةٌ نحو جائل   على شرْفةٍ للدّارِ تَتْرى بدائعه
ضَحوك تحامَتْه العشيرة كلُّها   فلما تحاماها تنادت تبايعه
فحالتْ طرابيشٌ ومالت عمائمٌ   ومن لم يكن زيّاً فما الزيُّ خادعه

* * *

فيا أيُّها الشيخُ الجميل كأنّما   إذا هَمَّ أن يمضي الصبا أنت مانعه
هدأتَ فهبَّ الموتُ هَبَّ نسائمٍ   تقلّب عمراً أثخنَتْه زَعازعه
وودّعتها بنتُ الجُبيل وتينُها   حطامٌ وغصنُ الكَرْم تذوي يوانعه
فودَّعَت الخال الذي زانَ خدَّها   زمان لها خدٌّ وقد ذلّ صافعه
زمانَ ضُحاها حَوْمةٌ وحَميّةٌ   ويَنْدى مَساها فالنسيبُ يُطاوعه
ويا آخر الأدواح فيها يُظلُّها   وحيداً وأبياتُ القريض سواجعه
ألمَّ بنا غُبْرُ القلوب لأنّه   إذا شَحَّ نهرٌ قيَّدَته ضفادعه
وآهلةٌ منّا الخيامُ فمَرْجُها   زنازينُ كيف المرجُ طبّق واسعه
وآهلةٌ منّا الخيامُ وأهلُنا   شَتاتٌ وباقٍ من صبانا مراتعه

(*) موسى الزين شرارة الشاعر العاملي المعروف، هو خال الشاعر. توفي في تشرين الثاني ١٩٨٦ ونشرت هذه القصيدة في مجلة الكفاح العربي بعد أسابيع من وفاته.

وتـذكُـره عـهـدُ الخِـيـام وخـيّـلُكم تسـوق إلـيـهـا الأنس وهـي تـشـايـعـه
يَبَشّ لكمْ عـبـدُ الـحـسـين تحـرّقَـتْ من الـصـفـديّات الـحـسـان أصـابـعـه
وتـذكـره عـهـدُ السُـجـون تـألَّـبَـتْ عـلـيـه بـلايـانـا فـغُـمَّـت سـواطـعـه
وأذكُــرهــا أنـصــارُ يـومــاً ولـيـلـة أحـاور فـيـهـا الـخـوف والـطقسُ رادعـه
أقــول بـراريـنـا وهـذا نـسـيــمــهــا أنـا اشـتـقـتـه أنَّـى يـجـيءُ لا أدافـعـه
فـيــا تَـاجَ نـاديـنـا وغــرسـةَ بَـرِّنـا ويـا سـرِّنـا الـمـكـنـون شـفَّـت بـراقـعـه
رَبـيـتَ تـعــادي مـن يُـصـعِّـر خـدَّه لدى جـبـل يُـخـزي الـشـمـوخَ تـواضـعـه
لـدى جـبـلٍ لـم يَـزْدرِ الـعـقـلَ زيـنـةً ولـم يـسـتـفِـدْ بـالـعِلم مـا لا يـضـارعـه
لـدى جـبـلِ الـتّـقـوى يـراهـا رَهـافـةً فـتُـطـرق مـن فِـجِّ الـصـراخ صـوامـعـه
يُـحـاذِرُ فـي الـذَّرِّ الـلـطـيـف جَـريـرة وتطلُـب فـي الحقِّ الـحِـمـامَ سَـمـاذعـه
وتُـنْـعِـشُ فـي ضـوء الـنـجــوم دُروبَـه طـيـوفٌ تـخـفـتُ فـي سُـراهـم مـواضـعـه
فـإن فـتّـقَـتْـهُ الـشـمس بانت جسومُـهم نـفـوسـاً وقـد ضُـمّـت عـلـيـهـا أضـالـعـه

* * *

وودّعْـتَ لـبـنـانـاً جـفــا عـنـه أهـلُـه تَـوَزَّعــهـمْ مـن كـلِّ أفـق مَـنـازعـه
يـدافـعُ فـيــه نـاهـشٌ كـيْـدَ نـاهـشٍ فـيـدعــو الـذي ولّـى وذاك يـمـانـعـه
تُـراهـا تَـرُدّ الـغــائـلات تـخـومُـه وسـاحـاتُـه مـسـبـيّـةٌ ومـخـادعـه
ومــا سُــرَّ إلا مــن غــزانـا وسـامَـنـا وأُحْـبِـط قـالـيـه وخـابَ مُـوادعـه
وصــار يـؤاخـيـنـا أخــو الـبُـعْـد عَـنْـوةً كــأنَّ أبـانـا تُـسـتـعــار مـراضـعـه
ويَـحْـمَـد فـيـنـا الـذئـبُ نـابَ ولـيِّـه لـئـلاّ تُـرى أضـراسُــه وقــواطـعـه
وضــاقَ بـنــا ربٌّ ألـفْـنـاه واحــداً فـألْوى وأسـيـافُ الـطـمـوح صـوادعـه

* * *

سـتـأبى دمـوعـي أن تـظلَّ أليـفـتـي وأمــلأ كــأسـي لـلـهـوى وأصـانـعـه
فـتـدمعُ عـيـنٌ أنكـرَتـهـا دمـوعـهـا ويـحـزَنُ قـلـبٌ غـادرَتْـه مـجـامـعـه
ومـــا كـنـتُ نَـدّابـاً ولـكـنّـه الـرّدى يُـراودنـي عـن صـورتـي وأنـازعـه
ومـــا الـمـرءُ إلا فـي وجـوهٍ قـلـيـلـةٍ مَـصـارعُـهـا فـي كـل دارٍ مـصـارعـه

أحمد عبد اللطيف بيضون

يا شاعر الشعب

خذني برنّةِ حرفٍ أنت قائلُهُ ... وليحتفلْ كَوْنُ شعرٍ أنت بُلْبُلُهُ
وليأتلقْ كلُّ ركنٍ فالربيع شذىً ... ومهرجانُ ورود شعَّ مَقْبلُهُ
وليملأ الحبُّ خفْقاتِ القلوب جوىً ... ولْيَرْتَضِعْ كلُّ ثغرٍ ما يقبّله
ولْيغنجِ الحسنُ يغري، ولْتَذُبْ مهجٌ ... لنا الجمال وما ضمّت مخامله
وساحرٌ أنت لو تشدو فترقصُه ... وقادرٌ أنت لو تبغي فتحمله
إلى الأعالي الأعالي حيث يطربها ... الملائكُ الحور تنزيلٌ ترتّلُه
خذني أقُلْ لكؤوس المشتهى ائتلقي ... بالأطيب الأطيب المسحور سَلْسَلُهُ
ويا عتاقَ الخوابي قهقهي كرماً ... من أكؤسِ الشرب طيباً شعَّ سائله
وكرّري ثمَّ زيدينا فَرُبَّ غدٍ ... على الأحبّة لم تطلع أصائله
خذني بكأسٍ: لهاثُ العتق أترعَها ... بالشّهد، والحبَبُ الماسي يكلّله
كأسٍ، وصادٍ نديمي، والطّلى كرمٌ ... وليلُهُ أكؤسٌ تترى وتوغله
في نصف إغماضة توهي الجفون فلا ... كرًى يريحُ ولا صحوٌ يحاملُه
يهمّ! لكن.. لماذا؟ حسبه انطلقت ... أحلامه وقواه ليس تحمله
والكأس ما زال فيها ما يراوده ... يريدها ثم لا تقوى أنامله
خذني بحرفٍ وأبعدني ثرىً وهوىً ... عن عالم نزحت عنه عنادلُه
تعوي به داميات الغاب جائعةً ... ويخنق الليلَ بالأنّات مُعْوِلُه
تُمزِّقُ النورَ في أرضي قذائفُه ... وتحرق الصمتَ في ليلي قنابله
وتستبيح دوامي الشوك جنّتَهُ ... وتستحيل خراباتٍ منازلُه
ما قيمة الروض يا روضي إذا يبسَتْ ... أزهاره ونَأَتْ عنه بلابلُه؟!!
يا والغاً بدم الأطفال تشربُه ... ولحمهم، فلذاتُ الورد، تأكلُهُ
هل طاب للقاتل السفّاح مشربُهُ؟ ... ومن لحومِهمُ هل لذّ مأكلُه؟
والجوع يَمضغُ أثداء الحياة فلا ... يدنو الرغيف ولا الأيدي تطاوله
والعامل اليائسُ، الأيامُ تسحقُه ... عبءُ الترقّب والاعباء تقتله
ماذا إذا أيْأسَتْ آلامُهُ غَدَهُ ... ماذا إذا جنَّ في كفّيه معوله؟
والحقل منذ الليالي السود ما رقصَتْ ... فيه الشتول ولا مالت سنابلُه

حتى متى؟ ورماد الهجر يخنقه ... ماذا وماذا إذا اصطكّت مناجله؟

... يا شاعر الشعب، شعبي، والجنوب هوىً ... عَبْرَ الثمانينَ عشقاً كنت تحمله

أطْلَقْتَ شعرك أقماراً تنير له ... دروبه نحو غايات وتوصله

يا عمّ إنك فينا عمرُ كل فتىً ... «مناقباً» فَخُرَتْ فيما نزاوله

فلا الثرى ضم خُلقاً كنتَ نَيِّرَهُ ... ولا الثرى ضم شعراً أنت مرسلُه

وعمرُك امتدَّ، أجيالٌ تتابعه ... وقلبُك الجود لا جفّت جداولُه

وشعرُكَ الشعرُ، نحن الناطقونَ به ... ونحن صوتُك، نعليه، نُجَلْجله

ونحن أصداؤك النشوى نردّدها ... ونحن لحنُك نشدوه، نرتّله

الوارثو خُلُقَكَ الصافي، نتيهُ به ... والوارثو وحْيَكَ السامي نعندله

الوارثوكَ غراماً للجنوب، جوىً ... ملءَ القلوب جراحاتٍ ونحمله

تحسين شرارة

موسى الزين شراره
الشاعر الذي رحل

... وقبل أن يكون الجنوب جُرحاً نازفا ملتهبا في جسد الوطن... كان هو نَفْسَهُ وجَعَكَ الكبير... حَمَلْتَ آلامه منذُ فَتَحْتَ عينكَ على معاناته، وغنّيتَ أحزانَه المتماديَة ولمّا تَزَلْ يافعاً...

يومَها... يا أبا عدنان.. كان الجنوبُ زاويةً مهملةً على خريطة الوطن، تركه الأتراكُ قابعاً في الجهل والتخلف والنسيان، غارقاً في الفقر والحاجة، مبتوراً عن محيطه، ومحكوماً بعصبية متسلّطةٍ تخافُ نسيمَ الحرية وضوءَ الشمس.

كان هذا الجنوب أسير جهالة سياسية واقطاعٍ ظالم، شمل مختلف نواحي حياته الثقافية والاقتصادية والاجتماعيةً، حرَّمتْ عليه تعلمَ اللغات الأجنبية، كما حظرتْ تعليم المرأة ومنعت عليه حتى قراءة الصحف.

هذا الجنوب لم يكن أسعد حظاً مع فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى فدخلتْهُ بتجبّر الفاتحين بعد إثارة الفتن الطائفية وفرضت عليه - رغم إملاق أهله - الجزيةَ والإتاواتِ والضرائبَ، وعاملتْه بقساوة وفظاظة وكبرياء، وسلّطَتْ عليه إقطاعاً ظالماً ومندوبين قساة.

ومن وسط الأوجاع والأحزانِ والظلم والتجبّر، والقهر والإذلال، ومن محيط الفقراء والمعوزين والفلاحين الكادحين برز موسى الزين شرارة، يغنّي بشعره وجع الجنوب، ويقارع بنضاله المتسلّطَ والعميلَ والخائنَ والاقطاعيّ... وقف أبو عدنان يناجز الظلم والجَوْر، ويرفض التقوقع السياسي والديني، ويدعو للتحرر والثورة، يدعو لتحطيم الأصنام والتخلص من العبوديات، ثار على الاقطاع السياسي وتشنّج رجال الدين، ثار على العصبيات الضيّقة وسياسة الأزلام والمحاسيب ودعا لتحرير المرأة من عبودية الرجل والجهل والحجاب.

خرج أبو عدنان مع رفاق له، أمثال علي بزي وعبد الحسين عبد الله والحاج علي بيضون وسواهم، يتصدون للعقلية المتحجرة التي لو استطاعت أن تحجّب الرجل لما ترددت، ولو قدّر لها أن تمنع نسيم الحرية لما قصّرت... وتكتلت يَوْمها قوى التخلف

ضد تيّار الشباب الصاعد واصطدمت بهم ولاحقتهم السلطة وألقت بهم مراراً في السجون والمعتقلات، وسامتهم أنواع العذاب، فما ازدادوا إلا عناداً وايماناً بسلامة نهجهم، ونقاء دعوتهم.

ومن معتقل الميه وميه وسجن صيدا وحبس الرمل كانت تزداد صلابة الثّوار، حتى تجاوب مع نداءاتهم جبل عامل والجنوب والعاصمة وكل زاوية تمور بالتحرر، وراحت اشعار موسى الزين شرارة وعبد الحسين عبد الله ورفاقهما تتردّد في جنبات الوطن، ويتجاوب صداها في ربوع البلاد وتهزأ بالسجان:

لا السجن يثنينا ولا الارهاب ... ما شئتَ فاصنعْ ما عليك عتابُ
إسجنْ وشرّدْ ما عليكَ غضاضة ... أنّى يكونُ الليثُ فهو الغاب
ليس العقابُ سلاسلاً أو ظلمةً ... يا سجن... بل وخز الضمير عقابُ

وبقي موسى الزين شرارة طيلة شبابه يغني الجنوب، ويقارع الاقطاع ويحارب الاجنبي... اصطدم بمندوبي السلطة وبالسياسيين والمحاسيب والأزلام وحتى برجال الدين الذي سكتوا على تجاوزات هؤلاء وقهرهم للشعب، وكانت معركةً قاسيةً كفّروه فيها وأهرقوا دمه... وبقي صامداً كالطود يدافع من قناعاته وأفكاره، يدعو لطرد المستعمر وتحرير الوطن والمواطن؛ يدعو للعمل على إخراج المرأة من سجن البيت الى دنيا الحياة الواسعة، يدعو للثورة على التخلف والظلم والقهر.

وبقي أبو عدنان طيلة عمره مسكوناً بهمّ الجنوب ووجع الجنوبيين... حملهم في قلبه وسواد عينيه وترنّم بصفاء طويتهم وكبرياء صبرهم.

أيها الشعب يا حبيبَ فؤادي ... أنتَ أنتَ المنى وأنتَ الرجاءُ
أنا قيسٌ وأنت ليلى غرامي ... لك شعري وصبوتي والغناءُ
فلعينيكَ للقوافي مديحٌ ... ولعينك للقوافي هجاءُ
ولعينيك هدأتي وسكوني ... ولعينيك ثورتي الحمراءُ

ويا أبا عدنان

الجنوبُ الذي وقفتَ عمركَ تغنّيه وتترنمُ به ما زال على صليبه ولو تغيّرت الوجوه.

الجنوب الذي كان يئنّ من الاجنبي وأزلامه وعبيده ما زال ينزف دماً ولو اختلفت الأدوار.

جنوبك يا أبا عدنان ما زال جرحَ الوطن المفتوح وشلاّلَ الدم الهادر - على أرضه يُمارسُ أعتى أنواع العذاب وتُسجَّلُ أنبلُ أساطير البطولة.

جنوبك هذا غدُ الصابرين الواعد وأمل الوطن المُنْتَظَر

وبعد... ها أنت ترحل يا عماه وفي قلبك غصّاتٌ وأوجاع، وفي فمك شجىً لا ينتهي... فالوطنُ الذي حلمتَ به تناهَشَهُ حرّاسُ الهيكل، والشعبُ الذي غنّيت آلامه يئنّ تحت شِعار السفاحين.

نحن من هنا، من بيروت ترحل عيوننا وخيالاتنا إلى حيث أنت... ترحل الى بلدتنا بنت جبيل الأسيرة في أقصى الجنوب ونصلّي ليوم الخلاص، فقد طالَ الأسر، ووجعُ الأوطان أشدُّ إيلاماً، ولا يُدْرِكُهُ إلا المهجَّرون البعيدون.

إحسان شرارة

النهار ١٩٨٦/٩/١٣ ص١١

عماد حسن شرارة أديب ناشىء رشيقُ الريشة، شيِّقُ الأسلوب، أنيُق العبارة، يُجيدُ اختيارَ الكلمات، يسكُبُها في قالبٍ فني رفيعٍ ليوائمَ الفكرةَ، ويبرزَها مشرقةً بوضوح القصد وحلاوة الأداء، هو ذوّاقةٌ موهوبٌ، دَرَجَ في بيت ارتاحَ فيه الأدبَ وأقام، لا تكادُ تسمعُ في رحابهِ إلا أحاديثَ الثقافة وأنماطَ الفنونِ وندواتِ الشعر. أمُّهُ (مجديّة) البنت البِكرُ للشاعر والتي أحبَّها كروحه وصوّر بوجع لا يُنّسى بكاءَها عند وداعه لها، وأبوه حسن شرارة مثقفٌ بامتياز، قارىءٌ نهم، محدثٌ لبق وراويةٌ يغرف من بحر، حُلوُ الحديث يأخُذُكَ معهُ ويُمْتِعُكَ ويأسرُكَ عندما يُبدي رأياً أو يناقش موضوع أدب.

وعمه إبراهيم الشاعر الوطني صاحبُ القامةِ اللافتة والصوتِ الهادر الذي عبَّرَ بصدقٍ عن مشاعر الناس وطموحاتهم وآمالهم وآلامهم وكان باستمرار أميراً من أمراء المنابر. وجدُّهُ لأمه موسى الزين شرارة الشاعر الوطنيّ المتمردُ الثائرُ الذي وقف حياته مناضلاً مكافحاً في سبيل تحرير وطنه من الانتداب والاستبداد والتخلف والجهل، وتحمَّلَ جميعَ صنوف المضايقات من اعتقالٍ وسجنٍ ومحاولاتِ اغتيال وتهجير، فما هادَنَ ولا ساوَمَ ولا تراجَعَ، وإنما بقيَ يقارعُ بالموقفِ الصامدِ والقصيدةِ الهادفةِ الملتزمة...

وفي وقت لاحق عندما شبَّ ولدا الشاعر عدنان وغسان استمر هذا البيتُ مركز نضالٍ وخليةً هادرةً للنشاط الوطني.

في هذا الجوّ الأدبي الفريد دَرَجَ الطفلُ «عماد» وشبَّ وكبر ووعى، وحَمَلَ من كلِّ هؤلاء موروثاً غنياً ظهرتْ بوادرُهُ باكراً وراحتْ تنمو وتتعمق وتظهر...

عماد شرارة أديبٌ مثقف، خفيفُ الظل، أنيسُ الحضور، لطيفُ الحديث، ترى فيه الأبَ والعمَ والجدَ والخالَ وإرثاً لافتاً من العائلة التي ينتمي إليها، وها هو يحدثنا عن جده:

في بيادرنا حبوبٌ شاعرةٌ كُرْمَى لمنقارِ بلبلٍ غنَّاء وعلى مداخلِ قُرانا التي افْتَرَشَتِ الذُرى والسفوحَ أدراجُ وردٍ وجوقاتُ ناي وطلعاتُ «ميجانا»، وتحت الأرضِ حيثُ موتانا لا تطمئنُّ نفسٌ لهم أو تكونُ راضيةً مرضيَّةً إلاّ إذا رقدتْ تحت بلاطةٍ دُوِّنَ فوقها أبياتٌ من الشعر.

نحنُ محاصرونَ بالشعرِ وبالكلمِ المُقفّى، نولدُ ونموتُ على سنفونيّتهِ، فلا سلطة أقوى من سلطانه ولا مأوى لنا خارج ما بناهُ الخليلي لنا من بيوت...

وإذا كان العربُ جميعُهُم ربحوا رهانَ الشعر وأبديّتَهُ فإنّ أهلَ بلادِ «عاملةَ» اتخذوا من الشعر وطناً لهم، سكنوهُ واستقروهُ وشهروا بطاقات انتمائهم إلى جمهوريته، إنهم قد نزلوا بيوت القافية فاذا هي لهم دارٌ للبقاء والفناءِ في آن... فالكثيرُ من شهداءِ «عاملة» الذينَ قضوا دفاعاً عن مجدها وتاريخها كانوا شعراءَ ينظمونَ الوطن في اكتمالات القمر أجمل كلام، ويتركون لكعب الخيل شيطانَهُ حينما يحتلكُ الأفقُ بتباشير الغزاة... الوطنُ الحرُّ في وجدانهم قصيدةٌ، ومقاومةُ الغازي والمحتل والإقطاعي أجملُ قصيدة، والشهادة في سبيل الوطن والحرية والشعر هي كلُّ القصيدة... من هؤلاء الشعراء موسى الزين شرارة، فأبو عدنان جبلٌ شاعريٌّ من جبل عامل الشعر، وأجملُ ما في موهبته أنّها تعجنُ الكلامَ الوطنيَّ والنهضويَّ في مرجانٍ من الذهب، وأنّها تحوّلُ الحياةَ المُعاشةَ إلى نهرٍ من موسيقى الحريّة وتأخذُ الناس الطيبين الشرفاء من ايديهم ومن منازلهم ليقطنوا شرفات العنفوان وسطيحات القمر.

وهكذا تصبح شاعريتهُ نمطاً مُعاشاً يُراقصُ المعاني ويُغازلُ كلَّ ما في مَدىَ النظر.

لقد نجحت موهبة موسى الزين شرارة في جعل المادة التُراثيّة القديمة تَنْزلُ من برْجها الفصيح العالي ومن قصورها الخليليّةِ الشاهقةِ لتتفاعل مع الناسِ على مدرجاتِ مطالبهم الإجتماعية والحياتيّة والوطنية ولترقص معهم على ايقاعات آمالهم وتخيُّلاتهم وأحلامهم الرقيقة البريئة الناعمة.

لقد عرفتْ «عاملةُ» خاصةً والجنوبُ ولبنانُ عامّةً موسى الزين شرارة شاعراً

وطنياً تغييريّاً لهُ قامةُ المنبر وفيهِ ما فيهِ من أخلاقهِ وخصوصيّاته وتحدّيه وعنفوانه. إنّهُ الذي حمل على كاهليّه عبءَ مقاومة ديموقراطيةٍ عزَّ نظيرُها في زمنٍ كان الركون والخنوع سِمَةَ الحقبةِ ووجهة نظر العصر. فكانت جبهتهُ موطناً لصقور الذرى، فهو الطوّاف في حَجِّ الشعرِ وعُمْرةِ الثورةِ على رجال الإقطاع، إنّهُ الذي وُلد من خياله وعاش قصائدهُ خطراً مكتوباً فوق راحتيه... لم يكن موسى الزين شرارة شاعراً كأترابه يرشو الفكرة بل كان يفاتحها بحبِّه وبثورتِه وبإيحاءاته التغييريّة - فحينما كان يسيرُ كان الجبلُ هو ظهرهُ، والأثلامُ إيقاعات خطواتِه، وكان الناسُ هم كلّ قصائده... في عصرهِ لم يكنِ العامةُ هم موضوع الشاعر ولا منتهى القصيدة، ولكنَّ أبا عدنان فتح أبواب قصائده أمامهم فدخلوها بسلامٍ إلى واحاتِ الوعي الوطنيِّ والثقافيِّ المُبكر. لذا يستحقُّ موسى الزين شرارة أن نُرصِّعَ صدرَ روحِه الآنَ بنجومٍ نحلمُ بها؛ أوليْسَ هُو الذي أعطانا من خيالِه واستشرافِهِ المُحقّق لحظاتٍ عشْنا فيها على بساطِ ريحِ الحرية.

أوليسَ هو الشاعر الذي حوّل حياةَ «عاملة» إلى لغةِ ثورة، وسلطةِ شعر، وقدّم لنا دعوةً مفتوحةً لِنحمل البنادقَ ونتوجَّه نحو التحرير والشهادة ولِنعيش مع أحلامِهِ عمراً شاعريّاً داخل عمرنا المُتّعب؟...

عماد حسن شرارة

١٥ - ١ - ٢٠٠٢



خريطة المتصرفية

حتى لا ننسى هذه التواريخ

١٠٩٥/١١/٢٧	في كاتدرائية كليرمونت في فرنسا فَجّرَ البابا أوربان الثاني في خطابه ما عُرف باسم الحروب الصليبية.
١٠٩٩/٦/١٥	سقوط القدس بيد الصليبيين
١١٠٠	خضعت بيروت لحكم الصليبيين
١١٠٩	سقوط طرابلس بيد الصليبيين وكانت عاصمة إمارة بني عمّار، والميناء الأكثر نشاطاً في سوريا، وقد قاومت طيلة عشر سنوات، واحترقت مكتبتها الشهيرة أثناء نهب المدينة.
١١١٠	استسلمت صيدا بعد حوالي ستة أشهر من الحصار.
١١٢٤/٧/٧	سقوط صور بعد حصار دام خمسة أشهر
١١٦٧	وحد نور الدين زنكي مصر مع بلاد الشام
١١٧١	خلع صلاح الدين الأيوبي الخليفة الفاطمي (العاضد) ورفع شعار الخلافة العباسية وتمَّ القضاء على المذهب الفاطمي في مصر.
١١٧٤	جعل صلاح الدين قاعدة مُلكه في دمشق.
١١٨٧/٧/٤	معركة حطين قرب طبرية.
١١٩٢	الهدنة بين صلاح الدين والصليبيين (ريكاردوس قلب الأسد وسواه)، لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر. سُمح فيها للصليبيين بزيارة بيت المقدس دون ضريبة يدفعونها، وقد أُقرّوا على ما بأيديهم من البلاد الساحلية.
١١٩٣/٣/٤	وفاة صلاح الدين الأيوبي
١٢٥٠	قُتل طوران شاه آخر سلاطين الأيوبيين
١٢٥٨	سقوط بغداد بيد المغول وإلغاء الخلافة، وقتل آخر خليفة عباسي (المُستعصم بالله).
١٢٥٩	فلاوون ينتصر على المغول قرب مدينة حمص.
١٢٦٠/٩/٣	معركة عين جالوت وانتصار المماليك على المغول.
١٢٨١	سقوط حلب بيد المغول ونهبها.
١٢٨٥	عقد السلطان قلاوون هدنة لعشر سنوات مع ملكة صور مرغريت.

١٩ أيار ١٢٩١	سقطت صور الصليبية بيد الملك الأشرف.
١٢٩١	سقطت جميع الممالك الصليبية في سوريا
في القرن الرابع عشر	هدم المماليك مدينة صور واستمرت خراباً حوالي خمسة قرون (من ١٢٩١ حتى ١٧٦٦م)
١٢٩٢ - ١٣٠٥	الحملات المملوكية على كسروان
١٥١٦	معركة مرج دابق وانتصار السلطان سليم على المماليك
ناصيف النصّار وأشهر معاركه التي انتصر فيها	- معركة البحرة ٣٠ /١٧٧١/٨ تحالف النصار مع ظاهر العمر ضد عثمان باشا والي دمشق ... - معركة النبطية كفرمان ١٧٧١/١٠/٢٩ ضد الأمير يوسف شهاب. - معركة حارة صيدا وسهل الغازية ١٧٧٢/٦/١٠ ضد الاثنين السابقين. (الأمير يوسف وعثمان باشا). - استشهد في معركة يارون سنة ١٧٨٠م.
١٨٠٤	توفي أحمد باشا الجزار(أنهك جبل عامل خلال ربع قرن قتل الكثير من زعمائه وعلمائه وأحرق مكتباتهم).
حمد المحمود (حمد البيك) ١٧٧٥-١٨٥٢	- أبو فدعم، حارب المصريين وانتصر عليهم، واتخذ من قلعة تبنين مركزاً لحكمه توفي ١٨٥٢ - خلفه ابنُ أخيه علي بك الأسعد (١٨٢١ - ١٨٦٥) وحكم ١٣ سنة - حُكم بعده جبل عامل مُباشرة من قبل الأتراك.
١٩٠٨	الانقلاب العُثماني (خُلع السلطان عبد الحميد في ٣١ آذار ١٩٠٩ ونُفي إلى سالونيك).
أواخر آب ١٩١٥	عُلق عبد الكريم الخليل وعدد من رفاقه.
١٩١٥/١١/٢	بدء المُباحثات في لندن بين سايكس بيكو سازانوف، وُقّعت الاتفاقية في ١٦ أيار ١٩١٦، (بموجب هذه الاتفاقية أقرت بريطانيا لفرنسا بحق الاستيلاء على جميع المناطق السورية الواقعة غربي حلب وحماه وحمص ودمشق باستثناء فلسطين، وكانت بريطانيا - قبل عقد هذه الاتفاقية - قد صارحت الشريف حسين بما لفرنسا من مصالح في تلك المنطقة...

	وبالإضافة إلى ذلك أوضح السير هنري مكماهون المعتمد البريطاني في مصر للشريف حسين في المفاوضات التي أدت إلى الثورة العربية، أن سوريا الغربية لا يمكن اعتبارها عربية صرفاً، مما يحول دون ضم هذه المنطقة إلى المملكة العربية، التي اقترح الشريف حسين قيامها...) وأصر الشريف من جهته على عروبة سوريا الغربية ووجوب ضمها إلى المملكة العربية... وحالت بريطانيا دون أن يحصل على ضمانات منها حول هذه المسألة.
١٩١٦/٥/٥	جمال باشا علّق القافلة الثانية من الشهداء في كل من بيروت ودمشق.
١٩١٦/٦/١٠	ثورة الشريف حسين ضد الأتراك
١٩١٦/١١/٥	نادى بنفسه ملكاً على البلاد العربية
١٩١٧/١١/٢	وعد بلفور
١٩١٧/١٢/٩	احتل الجنرال اللنبي القدس
١٩١٨/٩/١٨	معركة مرج إبن عامر (شمال فلسطين قرب طبرية وهزيمة الجيش التركي)
١٩١٨/١٠/١	دخلت طلائع الجيش العربي دمشق
١٩١٨/١٠/١٨	دخول الأمير فيصل دمشق (شكل الأمير سعيد الجزائري الحكومة العربية في دمشق، وشكل عمر الداعوق الحكومة العربية في بيروت، وتشكلت حكومة صور برئاسة الحاج عبد الله يحيى الخليل، وانتخب أعيان صيدا رياض الصلح لرئاسة حكومتهم).
كانون الأول ١٩١٨	انخفضت العملة التركية من مئة قرش ذهبي يوم صدورها ١٩١٥ إلى تسعة قروش فقط.
١٩١٩/١/١٨	مؤتمر الصلح في باريس.
١٩١٩/٤/٣٠	زار الأمير فيصل بيروت لثلاثة أيام وانتقل منها إلى دمشق.

١٩١٩/٦/٧	عُقد المؤتمر السوري العام في دمشق. (حضره نواب من لبنان وسوريا وفلسطين)
١٩١٩/١١/٢١	الجنرال غورو يصل إلى بيروت (قائداً أعلى للجيش ومفوضاً سامياً على لبنان وسوريا).
١٩٢٠/٣/٨	بويع الأمير فيصل ملكاً على سوريا
آذار ١٩٢٠	إحضار بعض أعيان جبل عامل إلى جسر الخردلي لتأييد سياسة فرنسا
٣١/آذار/١٩٢٠	اصدر الجنرال غورو قراراً اعتبر بموجبه ورق المصرف السوري العملة الرسمية في المنطقة العربية اعتباراً من أول أيار سنة ١٩٢٠
١٩٢٠/٤/٢٤	مؤتمر وادي الحُجير
١٩٢٠/٤/٢٥	مؤتمر سان ريمو في إيطاليا إقرار انتداب فرنسا وبريطانيا.
١٩٢٠/٥/٥	نكبة عين إبل.
١٩٢٠/٥/١٨	حملة نيجر على جبل عامل (استمرت حتى ٣ حزيران).
١٩٢٠/٥/٢٤	حريق بنت جبيل من قبل الجيش الفرنسي.
١٩٢٠/٦/٤	نيجر يجمع وجوه الشيعة في صور ويقرّعهم.
١٩٢٠/٦/٥ (بعد شهر على نكبة عين إبل)	اجتماع (انطش) صيدا في مطرانية الكاثوليك وفرض العقوبات الظالمة على جبل عامل،
١٩٢٠/٧/٢٤	سقوط الشام وحكومة فيصل بعد معركة ميسلون واستشهاد يوسف العظمة.
١٩٢٠/٧/٢٤	إقرار عصبة الأمم لصك الانتداب.
أول أيلول ١٩٢٠	إعلان ولادة لبنان الكبير.
ترسيم حدود جبل عامل:	- اتفاقية بوليه نيوكمب Paulet - Newcomb في ٣ شباط ١٩٢٢ وقد أبرمت في ٧ آذار ١٩٢٣، وأصبحت نافذة بعد ثلاثة

	أيام، وبموجبها سُلخ عن لبنان شريط طُوله ٢٢كلم، وعرضه ١٤ كلم ومساحته ٣٢٥ كلم٢ وضم إلى فلسطين - اتفاقية حُسن الجوار ٢٣/حزيران/١٩٢٣ جرى التنازل بموجبها عن المنطقة اللبنانية من الحولة وفَقَدَ لبنان بنتيجتها مساحةً بلغت ٢٣٠٠٠ دونم، وأخذت الحدود شكلها النهائي في نيسان ١٩٢٤. - مُعاهدة القدس في ٢ شباط ١٩٢٦ تم بموجبها الضم الفعلي للقرى السبع والمزارع اللبنانية. في سنة ١٩٣٤ صدقت عُصبة الأمم على اتفاق ترسيم الحدود النهائي بين بريطانيا وفرنسا المُنتدبتين على لبنان وفلسطين **ملاحظة:** عندما وقع لبنان على اتفاقية الهُدنة مع إسرائيل في ١٩٤٩/٣/٢٣ حرص على الاعتراف بحدوده السياسية المُعترف بها دولياً لكن الدولة اليهودية لا تزال حتى تاريخه تُصادر مساحات من الأراضي اللبنانية وتمنع المواطنين اللبنانيين من استعمال واستغلال الأراضي التي يملكونها.
١٩٢٤/٨/٣٠	جرى الإحصاء العام للسكان
١٩٢٦/٩/٢٣	أُعلن الدستور اللبناني.
١٩٣٦/٣/١٠	عُقد مؤتمر الساحل في منزل السيد سليم علي سلام.
أول نيسان ١٩٣٦	أحداث بنت جبيل ضد شركة الريجي وسقوط ثلاثة شُهداء
تموز ١٩٣٦	مؤتمر صيدا
٢٣ تشرين الأول ١٩٣٦	المؤتمر الإسلامي في بيروت
٨/آب/١٩٣٧	مؤتمر بلودان.

موسى الزين شرارة

الشاعر الثائر

في محيطه العاملي

مسودة محاضرة
وقصائد بخط الشاعر

١- طفولتي مولدي

ولدت عام ١٩٠٩ في ... أدخلني الوالد الكتاب [illegible] — هو الكف الكتاب

وعمري [illegible] . الحفظ في الشاه: سورة «عم» «عمة» «الضحى» [illegible] — الى عمه

حتى [illegible] على العلم [illegible] —

٣- الكتابة على لوح التنك [illegible] — والقاعدة في رأس هذا اللوح كتبها الشيخ وغالباً ما تكون بيت من الشعر: «تعلم يا فتى فالجهل عار ولا يرضى به إلا الحمار»

أو - «تعلم العلم وكن أميراً ولا تكن جاهلاً ترعى الحميرا»

٢- الخط الديواني: بقلم غزار ريح الريشة (بالحبر أو بالكحل المذاب) (الشيخ الذي يعلم هذا الخط كان قاسياً)

٤- الدوام: وهو عشر ساعات تقريباً بدون فرصة من السابعة حتى الثانية عشرة ومن الواحدة حتى السادسة الجلوس على الحصيرة وعندما يضجر التلميذ يرفع يده للأفرصة لقضاء حاجة - وهذه مهمة صعبة

- بعدها المدرسة التركية الرسمية التي ابتدأت ١٩١٢م وأقفلت ١٩١٨م بعد هزيمة الأتراك. طلابها يقارب عددهم المئة وكان المعلم نزلاً أحداً يدعى عبد الهادي خليل من أقارب الشهيد عبد الكريم الخليل وكان لكل يوم - وهو عازب - يأتيه عدد من الطلاب بأكله اليومي وهذا الأكل لم يكن من نوع واحد فأكثره طبخة وبرغل وكان يمزج هذا الطعام ويضعه على النار فسمى الطلاب هذه الطبخة طبخة عبد الهادي. -

- أذكر أني ضربت مرة فسببت لي قصاصاً قاسياً من والدي. كنت أخاف أن يتقدمني أحد من رفاقي وفي أحد الامتحانات كان السباق بيني وبين تلميذ من قرية مارون الراس يدعى ملحم حمادي وهو الآن صديق ومن خوفي أن يتقدمني أجهشت بالبكاء لأن العلامات كما بمجموعها ٢٦٠ من ٢٦ درساً وكان فوزي أخيراً على علامة واحدة. بعد هذا دخلت الحرب الأولى ولا أراني بحاجة إلى الخوض في هذا الموضوع فقد سبقني إلى ذلك كثيرون كالأستاذ سليم الزين، الأستاذ المحامي فؤاد الخوري الأديبة عنبرة سلام. لكن لابد لي من التنويه بما كنت أشاهده في الجوع من استبداد الجندرمة (قتل الفارات مثلاً ... جمل البيدق اصطلات لمن لا يدفع البلصة، ... القرعة للإعدام شمل حسين حجازي من عيناتا - حسين الحمد من بنت جبيل - إعدام جواد فضل الله من عيناتا)

- بعد إقفال المدرسة استعضت عنها بمجالس المشايخ والفقهاء الذين كانوا يتدارسون الشعر

- ثم حل الانتداب الفرنسي - استقلال سوريا في عهد فيصل - الانتداب الفرنسي في لبنان - العصابات [illegible] الغاية من وجودها إثارة الفتن في البلاد العصابات الشيعية تعتدي على المسيحية والعكس كذلك. [illegible] أدى ذلك إلى صدامات دامية بين ... أخطرها غزو عين إبل سنة ١٩٢٠. وقصف بنت جبيل وفرض غرامة عليها ١٥٠ ألف ليرة عثمانية ذهباً وقد جمعت .. ٧ ألف بواسطة السماسرة وغيرهم. بعد هذا خرج الجيش لطرد العصابات في وقت قصير - وقد حكم بالإعدام في هذه الأثناء في بنت جبيل بالحاج محمد سعيد بزي (زعيم البلدة) وأخواه عبد الحسين وعبد الحميد ... والحاج [illegible] واكتفي [illegible]، كذلك حكم في ياطر الحاج محمد سويدان. بعد طرد العصابات واحتلال سوريا استتب الأمن تقريباً وصارت بنت جبيل تحاول الانتعاش على واقعها:

١ـ تأسس فرع حزب النداء القومي برئاسة المرحوم عبد اللطيف بزي وقد أسس مثله أيضاً في البلدة في ... آل بيضون برئاسة المرحوم أمين بيضون . والحقيقة المبكية أنهما كانا حزباً واحداً وصاراً أداة لتكريس الخلافات العائلية تحت كلامي .

ـ بعدها قامت حركة شبابية في بنت جبيل من الذين عادوا من الاغتراب أمثال المرحوم الحاج علي بيضون والمرحوم محمد سليم بزي ومن الشباب الذين ذهبوا وللمرة الأولى للجامعة السورية منهم الأستاذ علي بزي المرحوم الأستاذ ... حسين شرارة ـ الدكتور محمد علي عباس ـ الدكتور أنيس بزي ـ المرحوم حسن فياض ـ حسين سليم شرارة (أبو صباح) . بعد ذلك قامت الحركة الأدبية بتأسيس مكتبة التهذيب وقد دبت الخلافات بين الشباب الجديد الذين يريدون نشر العلم في المنطقة وبين المتنفذين الذين يرون فيهم أن العلم وقد ساعدهم المتنفذون كثيراً وعلى رأسهم مستشار في الجنوب يدعى «دي منكوف» وهذا الأخير كان يفرض على أبناء الجبل ... أن يقدموا الخيول والطبول والزمور وزغردة النساء . وذلك طبعاً بمساعدة المتنفذين . وصادف أن وقفت مرة ضد هذا الاستقبال وكنت في ذلك الوقت عضواً في البلد فما كان منه إلا أن أحالني إلى الرابا (سرد الحوار معه) وبعد ذلك قدمت استقالتي من البلدية .

ـ نتيجة علاقتنا بالمشايخ بدأنا نحفظ الشعر وكانت أول قصيدة نشرتها كانت بعنوان «دار العلم» (موضوع الوجه منها) . بعدها نشرت قصيدة ثانية عنوانها (أنا سوري) وعلمت أن المشوار بدأ مفتوحاً أنني اصطدمت برجال الدين بين تيار محافظ وتيار تجديدي في النجف الأشرف حيث تأسست عصبة الأدب العاملي وكان أبرز أعضائها المرحوم : الشيخ محسن شرارة ـ الشيخ علي الزين ـ الشيخ حسين مروة ـ السيد محمد الأمين ـ الأستاذ محمد شرارة ـ الشيخ عبد الكريم مغنية والسيد جعفر الأمين . وقد دعم هذه النهضة الجديدة السادة : الشيخ عارف الزين مؤسس العرفان والشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر وغيرهم .

ـ قبل هذه المرحلة ذهبت إلى فلسطين كتاجر وكانت هذه الرحلة مفيدة لي بحيث أن فلسطين كانت تتمخض بأحداث وقد عرفني بهذه الأشياء المرحوم الشيخ عز الدين القسام والشيخ كامل القصاب .

ـ سنة ١٩٢٥ ترشيح رياض الصلح ... بعد وفاة فضل الفضل ـ ضد فيلب ... شكوف ، ـ معارك الشباب الوطني في الجنوب ومساعدة المرحوم رياض الصلح أدى إلى ترشيح عبد اللطيف الأسعد فاحتدمت المعركة الانتخابية وخصوصاً في بنت جبيل ، حيث المنطقة مع رجل واحد وجاءت بخيولها وأهازيجها والتي أشهرها : «فشكون خرجولك سلطانا عبد اللطيف» ، «وبارودنا مربط خيلنا ورصاصنا زغزع جنيف» .

وكان الأسعد أن يفوز لولا التلاعب .

ـ عقد مؤتمر الوحدة السورية في صيدا برئاسة المرحوم عبد الحميد كرامي (القصيدة التي ألقيتها) :

«صيدا، أنت من الجنوب الغاب	الظفر أنت لعامل والناب
مثل اللباة أوانس وعقائل	وضيا غم الهيجاء منك شباب
أنيقظ عامل من عميق سباته	لا تقالي صولة القصاب»
وأحست فيه نفوس بوحدة	يا طالما حنت لها الأعراب
فتوحدت بعد الشتات صفوفه	باذا الجميع أحبة وصحاب

وحطمت علاقة كان من حلقاته بالشكوك والانقطاع والارتياب.

(الحديث بيني وبين المرحوم عبدالمجيد/ان بعد العشيرة .)

ــ كل هذه الأحداث أوجزت

ب. موسى عربيا ه

الرثاء

رثاء مجاهد

كتبتها ١٩٦١ والقيت في النادي الحسيني في حفلة اربعين المرحوم
التأبينية الكبرى التي اقيمت بها الصديق الحبيب المرحوم الحاج علي [illegible]

لا تنادي فلن يجيب المنادي ... اقفل الموت كعبة القصاد
مات خدن العلى فتى جهوتا ... واذرفي الدمع – يا [illegible] – يا فؤادي
والذي الخلود والإباء والسجايا ... والمعالي بالأريحي الجواد
ساعديني أوشك طريقي مصابا ... نار صدري به وناء فؤادي
كل ما في الوجود بات أمامي ... جنح ليل أو قطعة من سواد
هاهو الحي لا الديار ديار ... آهلات ولا النوادي نوادي
هاهو الروض لا الزهور زهور ... عاطرات ولا الشوادي شوادي
كل طير على الغصون غراب ... بعد شدو الهزار والانشاد

بالغ الروح يا أخي يا حبيبي ... يا رفيق الصبا وصنو الجهاد
يا صديق الصدوق يا خير خل ... يا مثال الوفا وحفظ الوداد
في رياض على الدوام – تناجي ... المنايا ونابغا وتنادي
صابح للأديب تشجي وتشقي ... للفتى الغبي من عذوب الشاد

لا تلمني إذا قصصت جناحي ... رغم عز الإباء ورغم عنادي
وأذلت الدمع الذي كم عنت ... لو تراه كجامر الحداد
كل يا كليك حبري بزاد ... وأنا الثاكل الوحيد بوادي
سوف أبكيك مابكي الثغر صفحاً ... عذري الإباء صعب القياد
سوف أبكيك مابكي الثغر صبحاً ... هام في حب أمتي وبلادي
سوف أبكيك مابكي الثغر عفواً ... عاش عيشة النساك والزهاد
ظل رغم الشقاء طود اباء ... بتمناه شامخ الأطواد
لم يداهن ولم يساوم دخيلاً ... وعمياه ولم يصانع معادي
عضه الفقر مالوى من جبينا ... بل تحداه في الإباء والفساد
عاش عيش البلاد عفا نزيها ... ما به أي منقذ وانتقاد
ما شكا دهره ولا قال أف ... كيف تشكو عواصف من رماد

يا حاكم للدهر – من قبل – أخي ... بعدك اليوم يا أخي من أنادي
ليت سهما أصاب مثلك فؤادا ... شاك شيئي من شتيتي ومرادي
ساعد الله مهجتي وعيوني ... بعد هذا النوى وهذا البعاد
هذه للبكاء شاخ وهذي ... لدموع مشوبة وسهاد
للصدى التقدير كم لك عندي ... من غرة وبيض أيادي

كنت مني كل قلبي مني — كنت مهد الهدى نحمل السواد
كنت نورا للحب يعرفني — ومنارا لشاطئ الخير هادي
كنت دنيا الربيع تفرش دربي — تختزن الجمال والاوراد
كنت صديقي ومساعدي ومحبي — كنت طقسي ورحمي ومدادي
كنت حسنا به الود الاذ ما — اعلنت حربا على السوادي
اين قلبي وحبا قديما — لست ادري من اتقي من اعادي
هل دربي ألباد حقد ولئم — هل لعلي من هذه الابعاد
ايما سرت ألسن كالافاعي — مرهفات وكالعوالي الصعاد
وقلوب مريضة وصدور — تحجر تنفخ باسم حقاد
وعيون ترنو الي بسخط — ماذا في اضعه ارض البلاد
ولصحب هناك الا تخال — ستعيد محطم ان استبداد
ليس يدعا اذا تحجم حربا — ورماني بالقاتلات الحداد
فالباغي والحق وغد وطاغ — ولئيم للمصلحات اعادي
ما لسينا صفيط معاويا (١) — ما لسينا الحسين (٢) وابن زياد
اين دنيا الاوغاد تدعي نسبا — ورحمتا للشر الاوغاد
واحتمي الغابات من كل صوب — والزوايا وجدوب ووطاويادي
لا سلام عليك ما شئت يوما — بانه البغي والاذى والسوادي
قد عرفناك للكرام عدو — ولكل الهداة من عهد عاد
اين منا يا ح صيد له يا ابن حرب — لا ابالي بالدم والاستعاد
وتعالي الغرين شيع منهن — تنادي اليوم آخر الاسياد
فهناك الشبول صقر وناب — لعداة العرين بالمرصاد
وهناك السيوف ما لهن حمد — يستطرن حز الجموع في الايجاد
يا عداة الطغاة في كل ارض — يا عداة الانذال والاوغاد
يا سفير الاحرار في كل حقل — يا لسان الاباة في كل نادي
متى تحدث قبل الرحيل الينا — عن بلادي وكيف كانت بلادي

ابي مالك احمد جاب الله

(١) حرب صفين المعروفة بين الامام علي عليه السلام ومعاوية
(٢) شهيد كربلاء الحسين بن علي — ابن زياد ابن ابيه قاتله قائد جيش يزيد بن معاوية
(٣) حمزة اسم علي — واسمه حرب معاوية بن ابي سفيان

عن ليالي المجزرة من بشأوف (٤) عن شبابٍ قضى بساح الجهاد

كيف تجبيع جرى ليروي عليانا من القلوب الدم على [illegible] صوادي

يوم كان الوطني [illegible] طاعة لدعاة الخنوع والانقياد

يوم كانوا الزنا يباع ويشرى رغم عز الإباء بسوق المزاد

ولبالي البيع [illegible] ها ذا سيبردي او يقول التاريخ للأحفاد

يوما صمنا بالشعب والشعب غاضب فوق شوك الهوان والاضطهاد

يوم هب [illegible] صوت حين نادت [illegible] المنادي

يوم شبت على الجنود فسالت وانطلقنا [illegible] الجياد

ووقعنا كلعبة الطفل [illegible] عمدا بين حشد من العدى [illegible] الأجداد

نحمل الدم [illegible] ولوا [illegible] والضحايا عشائرا ومبادي

ايها المحتل المقتل سرنا بين هتاف [illegible] الفوادي

فقضينا [illegible] جميعا [illegible] كان في المجد [illegible] الأرباد

فيك كل [illegible] وكل السجايا فيك كل الأمجاد والأمجاد

فيك [illegible] ومنار من سؤدد وسداد

فيك كل النضال فيك [illegible] علي " فيك [illegible] تاريخ [illegible] "

ثم قدرنا ابا الجميل [illegible] الرزايا [illegible] والرياد

في بغداد [illegible] مات [illegible] كبير " وعظيم [illegible] حيادي

ونبع البلاد [illegible] للجالسين [illegible] الأجياد

لم تقرنا [illegible] [illegible] بين [illegible] جواد

[illegible] هناك فالكل [illegible] [illegible] معادي

تنتخي الأمة [illegible] [illegible] بجنب وساد

---

(٤) [illegible] المعروف [illegible] محمود [illegible]

(٥) [illegible] في واقعة كربلاء [illegible]

مصادرة الابيات (١)

القيت بحفلة اقامها اهل [illegible] العاملي في مصيف [illegible]
على اثر عودتي من الطبع بعد غياب دام [illegible] سنوات

انا يا قومي غبت عنكم برهة ... وكذلك غابت عنكم اشعاري

واليوم جئت وقد تحول مفرحاً ... من حنح ليل حالك [illegible]

لكن بحمد الله ما استطاع النوى ... تغيير آرائي ولا افكاري

مازال حب الكادحين عقيدتي ... وبجهدهم ونضالهم ضد الطغاة شعاري

والشعر شعري لا يزال كعهده ... كالرعد كالزلزال كالاعصار

والعامل (٢) مازال قلبي مفعماً ... بالحب بالاجلال بالاكبار

هو موطني اهواه رغم شقائه ... وتحكم الاقطاع والاشرار

رغم اني عشت منه مطارداً ... من [illegible] الطاحون [illegible]

امسى [illegible] دمي ولا ذنب سوى ... اني من الشرفاء والاحرار

[illegible] شاعر [illegible] ... في [illegible]

[illegible] المنبر [illegible] على ... [illegible]

[illegible] ... [illegible]

[illegible] احكام الكتاب [illegible] ... [illegible]

[illegible] على اباة رجالهم ... [illegible]

[illegible] اليوم [illegible] كانوا [illegible] ... [illegible]

الا ارون [illegible] احلاد [illegible] ... [illegible]

الملتحون [illegible] فاقتحى ... [illegible]

الفلاحون [illegible] لا [illegible] ... [illegible]

الا [illegible] بباب كل مسيطر ... الا [illegible]

الحاملون الطائفية [illegible] ... للهدم في امتي في [illegible]

الا [illegible] وحدة موطني ... [illegible] العاطون [illegible]

---

(١) جبل عامل ... (٢) نشرت في جريدة الحياة

(٢) النبي محمد عبد الله

(٣) احد [illegible] علي

الوعد الذي شالت به ... القابه وبلاهة الاوغاد

... قامت على ... لغو من البطالة والاوغاد

على مرتلة المستشارين ولطشة ... وعلى رماح ... والانقضاد

وعلى وصولي على اخلاقه ... وعلى الضمير لصيغ [illegible]

اني رجعت الى الوطن وهذه ... مني لهم « صفارة الانذار »

مولوا لهم ولكل وغد خلفهم ... ولكل طبال لهم زمار

لا تفف بعد اليوم لعيشكم فقد ... آن الرحيل الى الجحيم والنار

أنا خصمهم ، سيظل شعري مصلتا ... بوجوههم كالصارم البتار

هم لا اليهود ولا الالى جاءوا بهم ... من ارضهم وديارهم للدار

عاد الرشيد منهم ما تشتكي ... من فاقة ... وحصار

ماعوه ... الرق رغم اباية ... لقبيلة الاشرار والدولار

... الذي هو سنة ... لهم وصمة عار

[illegible] ... مشفوعة بالصحب [illegible] والانصار

[illegible] ... والقطر [illegible]

ان المؤمن والمرجى في غد ... للاصنام [illegible]

[illegible] ... والجهل [illegible]

[illegible] لكل مفخم ... [illegible] الاحجار

ولكل طاغ [illegible] ... استعصى [illegible] الباري

جعلوا الاوثان [illegible] ... دون الورى [illegible]

[illegible] على اعناقهم ... [illegible] كالاطفار

[illegible] وما ... [illegible] الاشرار

ما صاح [illegible] في الحياة [illegible] ... [illegible] التوار

[illegible] في ظل المذلة والاذى ... في الدنيا وفي النار

[illegible] تشكوف طاغية الحاوي
هذه الابيات الاربعة الحقت فيما بعد

[illegible]
من ديوان [illegible]
[illegible]

بثينة ٨

ارسلها من المعتقل لزوجتي بثينة لابنتي بجده

بثينة ان سر الرفاق عشية ... بوصف الهوا (١) بعدي فلا تستطلعي

فتحكيه انى لست بالروح بينهم ... وعدنان او غسان (٢) في نزهتي معي

ولا تذكري يوم الفراق وموقفا ... وعاني كالمذهول ارنو ولا اعي

وانت تذيلين الدموع وانها ... لنار اللظى تلك الدموع باضلعي

فياليت قبل البين او قبل قطرة ... من الدمع من عينيك لاقيت مصرعي

ويا ليت صدري شق عما وراءه ... لشاهدت قلبا كالطريد المروع

— —

بثينة لا ادري أجفت مياهه ... ام اخضر من بعدي واورد مربعي ؟!

فلو انصف القندول فبان زهره ... ولو انصف الريحان لم يتضوع

ولو انصفت تلك السواجع في الضحى ... لبعدي على افنانها لم ترجع

أتنسى زميلا طالما هز دوحه ... بانغام فنان وانشاد مبدع

وهل نسيت تلك المرابع شاعرا ؟! ... اعاد لها بالشعر ايام مربع (٣)

وهل نسيت صوتا عاليا في ربوعها ... فدوى كقصف الرعد في كل مسمع

فايقظ منها نائما مستنيما على الاذى ... فهبوا كهوجاء من الريح زعزع

ودمر طغيانا عريقا بربعه ... تنقل من طاغ دعي الى دعي

يشرع جاه الله في كل بيوته ... زئير هصور او قذيفة مدفع

ففي كل بيت هدم ظلم وظالم ... وفي كل بيت هصور وخد مدمع

— —

بثينة لا يحزنك بعدي فانني ... هلال فاني كنت افتق مطلعي

ولا تطلبي مني دموعا فطالما ... تحدت صروف الدهر رؤية ادمعي

أأبكي كما يبكي الجبان تولها ... وفي جانبي يخفق جنان سميدع

ولا تعذلي الايام ان عض صرعها ... فتى لا ابالي خاض لجته المعي

بنو المجد اهداف النوائب فانظري ... أأخي الناس من غيرت الك موجع

وقولي لهذا الدهر اني كما ترى ... اشم فما شاءت صروفك فاصنع

(١) متنزه في بلدة بيت جبيل

(٢) ولدي

(٣) لقب من لقب المعروف جديد

فما اعتدت صفو العيش يوما ولا حلا ... طعامي ولا كاسي ولا لان مضجعي
نحن عشق العلياء نشقى ومن ابى ... فما هو الا زائف الحب مدعي
فأما علو دونه النجم رفعة ... وتاج فخار دونه اخشيد يوشع
وأما جهاد لا يهادن راحة ... فالقى كما يلقى الاكارم مصرعي

احلى من الحلى

ارسلت لابنتي نجدية ايضا من الجزائر

بنية ان غنت على الغصن في الضحى ... تزهر الربى والروض ابنة طائر
ففني فبنت الطير ابنة شاعر ... تغني وانت شعلا بنت شاعر
وكوني اذا كانت عروس خميلة ... عروس النوادي او عروس المنابر
لان هي عندها الجناح محلقي ... بطهر وخلق فاضل ومآثر
وبالعلم ان باهت فتاة بحسنها ... وبالشعر والاداب باهي وفاخري
وحلي بنت العصر شرا وفتنة ... وبراقه عقد زائف [illegible]
اري العلم احلى لفتاة من الحلى ... وابهى لا من جوهر والاساور
واحسن للحسناء من حسن وجهها ... واصون من ابرادها والمآزر

سماحة الافذاذ

نظمت هذه الابيات ١٩٧٩ في افريقيا حيث كنت معتقلا [illegible]
عند بايندرو وطن

عجبا حضارة للطلى والكاس ... يا وارث الخيام والنواسي
اي الشيوخ عليه حرم شربها ... فالشيوخ وشيخ حماس
فاجبتهم ما شئت من فتوى ولا ... كان الشيوخ وناسهم من ناسي
بل شئت عنه رغم انني عندما ... حييت شطر "سماحة الافذاذ"
هذا الذي وانا الذي لحكمه. ... لا كاتب كالولد الحديد راسي

كنت الوفي

كتبت في ٨ شباط ٩٥٩ والقيت في النادي الكبير
في حفل جميل بالحفلة التأبينية التي اقيمت للعم والوالد
المرحوم عقيل شاكر "ابو [illegible]"

قتل الردى ما شئت لو قتل الردى — نفسي وما ملكت يداي لك الفدا

يا امة بالمكرمات وبالتقى — ثكلت – لو تدري – العلى والسؤددا

كنت المنارة يهتدي بسنائها — من ضل درب الخير او درب الهدى

آه لو ان الآه تجدي ثاكلا — او تجدي من فقد الحبيب الاوحدا

لملأت هذا الكون بالآه التي — تدمي الحشا وتذيب حتى الجلمدا

~~[illegible]~~ — ~~[illegible]~~

يا ليل ث طرفي الفجيعة والاسى — فلقد فقدت العابد المتهجدا

من كان يسهر مع نجومك ~~[illegible]~~ ارقاً — حتى الصباح – مسبحا ومجددا

العدل ان يقضي الحبيب كما ترى — واظل مع هذي النجوم مسهدا ؟!

— — —

يا سيدي وسواك في دنيا الورى — وعلاك – ما نادرت يوما سيدا

كيف السبيل ؟! الى لقاك فلتقني — ربما الزمان محدد لي بعد موعدا

واعذر اذا استطلت بعدك للاسى — رغم الابا – وجعلت حزني سرمدا

ضاقت علي الارض ضاق فضاؤها — اضحى بوجهي الكون بابا موصدا

ما كان موتك موت فرد في الورى — بل كان سهما للصلاح مسددا

كنت الوفي كما عهدت بصاحبي — حاشاك – بل كنت الوفاء مجسدا

من شيب رأسي مثلك ان يتمنى ذا القضا ؟! — عني انا الحي وجبي للمصاب ويبدأ ؟!

وسواك من آسي جراحات الحشا !! وانا – ابن سيتا – لا ازال مضمدا

وانا اظل بوجه الطفولة برقعا — كالليل – لشد الذاهب – اسودا

(١) لقد توفي المرحوم والدي سنة [illegible] وانا في السادسة من عمري ولكن المرحوم صديقا [illegible] فاحتضنني
وربانی وعني بي [illegible] الامر الذي تركني [illegible] الشعر [illegible] اليتم وقسوته

وقريبهم [illegible] وأمر بدا ... وجه [illegible] [illegible]
عبثاً كأمل [illegible] ... طيبه ولا [illegible] القوم [illegible]

يا سيدي، هذا الفؤاد أذيبه ... شعراً [illegible] في [illegible] كَذْرا
ثم [illegible] بجناح [illegible] شاعراً ... بالباقيات الصالحات [illegible]
ودع [illegible] [illegible] ... [illegible] [illegible] المتعبدا
مالي [illegible] [illegible] [illegible] ... أو عاذلاً [illegible] [illegible]
وحدك ما قال شاعر [illegible] ... [illegible] [illegible] الموت [illegible] !!
مالي النوح فلم يزل عاقلة ... بفم الإباء [illegible] [illegible] ؟!
إن [illegible] [illegible] [illegible] ... [illegible] [illegible] [illegible] ما [illegible]
مالي النوح [illegible] [illegible] ... [illegible] دعوى الشعر المقترا ؟!
من [illegible] [illegible] الطغاة [illegible] ... [illegible] [illegible] [illegible] مجردا
و[illegible] [illegible] [illegible] ربّا ... هذا [illegible] [illegible] [illegible]
لا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ... [illegible] [illegible] [illegible]

أألام يا [illegible] إذا جل [illegible] ... [illegible] بالفؤاد [illegible] ؟!
هل [illegible] الإيام [illegible] سيفاً ... هل [illegible] [illegible] [illegible] ؟!
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ... [illegible] [illegible] [illegible] تجلدا

زخرج الوهم

جوابا على قصيدة بهذه القافية [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]

لا تكلني لسيف عودًا لتمشي — لا ورث مجنون والرحمتين
ان قلبي [illegible] عرفته [illegible] — [illegible] ما هم [illegible] الجيش
كيف [illegible] وقت [illegible] — [illegible] الوداد [illegible]
[illegible] لا [illegible] كما [illegible] — [illegible] في الشباب [illegible]
قدم [illegible] كنت [illegible] — كنت روحي وكنت قرة عيني
كنت اهوى [illegible] [illegible] — [illegible] بجانب الفرقدين
[illegible] [illegible] — [illegible] تحية [illegible]
[illegible] [illegible] — [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] تدري — على ذل [illegible]
[illegible] الرفاق او [illegible] — [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] — [illegible] [illegible]

[illegible] الفؤاد [illegible] — [illegible] عالقًا على [illegible]
[illegible] [illegible] — [illegible] الشباب [illegible]
كنت اهوى [illegible] — [illegible] رجال [illegible]
[illegible] [illegible] — [illegible](٣) [illegible]
[illegible] [illegible] — [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] — [illegible] [illegible]

(١) الوطوطة
(٢) اشارة لقصة احد قادة الحركة الوطنية في [illegible] وهو [illegible]
(٣) الشيخ المعمم يقال له عالم في [illegible]

خلني سائرًا بهدي ضميري
خلني ثائرًا على السلطتين

١ لا تردي مذبذبًا وجبانا
او ذليلا معفر الخدين -

٤ رحت يا ام [illegible] فؤادي — لن تكفيني اذا [illegible]
٥ زخرج الوهم عن عيونك واقتل — [illegible] / الجمهور [illegible] الحسانين"
٦ الف موت ولا يقال جبان — او مراب [illegible] في [illegible]
٧ طالما الشعب / [illegible] عدتي وسلاحي — سوف اقوى واقهر القوتين
٨ طالما الشعب / [illegible] مركبي وشراعي — سوف انجو واقطع اللجتين
٧ انا آليت لا اهادن وغدا — في بلادي ولو بذلت جبيني
م انه يكونوا "يزيد" جوشا فاني
حامل في الضلوع نفس "الحسين"

٩ لبلادي دين على قد عنقي
سكرام الرجال ادفع ديني

لائحة بالاخطاء

الخطأ	الصفحة	رقم السطر	الصواب
كفئاً	٧	٧	كفوْاً
عَكَا	٨٣	١٩	عكا
إلاَ	٨٥	٢٠	إلاّ
في سنة ١٩٠٢ توفي المرحوم والدي	٨٦	١٢	١٩٠٨
متهورَ أو متعصبَ أو عميل	١٠٨	١٣	متهوّرٌ أو متعصّبٌ أو عميلٌ
ضحيةِ	١١٨	٥	ضحيةً
موسى زين شرارة	١٢٢	١٠	موسى الزين شرارة
عليةَ القوم	١٢٨	١٦	عليةُ القوم
الاذاعة المنتقلة	١٤٣	٨	الاذاعة المتنقلة
ممارساتَ يجبَ ان تصدر	١٤٨	١٠	ممارساتٌ يجب ان تصدر
والاخلاق والقَيما	١٥٢	٢٢	والأخلاق والقِيما
كانت العيونَ مغمضةَ	١٥٤	١٣	كانت العيونُ
يحاولَ ان ينظِر	١٦٦	٢٣	يحاولُ ان ينظر
يستثمرون كل شيئ	١٦٩	١٦	يستثمرون كل شيء
لا تقاوم مَخرزاً	١٧٤	٢	لا تقاوم مخرزاً
أحبَ الناس	١٨٢	١١	أحبِّ الناس
وتزمّتَ بعض الرجال الدين	١٨٢	١٢	وتزمّتِ بعض رجال الدين
في صفاء تفكيره وبعد نظره	١٨٤	٩	في صفاء تفكيره وبُعد نظره
الموقف الاجتماعي	١٨٤	٢٣	الموقع الاجتماعي
أتيتَ تطلب	١٨٩	١٥	أتيتَ تطلب
ببِرقع	١٩٠	١٧	ببُرقع
نحمد اللّهُ	١٩٣	١٧	نحمد اللّهَ
يا شيخ	٢٢٢	٧	يا شيخُ
أنا ـن	٢٢٢	٩	أنا مَن
سـ ف	٢٢٢	١٠	سيف
سـ ئل	٢٢٢	١١	سائل
ناز تهم	٢٢٢	١٢	نازلتهم
وغـ وتها	٢٢٢	١٩	وغزوتها
غـ ري	٢٢٢	آخر سطر	غيري
أسمعته	٢٢٣	١٦	أسمعتُه
وظلمها وجورها	٢٣٠	١٧	وظلمُها وجورُها
أثامي	٢٤٧	١٩	آثامي
فلْنندب فلسطين	٢٥٩	١١	فلسطينا
وارتِجل	٢٦٠	١٠	وقِف وارتجل
كل شيءِ	٢٦٢	١٢	كلّ شيء
ونام	٢٦٧	١٩	ونَنام
تعبيراَ	٢٧٥	١٦	تعبيراً
متاعِب	٢٨٠	٥	متاعبَ
يقبِل	٢٨٧	١٢	يقبِّل
فنورت	٢٨٧	١٦	فنوّرت
فلاوون	٣٦٤	٢٢	قلاوون

الطباعة: دكروب للطباعة ش.م.م.

ملحق بالأخطاء الواردة

(١)

الخطأ	الصفحة	رقم السطر	الصواب
في ذلك الزمن	١١	١٣	في ذلك الزمن
رأوظ	١٧	٢١	مرواظ
أراضي	٤٢	٢٠	أراضٍ
أراضي	٢٣	٩	أراضٍ
راحو	٥٢	١٢	راحوا
للراي	٥٢	١٥	للرأي
المتوفي	٥٣	٥	المتوفَّى
بمبدأ	٥٤	١	مبدأ
عزيز ونور	٥٩	٣	عزيزٍ ونورٍ
أستياءً	٦٨	١	استياءَ
الحُكم	٦٨	١٢	الحكَم
القِس	٦٨	الأخير	القَسّ
ليشقّه	٧٠	١٩	ليشقّهُ
خُطط	٧٠	آخر الصفحة	خِطط
هذه	٨٢	٩	ضدّه
وأكتبه	٨٧	١٥	واكتبه
لأن	٩٥	٩	لأنفا
رغبةَ	١٠١	٦	رغبةً
منزلةً رفيعةً	١٠١	١٣	منزلةٌ رفيعةٌ
مراحل	١٠٥	٧	مراحل
آلئلا	١٠٦	٢٣	لِئلّا
مسيحي	١١٤	السطر الأول	مسيحيي
إذ أنّ	١١٥	٢٠	إذ إنّ
تلملمَ وتمسحَ	١١٦	١٤	تلملمُ وتمسحُ
أن تترك	١١٧	٤	أنْ تتركَ
قاسمةً	١١٧	السطر قبل الأخير	قاصمةً
القُطاسي	١٢٥	٦	القَطاسي
طموحاتها	١٢٦	٦	طموحاتي
جزءُ	١٢٨	١١	جزؤهُ
دثلت	١٣١	الأول	دلّت

الخطأ	الصفحة	رقم السطر	الصواب
يُنفذنهم	١٣٧	قبل الأخير	يُنفذهم
تفخرَ	١٤١	٢٠	تفخرُ
لفرحٍ	١٤٢	٥	[illegible]
وصلتهم	١٤٩	١٩	وصلتُهم
كبْر	١٥٠	١٩	كِبَر
جثته	١٤٦	١٨	جثّةً
تُهدي	١٤٨	١٨	تَهدي
شجاعتهم	١٥١	١٨	شجاعاتهم
وثاقنا	١٥٣	١٢	وَثاقنا
حرمانهم	١٦٧	١٨	حرمانهم
وطمع	١٦٩	٢	وطمعٍ
هذا السن	،	٦	هذه السن
متعثر	١٧٢	آخر سطر	متعثّر
شُميذع	١٧٥	١٥	شَمَيْذَع
العلياء	١٧٥	قبل الأخير	العلياءَ
مستشرها	١٧٨	٢٠	مستشرهًا
السنة	١٧٩	٢	السنة
نغذرهم	١٧٩	١١	نعذرُهم
الطيبين	١٨٥	٤	الطيّبين
همت	١٨٦	٢١	همّت
ذكراك	١٨٧	١٤	ذكرك
وحة	١٨٨	١٤	فتحة
أتيتُ	١٨٩	١٥	أتيتِ
الروائح	١٨٩	١٧	الرواكي
القحبت	١٩٠	٢١	القحبت
لظى	١٩١	٧	لظى
أحمرة	١٩١	١٢	أحمرةٌ
خوذته	١٩٤	٨	خوذتُه
لتنفعه أدكسه	١٩٤	١١	لتنفعه أدكسه
سريًا	١٩٦	٢٠	سريًا
حرك	١٩٦	٢١	حرّك
مقام	١٩٨	الأول	مُقام
تراجعين	٢٠٠	٦	تراجعين
ومشتركة	٢٠٢	١٤	ومشتركة
وتعليمه	٢٠٣	١٦	وتعليمه
إنك	٢٠٥	٧	أنّك
الشيء	٢٠٦	٤	لكا
الفارية	٢٠٦	٥	النارية
تثلثه	٢٠٦	١٩	تتلكّب
بمرادة	٢٠٨	٧	بمرادة

الخطأ	الصفحة	رقم السطر	الصواب
حلة	٢٠٨	١٠	حُلَّة
حلكة	٢٠٨	١٢	حُلْكَةً
حماسا	٢١٠	٣	حماسةً
فإنك	٢١٠	١٨	فإنَّكَ
الكرسي	٢١١	السطر الأخير	الكرسيّ
الغزلية	٢١٢	٤	الغزليتين
غير	٢١٣	١٥	غَيْرَ
تسبي	٢١٥	١٧	تَسْبِي
دجنة	٢١٧	١٣	دُجُنَّة
الفظاظة	٢١٩	٣	الفَظاظة
افسقوا	٢١٩	١٣	اُقْسُوا
عدقي	٢٢٥	١٦	عدّقي
بأيادي	٢٣٠	٢٠	بأيدي
فكرتم	٢٣٢	الأول	فَكَّرْتُمْ
	٢٣٣		آخر سطر وآخر كلمة (سقطت الكلمتان)
بيده	٢٣٤	٤	بأيديهم
ابتسامة	٢٣٤	١٢	ابتسامةٌ
كل	٢٣٤	٢٣	كُلَّ
روضة	٢٣٨	٧	روضةً
مناكفا	٢٣٩	١٨	مناكبها
شتعا	٢٣٩	١٦	شُتَّعاً
القضاة	٢٤١	ما قبل الأخير	القُضاةِ
للكنهم	٢٤٢	٣	ولكنهم
سكرانا	٢٤٤	٥	~~سكران~~
داله	٢٤٦	١٨	دالّة
ونيره	٢٤٨	١١	ونَيِّرة
جزت	٢٤٩	قبل الأخير	جُزْتُ
عنيث	٢٥٠	٤	عانَيْتُ
جواد عبد اللطيف	٢٥٥	٤	جواد عبد اللطيف
مستعمر	٢٦٨	١٤	مُستعمِر
يقظه	٢٧٣	الأول	يقظة
مضيون	٢٧٥	١٠	مضمون
ومعطلة	٢٧٧	٢٠	ومعطّلة

الخطأ	الصفحة	رقم السطر	الصواب
التيالي	٢٨٧	٥	الليالي
الزهر	٢٨٧	١٦	الزُّهُر
٥/٢٤ ١٩٩٠	٢٩١	١١	٢٤/٥/١٩٩٠
كل جبل عامل	٢٩٢	٧	كل جبل عامل
تجلت	٢٩٧	٤	تجلّت
استجن	٣٠٠	٩	استُجِنّ
حلاوة	٢٦٠	٣	حلاوةٌ
الأدب	٢٦٠	٣	الأدبُ



إحسان شرارة

- ولد في بنت جبيل ١٩٣٦
١٩٤٨ أنهى الدراسة الابتدائية في مدرسة بنت جبيل الرسمية.
١٩٤٩ في كلية المقاصد الإسلامية في صيدا.
١٩٥٠ - ١٩٥١ في الكلية الجعفرية في صور حيث حصل على شهادة البريفيه.
١٩٥٢ الدخول الى دار المعلمين في بيروت.
١٩٥٣ شهادة البكالوريا القسم الأول.
١٩٥٤ تخرج من دار المعلمين وعين مدرساً في بنت جبيل.
١٩٥٦ نقل الى ديوان المحاسبة ثم أعيد الى وزارة التربية.
١٩٥٧ تابع دورة تدريبية في علم النفس التربوي لمدة سنة في دار المعلمين في Grenoble (فرنسا).
١٩٥٨ شهادة الفلسفة اللبنانية.
١٩٥٩ عين مساعداً قضائياً في بيروت
١٩٦٠ درّس مادة اللغة العربية في الصفوف التكميلية والثانوية في ثانوية ابن سينا حتى سنة ١٩٧٢.
١٩٦١ إجازة في العلوم المالية والإدارية (من المعهد المالي - وزارة المالية).
١٩٦٢ عُيّن أميناً معاوناً للسجل العقاري في زحلة بعد مباراة أجراها مجلس الخدمة المدنية.
١٩٦٣ إجازة في الحقوق من الجامعة اللبنانية.
١٩٦٤ نُقل الى بيروت لنفس الوظيفة.
١٩٦٥ عُيّن رئيساً بالوكالة لدائرة أملاك الدولة، بالإضافة الى وظيفته.
١٩٧١ إجازة تعليمية في الأدب العربي من الجامعة اللبنانية.
١٩٧٤ عُيّن أميناً مركزياً للسجل العقاري (فئة ثانية) في قضاء المتن الشمالي، وبقي حتى إحالته على التقاعد سنة ٢٠٠٠.
- عضو في اللجنة المكلفة باقتراح تعديل القوانين العقارية (مديرية الشؤون العقارية).
٢٠٠٢ رسالة دبلوم في الأدب العربي من جامعة INALCO (باريس).